الشيخ أمين الحواط

فلسفة الغلوّ عند العلويين







دار المحجة البيضاء

فلسفة
الغلوّ عند العلويين

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

ISBN: 978-614-426-723-3

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail: almahajja@terra.net.lb
info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com

فلسفة
الغلوّ عند العلويين

تأليف

الشيخ أمين الحواط

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يعدُ الغلوّ سمة مميزة لطائفة «العلويين» الذين يقطنون الساحل السوري وجنوب تركيا ووسطها، وهم طائفة قلما كتب أفرادها عنها بصراحةٍ لإزالة اللبس حول عباداتهم، وذلك له أسبابٌ كثيرة أذكر منها أهمها وهي:

أولاً: أنّ السريّة سمةٌ مميزةٌ لها، فالغلو مرتبط مع «الأسرار» ارتباطاً يأخذ طابعاً براغماتياً وإيديولوجياً يصبح فيه التخلي عن السريّة تخلياً مطلقاً عن الدين.

ثانياً: أنّ للغلوّ أشكالاً كثيرة فالغلاة متفقون على السرية والغلوّ ومختلفون على شكل هذا الغلوّ.

ولما كان اختلاف الغلاة مدخلاً لتفاوتٍ في الآراء والمعتقدات والتقاليد والأساليب، حدثت انقساماتٌ كبيرةٌ بين طائفة الغلاة العلويين.

ونتج عن تلك الانقسامات شقاقٌ طويل الأمد، وكان لا بدّ لأحدٍ من أن يحسمه، ولكن الحسمَ في ظروفٍ سريّة معقدة يكون مستحيلاً أو أصعب من المستحيل.

وتخبّط القوم بنزاعاتهم فقام زعماؤهم بنقل هذه النزاعات الى حيّز الفلسفة، وكان هذا باب لدخول عمالقة الفكر إلى هذا الصراع، ومنهم

هذا المؤلف الذي تصارع مع الكثيرين حتى وصل به الحال إلى الهرم فقرّر أن يصرّح بما اعتقده ورآه، وأن يدلّ على ما شغل باله وخاطره فتيقنه وآمن به ودافع عنه.

ولعلّ القارىء ـ غير العلوي الغالي ـ لا تروق له فكرة الغلوّ إطلاقاً، سيّما أن الغلوّ بالأئمة عليهم السلام لم يحظ بالتأييد حتى من الأئمة الذين نبذوا هذه الفكرة، فطرح الكاتب فكرة الغلو من منظورٍ فلسفي بحت، وله الحق بإبداء رأيه، وللآخرين الخيار بتقبله أو برفضه.

ثم إنه عالج متشعبات الغلوّ وهي أمورٌ ترافق أفكار الغلاة أينما ذهبوا، وهي القول بالتناسخ والهبطة وغيرها... ولا أحد يعلم لم ارتبطت هذه الأفكار مع الغلوّ، أما الهبطة فيمكن تبريرها عند من هم ليسوا بغلاة، وأما التناسخُ فهو فلسفةٌ عريقة عند الوثنيين، ولا يمكن حتى الاعتماد على العلم الحديث لتبريرها، لأنّ العلم الحديث عجز عن معالجة مسائل الروح.

ولذا فمن الأفضل علينا أن نستمع إلى تبرير الشيخ أمين لمعتقده، وهو يدافعُ عنه بمنطق المهاجم الذي يدّعي التجرد عن كل شيء إلّا عن ـ الحقيقة ـ ليصل إلى مطلوبه، وقديماً قيل «كلٌّ يغني على ليلاه».

أما القول بنجاح هذا الشيخ أو فشله في إثبات معتقده العلوي أو دفاعه عنه فهو أمرٌ يتعلق بالقارىء ويخصّه وحده، ولن أعكّر على القارىء هذه المتعة، ولكني اعتبرت أن قراءة الكتاب مرة واحدة لم تكفني عندما اطلعت عليه للمرة الأولى فأعدت قراءته حتى استطعت أن أصلَ إلى مرماه فوجدتهُ قد تجرد فعلاً حتى عن معتقده ليناقشه من بعيدٍ، والقلوب أقفال فمن فتح الله قلبه هيهات لأحدٍ إقفاله.

بن ميمون

المدخل

ولدت ونشأت في أسرة عربية محافظة تتمتع بسجايا عربية أصيلة، ومن هنا رحت أحب العزلة عمن لا أراه منسجماً مع أطوار الأسرة التي أنتمي اليها في أيام دراستي وبعدها.

وقد يكون لتلك العزلة فضل، حيث كنت أشغل فراغي بقراءة أي كتاب يقع في يدي، أو أحصل عليه من هنا وهناك، وقد صارت لي هواية كبيرة في المطالعة وحب الاطلاع على كل شيء من هذا النحو.

وكثيراً ما كنت أسمع المرحوم والدي ينشد ويردد بيتاً من الشعر هو:

إنما العلم كبحر زاخرٍ فاتخذ من كل شيء أحسنه.

وكأنه ـ رحمه الله ـ كان يردده أمامي أحياناً وقصداً، فيقع في نفسي موقع الحافز المغري بالمطالعة المستمرة.

ولا يغرب عن البال، أنني لم أكن أفهم كل ما أقرؤه، ومع هذا كنت أكتب في دفتر خاص كل ما يروق لي أسلوبه أو معناه حسب تقديري ومعرفتي به آنئذٍ، شعراً كان أو نثراً.

وكم من خبرٍ أو حديثٍ أو روايةٍ أو قصيدةٍ سجلتها هواية دون أن أسبر مقاصدها ومغزاها؟

وهكذا صار لدي هواية التسجيل للحفظ والمناقشة فيه والنفع منه، وما بلغت ما بلغت من العمر الآن حتى كان لدي من الدفاتر والأوراق والمذكرات مجموعة كبيرة ملأى بالأخبار والروايات والأحاديث والأشعار، منها ما أحفظه، ومنها ما ليس له في ذهني مكان، ولا في ذاكرتي نصيب، فهو مطوي بطي النسيان.

وربما من باب الصدفة تذكرت تلك الدفاتر والأوراق القديمة، فأحببت أن أفتش عنها وأجمعها، ثم أنظر اليها وفيها للمتعة والتسلية، ولما قرأتها وجدتها تتضمن ثروة قيمة من الأدب والثقافة والعلم فيما لو جمعت ورتبت بمواضيع وفق ما تنطوي عليه من مقاصد وأهداف.

وقد جرني مضمون هذه الدفاتر والأوراق إلى ماضٍ يتراوح زمنه بين الخمسين والستين عاماً، وأن أمايز بين ذلك الزمن وعصرنا الحاضر، وبالأحرى بين ما كان عليه النشء أو الشاب المسلم من المحافظة والتدين والاعتقاد والوعي والتحابب والأخلاق، وما هو عليه الآن من فوضى فكرية وتطرق وانحراف وتردٍّ في الأخلاق والدين.

وعساك معي أيها القارىء الكريم: إذا قلت: إن ما آل إليه الشباب المسلم من فوضوية أو فساد في العقيدة وميوعة، يدعو إلى الحزن والألم والكآبة.

ولا يخطىء من يقول: إنهم أشبه شيء بأبناء العصور السالفة التي لم تتأثر بدعوات ورسالات سماوية، وربما لا يخلو الأمر من أسباب أهمها - كما عدها البعض-:

تطور العلم والحضارة الغربية وما فاجأتنا فيه من أنواع المادة والصناعة قبل أن نعيه وعياً ناضجاً.

طغيان المادة على البيت والأسرة وعدم عنايتهما بالأخلاق والدين والعفاف[1].

عدم عناية الآباء بالأبناء وتربيتهم تربية أخلاقية سليمة كما يتطلب الإسلام.

جهل الأمهات بالطرق التربوية، وأكثرهن أميات.

تعدد المذاهب في الإسلام ووجود أصحاب كل مذهب يطعنون بالآخر.

ما حمله التاريخ لنا في طياته من أخبار وأحاديث موضوعة ومشوهة ليس لها حقيقة.

ما رآه ويراه الشاب ويسمعه من ذويه وأقاربه وتاريخه وزملائه ورفاقه من أحاديث وتأويلات لم يأت بها الشارع ولا أصحابه الأفاضل من أهل العصمة.

---

(١) قال الشيخ محمد عبده (المصري) في كتابه (أضواء على السنة النبوية) في صدد الحديث الموضوع - المنسوب إلى الرسول ﷺ كذباً، قال: إن له أسباباً، أحدها وأهمها: ما وضعه الزنادقة والملحدون اللابسون لباس الدين والإسلام غشاً ونفاقاً، وقصدهم: افساد الدين والفرقة بين المسلمين.
الثاني: الوضع لنصرة المذاهب في أصول الدين وفروعه لأن كلاً منهم كان يضع الأحاديث لنصرة مذهبه وإليك بعضها: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة وهو سراج أمتي.
فأخطرت الشافعية أن يصنعوا حديثاً مقابلاً هو: (قال رسول الله ﷺ: أكرموا قريشاً فإن عالمها يملأ أطباق الأرض علماً). فوضع أصحاب مالك: (يخرج الناس من المشرق إلى المغرب فلا يجدون عالماً أعلم من أهل المدينة).
الثالث: الفضلة عن الحفظ اشتغالاً عنه بالزهد والانقطاع للعبادة، وهؤلاء يحسنون الظن ويحسبون الجرح غيبةً ولذلك راجت عليهم الأكاذيب وحدثوا عن غير بصيرة ولا معرفة.
الرابع: قصد التقريب من الملوك والسلاطين تقرباً منهم للدنيا.
الخامس: الخطأ والسهو، ومنهم من ظهر له الصواب فلم يرجع اليه. المؤلف.

الأفلام الإجرامية والجنسية الغربية والأمريكية التي تعرضها السينما والتلفزيون رغم ما فيها من أذى وجراثيم تعفن الأخلاق وتمرض النفوس.

العادات والتقاليد التي لا تتماشى مع العصر الحاضر ولا مع الحقائق التي جاء بها الإسلام، إلى غير ذلك من اسباب سنذكرها فيما بعد.

مع أن ما ذكرناه كافٍ أن يميل بالشباب نحو الانحراف، ويعدل بكثير غيرهم عن الجادة، فالمادة - كما ترى- طغت على الجميع فحرفتهم عن المستوى الإسلامي، زد على ذلك ما تحمله عصابات الاستعمار والصهيونية والإلحاد من معاول لهدم الأديان والمعتقدات السماوية تحت ستار الحرية والتطور العلمي ليتسنى لهم الوصول إلى أهدافهم ومآربهم، فقد كاد سوق الأفكار والأخلاق النبيلة يخلو تقريباً إلّا من بضائع الفوضوية والميوعة والإلحاد أو اللامبالاة، وهي البضائع المعروضة.

ولا غرو أن مثل هذه الأسباب تجد في نفوس الشباب أرضية خصبة تنبت بالشك والفوضى وتتجاوب مع أحلامهم وغرورهم، وتدفعهم إلى المروق من الدين والخروج على ما أتى به الكتاب والشارع العظيم.

ولا أقول باطلاً، إذا قلت: إن مصير شبابنا، وهم على ما هم عليه من المراهقة واللامبالاة - إلى الضياع والضلال.

وأي مسلم مؤمن عاقل يرضى بهذا المصير، أو لا يتألم له؟

بل على هذا المسلم أن يعمل في سبيل إنقاذه بكل ما يستطيع عملاً بالحديث الشريف القائل: (من رأى منكم منكراً فليقوّمه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان) وبعدئذٍ يكون قد أدى ما عليه من واجب، قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد جمعت من تلك المذكرات الآنفة الذكر، ومما يليق جمعه خارجها من معلومات كتاباً منسقاً يصلح أن يكون هدية صالحة إلى شبابنا المعاصر، والى من يهمه الاطلاع على الحقائق التي يجب انتهاجها وسميته : الطريقة لمن تهمه الحقيقة.

وأظنني ابتعدت عن التعقيد والتقليد غير الملائم للعصر والتطور والذي لا يراه الإسلام ملزماً، فلا لبس و لا إيهام، بل فتحت الباب على مصراعيه ليكون ما بالداخل واضحاً ومكشوفاً يستطيع الداخل اليه أن يرى كل ما فيه من نفع وحطام وآثار، فيختار ما فيه النفع والحاجة والخير، ويستبقي ما لا يلزمه، أو ما يراه ثقلاً لا نفع فيه ولا خير، ويميز بين ما يصح خزنه وبين ما يجدر به الهجر والعفاء، ولا يصلح للحفظ والبقاء - يأخذ ما هو أقرب للروح والخلود، ويترك ما حري بالفناء والدثور.

وقد قسمت الكتاب إلى بحوث خمسة ولكل بحث منها عدة موضوعات، تناولت في كل موضوع ما يلزمه أو بعض ما قيل فيه وحوله من حجج وبراهين نقلاً عن فلاسفة وعلماء قدماء ومحدثين ماديين وإلهيين، وجعلت لهذه البحوث مقدمة ربما أسهبت فيها لتكون أكثر وضوحاً وطريقاً لاصباً يصل بالقارىء إلى كل بحث من تلك البحوث مطمئناً إلى معرفتها والى القصد من مضامينها قبل الدخول اليها، فكان البحث الأول:

* اثبات الصانع الأول: عن طريق النقل والعقل والعلم والفلسفة...

* البحث الثاني: فيما قيل عن مذهب التجلي وحجج القائلين فيه....

* البحث الثالث: فيما قيل في الجبر والاختيار والكسب، وفي القضاء والقدر والخير والشر...

* البحث الرابع: فيما قيل في نظرية التناسخ قديماً وحديثاً وباختصار..

* البحث الخامس: موجز في معرفة العقل والنفس ومما قيل في ذلك..

أما لماذا اخترت الموضوع الأول بالذات وقبل غيره، فذلك لعدة أسباب أبرزها:

أولاً: إن العصر الحاضر المتطور يميل بالنفوس - كما ذكرنا سابقاً- نحو المادة التي لا تعترف بالمثالية الدينية، ولا بالوحي الذي جاءت به الرسل في كتبها السماوية فقد كان يذهب بشبابنا المسلم إلى الإلحاد المستمر مستنكرين كل ما وراء المادة من عالم الغيب.

فإذا استقر ذهن الشاب وجود خالق صانع ثبت عنده ما وراء المادة.

ثانياً: أما المواضيع الأخرى فهي مجرى حديث وبحث ونقاش في عالم الفكر قديماً وحديثاً وبخاصة في عالم الفكر من العلماء والفلاسفة والأدباء والمثقفين المعاصرين.

فإذا وضحت متناقضاتها ومعالمها في الذهن تكون بدورها الديني والذهني مساعداً قوياً للباحث والمطلع والمناقش، وربما كانت منقذاً للفكر من التردد أو التردي في وهدة الفوضى واللامبالاة، وكل من هذه المواضيع له علاقة بالآخر مغزى ومعنى وارتباطاً بل كلها تقرر وجود عالم الغيب.

فإذا خرج القارىء منها بحصيلة مرضية ومقدمة وصل إلى استقرار تام في نفسه وفكره وضميره.

ولا أنكر القارىء أنني ترددت كثراً حول الكتابة في هذه المواضيع

خيفة من الانزلاق غير أنني اتكلت على حسن النية والقصد، مع علمي أنه يتردد على أذهان الكثيرين ما حاولت إبرازه، ولا سيما أذهان الشباب، فعلمت أن السلامة مضمونة والعاقبة سليمة، ومن الله العافية. وأنا جد عارفٍ أن مثل هذه البحوث يتطلب جهداً وانتباهاً كبيراً، والوصول إلى النتيجة محفوف بالمكاره، والطريق شائكة، ولكن النية -كما قلت- حسنة، والقصد نفي، وهذا ما جعلني أطمئن على النتيجة التي أرغبها لي ولمن أكتب لهم حاضراً ومستقبلاً.

وعلى القارىء الكريم أن يناقش ما يراه، ويأخذ ما يحلو له وينفع، فقد أقدم له مائدة عظيمة عليها الكثير من الأنواع، فليتناول ما يروقه ويستحسنه، ويطمئن إليه لذة وصحة، فلم أدخل عليه خصماً يجادل، وإنما أعرض له وأستعرض مما قيل من نظريات وآراء الفلاسفة والعلماء والمتكلمين قدماء وحديثين، ومن نصوص الكتب السماوية والدعاة والهداة،و مما يتفق مع وجهة نظر الإسلام وما يناقضها، ومع وجهة نظر كل من أصحاب مذاهب الإسلام.

وعلى القارئ بعدئذٍ أن يوازن بين رأي وآخر، ويأخذ بالصحيح الذي يراه منهما صحيحاً وواضحاً. واني أكتب ما أكتب ليقرأ وينفع، فإذا أسهبت في بعض المواضيع فقد تكون الحاجة دعت، وإذا تواثبت في بعضها الآخر، فخوفاً من الشأم أو لغناها عن الإسهاب وحرصاً على الإيجاز أو لأن الموضوع ليس جديداً على القارىء الملم بالأخبار والرواية والحديث.

وإذا كان بعضها جديداً على الشباب أو على بعضهم فقط، فإن ثقافتهم قادرة وكفيلة باستنباط الحقيقة المتوخاة.

قد جاءت البحوث مشحونة بالنقل قليلة التعديل، ذلك ليكون الرأي

للقارىء أولاً وأخيراً، وبغية المقارنة والتمييز بين الحق والباطل، والغث والثمين، والحسن والقبيح، وكلها -كما أرى- لا تخلو من وصف واضح للحقيقة وهي (تناديك على بعد) لمن يريد أن يتجاوز حرث الدنيا إلى حرث الآخرة. ومهما كان من طغيان المادة إلى الأفكار وتأثيرها على النفوس، فإن للقلوب خفقات قد تتعرض لنفحات قدسية تحييها مثالية الروح وصفاؤها فلن يتقطع ما بينهما وبين الله من عرى وأسباب. وإني على يقين أنه لن يلقي كتابنا هذا وراء ظهره من يختلج في قلبه خفقة من روح الإيمان بآخرته أو يعمل لنفسه وإسلامه ودينه وآخرته وليس من صالح أحد أن يبيع آخرته بلذة عاجلة، وخلوده بدنيا فانية وإنه الموفق والهادي.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على خاتم رسله سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً. وبعد:

إذا كان الذي يفترض على الإنسان افتراضاً أو تقليداً أو استسلاماً بدون تدقيق فكري وعقلي ومعرفة. فإن الفلسفة لا تقنع إلّا بالتجربة والبرهان[1].

فهي تقول: كل شيء بدليل وبرهان.

لذلك قال الفلاسفة الإلهيون: طرق الإيمان ثلاثة:

* الأول: التقليد الجازم المطابق من غير دليل وهو طريق العموم.

* الثاني: قيام الدليل والبرهان، وهو طريق أرباب النظر.

* الثالث: الشهود والعيان وهو مقام الراسخين في العلم وطريق أهل الله.

---

(١) يروى عن الإمام جعفر الصادقعليه السلام أنه قال: أنهاك عن خصلتين فيهما هلك من هلك، إياك أن تفتي الناس برأيك، وأن تدين بما لا تعلم، ثم قالعليه السلام: خذوا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم ومصائد ألسنتهم.

وقال حجة الإسلام الغزالي(١): الناس ثلاثة أصناف:

* الأول: عوام وهم أهل السلامة.

* الثاني: خواص وهم أهل الذكاء والبصيرة.

* الثالث: ما يتولد بينهم وهم أهل الجدل.

وقد نمر فيما يأتي - من مواضع هذا الكتاب - على الكثير من المفاهيم والآراء الفلسفية والصوفية، وطرق مذاهب المادة الحديثة والقديمة، وما بين المادة والإلهية، ونعرضها عرضاً موجزاً منقوفة بمعناها إن لم تكن بألفاظها تماماً، ثم نتركها أمام القراء والمطالعين من الشباب المثقف الواعي وغيرهم ممن يهمهم الاطلاع على الآراء الفلسفية والدينية ليناقشوها بمفهومهم ومعرفتهم ويعتنقوا الصحيح الأفضل بعد التفكير والتدقيق كيلا يجرفهم التهاون والاستخفاف بالأصول السليمة، وحتى يأمنوا طغيان المادة التي تقود إلى الهاوية، وهم لا يرون غيرها في غرهم ورواحهم، ولا يقرؤون غير ما توحي لهم، أو الذي لم يتعارض مع فلسفتها ورغباتهم(٢).

قال أفلاطون: مجانين إذا لم نستطع أن نفكر، ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر وعبيد إذا لم نجزؤ أن نفكر.

وأرى أن هذه الجملة بفقراتها الثلاث -على إيجازها- قادرة أن تسير

---

(١) هو أبو حامد الغزالي الملقب بحجة الإسلام توفي عام ٥٠٥ هـ.

(٢) يقول الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) عليك بنتيجة عقلك وتهذيبه لا بالقراءة السلبية ولكن بالتفكير الايجابي، فكثير من المتعلمين يفترضون أفكار الآخرين ولا تكون لهم أفكارهم الخاصة، فما تعليمهم إلّا نوع من امتصاص الفراغ، ذلك أن أجداب عقولهم يسحب من الداخل جميع الآراء التي تظهر في محيطهم - الغث منها والثمين. انتهى. أقول: الباحث عن الحقيقة لا يجدها في زاوية واحدة كما توحي له ميوله أحياناً، وإنما يجب أن يبحث عنها في كل الاتجاهات وفي كل الزوايا فتبرز له حينئذٍ ناصعة، وفي الحديث: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، والعاقل من يعمل لروحه كما يعمل لجسده.

بنا نحو التفكير السليم إذا أخذناها شعاراً، شعاراً مثالياً لرياضة أفكارنا لنصل بها إلى الحقائق الصحيحة ومثالية الأخلاق والمعتقد النقي(١).

وهل كان الإيمان الصحيح إلّا نتيجة التفكير الصحيح، فالإيمان التقليدي هو قائم على مبدأ (عطل حواسك وآمن) وهذا جمود يقضي على الحيوية التي تتطلب الحركة والوضوح والتقدم وتسير مع شعار من يقول: (اعتقد ما أعتقد وإلا قتلتك) مع العلم أن إكراه الإنسان على اعتناق عقيدة ما، لا يمكن أن يحمله حملاً وثيقاً على اعتناقها، وقد يقود إلى الرياء والنفاق المنهي عنهما أخلاقياً واجتماعياً ودينياً(٢).

قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

وشاهده من كتاب الله أيضاً: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾.

لأن كثيراً ممن دخلوا الإسلام دخلوا خوفاً أو طمعاً أو مصلحةً فخاطبهم القرآن بحقيقة ما هم عليه من الإسلام وقتئذٍ، وكان الإسلام حقن دم كل من يقول: (أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله).

وكرر القرآن عدم الإكراه في الدين فقال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَلَوۡ

---

(١) قال الفيلسوف الفرنسي (ديكارت): إن ايماننا بالله نتيجة لمعرفتنا بنقائصنا ثم محاولتنا الغريزية للتخلص من هذه النقائص، فالله هو النور المشرق الذي يكشف لنا عن نفوسنا الصغيرة ويهدينا إلى طريق عظمته، وكل ما نملك من جمال أو حق ينبع من مصدر الجمال والحق الذي لا حدود له فالله هو المثال الكامل، أما الإنسان فهو الصورة غير الكاملة لهذا المثال، انتهى - أقول: قد ترى هذا المعنى يتماشى مع الحديث: إن الله خلق آدم على مثال صورته.

(٢) لا ريب أن الماضي يحمل في طياته رواسب كثيرة، والخير كله في تطهير العقل من أوهامها، ولكن من المؤسف أن تكون الثقافة العصرية، بدلاً من أن تعمل على تثقيف الأخلاق وتهذيبها وتستأصل عيوبها ومساوئها، تلتوي وتنحرف عن طريق استقامتها التي نادى بها الرسل والكتب السماوية والمصلحون، فمثلها مثل الأنهار الجارية التي تفيض لتروي ما حولها وتخصبه وإذ بها تجرف التربة التي كان عليها أن تخصبها.

شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ومن الأفضل، وقبل أن يطالب اي إنسان بالإيمان - أن يفسح له المجال، وتمنح له الحرة الكافية التي تمكنه من إيمان مدروس وتفكير رشيد يقول الكاتب المعروف خالد محمد خالد، إن الشباب الراغب في خدمة بلاده ونفسه أمامه ميادين ثلاثة تتعجل العاملين وتناديهم اليها.

الأول: الخدمة الدينية لرفع مستوى النفس الإنسانية وإتمام نورها.

الثاني:الخدمة الاجتماعية لرفع مستوى الضمير الاجتماعي واحترام حيويته.

الثالث: الخدمة السياسية لرفع مستوى الوعي والحكم وجعل السياسة خدمة لا حرفة، وقد ترى معي أيها القارىء الكريم أن هذا الكاتب العلامة لم يبتدىء بذكر الخدمة الدينية إلّا لمعرفته أنها الحافز الأول والدافع لنقاء النفس من الشوائب المادية، ومن هنا فقد تعمل بإخلاص لبلادها وأبناء أمتها[(١)].

ومن أقوال الفيلسوف الباكستاني محمد اقبال: الحياة الدينية تنقسم إلى ثلاثة أطوار: طور الإيمان، وطور الفكر، وطور الاستكشاف[(٢)]، ففي الأول: تكون الحياة الدينية صورة من نظام تخضع له الأمة خضوعاً مطلقاً دون تحكيم العقل عن مراميه[(٣)].

(١) مع الضمير الإنساني... الأستاذ خالد محمد خالد.

(٢) تجديد الفكر الديني في الإسلام للدكتور محمد اقبال.

(٣) أقول: إن التقاليد الدينية الموروثة لها سيطرة كبرى عارمة على الإنسان إذا لم يحكم عقله على هواه تحكيماً صارماً، وهذه التقاليد تطارد كل محاولة نبيلة للاصلاح، وقد جاء الإسلام لمحاربتها، كما حورب بها حرباً شعواء، وكان أصحابها يحتجون على الرسول وهو يدعوهم إلى الله والى الاصلاح وطهارة النفس، فيقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي الثاني: يتخلى التسليم المطلق عن مكانه للعقل الذي يأخذ في تفهمه.

أما الثالث: يحل علم النفس محل علم الكون -الميتافيزيقا- علم ما وراء الطبيعة -الغيب- ويطمع الإنسان إلى الاتصال المباشر في الحقيقة القصوى.

ثم أردف قائلاً: وصدق الصوفي في قوله: «لا يتيسر فهم القرآن حتى يتنزل على المؤمن كما نزل على (النبي)ﷺ». وكل طلب للمعرفة هو في جوهره صورة من صور الصلاة[1].

ثم قال: . . . يجب أن نتناول المعرفة العصرية بروح الاجلال والبعد عن الهوى وأن نقدر تعاليم الإسلام على ضوء هذه المعرفة ولو أدى بنا ذلك إلى مخالفة المنتقدين، وهنا اني أنقل لك أيها الأخ الكريم - أيها الشاب المهذب المثقف الواعي - أيها المطالع المجتهد - أنقل لكم جميعاً نموذجاً من أقوال العلماء وعباقرة الفكر والفلاسفة الإلهيين والصوفيين، وفلاسفة المادة، وبعض أقوال الوجوديين - أنقل لكم عن القدماء والمحدثين، لتطلعوا على جميع الأفكار والآراء المتوافقة والمتناقضة وليكون هذا النموذج طريقاً للاختيار الصحيح من المعتل، وضوءاً للعقل المتردد على معرفة السليم من السقيم، ونبراساً للوجدان النقي، وأمناً للسير على النهج الأمين، مع علمي أن الإنسان المعاصر

(١) القصد: أن كل ما يؤدي إلى الخير هو صورة من صور الصلاة. . . ، يقول الأستاذ زكي محمود، الحياة الإنسانية هي مدار الإيمان وهي محور العبادة وهي مبدأ الأخلاق - هي الدنيا، وهي كذلك الطريق إلى الآخرة لكن الحياة الإنسانية التي هي هدف الرسالة لا وسيلة إلى إقامتها على قوائمها إلّا بالإنسان نفسه، واذاً فالإنسان هو الهدف وهو الوسيلة معاً، انك تعبد الله حين تعمل على شفاء المريض، وتعبد الله حين تعين المتألم على أن ينزاح عنه الألم، وتعبد الله حين تزيل الجهالة عن جاهلٍ، وتعبد الله حين تكشف للإنسان عن جوهر عقله الصافي بعد أن تدفع عنه حجاب الخرافة والضلال. . .

يختلف عن الإنسان الماضي عقلاً وعلماً وميولاً ولا يستسلم إلّا للصحيح الذي يصل به على قناعة تامة..

هذا ونحن في عصر نهضة علمية عارمة تشعبت فيه الآراء، واختلفت الميول وانتهى دور التقليد الأعمى(١)، وطغت المادة على النفوس فتكالبت عليها مضحية في سبيلها كل ما تملك من ثروة الضمير والروح والأخلاق إلّا من رحم الله. وقد أترك للقارىء الكريم والشاب المهذب المثقف حرية الرأي، فلا أقيدهم برأي ما، ولا ألزمهم قولاً معيناً. وأمامي وطيد، وثقتي كبيرة بأن يصلوا برأيهم وتمحيصهم وفهمهم وتدقيقهم ووجدانهم إلى النقطة التي تفتح لهم باب الحقيقة المثلى مطمئنين اليها آمنين ومؤمنين بمركزها الثابت، وهنا لا ننسى أن الاستعدادات لا تتكافأ، فهي تختلف من إنسان لآخر باختلاف الأمزجة وغريزة حب الذات وصفاء النفس وسلوك الإنسان - أي إنسان كان يسير وفق ما لديه من استعداد، كذلك تتفاوت الاستعدادات في درجاتها باختلاف ظروف الإنسان وعوامل الطبيعة والبيئة والتربية، فإذا أنضجت هذه الاستعدادات فقد تدفع انساناً ما إلى الاستئثار بطعام على إنسان آخر جائع، وهي بنفسها تدفع انساناً آخر غيره لإيثار ذلك الجائع بالطعام على نفسه، فالأول استأثر بالطعام، والثاني آثر غيره على نفسه، وما ذلك إلّا لأن لكل إنسان من طفولته نواة استعداد فطرية كامنة تظهر بعد البلوغ والنضوج وتنميها التربية، فكان من تربية الأول الشح وحب الذات مع العامل الوراثي لكل منهما، وكان من تربية الثاني الالتذاذ بالقيم الخلقية والعاطفية والإنسانية مع العامل الوراثي(٢).

---

(١) في الأثر: خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله، وأيضاً: حدثوا الناس فيما تعرفون، وأمسكوا عما ينكرون.

(٢) كذلك فالعقول تتفاضل، قال العلامة الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد: إن درجات العقول متفاوتة، وان الأدنى منها لا يدرك الأعلى، وذلك ليس بتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، أقول: أما غريزة

وقد رأينا الإسلام يزن بالميزان الصحيح العادل، ويستفاد منه الطريقة والمفهوم وأعني الطريقة العقلية والمفهوم الإلهي[1]، وأساليب الاستدلال والبرهنة هي حصيلة فكرة ممحصة لكبار العلماء من فلاسفة الإسلام.

ويقول الدكتور "محمد باقر الصدر" والمقياس الأول للتفكير البشري بصورة عامة هو المعارف العقلية، وهناك يصبح ميدان المعرفة البشرية أرحب من حدود الحس والتجربة، لأن المعارف العقلية هي الركيزة الأساسية التي لا يستغنى عنها في كل المجالات، وتقاس صحة كل فكرة وخطؤها على ضوء هذه المعارف العقلية إذ هي التي تجهز الفكر بطاقات تتناول ما وراء المادة من حقائق وقضايا، وتحقق (للميتافيزيقا) والفلسفة العالية امكانات المعرفة، لأن المادة دائمة التجدد فهي بذلك حادثة لا يبنى عليها في كل القضايا، لأن كل متغير حادث، ولا يمكن أن تكون التجربة بذاتها المقياس الأول للمعرفة، فشأنها شأن فحص الطبيب وهو يجريه على المريض، فإن هذا الفحص هو الذي يتيح للطبيب الكشف عن حقيقة المرض وملابساته، ولكن هذا الفحص لم يكشف عن هذا المرض لولا ما يملكه الطبيب قبل ذلك من معلومات ومعارف، فلو لم تكن المعلومات لديه لكان فحصه لغواً لا فائدة فيه.

حب الذات فهي إحدى الغرائز التي وقت في أسر الظلمات وحيل بينها وبين الشعب الإسلامي المتدين، وبالأصح بينها وبين الشعوب المتدينة تقليداً، كما حيل بينها وبين طاقتها وهي سليقة من أنبل وأنفع سلائق الإنسانية، والذين تآمروا عليها - كما يقول الاستاذ خالد محمد خالد- هم رجال الدين الذين لا يفقهون الدين، ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية، فقد أخذ هؤلاء يلقنون الناس أن احتقار النفس وبغضها ونسيانها هو الهدى والفلاح والخير الذي يقود إلى الجنة، وكانوا يقولون: إن الله سبحانه لم يطرد ابليس من الجنة إلّا من أجل كلمة واحدة قالها هي (أنا) وينسى أولئك المعلمون المربون والشيوخ المصلحون والموجهون أن الرسول ﷺ قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر...

(١) جاء في كتاب (اليمين واليسار في الإسلام) للأستاذ أحمد عباس صالح: أن الدين الإسلامي في جوهره يقوم على المنطق والجدل العقلي والإلزام بالحجة..

وهكذا التجربة البشرية بصورة عامة لا تشق الطريق إلى نتائج وحقائق على ضوء معلومات سابقة معارف عظيمة.

غير أن التجريبيين لا يعترفون بمعارف عقلية ضرورية سابقة على التجربة، فالتجربة عندهم أساس الحكم الصحيح والمقياس، فالإنسان عندهم يولد خالياً من كل معرفة فطرية، وقد يبدأ وعيه وإدراكه بابتداء حياته العلمية ويتسع علمه كلما اتسعت تجاربه، وتتنوع معارفه بتنوع تجاربه، ويعتمد هذا المذهب على الطريقة الاستقرائية في الاستدلال والتفكير - أي طريقة الصعود من الجزئي إلى الكلي، فيرفض مبدأ الاستدلال والقياس الذي يسير فيه الفكر من العام إلى الخاص[١].

ولكن أصحاب المعارف العقلية يرددون بقولهم: هل هي معرفة أولية حصل عليها الإنسان من تجربة سابقة؟ أو أنها كسائر المعارف البشرية ليست فطرية ولا ضرورية؟.

فإذا كانت معرفة أولية سابقة على التجربة فقد بطل المذهب التجريبي الذي لا يؤمن بالمعارف الأولية وثبت وجود معارف أولية ومعلومات

---

(١) يوجد من المفكرين المحدثين فريقان: الأول استهوته الطبيعة فهام بها، وأقام وجوده عليها، وهذا الفريق من فلاسفة المدرسة الطبيعية المعاصرة التي لا تؤمن إلّا بالمادة التي تتصل بها الحواس ومن قبل كان الفلاسفة الرواقيون يقولون: إنه ليس في الوجود غير المادة، والمعرفة عندهم لا تأتي إلّا عن طريق الحواس، فما لا يحسّ لا يعرف. والفريق الثاني: مع ايمانهم بالطبيعة لن يتجاهلوا ما وراء الطبيعة، بل انهم كلما أوغلوا في مباحث الطبيعة كلما طلعت عليهم من ثناياها أمارات مثيرة تشير إلى أن قوة عظيمة قديرة تقوم على هذا الوجود وإن لم يروا هذه القوة فقد رأوا آياتها، وكان الفيلسوف الأميركي وليم جيمس يقول: إن الطبيعة تنطق بالروح، و ما العالم المادي سوى تعبير رمزي عن عالم روحي حقيقي.
ويقول: توجد أشياء لا يمكن رؤيتها مباشرة (كالالكترونات والبروتونات، إن معرفتنا لها مستنتجة من آثارها، إننا نرى ما تعمله الذرة فقط... أما طبيعتها وأين هي فليست لنا طريقة لمعرفتها، إن علم الطبيعة يعامل الذرة على أنها رمز أكثر منها جوهراً محدوداً (وليم جيمس، ترجمة محمود زيدان).

انسانية ضرورية بصورة مستقلة عن التجربة، كذلك يقول أصحاب المعارف العقلية أيضاً دعماً لرأيهم: إذا كانت هذه المعرفة محتاجة إلى التجربة السابقة، فمعنى ذلك أنّا لا ندرك في بداية الأمر أن التجربة مقياس منطقي مضمون الصدق، فكيف يمكن البرهنة على صحته؟

وبحجة أخرى: إذا كانت خطأ سقط المذهب التجريبي بانهيار قاعدته الرئيسية وإن كانت صواباً نتساءل عن السبب الذي جعل التجريبيين يؤمنون بصوابها؟

فإن كانوا تأكدوا من صوابها بلا تجربة فهذا يعني أنها قضية بديهية وأن الإنسان يملك حقائق وراء عالم التجربة[١].

(فديكارت) بدأ فلسفته بالشك قائلاً: يجوز أن الإنسان واقع في رحمة قوة تهيمن على وجوده وعقله، وأخيراً استثنى حقيقة واحدة هي (فكره) وحاول أن يخرج بفكره من التصور إلى الوجود، ومن الذاتية إلى الموضوعية فقال:

(أنا أفكّر فإذاً أنا موجود) وقال: إن الشيء لا يخرج من لا شيء، والشيء لا يجيء أكبر من سببه، وعليه يجب أن تكون الفكرة منبثقة عن (الكائن الأول) اللانهائي، وهو أول حقيقة فكرية خارجية وهي (الله).

وعن طريق هذا الكائن الكامل المطلق اثبت (ديكارت) أن كل فكر فطري في الطبيعة الإنسانية فكر صادق يحتوي على حقيقة موضوعية، لأن الأفكار العقلية صادرة عن (الله) فإذا لم تكن صادقة كان تزويد (الله) للإنسان بها خدعة وهذا مستحيل على الكامل المطلق[٢].

أما باركلي فيقول: إذا كانت المادة غير موجودة، فمن أين يمكن أن

---

(١) فلسفتنا للدكتور محمد باقر الصدر.

(٢) ديكارت يطلق عليه أبو الفلسفة الحديثة.

نأتي بالإحساسات التي تنبثق في داخلنا كل لحظة؟ ويجيب على هذا السؤال بقوله: إن الله نفسه يبعث تلك الإحساسات فينا، وقد احتفظ لنفسه بحقيقتين إلى جانب الإدراك أحدهما: العقل- الذات المدركة، والأخرى: هي الله- الحقيقة الخلاقة لإحساساتنا[١].

ولنستمع إلى الفيلسوف (كانت)[٢] إذ قال: إن العالم على حقيقته بعيد كل البعد عن مشاهداتنا الحسية، لكنه في متناول ادراكنا العقلي، إذ إن في وسعنا أن نرى العالم ببصيرتنا الباطنية،و ندركه من غير استعانة بتجربتنا الحسية، فعقلنا اذاً ليس حزمة من المشاهدات التي تعتمد على حواسنا، ولكنه أداة لمعرفة قائمة بذاتها قد انكشفت لنا عن طريق قوة إدراكنا العقلي، فمن اليقين أن اثنين واثنين أربعة دائماً مهما يكن ما نراه وما نسمعه يناقض ذلك، فالعقل ليس مجمعاً للفكر بل منظماً له، وهو ينظم العالم، إن المعتوه يشاهد الدنيا التي يشاهدها (شكسبير) ولكن الرجل من أمثال (شكسبير) هو وحده الذي في وسعه أن يرى في الدنيا صورة تفيض بالجمال والمعنى.

أما (الغزالي) فقد بدأ فلسفة الشك والتشكيك، اعتمد أولاً - كما يقول- على الحسيات والضروريات، فاتسع شكه حيث أرته الظل واقفاً غير متحرك، والكوكب صغيراً وهو أكبر حجماً من الأرض، فإذا حكم حاكم الحس كذبه حاكم العقل، فانتقل إلى العقليات التي هي من الأوليات كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً- موجوداً معدوماً- واجباً محالاً، قال: فاعترضته الحواس قائلة له: لعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما

---

(١) باركلي، فيلسوف انكليزي، وفي بعض نظرياته: إن الوجود الأصيل للأشياء هو كونها في علم الله، وهذا كتعبير الأقدمين للصدق بأنه مطابقة الخبر للواقع، والواقع بتفسيرهم بأنه علم الله.
(٢) المذهب العقلي للفيلسوف الألماني (كانت) القرن الثامن عشر.

تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، ويقول الغزالي: هنا توقفت النفس في الجواب وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد لها ثباتاً، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصلٌ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو بعقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها؟

لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة اليها، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ثم قال: لعل تلك الحالة كحالة الصوفي إذا غاص في نفسه وغاب عن حواسه يزعم أن له أحوالاً لا توافق المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال الرسول ﷺ الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ ثم قال: فلما خطرت لي هذه الخواطر وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمر ويقين.. وذلك بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، وهو نور يقذفه الله تعالى في القلب[1].

---

(١) كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي ويقول في كتابه (تهافت الفلاسفة) إن الاقتصار على العقل وحده في مسائل ما وراء الطبيعة طريقة ناقصة لا تؤدي وحدها إلى الغاية، فالكشف عن الله عقلياً استدلالياً وبرهنة ثم الاتصال به رياضة وتصفية هو الطريقة السليمة المتكاملة. قلت: يمثلون القلوب بالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى، ولذلك قال الرسول ﷺ: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء.

وهذا النور ينبجس من الجود الالهي، ويجب الترصد له كما قال الرسول ﷺ: إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها، وبعد أن شفاه الله من مرض الشك - كما يقول- أخذ يرد على المتكلمين لأنهم أهل جدل، والجدل منهي عنه، وعلى الفلاسفة الدهريين والطبيعيين، كما رد على الفلاسفة الإلهيين لأنهم -كما يقول- لديهم كلام مخروج بالخطأ والصواب، وسنرى فيما يلي أوضح آرائه.

أما أصحاب المذهب العقلي فيقولون: إن الذي قضى على الشك هو المذهب العقلي -المصدر الأساسي للمعرفة،فهو يقرر وجود معارف ضرورية مضمونة الصحة لا يقع فيها الخطأ مطلقاً، وإنما يقع الخطأ في طريقة الاستنتاج منها..

وعلى هذا تنقسم المعارف البشرية إلى معارف ضرورية مضمونة تتشكل منها القاعدة الرئيسية للتفكير، ومعارف ثانوية، فنحن مهما شككنا لا نستطيع أن نشك في تلك القاعدة لأنها مضمونة الصدق بصورة ضرورية[١].

ونضع هنا نظرية الاستذكار الافلاطونية التي بنى عليها أكثر العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً، وحتى منتصف هذا القرن -العشرين- وخاصة علماء مذهب التصوف والتوحيد من مسلمين وغيرهم، وهذه النظرية تقول: إن الإدراك عملية استذكار للمعلومات السابقة، وقد ابتدع هذه النظرية (أفلاطون) وأقامها على فلسفته الخاصة عن (المثل) - أي الحقائق المجردة عن المادة وقدم النفس الإنسانية حيث كان يعتقد أن النفس الإنسانية موجودة بصورة مستقلة عن البدن قبل وجوده، ولما كان وجودها

---

(١) فلسفتنا - الدكتور محمد باقر الصدر.

هذا متحرراً من المادة وقيودها تحرراً كاملاً أتيح لها الاتصال (بالمثل) وأمكنها العلم بها،

وحين اضطرت للهبوط من عالمها المجرد للاتصال بالبدن، والارتباط به في دنيا المادة فقدت بسبب ذلك كل ما كانت تعلمه من تلك (المثل) والحقائق الثابتة، وذهلت عنها ذهولاً تاماً، ولكنها تبدأ باسترجاع أدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية، لأن هذه الاشياء والمعاني كلها ظلال وانعكاسات لتلك (المثل) والحقائق الأزلية الخالدة في العالم الذي كانت تعيش فيه النفس.

فمتى أحست بمعنى خاص انتقلت فوراً إلى الحقيقة المثالية التي كانت تدركها قبل اتصالها بالبدن، وعلى هذا الاساس يكون ادراكنا للإنسان العام -أي المفهوم- الإنسان بصورة كلية عبارة عن استذكار حقيقة مجردة كنا قد غفلنا عنها وقد استذكرناها بسبب الاحساس لهذا الإنسان الخاص أو ذاك من الأفراد التي تعكس في عالم المادة بتلك الحقيقة المجردة، فالتصورات العامة في رأي (أفلاطون) سابقة الاحساس، ولا يقوم الإحساس إلّا بعملية استرجاع واستذكار لها[1].

والإدراكات العقلية لا تتعلق بالأمور الجزئية التي تدخل في نطاق

---

(١) في كتاب (تهافت الفلاسفة) تعليق للدكتور سليمان دنيا يقول: قال الفلاسفة إن للسماوات نفوساً، وهذه النفوس مطلقة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم وإن المراد باللوح المحفوظ نفوس السماوات، وإن انبعاث جزئيات العالم فيها يضاهي انتقاش المحفوظات في القوة الحافظة المودعة في دماغ الإنسان، وقالوا: إن نفوس السماوات مطلعة على ما يحدث في العالم.
ويقول الأستاذ حامد حسن في ترجمة المكزون السنجاري، أخذ الواقعيون مذهبهم عن (مثل) أفلاطون،و هم يرون الأسماء الكلية لها وجود حقيقي فعلي في الخارج، وهذا الكلي يتمتع بكل ما تحمل كلمة الوجود من معنى، فهو شيء واقعي له وجود خارجي، وهو موجود بأكمله من غير انقسام ولا تجزئة في الأفراد..

الحس، وإنما تتعلق بتلك الحقائق الكلية المجردة. وهذه النظرية -كما تقول الفلسفة - ترتكز على قضيتين فلسفيتين إحداهما: أن النفس موجودة قبل وجود البدن في أسمى من المادة... والأخرى، الإدراك العقلي عبارة عن إدراك الحقائق المجردة الثابتة في ذلك العالم والذي يصطلح عليها (أفلاطون) بكلمة (المثل) وهذا المذهب -كما قلنا- تبناه أكثر العلماء الإلهيين، وسيرى القارىء الكريم زيادة توضحه في بحث النفس إن شاء الله.

ومن الغريب ما كان يقوله جمهور من المعتزلة، إذ كانوا ينفون للنفس الناطقة وعندهم: أن الروح جسم لطيف بخاري يتكون من ألطف أجزاء الأغذية فنفذ في العروق الضوارب، والحياة عرض قائم بالروح وحالٌّ فيها، فللدماغ روح دماغية وحياةٌ حالةٌ فيها، وكذلك للكبد... الخ، وعندهم: أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه، ولولا ذلك لتعذر عليه، وهو جسمٌ أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد. والى غير ذلك من تآويلهم الكثيرة[1].

وفاتهم أن يذكروا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾.. الخ، ولا أدري كيف يؤولونها والأغرب من هذا: هو المذهب الوجودي الذي يقول أصحابه بوحدة الموجود المتعدد من سماء وأرض وجبال وبحار وأشجار وحيوان وأناس.. على تعدد الموجودات وأجناسها، وألوانها وأنواعها، ومع تفاوتها ثقلاً وخفةً وطعماً ورائحةً، و، والخ، هؤلاء يقولون بوحدة الموجود مع الموجود الواحد الذي قال به الصوفيون. وهو وجود الله المستغني بذاته عن غيره، وهو الوجود الحق الذي أعطي

(١) نهج البلاغة - شرح ابن أبي الحديد.

ومنح الوجود لكل موجود كائن وليس لكائن غيره سبحانه الوجود من نفسه.

أنه سبحانه وتعالى الخالق البارىء المصور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وقد أتى بهذا المذهب -مذهب وحدة الموجود- فريق من الفلاسفة في الأزمنة القديمة، وأخذ عنهم أمثالهم في الأزمنة الحديثة، واعتقدوا بوحدة الموجود، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو والمخلوقات شيء واحد..

قال بذلك (هيراقليطس) في العهد اليوناني، فالله عنده: نهار وليل - صيف وشتاء، وفرة وقلة، جامد وسائل، أنه على تعبيره كالنار تسمى باسم العطر الذي يفوح منها وجلّ الله وتنزه عن مثل هذه الأقاويل[١].

وكان (شيلي) أحد الوجوديين الحديثين يقول: إن الله هو البسمة الجميلة على شفتي طفل جميل باسم، وهو هذه النسائم العليلة التي تنعشنا ساعة الأصيل، وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادي في ظلمات الليل، وهو هذه الورود اليانعة تتفتح، إنه الجمال اينما وجد، وهو أيضاً القبح أينما كان - كما يكون طفلاً فيه نضرة وفيه وسامة، يكون جثة ميت، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذه الدودة، وتعالى الله وتنزه عن قول الجاهلين وأهل الشك والاشراك.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: إن الأشعري رأى في فلسفته الكلامية أن الوجود عين الموجود، ولم يوافقه الصوفيون على هذه الفكرة الفلسفية ولا الكثير من مفكري الإسلام وفلاسفته، وإنما قالوا: إن الله

---

(١) المنقذ من الضلال - الغزالي.

سبحانه محيط بالكون مهيمن عليه قيوم السماوات والأرض وقائم على كل نفس بما كسبت، وقائم على كل ذرة من كل خلية، وقائم على ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يغرب عن علمه وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء(١).

ومهما كان من الآراء والمذاهب المختلفة، فإني أرى القرآن الكريم بما جاء فيه من أحكام وعلم توجيه وتنوير للفكر هو وحده الذي يقرره ويوجهه ويرشده إلى الحقيقة، ويحل أكثر المشاكل العلمية والنظريات المتناقضة دينية كانت أم دنيوية، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

ولما كانت المذاهب الاجتماعية في العالم اليوم تطغى على الأفكار، وأنظمة التطور والحضارة الجديدة تعدل بإنساننا الحاضر إلى غير ما بناه له ماضيه الأصيل فيحيل بحكم الأنظمة الجديدة متردداً أو غير متردد نحو المادة ناسياً أن لديه ماضياً حافلاً بالمقدسات النبيلة التي لا تعادلها مقدسات أخرى، والتي هي أقرب إلى السلامة نبلاً وأخلاقاً وكرامة وحقيقة، ونصراً ووصولاً إلى الغاية المثلى.

ولكن هذا الماضي، يجب أن لا يشدنا إلى الوراء بعنف، كما يجب

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.
وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.. الخ.

أن لا يدفعنا التطور إلى الأمام بعنف أيضاً، فعلى إنساننا الحاضر أن ينتبه من غفلته ويستيقظ من كبوته، ولا تخدعه الرؤى الخلابة ولا تلويه عن أصله وأصالته ودينه وعراقته.

قرأت لبعض الإخوة المثقفين الأستاذ عبد القادر عبيسي على إحدى صفحات جريدة البعث كلمة منها: يوجد البعض يضفي على الماضي صفة سحرية ويبالغ في تعظيمه، ولا يرى فيه غير الكمال، فهؤلاء لا يرون من الماضي سوى مزاياه وحسناته، ويتجاهلون كل اخطائه وعيوبه، كما أنهم يكثرون بالحاضر والمستقبل الذي لا يلتزم ويسير على سير الماضي.

وهناك تيار آخر، وهو كردة فعل ظاهرة للتيار الأول، فإن اصحابه يريدون حاضراً ومستقبلاً لا ماضي له - يريدون نبتة جديدة بدون أرض وبدون جذور وهذه النبتة لا تكون إلّا اصطناعية بلاستيكية بعيدة عن الطبيعة، وهؤلاء ينظرون بعين غير عربية، وبفكر لا يمت اليها بصلة، لقد فقدوا نقطة البدء والارتكاز فضاعوا ولم يعودوا إلى الجذور -ينظرون نظرة خيالية خالية من أي مزايا متنوعة أو خلاقة - إنهم فقدوا الاتصال بروح أمتهم ويئسوا من كل خلاص يأتي من داخلها.

والتيار الثالث، ليس من هذا ولا ذاك، وإنما يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ويعبر عن تواصل حضاري قومي متين، ويقف موقفاً داعياً مسؤولاً فوضح الماضي نقطة انطلاق لاستلهام الفكر العربي لتغيير الشيء، وأخذ الحسن وصنع المستقبل، وامكانيات الأمة العربية أصيلة لم تستنفد وهي منبع دائم للخير والنبل والبطولة والابداع، فتراثنا وفيه الايجابيات والسلبيات، وقد احتضن العرب كل المدنيات والثقافات واستطاعوا أن يحولوها ثقافة عربية تجاوزت الحضارات وأصبحت مناراً للعالم، وإذا رجعنا إلى مسرح تاريخنا الصحيح نرى العربي كان ربان

سفينة الحضارة الإنسانية في أحلك فترات تاريخ الإنسانية، ففصل الماضي عن الحاضر والمستقبل تحطيم للشخصية القومية وانحراف بها عن الركائز السليمة التي يمكن أن تحفظ خطواتها من الزلل والضياع والتناقض، ومن جهة أخرى: إن الشخص الذي لا يشعر بأرومته التاريخية وإنه واحد من الملايين الذين تعاقبوا خلال العصور وكتبوا تاريخ أمتهم ليس له قيمة ولا كرامة. انتهى.

وهذا ما لخصته من تلك المقالة الرائعة والعادلة، وإني أتمنى على شبابنا المثقف أن ينطلق بمثل ما انطلق به هذا الكاتب وأن يحافظ على تراث أمته الرائع ولا ينبذه ظهرياً كأنه لا فائدة منه -والالتفات إلى الوراء والوقوف عند عطاء التاريخ القديم، بل تجاوز شيء منه يعوق عن مواكبة ركب التقدم ويصيب الفكر والتفكير بالشلل كما يبقي المجتمع متخلفاً يشكو العقم والمرض والجهل.

وقد نقول: هل جاء أحد أو يجيء بأفضل مما جاء به الإسلام من حرية واشتراكية وتقدير للفرد المواطن؟

قال الدكتور صبحي الصالح: إن النظام الإسلامي مر بتجربة من أروع النظم الاجتماعية وأنجحها حيث قضى على الاقطاع والتسلط وحافظ على حرية الفرد وملكيته التي لا تتعارض ومصالح الآخرين، وكفل للشارع تطبيق ما أوحته رسالته السماوية للمصلحة العامة، ولكنه مع الأسف أوقفته عواصف ملهية[1] حينما خلا ميدانه من القادة المبدئيين وبقي تجربة في رحمة أناس لم ينضج الإسلام في نفوسهم ولم يملأ أرواحهم بعطره وجوهره فعجزوا عن الصمود وتقوض الكيان

---

(١) من قرأ كتاب (اليمين واليسار في الإسلام) للأستاذ أحمد عباس صالح تظهر له هذه العواصف الملهمة بأجلى مظاهرها.

الصحيح منه حيث لعبت الدنيا بعقولهم فذهبت بهم بطرق ملتوية وبقي الإسلام الصحيح فكرة في ذهن الأمة وعقيدة في قلوبها، بالرغم من أنه سلك الطريق السليم - الطريق الديمقراطي الأعدل بين النظامين الشيوعي والرأسمالي[١] وطريقه ولا شك هو الطريق الوحيد لمشكلة الإنسان في حياته، وذلك بتطور المفهوم المادي عن الحياة. إن الإسلام وضع مفهوماً جديداً وأقام على ذلك المفهوم نظاماً لم يجعل فيه الفرد آلة ميكانيكية في الجهاز الاجتماعي. ولا المجتمع هيئة قائمة لحساب الفرد بل وضع لكل منهما حقوقه، وكفل للفرد كرامته المعنوية والمادية، والهدف الذي رسمه الإسلام هو: (الرضا الإلهي)، والمقياس الخلقي الذي توزن به جميع الأعمال، إنما هو مقدار ما يحصل بها من هذا الهدف المقدس، والإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يحقق هذا الهدف، والشخصية الإسلامية الكاملة هي الشخصية التي تسير في شتى أطوارها وأشواطها على هدي هذا الهدف وضوء هذا المقياس وضمن إطاره العام.

والدليل والبرهان عليه هو: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

حاول أحد الفلاسفة الغربيين أن يدافع عن حق الإنسان الحديث الذي نشأ في اجواء الثقافة العلمية الحديثة في الاعتقاد الديني، فكانت موضوعته في مقالة هي: إن البيئات العلمية والأدلة العقلية غير كافية بحدِّ ذاتها للبرهان على وجود (الله) أو عدم وجوده لذلك يحق للإنسان - كما

(١) هل وجدت أو توجد مساواة أو اشتراكية أفضل وأعدل مما دعا اليه الإسلام بقول الرسول ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه، ويكره له كما يكره لنفسه. وقد طبقت بعد هجرة الرسول بالتآخي بين المهاجرين والأنصار.

يقول هذا الفيلسوف- أن يتخذ موقفاً من هذه المعضلة تتناسب مع عواطفه ومشاعره[1].

أقول، وهنا لا بد لنا من الوقوف والإمعان كمسلمين أصحاب رسالة سماوية يبدو لهم الموقف الديني القديم الممتلىء بالطمأنينة في طريق انهيار لأنه يمر في طور نهضة علمية وبانقلاب ثقافي صارم ويتحول صناعي جذري وتفكير مادي بحت، وقد تأثرنا كغيرنا إلى حدٍّ بعيد بأخطر نظامين هما:

النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي، وكلا النظامين يحاربهما الإسلام - وأخذت نزعة المادة تتمرد على أحكام الضمير ونوازع الوجدان وقوانين الأخلاق.

وقد نرى الموقف الحازم الايجابي نحو الدين ومشكلاته ضعيفاً إن لم يكن متعذراً وجوده أو كاد..

كما أن الرأي التقليدي أصبح منبوذاً ولا يصح البناء عليه اليوم أو غداً، وإن صح فلا يقبل إلّا بتمحيص دقيق موفق، بالرغم من أنه طريق

---

(١) لم يخل الإسلام أحداً من حمل المسؤولية إذا كان بلغ رشده، وليس احد بمغنٍ عن أحد شيئاً - ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولقد أبطل الإسلام ما كان يدعي أصحاب الرئاسات الدينية من أنهم شفعاء لأتباعهم عند الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ فالصلة بين العبد والرب مفهوم يتيح للمسلم أن يشعر بوجوده ويرى له كياناً وذاتية- فالإسلام يبرز ذاتية الإنسان ويفسح له المجال لتحقيق وجوده وإعلان شخصيته كإنسان يحمل أمانة الله ويقوم خليفته على الأرض، فقد فتح المنافذ أمام الروح للانطلاق إلى الملأ الأعلى والاتصال بالخالق سبحانه اتصالاً مباشراً بلا وسائط غير النية الحسنة وطهارة النفس وتنقية القلب من شوائب الشرك بالله وهناك يجد الإنسان الطريق مفتوحاً بينه وبين الله وهنا المنزلة العظمى التي لا تماثلها منزلة، وهنا الحرية الواسعة التي يملك بها الإنسان الطريق إلى الله ويرتفع بها إلى مقام مناجاته والاتصال به في أي زمان وأي مكان، وكل هذا لا يحتاج أكثر من تدوير الارادة الحازمة محول التيارات النفسية فتضيء جوانب النفس لتشرق بنور الحق فتهتدي إلى الطريق الذي يصل بينها وبين الله.

للعموم في الماضي القريب، وفي مثل هذا الجو المدلهم بالإشكال الداهم بالانحلال ظهرت مشكلتان:

الأولى: مشكلة النزاع بين العلم والدين.

الثانية: مشكلة خاصة يعانيها كل من تأثرت ثقافته تأثيراً جذرياً بالثقافة العلمية الحديثة التي بدأت تكتسح مجتمعه ومحيطه فيضطر أن يواجه من جديد سؤالاً أساسياً هو:

هل باستطاعتي أن أتقبل بنزاهة وإخلاص وشعور براحة الضمير والوجدان ما كان تقبله آبائي وأجدادي من معتقدات دينية وتقاليد موروثة دون أن أخون الأمانة الفكرية التي استخلصتها من معلوماتي واطلاعاتي الثقافية والعلمية.

ولعل هذا السؤال الكامن خلف مقال الفيلسوف (جيمس) الذي يتساءل فيقول: ماذا يفعل الشخص الذي يطلب منه الاختيار بين الاعتقاد بوجود الله أو عدم الاعتقاد بوجوده؟ وذلك بعد فقد الأدلة العلمية والبيانات العقلية الكافية لإقناعه كما تدعي المادة العصرية؟ وهنا ينتهي برأيه إلى القول بلزوم الاعتقاد بوجود (الله) استناداً إلى ما توحيه له طبيعته العاطفية ومشاعره التي فطر عليها محتجاً بقوله: لا يمكننا أن نعلق الحكم إلى الأبد في موضوع الاعتقاد بوجود (الله) لأننا بذلك قد نتجنب الوقوع في الخطأ إذا لم يكن (الاله) موجوداً، ولكننا سنخسر فائدة كبرى فيما إذا كان موجوداً[1]، ولعل حجته هذه منقولة عن الفيلسوف العربي أبي العلاء المعري بقوله:

---

(١) إرادة الاعتقاد للفيلسوف (وليم جيمس) ترجمة الدكتور حب الله- العقل والدين وقد استغربت من هذا الفيلسوف قوله: إن البيانات العلمية والأدلة العقلية غير كافية بحد ذاتها على وجود الله أو عدم وجوده، ولكنه أو كأنه نسي أو تجاهل نفسه، فإن وجوده وخلقه وتركيبه لدليل قاطع على وجود موجده.

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأرواح قلت اليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما[١]

ولعل المعري كان قد نقل عن الإمام علي عليه السلام في بعض ردوده على أحد الملحدين في عهده ؟

والفيلسوف الأميركي المذكور يرى أن هناك نزاعاً كبيراً بين العلم والدين، وأن المادة أزلية، ولم تتوفر الأدلة لديه بوجود الصانع الأول خالق المادة، أو عدم وجوده على حسب قوله وزعمه، فوقف متردداً ثم أعطى حكمه تخيلاً واعتباطاً أو جزافاً[٢].

ولكنه نسي أو تناسى عن أن الرأي السائد والصحيح المعروف لدى جميع علماء المسلمين وفلاسفتهم المحققين،و من المأثور لديهم عن نبيهم وآل بيته وأصحابه وفي كتابهم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، ما يبرهن - إلّا جدلاً- أن العلم لا يتعارض مع الدين، وروح الدين الإسلامي لا يمكن أن يكون أو دخل في نزاع مع العلم، وإذا كان من خلاف بينهما يبدو للبعض فهو خلاف سطحي جرّه ويجره عدم فهم بعض المقاصد التي تضمنها القرآن الكريم، والمأثور من الحديث، والقرآن - كما قيل- حمال وفيه المحكم والمتشابه، كذلك فالحديث

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعري، والمعري هو القائل:
أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

(٢) لا غرابة أن مثل هذا القول مع تفوق حضارة الغرب المادية جعل الشك يتطرق إلى قلوب الكثيرين من شباب المسلمين المثقف وما ذلك إلّا باتصالنا في الحضارة الغربية قبل نضوجنا الفكري والروحي وقد غزتنا هذه المدنية فأثرت تأثيراً عميقاً فينا فتزعزعت ثقتنا بتراثنا الحضاري والروحي خصوصاً ونحن نستورد ما يضر وندع ما ينفع بل هم يعطوننا ما ينفعهم ويمنعون ما ينفعنا، وجميل لو أخذنا المدنية الغربية المادية وصبغناها بصبغة روحانية إسلامية.

الشريف وأحاديث آل الرسول المعصومين[١] زد على ذلك الحديث المشكوك بنقله فقد لا يتماشى مع العلم فهناك كثير من الأحاديث وضعت قصد التقرب من الملوك والحكام والسلاطين وطمعاً بالدنيا كما قال الشيخ محمد عبده[٢] في ضحى الإسلام، وكما قال غيره.

والإسلام قد حض على العلم وألح عليه[٣] وقال: اطلب العلم ولو بالصين - اطلب العلم من المهد إلى اللحد - العلم والعمل أخوان متفقان

---

(١) ورد في الكتاب المبين صفحة ٥٦٩ عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: من رد متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال: إن في أخبارنا محكماً ومتشابهاً فردوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا.

(٢) يروي الاستاذ عبد الواحد الأنصاري في كتابه (مذاهب ابتدعتها السياسة) أن أبا هريرة غير موثوق بحديثه، وكان يقول - أي أبو هريرة- رب كيس عند أبي هريرة لم يفتحه عينه عمر على البحرين وعزله وضربه لسوئه وكثرة رشوته، ويقول (الأنصاري) لم يعش أبو هريرة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله سوى سنة وبضعة أشهر - والمراد لم يصحب الرسول إلّا هذه المدة، وقد روى عن الرسول أضعاف ما رواه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام وستة أضعاف ما رووا، وكان عمر وعائشة يتهمانه بالكذب، ومن قرأ كتاب (شيخ المضيرة، أبو هريرة) للعلامة محمود أبو رية يتضح له كذب أبي هريرة على الرسول وعلى أصحابه طلباً للدنيا، وكان أمياً وفقيراً مدقعاً يخدم بلقمة بطنه وأسلم بعد فتح خيبر ولم يصحب الرسول غير سنة وتسعة أشهر. كذلك فأبو حنيفة أخرجه من الثقاة واعتبره من الوضاعين، وقد اتخذه معاوية معتمداً لبث الأحاديث الكاذبة، وهيأ له جماعة لنشر احاديثه والبطش بكل من يرد عليه أو ينكر حديثه، ومن تلك الأحاديث قال الرسول صلى الله عليه وآله: إن الله ائتمن على وحيه ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية، ومنها: أن علياً من محمد بمنزلة هارون من موسى، ومنها: أن علياً والعباس ماتا على غير قبلة محمد، وأنهما من أصحاب النار، ومن المشكوك بهم عروة بن الزبير، روى عن عائشة أنها قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل العباس وعلي، فقال: إن سرك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين الرجلين - إلى كثير من مثل هذه الأحاديث الموضوعة المضحكة.

(٣) في موقعة بدر الكبرى أسر المسلمون رجالاً من المشركين وذهبوا بهم إلى المدينة فطلب المشركون أن يفتدوا أسراهم بالمال، ولكن الرسول استبقى المتعلمين منهم في المدينة ليعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين ابناء المدينة بدلاً من المال رغم حاجته وقتئذٍ إلى المال مما يدل على حرصه صلى الله عليه وآله على العلم والتعليم وأن رسالته صلى الله عليه وآله دينية علمية اصلاحية - أليس هذا دليلاً على أن الإسلام جاء بالعلم وللعلم؟ ولكنه تعالى أنزل من السماء ماء، فسالت أودية بقدرها - وهناك الاستعداد والقابلية، والله الهاد.

لا يقوم أحدهما إلّا بصاحبه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع - طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة- قليل العلم خير من كثير من العبادة - يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة - إذا مات ابن آدم انقطع ذكره إلّا من ثلاث، صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح، ركعة من عالم أشد على ابليس من ألف ركعة من عابد.

وفي القرآن الكريم الكثير مما يدل على أن الدين علم، فكيف يختلفان ؟

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ - يعني أهل العلم، وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، فجعل أهل العلم في صف الملائكة وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾. كل هذه الآيات تدل على فضل العلم وتحض على التعلم والتعليم وتبرهن على أن الدين علم، وأول آية نزلت هي تعليم وتذكير بطلب العلم وفضله، إذ قال سبحانه لرسوله: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾، ثم قال سبحانه:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾.

هذا قليل من كثير مما ورد في القرآن وفي الحديث المأثور عن الرسول وآل بيته المعصومين والسلف الأفاضل، وكلها تبرهن أن الإسلام جاء بالعلم ويدعو للعلم ويتماشى مع العلم وأن الدين علم والعلم دين إلّا إذا أخرج صاحبه عن جادة الحق والصراط السوي، وإذا كان العلم في

زمن الرسول ﷺ اقتصر على فهم القرآن ودراسته والتنزيل والتأويل ومعرفة التشريع الجديد وحفظ الحديث الشريف، فما ذلك إلّا لأن الإسلام دين جديد وعلى المسلم أن يفهمه فهماً جيداً، ثم ينطلق بعدئذٍ إلى ما يدعو له هذا الدين عن خبرة ودراسة وهو يرشده بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ - ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ - والى قول الداعي: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويعلمه ويعرفه هذا الداعي ﷺ أن قليل العلم خير من كثير العبادة، وذلك كي لا ينصرف وينشغل المسلم بالعبادة عن العلم والعمل، فإذا كان الخلفاء والأوائل ثم السلف اقتصروا على ما كان في عهد الرسول ﷺ من العلم فليس جهلاً منهم فيما يدعو اليه الإسلام من طلب العلم ولكنهم قد شغلوا بالفتوحات المتوالية تبشيراً وانتصاراً للدعوة الجديدة والدين الجديد.

وقد رأينا في العصر العباسي الأول عندما استتب الأمن، وقلت الفتوحات، كيف أقبل المسلمون على العلم والتعلم والترجمة ونقل العلم من لغاتٍ أخرى فارسية ويونانية وهندية إلى اللغة العربية، وقد قيل: إن الخليفة العباسي (المأمون) أعطى أحد المترجمين وزن الكتب التي ترجمها ذهباً، وما ذلك إلّا تشجيعاً على التعلم وحضاً على العلم والترجمة ونقل فلسفة العالم الخارجي وحضارته وقتئذٍ إلى اللغة العربية والعالم الإسلامي.

ومن المعروف أن الدين ثابت، والعلم استجلاء واستنباط واكتشاف وتجديد، كما للدين لا يوصل اليهما إلّا بالعلم والتأمل والكدّ، وما معنى قول الإمام علي عليه السلام:

لا تقسروا أبناءكم على آدابكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم؟.

أتراه بعد معرفته وعلمه وعراقته وتقدمه في الإسلام - والإسلام جديد

على الناس حينئذٍ - أتراه ينهى عن الإسلام؟ أم أنه يأمر بالجدّ والاجتهاد والعلم والتعلم والتعليم والاطلاع على جميع العلوم وفي كل زمان ومكان؟ ولو كان يعلم أن العلم لا يتماشى مع الدين أو أنه يؤذي الدين والإسلام هل قال ما قال وحض على طلبه؟ والكد والاجتهاد لتحصيله؟

وهو المسلم الأول والمعروف بتفانيه في سبيل الدعوة والإسلام والرسالة السماوية، وهو الذي تميز عن غيره بسائر العلوم والبلاغة والفصاحة والصدق والتصوف والزهد والتعد والاستقامة وجميع أفعال الخير.

والأجدر بمراده: أنه يعلم أن الدين لا تعرف دقائقه إلّا بالعلم والمعرفة، وأن العلم تفسير للدين وطريق لمعرفة دقائقه وأسراره وحل رموزه وإشاراته ومقاصده ومشاكله وهو وحده الذي يعالج خباياه ويستنبط مقصوداته، قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ - أي اسألوا أهل العلم- وقيل هم آل بيت الرسول صلوات الله عليه وعليهم.

ولم تأت الرسالات السماوية إلّا بالعلم وللعلم ولتصحيح الأخطاء والأوضاع الاجتماعية وتقويم المجتمعات البشرية بالعلم والتوجيه والأخلاق، وانقاذها من الجهل والفوضى والضلال، وتوجيهها عن الأفضل والأصلح.

ومن أعجب العجائب أن يكون العلم ضد الدين أو طريقاً لنكران الخالق، وأن يجهل الإنسان ما علمه ومن علمه بعدما خلقه ولم يك شيئاً مذكوراً، إذ هو نفسه دليل على خالقه وموجده الذي خلقه وعلمه، وفي اي صورة ما شاء ركبه، قال الفيلسوف الصوفي الكبير الحسن بن مكزون:

أعليه تبغون عندي دليلاً ... ووجودي منه عليه دليلي[1]

(١) ديوان المكزون - مخطوط - قدم منه قسماً كبيراً الاستاذان حامد حسن وأسعد علي.

وقال الحسن بن هانيء المعروف بأبي نواس:

ومن عجب كيف يعصى الإله | أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية | تدل على أنه واحد[1]

يقول الكاتب المعروف توفيق الحكيم: في كتاب حديث للعالم (آينشتاين) فصل ذكر فيه رأيه في الدين فقال: أنه يعتنق ما يسميه (الديانة الكونية) تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل، ذلك التناسب العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيلٍ أقرب إلى القول فيه أنه لا شيء، - ويقول: لا ريب عندي أن احساس آينشتاين نحو الكون و(الله) هو عين احساس(محمد) يوم كان يتحنث في (غار حراء) قبل نزول الوحي - إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله، ولا يمكن النبي أن يكون نبياً إلّا ان يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة، ويتحرق شوقاً إلى (صانعها) ولا يزال الشوق في قلبه حتى يكشف له (الصانع الأعظم) عن بعض نوره ويوحي اليه بنشر هذا النور على الإنسانية، - ويقول: اني كلما تأملت شخصية (محمد) مجردة ثبت ايماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وأن الجين الحق لا يتعارض والعلم الحق، بل إن العلم والدين شيء واحد كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه- كلاهما يعي ويؤمن بتناسق الوجود ووحدة قوانينه، ودلالة ذلك كله على وحدة الخالق، ولم يظهر نبي حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك، إنما الفارق بين العلم والدين في السبل التي يسلكها كل في الدنو من (الله) - ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن ووسائل الدين؟

إن الطريق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها

---

(١) ديوان أبي نواس.

ببعض، إنما المصدر واحد دائماً، والغاية واحدة، - فما العلم والدين والفن إلّا خيوط ثلاثة كتبت على بشريتنا القاصرة العمياء إن تتمسك بها لنهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية - (الله) ثم يقول: إن الإسلام هو أحدث الأديان، وهو الذي لم يخاصم العلم، وهو الذي اتسع صدره لكل شيء يصلح فيما يرى الدكتور (هيكل) لمعالجة أزمات العالم الحاضر - الروحية والاجتماعية والاقتصادية، هو رأي صادق إذا قيض الله للإسلام رجالاً ذوي نظرة نافذة وذهن مستنير واطلاع واسع يبررون فضائله بأساليب جديدة، ويتولون اذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة، ولقد صنع (هيكل) كثيراً في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في حياة محمد[1]، وما أجلى وأروع ما يقول الفيلسوف الألماني (كانت) حيث قال:

سماء مرصعة بالنجوم من فوقنا وقانون أخلاقي في نفوسنا، هذان هما جانبا مبدأ واحد بعينه يؤدي بعقلنا وبعاطفتنا إلى تفهم أفضل للعالم، فالرياضيات الخاصة بالأجرام السماوية، وأخلاقية وجودنا في الحياة الدنيا، إن هما إلّا تعبير قانوني الهي واحد يمكن تلخيص الجانب الادائي من هذا القانون في كلمة واحدة هي (الله)[2].

ويقول أبو العلاء المعري رغم تشككه:

عجبي للطبيب كيف يكفر بالخا   لق من بعد درسه التشريحا؟

أيوجد أمر أوضح من أن لهذا الكون صانعاً حكيماً سميعاً بصيراً إلى آخر سلسلة الصفات التي تصلح لكماله وتطلق عليه[3]؟ هل يعقل أن يشك

---

(١) مجلة الهلال لعام ١٩٧٨ توفيق الحكيم.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: عرفت الله بفسخ العزائم قيل له: وكيف ذلك؟، قال: إذا هممت حال بيني وبين همي حائل، فعرفت أن هنالك قوة خارجية ومدبرة ومسيطرة عليّ.

(٣) يقول الفيلسوف أريجنا المولود في ايرلندا عام (٨٠٠) أن الكليات هي عناصر الوجود، وهي أسبق من الأشياء الجزئية، ولما كانت فكرة الله أوسع الكليات شمولاً كان هو أسمى الكائنات، وليست المخلوقات على اختلاف أنواعها وألوانها إلّا صوراً يتمثل فيها الخالق.

إنسان عاقل بأن نظام هذه الطبيعة الرائع يتطلب منظماً، وأن الصنعة دليل على الصانع؟ ألا تؤلف كل هذه الاعتبارات أدلة قاطعة على وجود خالق لهذا الكون؟ ألم يسترسل علماء الديانات في استنباط البراهين العقلية على وجود الله باعتباره (العلة الأولى) ألم يمر في جميع الأدوار التاريخية ما يجعلنا نتثبت من وجود صانع أول قدير لهذه الكائنات لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؟

لا ريب أن الانقلاب العلمي والثورة الصناعية والنهضة الثقافية الحديثة وظهور الأنظمة المتطورة والمادية البحتة، كل هذه الأمور شكلت عاملاً رئيسياً، وجعلت ذلك الفيلسوف الأميركي (جيمس) وأمثاله يترددون بل ينحرفون أو ينجرفون بالتيارات المادية الحديثة فلا يرون غير المادة التي تحجبهم عما وراءها من حقائق يتثبتونها[١].

وأخذت هذه التيارات تميل بالنفوس اليها وكثر المعتنقون ما روجت لهم وزينت من ألوان وبهارج مادية تحتل الصدارة في النفوس المخلة، ولو وقف الأمر عليهم وحدهم لكان الأمر، ولكنها عدلت بالنفوس البريئة إلى التردد والشك والميوعة حيال المعتقدات الروحية، زعماً أن حضارة القرن العشرين جلت كل المشاكل والمساتير الغيبية، بل إنها وحدها الكفيلة بكشف المجهول من عالم ما وراء الطبيعة فيما إذا كان بقي أو يبقى من مجهول.

---

(١) قرأت على صفحات مجلة (ملتقى الابداع العربي) افكار الكاتب السوفياتي (الكسندر سولز) منها: الموقف الأخلاقي حتى في ميدان السياسة هو الذي يقي أرواحنا من الانهيار والتآكل الداخلي، ومنها: أن معاناة أجيال من العنف والقهر تجعل الروح الإنسانية تتطلع إلى اشياء عليا مليئة بالدفء والنقاء أكثر مما يمكن أن تيسره أساليب الحياة الغوغائية المخلة التي تقتات على غزو جحافل الاعلان المقذر المنفر وتخدير التلفزيون وهزيز الموسيقى الصاخبة التي لا تحتمل.

غير أن السائرين بهذه الآراء والمدافعين عن المادة والماديين - واهمون وقد نسوا أن الدين حقيقة أزلية تتماشى بثباتها مع العلم والتطور، ولن تقف عثرة في وجه التقدم والحضارة أبداً وإذا كان مر أو يمر حوادث معينة أو معيقة من قبل بعض رجال الدين أو من قبل المتلبسين في التديّن[1]، وأصحاب التسلط الرجعي الذين يزيفون الدين توصلاً لأهدافهم تخالف سير التقدم بآرائها وتدعو بالتعرض للاصلاح العلمي والأنظمة المتطورة، فلا يعتبر هذا قاعدة صحيحة يحتج بها على الدين فنصه بأنه تخلف أو يدعو إلى التخلف، وأن كل من يعتنق الدين رجعي، أو كل معتنقيه رجعيون يدعون إلى التخلف والجمود.

وإنما يعتبر وقوع مثل هذه الحوادث أموراً جرت أو جرت اليها مصالح خاصة دعت ذويها باسم الدين للمعارضة، والدين في علميته وروحيته براء منها وهو -ولاشك- مع العلم والذي يقضي على الخرافات والشعوذات والتقاليد البالية التي لا تمت إلى الدين في صلة ولا تسير مع التطور الاجتماعي والفكري والثقافي.

جاء في كتاب (اشتراكية الإسلام) للدكتور مصطفى السباعي قوله: أما الفئة الثانية من الفقهاء فهي على عادتها، تستقبل كل ما لا يرضيها بالسلبية والتشكيك المغلق. وتحقيق التطور الاجتماعي الصالح في المجتمع الإنساني لا يقف الإسلام في وجهه ولا في وجه التطور في مختلف نواحي

---

(١) في السابق كان يدعي أصحاب الرئاسات الدينية أو الزمنية ادعاءات كاذبة من أنهم شفعاء لأتباعهم عند الله فيصدقهم أصحاب العقول الضعيفة وقليلو الفهم والعلم الذين لا يفقهون ما جاء في كتاب الله مكذباً هذه الادعاءات، قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وقالﷺ: كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته، فكل إنسان مسؤول عن علمه خيراً كان أو شراً.

الحياة الاجتماعية إذا كان هذا التطور نتيجة محتمة لتطور الفكر والعلم وضرورات الحياة[١].

وفي كتاب المنقذ من الضلال يعلق الدكتور عبد الحليم محمود فيقول: ما من شك في أن القرآن الكريم والرسول ﷺ يطويان جميع المسائل ويضعانها تحت لواء الله سبحانه، إنهما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصبغة الله يريدان أن يكون كل عمل إنما يراد به وجه الله سبحانه، فتكون الأعمال بهذه عبادة، وتكون الدنيا دنيا، ويكون الإنسان إلهياً يتخلق بأخلاق الله[٢].

قيل إن الفيلسوف والعالم الرياضي (لابلاس) ألف كتاباً سماه (نظام الكون)

وقدمه هدية إلى (نابليون) فسأله نابليون: وما المكان الذي يحتله الله في نظامك؟

فأجابه (لابلاس): الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي؟؟

وجاء بعده (نيتشه) فأعلن في القرن الماضي أن (الله) قد مات. . .،

---

(١) وعليه فلا مانع من أن يكون رجال الفضاء الذين يقومون بكشف المجهول وتقديم معلومات جديدة عنه للبشرية جمعاء مضحين بأنفسهم، لا مانع من أنهم دينون ولهم ثوابهم وأجرهم عند الله علاوة على ما لهم من الثناء من قبل المجتمعات البشرية حاضراً ومستقبلاً، وهم -ولاريب- يجاهدون في سبيل الوطن الإنساني الكبير، وكيف لا؟ وهم يقومون بالتضحية وبكل ايمان واخلاص- أقول ما أقول معتقداً فيما إذا قيامهم بهذا الجهد والتضحية للصالح العام أو العلم بوجه خاص لا بسبيل المادة والشيطان والمصلحة والتفوق الخاص، قال العلامة الشيخ سليمان الأحمد: (أنا في اعتقادي كل فعل الواجبات من العبادة)، وهذا لا شك فيه، فإنك تعبد الله حين تزيل الجهالة عن جاهل وتعبد الله حين تعمل على شفاء مريض، أو إزالة ألم عن متألم، وتعبد الله حين تنقذ غريقاً أو محروقاً أو عاجزاً، وهكذا.

(٢) للشريعة عند الصوفيين ظاهر وباطن كما عند أكثر الأديان قديمها وحديثها، ولكل منهما اتباع من الناس، فأهل الباطن اختصهم الله لخدمته ومحبته، وأهل الظاهر لعبادته وطاعته.

فهل مثل هذه الأقاويل علمية بالمعنى العلمي الصحيح؟. أم أنها انحلال وفساد في العقيدة والضمير، ولا يجوز الأخذ فيها ولا الركون اليها؟. أم هي جهلٌ واستخفافٌ بما لا تصل اليه معلوماتهما؟

وأرى أن مثل هذه الأقوال يجب الابتعاد عنها لابتعادها عن الروح العلمية، والأولى تركها لقائليها، وإذا كان الله -وجل الله- قد مات في نفوس بعض علماء وفلاسفة أوروبا تحت تأثير وطغيان المادة والتطور الاجتماعي والصناعي والاتجاهات الثورية الفكرية الطاغية، فهل يمكننا القول إن العقائد الدينية قد تلاشت كلياً من ضمائر شعوب (أوروبا) كلها؟

كلا، وإنما نقول: إنما النظرة العلمية التي وصل اليها الإنسان الغربي عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان والعمل في سبيل المادة - خالية كلها من ذكر الله تماماً- وربما كان هذا هو المقصود بقول (لابلاس) و(نيتشه)؟ وعلى كلا الحالين فهو عكس ما رويناه آنفاً بلسان الدكتور عبد الحليم محمود عن القرآن والرسول، فتأمل الفرق وخذ بأمثل القولين[1].

ومن الافتراضات الغربية ما كتبه أحد علماء المسلمين العصريين يقول: لنفترض أننا سلمنا بأن الله هو مصدر وجود المادة الأولى فهل هذا يحل المشكلة؟ هل هذا يجيب هذا الافتراض عن سؤالنا عن مصدر

---

(١) صحيح أن المادة عصب الحياة وستر حركتها وقوام الحضارة، ولكنها تحتاج إلى تهذيب وتنسيق خيفة من طغيانها على الروح وعلى النزعات الإنسانية السامية، فالدين نفحات روحية وجدانية قدسية لا تتماشى مع المادة الطاغية، وإنما تلطف من جوها المستعر وتخفف من لهبها وتنشر رشاشاً روحياً على حرارة النفوس، ونحن الآن بأشد الحاجة إلى مثل هذه النفحات القدسية، لذلك يجب علينا التعرض دائماً لها وباستمرار أخذاً بالحديث عن الرسول ﷺ إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألّا فتعرضوا لتلك النفحات.
واعلم يا أخي العاقل الواعي أن هذا الكون في دقائقه المختلفة ليس محجوباً عنا إلّا بلثام الجهل فكل من استنهض عقله للتأمل والعلم وصهر على اجتياز سبيله أمكنه أن يميط عنه اللثام ويصل إلى حقيقة كان يجهلها.

السديم الأول؟ والجواب هو طبعاً بالنفي؟؟ أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول، وتجيب بأنها (اللّه). وأنا أسألك بدوري وما علة وجود الله؟ وستجيبني بأن الله غير معلول الوجود، وهنا أجيبك: ولماذا لا نفترض أن المادة غير معلولة الوجود؟ وبذلك يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات، والى كائنات روحية بحتة لا دليل لنا على وجودها.

ويسترسل هذا الكاتب المسلم فيقول: إن ميل الفلاسفة القدماء بما فيهم المسلمون بسبب التعصب الديني ضد هذه النظرية الفلسفية للموضوع، والواقع أن علينا أن نعترف بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون[(١)].

فعندما تقول لي: إن الله هو علة وجود المادة الأولى التي يتألف منها الكون وأسألك بدوري: وما علة وجود الله؟ إن أقصى ما تستطيع الإجابة به: لا أعرف، إلّا أن وجود الله غير معلول، ومن جهة أخرى، عندما تسألني، وما علة وجود المادة الأولى، فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: لا أعرف، إلّا أنها غير معلولة الوجود، وفي نهاية الأمر اعترف كل منها بجهله حيال المصدر الأول للأشياء.

ويسترسل الكاتب فيقول: والخلاصة: إذا قلنا: إن المادة الأولى قديمة وغير محدثة أو أن الله قديم وغير محدث نكون قد اعترفنا بأننا لا نعرف، ولا نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء، فالأفضل اذاً أن نعترف بجهلنا لأن الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمي، وتعرفون أن العالم

---

(١) هل نسي كاتبنا الكريم: إن الذين قالوا وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع هم الذين اتفق الجميع على تسميتهم (زنادقة) وهؤلاء كانوا يقولون: لم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون ابداً، فهل يرضى كاتبنا - وأجله - أن يكون منهم أو مثلهم (زنديقاً) ملحداً إننا نضن به وبأمثاله، فهل له أن يضن بنفسه والعود أحمد.

ملزم على تعليق الحكم عندما لا تتوفر لديه الأدلة والشواهد في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة أقول: إن هذا الكاتب البارع والعالم اللامع والمسلم بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ ربما كان شيوعي المذهب والمعتقد فنعتبره اعتباراً آخر.

وعلى كل فقد فاته أو تناسى أن العالم لا يعلق حكمه إلى الأبد، ولكن بينما تظهر له الأدلة الكافية فقط، فإذا توفرت لديه الأدلة والبيانات أصدر حكمه فوراً وبدون تردد، هذا من جهة إلزام العالم بتعليق حكمه حتى تتوفر لديه الأدلة.

وأما من جهة البحث عن وجود الله، فمن المسلم به بديهياً بأنه موجود، وأن واجب الوجود، و لكن السؤال عن علة وجوده فخارج عن جميع المواضيع العلمية والعقلية وغير وارد عند أحد، ويعتبر من السفسطات والمهاترات الخيالية، كذلك: فلن تبحث كيفية البارىء تعالى، ولن تعرف على التجربة العلمية، فالله سبحانه نور مجرد لا يصل إلى معرفته علم (الفيزياء والكيمياء، والرياضيات) فهو ليس مادة[١].

فالتجربة عاجزة عن معرفته لمساً أو حصراً، وعجزها دليل قاطع على وجود تلك القوة التي هي (وجوده) الذي لا يتجزأ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾، وإنما يعرف بالعقل النير والوجدان واليقين والتأمل في مشاهد الكون سماوياً وأرضياً، وبأن لكل معلول علة، و لكل مصنوع صانعاً ولكل موجود موجداً، وبتصديق الرسل التي جاءت بالمعاجز الخارقة برهاناً على صدق دعواتها، وبالكتب

---

(١) قال بعض العلماء، لعله الشيء الذي وقف العلم حائراً عن كشفه في تجاربه المادية ولم يستطع أن يصل إليه، ولن يصل إلّا بالإيمان الخالص والوجدان اليقيني رغم تفجير الذرة وتفتيتها، وهل للمحاط أن يدرك المحيط و؟. كلا؟.

السماوية التي تميزت عن غيرها. وبخاصة القرآن الكريم - المعجزة القصوى فصاحة وبلاغة وتركيباً وتنسيقاً ولفظاً ومعنى وبياناً وتوجيهاً وتنظيماً وتشريعاً وترغيباً وترهيباً، والذي أعجز المخلوقين عن وضع مرادف آخر منه يعطي ديباجته وموسيقاه ترتيلاً وغنة وبلاغة[1] رغم كثرة المرادفات اللفظية في اللغة العربية أو إبدال كلمة مكان أخرى فيه، وهو القائل متحدياً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وقد نرى نفس الإنسان مع ضعفها بالنسبة للخالق وقف العلم حائراً في كنهها واستسلم عاجزاً عن معرفتها لا سيما القائلون، أن المادة أصل كل شيء، وسلموا بأن العقل هو الذي يميز بين صحة التجربة وخطئها.

وإذا كان العقل هو المميز الوحيد فهو سابق على التجربة، وإذا كان سابقاً على التجربة فهو جوهر مجرد، وإذا كان جوهراً مجرداً فليس هو من جنس المادة ولا نوعها، ولا أصلها، فليس هو مادة، اذاً فمن أين حصل الإنسان على هذا الجوهر النوري المجرد؟ ولم يبق لدينا إلّا الاعتراف

---

(١) جاء في كتاب (اعجاز القرآن) للباقلاني المتوفى عام (٤٠٣هـ) قوله: قد ثبت فيما بيناه أن نبوة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن الكريم الذي تلاه على من في عصره ثلاثة وعشرين ودعا به ملوك العرب والعجم والروم والقبط والحبش،ووقف الجميع على جملته وتفصيله، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله طيلة السنين التي ذكرت، ولم يأتوا بذلك، وهو مذكور في القرآن في مواضيع كثيرة كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٣٨﴾﴾ - ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٥٠﴾﴾ - فجعل عجزهم عن الاتيان دليلاً على أنه منه ودليلاً على وحدانيته، وتحداهم أيضاً وعرّفهم أنه من عند الله بقوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴿٨٨﴾﴾ - وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴿٣٣﴾﴾.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

بوجود (صانع حكيم) يعلو عن المادة، بل تقوم به المادة، بل كل الكائنات مادة كانت أو غير مادة - دل عليه العقل الذي هو منه كشعاع الشمس من الشمس، وفي الحديث القدسي: أول ما خلق الله هو العقل، قال له أقبل فأقبل، ثم قال أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب الي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب، وبك أعوف، وهذا العقل هو الأمانة التي جعل الله الإنسان بها خليقته في الأرض دون غيره من سائر المخلوقات.

وهذا العقل الأول بالتكوين: عرفه العلماء الإلهيون بالعقل الكلي، الذي فاضت عنه سائر العقول، ولأن به تعقل الأمور كلها قالوا: ما عبد الله إلّا ذو عقل، وباعتباره الوسيلة الصادقة التي بها يعرف الله ويعبد قالوا: من لا عقل له لا دين له، وسنأتي بمزيد من التفصيل عنه في بحث آخر إن شاء الله تعالى.

ولست أدري كيف تبلغ الجرأة بالمسلم الذي بلغ درجة عالية من العلم والثقافة فيكتب ما يخالف العقل والدين والعلم؟ ثم يعطي حكمه جزافاً، ويستدرج سواه ليأخذ برأيه، أليس عجيباً أن لا يصدق بوجود خالق الكائنات التي يشهد كل شيء منها بوجوده - إلّا من يراه بعينه ويلمسه بيده؟ والله سبحانه ألطف وأعلى من أن يتصور في فكر أو يتخيل في وهم، فكيف يتصور في الحس..؟ وجل الله عن الصورة والتصوير والتحسيم والتغيير - وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

جاء في نهج الإمامة للإمام علي عليه السلام قوله: إن من أبغض الرجال إلى الله لعبد أوكله الله إلى نفسه جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل، إن دعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دعي إلى حرث الآخرة كسل، كأن ما عمل له واجب، وما ونى فيه ساقط عنه ؟؟.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

ولعل الكاتب المذكور يؤمن بحرية الكتابة والرأي، ونحن معه، ولكن بشرط أن يكون للحرية حدود، ولا تمس بمصلحة الآخرين، ليته قال كما قال الفيلسوف (جيفرسون) إن الله الذي وهبنا الحياة ووهبنا الحرية معها في نفس اللحظة ولنفس السبب لأن الحرية روح الحياة ولا يتأتى أن يكون لها بدونها وجود ولنفس الأسباب لأن غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض من وجودها ومنفذة مشيئة الله الكامنة فيها، وعلى أستاذنا الكاتب أن يعلم أن الذي يفرط في معنى الحرية بإعطائها صفة غير صفتها ومعنى غير معناها ليشتري لذة عابرة لا يستحق الحرية، ولو فهمت الحرية على أصولها - وكما أرادها الله للعبد لأدت واجباً حياتياً شريفاً ومعنوياً صحيحاً، ولا ريب أن الكبت وضيق الصدر والأفق ونضوب التسامح أخطر على الدين وأكثر أذى من الحرية الواعية.

وشبابنا - رعاهم الله - قد عميت على أكثرهم السبل فأخذوا يسيرون على غير هدى ولا كتاب منير.

والغريب الغريب، ماذا يضلّهم ويميل بهم إلى الانحراف عن الجادة الواضحة جادة الإسلام الصحيح ؟ أهو رجال الدين الذين يتناحرون حول التأويلات كل حسب مذهبه ؟ أم هو كثرة الحديث المتناقض واحتمال أكثره موضوعاً وفق مصالح الحكام والسلاطين والسياسة الجائرة المنحرفة عن الخط الإسلامي كما جاء به الرسول وسار عليه أصحابه الأفاضل سابقاً؟ أم هو التقاليد الموروثة والتي لا تتماشى مع العلم ولا مع التطور العصري؟

كل هذا يمكن أن يكون، وإذا كان هذا، فلماذا يستنكرون ويسكتون ؟

وبدلاً من أن ينحرفوا عن الجادة الصحيحة من التدين والدين، لماذا لا يكتبون ولا ينحرفون؟ لماذا لا يكشفون أغطية الزيف والمزيفين. والنفاق والمنافقين، قديمين كانوا أو حديثين؟

لتظهر الحقائق ناصعة واضحة، ويأمن المسلم البريء من الخطأ والضلال، ويكونون بذلك قد أدوا واجباً مقدساً وكبيراً كان قد أغفله أو أهمله من جاء قبلهم قصداً أو عن غير قصد.

وإذا لم يكن هذا ولا ذلك، فيكون الذي مال بهم عن الجادة هو طغيان المادة أو بعض المبادىء الهدامة التي يعتنقونها دون أن يخبروا أو يكتشفوا ما وراءها من عيوب وضرر وإلحاد ومروق من الأخلاق، وميوعة وفوضى، وهل يقصد واضعوها إلّا هدم الضمير والعقل والنبل والإنسانية التي خلقها الله وحملها العبد ليكون بها خليفته في هذه الأرض؟

إن الاتحاد السوفياتي بلد الشيوعية والإلحاد والفلسفة المادية يذهب الكثير من مواطنيه إلى أماكن العبادة دون أن يمنعهم مانع أو يعترضهم معترضٌ، كذلك لا يطلق عليهم اسم المتخلفين رغم أنهم لا يسايرون الآراء الشيوعية أو مبادئها بحرفيتها.

أما عندنا -وياللأسف- فخوفاً من التسمية بالتخلف والرجعية يقاطع الكثير أمكنة العبادة ويهربون منها، ولكن إلى أين يهربون؟

الى الإلحاد أو الفوضوية الذهنية والروحية كيلا يوصموا بعار التدين، ومن سخرية القدر أن يكون التدين والاعتقاد بوجود الخالق عاراً وتخلفاً ورجعية، وكأن تحكيم العقل والوجدان وادراك الأمور والتأمل في مشاهد الكون لإدراك الحقائق والوصول عن طريقها إلى معرفة مساتير غيبية تخدم الروح بعد فراقها الجسد الذي عنيت بخدمته وتصديق الرسل والكتب

السماوية لإصلاح مفاسد المجتمعات البشرية تعليماً وتوجيهاً وتنظيماً وإرشاداً كأن هذا كله تخلف ورجعية ؟؟..

أما تكذيب الرسل ونكران الخالق، والإلحاد بأسمائه، ونسيان الحشر والنشر والروح والحساب وتنحية العقل واهماله، وعبادة المادة - كله تقدم وعلم. إن هذا الشيء عجاب، فما لكم كيف تحكمون؟[1].

نحن مع الأخ الكاتب المذكور بقوله: إن الاعتراف الصريح من أهم مقومات التفكير العلمي ونزيد عليه فنقول: إن الاعتراف الصريح بالحقيقة فضيلة كبرى، ولكن أين الحقيقة التي توخاها أو وصل اليها بافتراضاته وأرانا إياها؟ إن لم تكن الاستخفاف عينه فهي الباطل عينه. نحن نسأله: ألم يعايش الدين العلم منذ آلاف السنين، ويتكيف مع الأوضاع التي تحيط به، والتي تتجدد جيلاً بعد جيل؟ ألم توجد النظرية النسبية بالقرآن الكريم قبل آينشتاين ؟ ومنذ ألف سنة وأكثر كان يقول بها (أبيقود) لا وجود للزمان بذاته، بل وجوده بالأشياء المحسوسة وحدها، تلك الأشياء التي منها فكرة الماضي والحاضر والمستقبل[2].

ألم يشرح العلم وتطور الاختراع وغزو الفضاء ما جاء به الإسلام في كتابه الكريم مثل: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ - أي بالعلم ؟[3].

---

(١) روي أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو يستعد لقتال الفرس، فآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة....، فما أحسن هذه الوصية لمن عمل بها، ولا ريب أن ما يصيب المسلمين الآن من خذلان هو بسبب قعودهم واهمالهم ما كان يجب عليهم كما كان يقوم به آباؤهم من الأوامر والنواهي الإلهية - فالله سبحانه يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(٢) كتاب ما بعد القمر، للعلامة الشيخ أحمد حيدر.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

ومثل قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[١].

الى كثير من مثل هاتين الآيتين شرحها العلم بخلاف ما كنا نعلم شرحها، وسيشرح غيرها -قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢].

سبحان الله ما لنا لا نتعظ وقد جاءتنا الموعظة من ربنا ومن أنفسنا نيرة واضحة؟

ومن المسلم به أن المنهج العلمي الحديث لا يتعدى نظام الطبيعة والأشياء المحسوسة، فهو لا يتيسر له البحث في الحقائق التجريدية مما وراء عالم الشهادة الذي لا يعرف إلّا بالإيمان المحض والتأملات العقلية واستبصار الروح النفسية كما عرفها الصوفي[٣] بتجربته اليقينية وسيره اليها بروحه ووجدانه قال أحد الفلاسفة الفرنسيين[٤]: إن الإنسان الذي يهتم بمشكلة الدين، إما أن يصدق شهادة الصوفي ويعتبرها دلالة كافية على وجود حقيقة روحية عالية، وإما أن يسير بنفسه على الطريق الذي عليه

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٣) انقسم الناس في معرفة الحقيقة ثلاثة أقسام: الصوفيون، الفلاسفة الإلهيون النقليون، فالصوفيون قالوا: الوصول إلى الحقيقة بالسلوك ونقاء النفس... الخ، والفلاسفة قالوا: الوصول إلى الحقيقة بالتجربة والبرهان، والنقليون قالوا: الوصول إلى الحقيقة بما جاء به الرسل والكتب السماوية.

(٤) منبعا الأخلاق والدين للفيلسوف الفرنسي هنري برغسون - يهودي الأصل، ومن أقواله الفلسفية الرائعة قوله: الواقع أن جوهر حياة الإنسان الخلاقة هو الله، ويقول الله هو الحياة والحياة تدفع إلى أعلى أعلى على الدوام، إن تيار الحياة ليمتد بعد موت الفرد وميل المادة إلى تحطيم نفسها، والحياة يقتلها فشل موقوت ولا يمكن أن يصد تدفقها، وتكمن فينا جميعاً دفقة الحياة وتلك قاهرة لا تقهر، هذه الشرارة الحية هذه الطاقة التي تتدخل خلسة ومن تلقاء نفسها في أحط أنواع المادة وتتلاءم معها ثم تسيطر عليها شيئاً فشيئاً (مجلة الهلال، أعلام الفكر الأوروبي ١٩٧٧).

الصوفي ليحقق بنفسه من صدق شهادته أو كذبها، ويضيف هذا الفيلسوف قائلاً: إننا لسنا مضطرين إلى اللجوء لمثل هذا الإجراء لأننا في معظم الأحيان نصدق شهادة الناس والعلماء دون أن نمر بذات الخبرات والتجارب التي مروا بها، ولا يجوز التشكيك والتضليل فالإنصاف يدعوك ألا تحكم على التصوف قبل أن تسير بنفسك على الطريق التي سكلها وسار عليها، وهو لا يختمره الشك في سلوكه وتصرفاته وطريقه[(١)].

هذه الطريق هي طريق البصيرة والوجدان واليقين وتصفية الروح من أدران المادة وكدورتها وهي طريق الإيمان النقي الخالص من الشوائب، - ولعلك مهما تحاول أن تبعث الشك في نفس الصوفي فقد تحاول عبثاً، لأن لديه القناعة القاطعة بالنتيجة التي وصل اليها، فهو لا يتحرك عن فكرة تلقاها إلهاماً، فليتنا نأخذ برأي هذا الفيلسوف ولا نحكم ولا نعتقد إلّا بعد دراسة وتمحيص ومعرفة وبرهان وعلم ويقين-.

فالأجدر ألّا ندع العقل يقرر بالأمور الغيبية وحده دون أن يستعين بالنقل الصحيح واليقين الوجداني، لأن العقل - مهما كان له من القيمة والصفة الباطنية - فهو محدود، والله سبحانه جعل للعبد هذه الجوهرة ليميز بها بين المتناقضات والمخالفات ليميز بين الحسن والقبيح والخطأ والصواب والخير والشر، وهكذا..

ويقول علماء التوحيد: والبحوث العقلية الفلسفية في الالهيات أمر

---

(١) يقول الفلاسفة الصوفيون: مراتب الاحتجاب ثلاث: الأولى الاحتجاب للكفار، ابصارهم وبصائرهم فحرموا النظر إلى ربهم، الثانية: مرتبة الكشف مع الاحتجاب منسوبة إلى المؤمنين كشفت عن بصائرهم الحجب فرأوا ربهم بنور الإيمان لا بنور العيان. الثالثة: مرتبة الكشف بلا حجاب وهي مخصوصة بالموقنين - كشف عن أبصارهم وعن بصائرهم فرأوا الله بنور العيان كما أنهم نظروا اليه بنور الإحسان والإيقان - لعله التجلي المعروف عندهم - مقدمة كتاب التنبيه مخطوط، نقل العلامة الشيخ أحمد حيدر.

طبيعي بالنسبة لذوي الأفكار الناشئة في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس، وليس غريباً أن يوجد هناك أناس يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة، لأن الإنسان بفطرته مولع بحب الاطلاع فيحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ويشوق إلى رؤية المجهول - ومن المجهول عالم الغيب - ولكن في البيئات التي نزلت فيها كتب سماوية مقدسة محتفظة بنظرتها وأصولها ونقائها، فمن غير الطبيعي أن ينشأ بجوار نصوصها المعصومة اختراعات ذهنية عقلية تتصل بعالم الغيب دون اللجوء إلى النصوص المعصومة.

لأن ثمرة الفكر الإنساني عرضة للخطأ، والخطأ في البحث عن الغيب أو الذات الإلهية أو الصفات الإلهية وفي عالم الغيب أجمع فيه خطورة كبيرة.

اذاً فالطريق المستقيم أن لا ينشأ بجوار النص المقدس تقرير عقلي أو اختراع ذهني يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عسى أن يقع في نتائج البحث العقلي من أخطاء، فالمبدأ السليم عند ذوي العقول الحكيمة التسليم للنص المقدس مهما حام حوله من ملابسات خارجية، لأن استعمال العقل وحده فيما وراء الطبيعة - عالم الغيب- مخاطر رهيبة، كمن يقطع البحر على لوح من خشب وهيهات أن ينجو من الغرق.

ومن الجهل أن يحاول إنسان بذهنه المحدود وتحديد ما لا يحد ووصف ما لا يوصف، إن رسالة محمد ﷺ الدينية العلمية الثورية الاشتراكية، وإن كانت تساير ركب التقدم العلمي والحضاري في كل العصور وعلى مدى الأزمان[1]، فمن خصائصها الأولى التسليم والإيمان

---

(١) جاء في كتاب اليمين واليسار في الإسلام قوله: الإسلام يؤمن بالارتباط الوثيق بين الرسالة السماوية وبين التطور الإنساني.

(بالخالق) وعدم الشك بالعلة الأولى (الله) والاستدلال عليه بآياته في السماء والأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾... الخ، وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾... الخ، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾(١).

ففي هذه الآيات دعوة صريحة للاستدلال والتأمل في السماوات والأرض وفي تكوين الإنسان وتركيبه العجيب، وبناء السماء الذي قام على قاعدة هندسية فريدة، وفي خلق الأرض وتنوع نباتاتها ومخلوقاتها والمطر ودورته - تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، أي يكلف كل إنسان بالبحث والتقصي والدراسة لتحصيل العلم وجمع شتى المعرفة التي هي الهدف الحقيقي لوجوده على الأرض أو كان خليفة الله فيها.

وكفى بالقرآن موعظة ومعجزة. قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

إن رسالة محمد ﷺ خالدة وقد عمت الأرض بنورها وإشعاعها، وهي وحدها الكفيلة بمعرفة عالم الغيب والذي جاءت هذه الرسالة دليلاً على وجوده، وعلى أن به قيام كل شيء.

قال أحد الفلاسفة الغربيين: إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس والعالم أجمع. قلنا: إن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أسهل العقائد، وأقلها غموضاً وأبعدها عن

---

(١) سورة ق، الآيات: ٦ ـ ١٠.

التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية، وقد كان لها أكبر الأثر والفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم القواعد الصحيحة وحرر الإسلام خمسة قرون على الأقل، يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسطة الملك، وجميل الطباع والأخلاق وفي ارتفاع مستوى الحياة وفي التشريع الإنساني الرحيم والتسامح الديني والآداب والبحث العلمي والعلوم والطب والفلسفة وكل ما فيه تقدم الإنسانية نحو المثل العليا(١).

قال (بوناردشو): ما أحوج العالم إلى رجل مثل (محمد) لحل مشكلاته.؟ ويقول الاستاذ خالد محمد خالد: لو لم يكن محمد رسولاً لكان (محمد) ولو لم يتلق الأمر من ربه لتلقاه من ذاته(٢) وهذا معناه: يدل به على عظمة محمد وعظمة رسالته وأنها معجزة خارقة لا يمكن لذي عقل أن يجهلها او يعبث بها او ينكر وحيها وكتابها الذي تحدى الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

---

(١) هذا الفيلسوف هو بول ديورانت، وكان الأحرى به أن يضم مع المسلمين العالم الغربي الذي كان الجهل يتحكم به ثم الضلال والتأخر والفساد، والاقطاع، والظلم، إبان العصر الإسلامي الثاني والثالث حتى أوائل القرن الرابع الهجري، كذلك كان على هذا الفيلسوف وهو يشيد بالإسلام، أن لا ينسى أن رسالة محمدﷺ للناس كافة.
في كتاب اشتراكية الإسلام للدكتور السباعي، وإذا كانت الحضارة الغربية ظهرت بتطورها منذ أوائل القرن السابع عشر وسبقت، فلا مانع من الأخذ منها من حيث تجاربها في الصناعة والتجارة والهندسة والطب وسائر العلوم مع الاحتفاظ بروحانية العقيدة التي يلون بها كل ما يؤخذ من علم ثم يكون موجهاً للخير العام لا إفراط ولا تفريط والإسلام حث على طلب العلم ولو بالصين وفي رواية ولو عن المزابل، ولكننا وللأسف - نأخذ ما يضرنا - لم نأخذ أهميتهم وفاعليتهم في العمل والبناء، وإنما نأخذ عنهم عاداتهم الاستهلاكية الضارة وأزياءهم، فلم نأخذ إلّا ما كان سيئاً قليل النفع.

(٢) إنسانيات محمد للأستاذ خالد محمد خالد، - جاء عن الرسولﷺ أنه رأى عمر(رضه) يقرأ ورقة في التوراة فقالﷺ له: (دعها يا عمر، لقد أتيت بها بيضاء نقية على المحجة البيضاء، لو كان اخي موسى في زمني لما وسعه إلّا اتباعي).
ولم يترك شيئاً إلّا وذكره -﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ -﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

فماذا ينكر المنكر؟. وماذا يطلب برهاناً على البرهان؟. هل لا يقنعه إلّا ما كان يقنع اليهود الذين طلبوا من محمدﷺ ليصدقوا برسالته - أن ينزل عليهم من السماء يرونه رأي العين؟. فندد الله بهم إذ قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾[1].

أم أن هذا المنكر يرضى أن يشتمل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[2] ولقد آن للغافل أن ينتبه ويضن بنفسه أن تكون طعاماً لجهنم. ولله در الدكتور محمود إذ يقول:

إذا كان الحس عاجزاً عن الوصول بنا إلى المغيبات فإننا لا نحسها، وإذا كان العقل - وهو مبني على الحس - قاصراً كذلك -، إذن فعلم الكلام الذي لا يسير على نهج سلفي ليس بدعة فحسب، وإنما هو ضلالة وهو عبث وهو انحراف عن سواء السبيل - اقول: لعله يريد بعلم الكلام الجدل المبني على عقل الإنسان المحدود وحده دون الأخذ بالنقل الصحيح المتواتر عن علماء وثقاة ومحدثين صادقين ورسل وهداة معصومين والذي عليه الجميع متفقون.

والخلاصة: إن الفكر الديني الواعي ليس إلّا على الصعيد العلوي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) (سورة الاعراف) انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ انظر إلى هذه الجملة القصيرة وما فيها من معان تخفى إلّا على المتدبر المدقق لمقاصدها، فهي ترجع كل ما يرتفع فيها إلى الأرض... ترجع بخار الماء مطراً، وترجع الأجسام بالجاذبية الأرضية، وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها، كما ترجع الأشعة الحرارية تحت الحمراء معكوسة إلى الأرض بنفس الطريقة فتدفئها ليلاً، كما تعكس السماء ما ينقذف اليها من العالم الخارجي فهي بذلك تحمي الأرض من قذائف الأشعة الكونية المميتة والأشعة فوق البنفسجية القاتلة..، ومن تدبر القرآن يجد فيه كل شيء من العلم.

مهما أطلق عليه من الأسماء كالذهنية الدينية، أو الايديولوجية الغيبية، أو العقلية الروحية السلفية، واضحة - ولا شك - ما بعد عن التقبل العفوي، والاعتناق اللاشعوري للإنسان العادي ضمن أطار (الايديولوجية الغيبية) السائدة في الناس، ويجب أن يعنينا الدين كثيراً من حيث إنه قوة هائلة داخلة في صميم حياتنا ومؤثرة في جوهر بنياننا الفكري والنفسي تأثيراً كبيراً، وتحدد طريق تفكيرنا وردود فعلنا نحو العالم الذي نعيش فيه، وتشكل جزءاً كبيراً من سلوكنا وأخلاقنا وعاداتنا التي نشأنا عليها[١] ولا ريب أن الدين يدخل في صميم حياة الغالبية العظمى من الناس بصفته جوهراً روحياً رغم المتشنجين والمترددين والملحدين.

ومن هنا وقع الصراع بينه وبين المادة التي أخذت تطغى على أكثر النفوس البشرية عدا القلة النادرة الذين يدرسونه دراسة عميقة مركزة، أو القديسين الصوفيين، ولا أريد أن أقول يجب الاستمرار في المعتقدات الموروثة على علاتها عندما لا تنسجم مع العقل والنقل المتواتر الصحيح، ولا أخذها تقليداً كما هو الحال بدون دراسة وتمحيص[٢].

---

(١) المراد بجوهر بنياننا: الاخلاق والضمير والسلوك، وهنا أرجو أن لا ينسى شبابنا المثقف أن طغيان المادة يقضي على القيم الروحية والاخلاقية ومشاعر الحب والرحمة والتعاطف التي كانت تفيض عفوية من داخلنا، فليحذرها مبتعداً عمن اصيبوا بمرض الحضارة المادية المعاصرة التي نضبت روحياً وانسانية.

(٢) دراسة الدين يجب أن تكون دراسة مركزة لأنها تبعد بالنفس عن طريق الانحراف والشك والتقليد مع العلم أن تقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لإصلاح ديني رغم أن جميع الأديان السماوية تحاربها ولو كان للتقاليد سلطان ما قامت للإسلام قائمة فإنه لم يحارب بشيء كما حورب بها لذلك أخذ القرآن يسخر بأنصارها عندما يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ - فيصنعهم القرآن ويسخر بهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾. والذي يقرأ القرآن بفهم يرى فيه علم كل شيء فقد أشار إلى كروية الأرض ودورانها...﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾.. .﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وأشار إلى الذرة...﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾... فكل ما في القرآن إعجاز وعلم وقدرة تدل على (الخلاق العظيم).

ولعل هناك كثيراً ممَّن يدعون الدين يفرضبونه على من يتفقون عليهم علماً وثقافة - لا أقول إيماناً - أو ينتقدونهم لأنهم يرفضون الاستسلام الساذج لهم، ولو درس الدين من قبل طائفة من العلماء والمثقفين وطرحت منه النفايات التي لا علاقة للدين بها لم أره يتدنى بل يعلو ويستمر ويتكاثر أتباعه والمدافعون عنه من شبابنا المثقف وأجيالنا الصاعدة، وتختفي غطرسة أولئك المدعين. الذين يوهمون سواهم من الناس السذج أن الدين يجب أن يكون تقليداً وهذا خلاف الصحيح، نعم هناك أمور يجب تقليدها - أمور فرضها الإسلام على لسان كتاب الإسلام ورسول الإسلام وأحاط معانيها من جميع الجوانب فمثلاً: إذا قال: ﴿...عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. فقد أوجب التسليم والقيام بالأمر على كل مستطيع... وهكذا ما فرضه الإسلام وأمر به الشارع.

والموقف الديني القديم، إذا كان ممتلئاً بالطمأنينة والتسليم، فهو الآن قد تبدل بموقف حديث وانقلاب علمي وثقافي صارم لا يتماشى مع التقليد إلّا بعد دراسة وتمحيص دقيق[1] وإني لأرى - وكما سبق

(١) إن من يدرس الدين وأصوله دراسة عميقة مركزة لا تستطيع أن تطغى عليه الأفكار المادية الهدامة ولا الماديون، ولو التفت شبابنا المثقف - ولو قليلاً - نحو دراسته لوجدوا فيه أرضاً خصبة وثقافة عالية وخيراً كثيراً ولقل المعارضون له منهم، وفي المثل: من جهل شيئاً عاداه، فليقرؤوا منه ما تسمح لهم ظروفهم به، لعل الحقيقة تتجلى لهم خالية من الشوائب المريبة والشك والتردد، ويتغير رأيهم حول هذه النعمة التي ينكرونها جهلاً بقيمتها الدائمة كما أنهم يجدون هناك علماً جمّاً وثقافة جديدة تعتني بالروح تنفع الجسد، ولا أرى أن قارىء الدين المثقف تستعصي عليه معرفة دقائقه إذا هو قرأه بصورة مركزة ونفس مطمئنة مرتاحة له. وجدير بكل شاب أن يقرأه قبل أن ينتقده أو يعارضه، وبعدئذ له أن ينتقد او لا ولعله بعد قراءته لا ينتقد الدين، وإنما ينتقد الذي يزيفونه والجهلاء الذين يدعون معرفته وبينه وبينهم واد سحيق، ولعمري ليس أحقر من الإنسان الجاهل بكل شيء إلّا من يسكره علمه اليسير عن جهله الغزير، وليس أحقر من هذا وذاك إلّا جاهل يتباهى بعلم غيره، وكسول يفخر بجهل سواه، ومغرور يدعي بما لا يعرف، ومنكر علم لم يقرأه ولم يلم به.

من هذه المقدمة على ألسنة العلماء والفلاسفة والكتاب والمحدثين وما جاء عن الرسول ﷺ وأهل بيته المعصومين ومن القرآن الكريم - أرى الدين لا يتناقض مع العلم، ولم يكن في يوم من الأيام سداً يمنع من التقدم، والعلم الصحيح هو الذي يشرح رموز الدين وإشاراته ويجلو غوامضه ومقصوداته ويقود إلى معرفة دقائقه مستنبطاً ما دق وخفي من مكنوناته.

ومن المعلوم أن الدين لا يصنع القنبلة الذرية أو الهيدروجينية ولا السفن الفضائية، وإن كان جاء في القرآن ما يومئ إلى تلك المخترعات، ولكن لا يتعارض مع العلم الذي وصل بعقل الإنسان للتجربة التي صنعت هذه الآلات والاختراعات والى صنع العقول الالكترونية والوسائل الحضارية الأخرى، باعتبار هذه المخترعات غير ماسة بجوهر الدين وتشريعاته وأوامره ونواهيه وإرشاداته وغيبياته وأخلاقياته.

فالدين معروف أن مهمته الأولى أو بالدرجة الأولى: الإيمان بالله - الإيمان بملائكته - الإيمان بكتبه - الإيمان برسله - الإيمان باليوم الآخر، ثم يأتي التنظيم والتشريع لإصلاح المجتمعات البشرية والعمل بالأوامر الإلهية والنواهي وما تفرع عنها في سبيل الإصلاح ورفاهية الإنسان خيره.

فهل يختلف العلم مع الدين في شيء من هذا ؟. لا أرى ذلك إلّا إذا عدل كلياً نحو المادة والإلحاد، وهذا - كما أرى - لا يعد خلافاً ولا تناقضاً، وإنما يعد انحرافاً من رجال العلم عن الجادة العلمية، وامتهاناً للروح التي لا تعنى بها المادة غايتها بالجسد الفاني فترة حياة قصيرة في هذه الدنيا الفانية.

خلق الله الإنسان ليحصل على المعرفة، ووضع له مناهج الدراسة،

موضوعات البحث وخلق الوجود مشتملاً على كل صنوف المعرفة ليكون مصدراً لها. وحثه على التفكير والتقصي والبحث عن الأسباب والعلل وكشف المجهول في مختلف ميادين المعرفة.

يقول الدكتور العقّاد: إن العلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد، فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام - إذ كان خير عبادة لله أن يهتدي الإنسان إلى سرِّ الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله، وعليه فيكون عالماً مخلوقاً على أسس علمية لتحقيق هدف معين، إنه خلق ليكون معهداً كبيراً يدرس فيه الإنسان ويجمع ألوان العلم وصنوف المعرفة مما اشتمل عليه من مظاهر الطبيعة وظواهرها ونواميسها وخصائصها وخصائص الكائنات، وعلى الإنسان تفسير هذه النواميس والكشف عما فيها من قوانين وخصائص المادة.

والمتأمل في هذا العالم يجد أن كل ما فيه من حيوان ونبات وجماد يسير في دورته على أسس وقوانين علمية ثابتة وأنها لم تتغيّر منذ النشأة الأولى لهذا العالم[١] وجاء في كتاب (بين عالمين): إن الإنسان بما أودعه الله من خصيصة البحث عن الحقائق والكشف عن المجهول وحب الاستطلاع، دأب على استجلاء غوامض الكون عن طريق الملاحظة والموازنة والاستنتاج فاستطاع أن يفرق بين الخير والشر وأن يقلل كثيراً من الظواهر الطبيعية ويكشف القوانين التي تحكمها وتضبط تصرفاتها، واتخذ من المادة التي يدرسها مجالاً لتجاربه العلمية[٢].

أما إذا كانت المادة تزعم أن الروح تولد مع الجسد وتفنى بغذائه فهي

(١) التفكير فريضة إسلامية ص ٨٥ - ٨٦ - العقاد.
(٢) راجع كتاب (بين عالمين) للأستاذ مصطفى الكيك.

قد عجزت عن البرهان لإثبات زعمها، وباءت بالفشل الذريع - الذي لا نحتاج إلى نقاشه أمام عقول وأفكار وأقلام العلماء والفلاسفة الإلهيين الذين أثبتوا وجود (الصانع الأول) وعالم الغيب وخلود الروح، وقال الكثير منهم: كفى بالقرآن معجزة تدل بضوح على وجود الخالق الحكيم وصدق رسالة محمد ﷺ المنزلة وحياً من عند الله الذي لا يحاط به ولا بشيء من علمه، وإن العقل البشري - مهما سما - لقاصر عن معرفته معرفة إحاطة وإدراك.

فالبارئ سبحانه - كما عرفوه شيء لا كالأشياء وجسم لا كالأجسام - ونور لا كالأنوار، وهو يدرك الأبصار وليست الأبصار تدركه وهو اللطيف الخبير، وهو محيط بالأشياء كلها لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء - ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾، ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ ذلك لأن قيام الكائنات به - بعلمه - بقدرته - بنوره الذي لا يتجزأ والذي تعيش به سائر الموجودات، به توصف الصفات لا بالصفات يوصف، وبه يعرف العقل لا بالعقل يعرف، منزه عن نظرة النواظر والخواطر فكل ما يخطر بالبال فالله خالقه - لا لون له ولا رائحة ولا طعم ولا شم ولا لمس، لكنه جسم بالوحدانية العظمى - ذاته ذات نورية مطلقة مجردة - ولعله هو الشيء الذي وقف العلم عاجزاً عن كشفه وهو الوجود الأول لكل موجود[١].

وعليه فقد يكون الإيمان بوجوده قد توفرت عليه جميع الأدلة الكونية

---

(١) هذا مما يقوله الموحدون في تنزيه البارئ فتأمل.

والبينات العلمية والشواهد السماوية والبراهين العقلية والوجدانية والأدبية، ولم يكابر بذلك إلا محتج مارق أو زنديق فاسق.

وإلى هنا أكون قد انتهيت من هذه المقدمة وأرجو أن أكون قد أحسنت التقديم وربما أسهبت فيها واسترسلت بغية الفائدة، وحرصاً على أن تكون تمهيداً سليماً يوفي بالمقصود وطريقاً لا حبّاً ومنهاجاً صالحاً لتيسير وتسهيل المواضيع الآتية في نظر القارئين من الشباب المثقفين (حرسهم الله) وأذهانهم ووجدانهم ويقينهم وجلاء الشك والحيرة والتردد لديهم [١].

ولا أراني أدرى منهم فهماً ولا أكثر منهم ثقافة، ولكن ربما كانوا اقل مني اطلاعاً على هذه الناحية التي أتيت بها، وقدمت لهم كشفاً موجزاً وصحيحاً عن مضامينها وقد قيل: من جهل شيئاً عاداه. وأهيب بكل مطالع لكتابي هذا أن لا يحكم لطرف قبل أن يفهم الطرف الآخر، ولا يأخذ بشيء قبل أن يتفهمه فهماً دقيقاً ويمحصه تمحيصاً سليماً، ويرضى عنه ضميره وعقله ويقينه، وفي ذلك يكون قد أرضى العقل والدين - وهو يرى أنني قد استخلصت له من حجج طرفين متنازعين أو أطراف متعددة وبسطتها امام عينه ولبه وفهمه ووجدانه تاركاً لبصيرته واستعداده حرية التفكير والأخذ فيما يترك في نفسه حباً وفي قلبه راحة واطمئناناً، وفي ضميره وقاراً وفي عينه هيبة وجمالاً.

وليذكر: إننا في ظرف عصيب تمر في جوه تيارات عارمة، وفي

---

(١) يقول احد الادباء لا ريب أن ما يعانيه شبابنا المعاصر من الفوضى والقلق النفسي وتوزع الضمير والنظر بين موروثات تقليدية تجمعت فيها الحقيقة والاسطورة، وبين معطيات حضارية وعلمية حديثة هو الذي يجعلهم مترددين لا ملحدين، وهنا يكمن الخطر ويجب الاستدراك كي لا نقع فيها فيما وقع فيه الغراب الذي مضى ليتعلم مشية الطاووس فلم يتعلمها.

محيطه موجات صاخبة تزدحم فيه الشكوك والتردد والإلحاد فليكن حذراً على سلوكه ذاكراً آخرته مع دنياه والله الهادي.

هذا ولا أنسى أن أنبّه القارئ الكريم على التعاليق في ذيل الصفحات، فإن لها علاقة كبيرة في المتون وفائدة كبرى للمطالع، ولا يستغني عنها الكتاب قوة وتوضيحاً ولا القارئ علماً ونفعاً وثقافة.

البحث الأول: إثبات الصانع

ويتضمن عدة مواضيع:

١- نظرة الإنسان القديم في المغيبات:

قال العلماء والفلاسفة الربانيون: لا يمكن بالضبط تحديد تاريخ نشأة البحث في المغيبات، ولعلنا نصيب إذا قلنا: إنها نشأت منذ أن نشأ الإنسان على هذه الأرض. ومع مرور الزمن اختلفت فيما يتعلق بمنهاج البحث، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة التي يسعى وراءها الباحث، ويريدها شاملة لكل المساتير الغيبية، فمن إنكار مطلق للألوهية والروح - إلى إيمان مطلق غارق في الوهم يبعد في الضلال حتى يصل إلى التخريف والأسطورة بأوسع معانيها.

ومن يدرس قانون العقائد البشرية ومذاهبها يجد كل فرقة تستند إلى منطق معين وكل فئة تعتقد أن ما لديها من المعتقد هو الصواب، وهذا كله ناتج عن تحكيم الرأي بالمجهول وترك المأثور والمنقول المقدس.

ويرى المتأمل الآن أن العقل الحديث الذي آمن بالواقع يأبى أن يتلقى الحقيقة إلا من مصادر التجربة والعيان، وهذا العقل قد وضع لكل شيء حداً واضحاً كما وضع لنفسه حداً لا يتجاوزه - إنه عرف حقيقته فيما عرف من حقائق، ولهذا فإنه يقرر في صراحة أنه لن يدخل في تجربة

جديدة مع عالم ما وراء الطبيعة، فهذا العالم محجوز وخفي عنه، يقول الفيلسوف (هربرت سبنسر): إن وراء العالم الطبيعي جانباً يستحيل على الإنسان معرفته ولا ريب أن لهذه الحقيقة أثرها الكبير في تفكير المفكرين، وهم فيها فريقان: فريق استهوته الطبيعة فهام بها، وأقام وجوده عليها فلم يرض أن يخرج من هذا الواقع، وهذا الفريق من فلاسفة المدرسة الطبيعية التي لا تؤمن إلّا بالمادة التي تتصل بها الحواس - كما كان يقول بها من قبل الفلاسفة الرواقيون، إنه ليس في الوجود غير المادة، وهكذا يتفق مع قولهم في المعرفة، إذ المعرفة عندهم لا تأتي إلّا عن طريق الحواس فما لا يحس لا يعرف.

أما الفريق الثاني: وهم الكثرة بين الفلاسفة والعلماء لم يستطيعوا - مع إيمانهم بالطبيعة - أن يتجاهلوا ما وراء الطبيعة، ولكنهم كلما أوغلوا في مباحث الطبيعة كلما طلعت عليهم من ثناياها أمارات كثيرة تشير إلى أن قوة عظيمة مدبرة تقوم على هذا الوجود وتحكم أمره - وإن من لم يروا هذه القوة - فقد رأوا آياتها فزادهم ذلك شوقاً إلى النظر اليها والبحث عنها، ولكن أسلوب البحث في هذا العصر لا يرضى إلّا بما يقع تحت الحواس ويخضع لها، وهذه القوة لا ترى ولا تحس، وإن بدت آثارها واضحة في كل موجود فكيف السبيل إليها[1].؟

ولننظر إليه لنعرف ماذا يقول أخيراً وهو مؤمن بما يقوله - لا بدّ أن يصطنع الفلاسفة أسلوباً غير أسلوب العلم ليتصلوا بما وراء الطبيعة، ولم يكن أمامهم إلا أسلوب التأمل والاستيطان عندما يخفق القلب أمام رائعة من روائع الحقيقة التي تتجلى في ضوء البحث العلمي، وهكذا تحول

---

(١) قال وليم جيمس: إن الطبيعة تنطق بالروح، وما العالم المادي سوى تعبير رمزي عن عالم روحي حقيقي.

الكثير من الفلاسفة - تحول جانب من وجودهم إلى التصوف بأوسع معانيه وكفى بابن سينا والغزالي مثلاً.

٢- الغزالي وابن سينا

صنف الغزالي(١) الفلاسفة ثلاثة اصناف: الدهريون(٢)، والطبيعيون(٣) الإلهيون، وقال:

الصنف الأول: الدهريون وهم طائفة من الأقدمين مجدوا الصانع المدبر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، هكذا كان ولذلك يكون أبداً، وهؤلاء سماهم (الزنادقة).

الصنف الثاني: الطبيعيون وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ومن عجائب الحيوان والنبات وأكثروا الخوض في عالم تشريح الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطرهم إلى الاعتراف بفاطر حكيم، إلّا أنهم ذهبوا بأن النفس تموت ولا تعود، وأنكروا الآخرة والجنة والنار والحشر والنشر والحساب فهم بهذه الصفة زنادقة أو كالزنادقة.

الصنف الثالث: الإلهيون وهم المتأخرون، ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهؤلاء تناقضت أفكارهم واختلفت آراؤهم ووجهات معارفهم،

---

(١) كتاب المنقذ من الضلال - لأبي حامد الغزالي.

(٢) الدهريون عند العرب هم شيعة (ديموقريطس) وأبناء ذوقليس.

(٣) الطبيعيون هم بقية الفلاسفة الطبيعيين الأقدمين، ومذهب (ديموقريطس) هو الغاية القصوى من فلسفة اليونان في اوائل العصر الاول، ويقال: اقتبس منه الأشاعرة قولهم (بالجزء الذي لا يتجزأ) ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم في إنكار البارئ ووحدة الوجود، ومن طابق قوله (ديموقريطس) بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصرنا هذا لم يجد بين القولين تفاوتاً يذكر إلّا ما نشأ عن تقدم العلوم في زماننا.

وعنده تفكيرهم بتفكير آرائهم، وقد نرى هنا الغزالي يسمي الصنفين الأولين زنادقة ونوافقه على رأيه، ولكننا نسحب ثقتنا برأيه في الصنف الثالث لقسوته عليه وتكفيره له، ذلك لما لأصحابه من الفضل والإرشاد والتوجيه ومعرفة العلة الواجبة - الله - ولما لهم من التنظيم الاجتماعي والخلقي والعمل في سبيل العدالة والمساواة والتضحية في سبيل تلك المبادئ السامية التي نشروها للأجيال حتى الموت كما جرى(لسقراط) بسبب تعاليمه - هذا وإن العلماء والفلاسفة من عهدهم وحتى الآن لتعاليمهم، ولا زالوا يستقون من معلوماتهم ومبادئهم التي تركوها تستنير منها البشرية جمعاء، فالعالم كله ما زال ولم يزل مديناً لهم وحتى آخر الدهر.

وإذا كان الغزالي يرد على علماء الكلام والفلاسفة - ويعلم الكلام والفلسفة - كما يقول - ولا يؤمن بالعقل إلا ومعه الوجدان اليقيني الذي جعله ينكر على أولئك الفلاسفة حجة العقل وحدها - حسب قوله - فهؤلاء لم يستخدموا العقل في فلسفتهم وحسب، بل عرف عن أفلاطون أنه كان يعلم بعض تلاميذه على طريقة التصفية والإشراق الذهني الوجداني، وسمى تلاميذه هؤلاء (الإشراقيين) والذين كان يعلمهم عن طريق العقل (بالمشائين)[1].

أما (ابن سينا) فعنده أن المادة الأولية والصورة والعدم: هي الأصول الثلاثة التي عنها تصدر الأجسام الطبيعية، والعالم عنده مخلوق لم يحدث في زمان.

---

(١) يقول: إن الاتجاهات الفلسفية قديماً وحديثاً ثلاثة: ١- الاتجاه المادي٢،- الاتجاه العقلي الذي يقول: كل ما وراء الطبيعة وما فيها يحله العقل بأقيسته وبراهينه ومنطقه، ٣- الاتجاه الروحي أو الإلهامي الذي يقول: إن مسائل ما وراء الطبيعة نعرفها بواسطة الملأ الأعلى وذلك عن طريق الكشف والاتصال.

ويقول: إن هذه الكائنات إما أن تكون ممكنة الوجود جميعاً، وإما أن تكون جميعها واجبة الوجود، ومحال أن تكون واجبة الوجود جميعاً، لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرك وبين ممكنة تحتاج إلى علة لتركيبها، ولا بد أن تسبقها أجزاؤها، فهي إذن:

(بعض ممكن الوجود) و(بعض واجب الوجود) وواجب الوجود وهو الذي لا نتصور عدمه، لأن عدمه يوقعنا في المحال، ومن المحال أن يكون واجب الوجود مسبوقاً، لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجوب، ومن المحال أن يكون مركباً لأن أجزاء المركب تسبقه وتحتاج إلى فاعل للتركيب والإيجاد، فهو أول وهو جوهر بسيط منزه عن التركيب.

وترى هنا أن ابن سينا أبدع بتقسيمه الوجود إلى واجب بذاته وممكن بذاته لكنه واجب بغيره، وقد وفق بين القائلين بقدم العالم وخلقه، فإن العالم ممكن بذاته، ولكنه واجب بغيره لأنه كان في علم الله، وما كان في علم الله لا بد أن يكون.

ويذهب بعض الفلاسفة مذهبه هذا فيقول: إن المادة ممكنة إمكاناً ذاتياً أي أنها تحتاج إلى من يمنحها الوجود والى من يسلبها الوجود.

٣- رأي الفيلسوف سانتلانا:

لنستمع الآن إلى رأي الفيلسوف سانتلانا[١]:

لهذا الفيلسوف الإلهي اطلاع على الكثير من آراء الفلاسفة الإلهيين والماديين وحجج القدماء منهم وقد عرضتها للقارئ ولخصت آراءه: قال: أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها فهو لا يرضي العاقل المتبصر، نعم:

(١) سانتلانا هذا هو صاحب كتاب (المذاهب الإسلامية) مخطوط في مكتبة الجامعة كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود.

أنا لا أنازع في كون الطبيعة والحركة من أصول الموجودات، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها، فلو لم يكن هناك مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب، والترتيب الغريب؟.

والذي حارت العقول فيه وقصرت عن إدراكه الفحول. كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت؟.

ليت شعري كيف اجتمعت تلك الأجزاء، وكيف تآلفت على اختلاف اشكالها وتباين موادها وقواها، وكيف بقيت على تآلفها، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة؟

وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك ولا تفضي إلّا إلى غاية الالتباس. وهذا لعمري كمثل من وضع حروف المعجم في ظرف أو صندوق ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها فيتركب منها قصيدة بليغة، أو رسالة عميقة في المنطق، أو كتاب في الهندسة دقيق.

أليس هذا من السفه البين؟. فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كدّه إلّا على حروف، فكيف يتصور حدوث هذا العالم بما فيه وبما هو عليه من الاتفاق والأحكام وتضافر الأجزاء؟. مع عجيب مناسباتها بعضها لبعض من حركات اتفاقية في خلاء لا نهاية له[1].

---

(١) جاء في كتاب (بين عالمين) قال المؤلف: أنا لا أؤمن بالمصادفة، لأن المصادفة قد تتصادف في خط رأسي لكنها لا تترابط في خط أفقي، ذلك أن تجمع عناصر معينة في ظروف معينة قد تعطي نتائج معينة قائمة بذاتها، ولكن هذه النتائج لا تكون ذات علاقة بظاهرة اخرى من ظواهر الحياة - إن المصادفة قد توجد غاز ثاني اكسيد الكربون الذي يتغذى به النبات، ولكن سرعان ما يستهلك النبات هذا العنصر ثم يذبل ويموت لأن المصادفة لا يحكمها عقل كي تترابط أفقياً وتجعل للنبات مصدراً ثابتاً مستديماً لغذائه تأميناً له على مواصلة

قال أرسطو: إن كل نظام يدل على وجود العقل، وفضلاً على ذلك، فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلّا مرة ولا يتكرر ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت، ولولا هذا لما كان أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية.

وإذا فرضنا وجود مجرّد الطبيعة ولا شيء سواها، فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه؟ وهي مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم. ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية، فوجود هذه القوة يستدعي وجود جوهر يجانسها ويماثلها ليكون أصلاً لها ومركزاً.

هل يحتمل ما نشاهده من تصوّر المعقولات وكشف الكليات وتمزيق

الحياة - إن الموجود من هذا الغاز في الهواء يقدر بحوالي (٢١٠٠) بليون كيلوجرام ويحتاج النبات منه لغذائه حوالي (٧٠) بليون كيلوغرام في السنة - فإذا لم يكن هناك مصدر ثابت له من هذا الغاز فإن النبات يستهلك الكمية الموجودة منه في ثلاثين عاماً ثم يهلك - وكذلك الحال في صنوف الحيوان فإنها تعتمد في حياتها على الأوكسجين وإذا لم يكن لها مصدر ثابت منه هلكت هي ايضاً - فإيجاد الترابط بين النبات والحيوان، هذا يعطي ثاني اكسيد الكربون، وذاك يعطي الاوكسجين جعل كلاً منهما يعتمد في غذائه على ما يطرد الآخر ويستغني عنه اثناء عملية التنفس فبقيت الحياة على الأرض منذ عصورها السحيقة، - إن وجود الخط الأفقي الذي يربط بين ظاهرتين فأكثر من ظواهر الحياة تسير كل في خط رأسي دليل على وجود تفكير وصل بينهما جميعاً لوجود علاقة مشتركة تجمع بين عناصرها المختلفة، ووجود التفكير دليل حاسم على وجود الكائن المفكر.

إن هذا الترابط بين ظواهر الحياة المتعددة لا يمكن أن يكون من عمل المصادفة لأن الصلة التي تجمع العوامل المشتركة بين ظواهر الحياة هي من قبيل تنظيم الحلقات في السلسلة او الحبات في العقد وهو من عمل العقل والإدراك. فالمصادفة لا تنشىء هذا الكون المترابط المتشابك ولا توجد القوانين التي تحكمه وتضبط تصرفاته، وإنما يفعل ذلك كله العقل الاكبر الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء والذي وسع كل شيء علماً.

القضايا وتركيب القياسات ليس هو في نفس الأمر إلا اصطكاك جزء من المادة في جزء آخر؟ هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة والمآخذ العميقة كالمنطق والرياضيات والإلهيات وما فتتت به القلوب من الشعر الرائق والمطرب من الألحان وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء؟. كانبعاث النار من اصطكاك الحجر وذلك في خصوص النار إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير؟؟

إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها، فمن باب أولى وأحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى مكاناً وأهم شأناً في درجة الوجود، و إلا كان الأخشى أصلاً لما هو أرفع، وهذا ما تستبعده وتأنفه الفطر السليمة، ومن تبصر في عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي لا ينفي في كل زمان إلّا الى إنكار الحقائق وهدم دعائم العقل. كيف لا ؟ ومن قال: إنه ليس في الوجود سوى المحس ولا شيء سواه كيف يمكن له إن يحكم بالوجود[1].

---

(١) يقول العالم (هـ. د. لويس) الذي يعتبر من أكبر العلماء في العصر الحاضر: إن الحقيقة المادية والحقيقة المجردة لا تتناقضان عند العلم الحديث خلافاً لما جرى عليه العرف بين عامة الباحثين إلى عهد قريب.

فاليوم - قد تبين على الأقل - إن الإمعان في البحث عن حقيقة المادة يؤدي بنا إلى الحقيقة المجردة وينتهي بنا إلى التسليم بكائنات لا مادية تخالف ما كنا ندركه من صورة المادة المحسوسة، ولا بد من الحقيقة المجردة إلى جانب الحقائق الاعتبارية، أو الحقائق التي يقاس بعضها إلى بعض ولا تستقل بذواتها عن وجود آخر وراءها يسميه علماء المادة أنفسهم (وجوداً لا مادياً) إن الإيمان بالمحسوس ينقض على أيدي التجارب العلمية نفسها ويحل محله إيمان بالغيب لا يوصف (بالمادية).

يقول الدكتور احمد زكي في كتابه (موسوعة علمية) إن هذا الكون مادة وطاقة. ـ جسم وروح - هذا الكون على ضخامة إجرامه وتباعد أطرافه: له وجهان: مادة وطاقة، ثنائية كثنائية الإنسان ـ جسم وروح، فإن شئت قلت: إن المادة الكونية جسم وطاقتها روحها، والطاقة كالروح لا ترى ولا توزن، إنما هي تتقمص الأشياء، والأشياء الأبصار والطاقة لا يدركها بصر، هذه الكرة المتدحرجة: إنا نراها تتحرك وأقول إن بها حركة ولكنك إذا سألتني ما الحركة فكأنما سألتني ما الروح، علمها عند ربي؟ وهذا النجم بل هذه النجوم بل هذه

٤- الحشر في نظر الكثير من الفلاسفة لا يبنى عليه الحكم وحده؟

- ينقل المحقق الشهير ناصر الدين الطوسي[1] عن أرسطو وغيره من الفلاسفة - كالغزالي مثلاً - إن الحس إدراك فقط، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس، وليس من شأن الحس التأليف الحكمي لأنه إدراك فقط، فلا شيء من الأحكام محسة اصلاً، فإذاً كل ما هو محس لا يمكن أن يوصف من حيث كونه محساً بكونه يقيناً أو غير يقيني، أو حقّاً أو باطلاً، أو صواباً أو غلطاً، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الاحكام، وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس وأنه مقصود بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه، على أن المدرك والمدرك لا زالا يتغيران، فكيف يحكم به على غيره وكيف نبني عليه حكماً عقلياً، وكيف نبني على حقيقته؟؟؟

إذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس، فإني إذا تصورت - مثلاً - أني قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسي وأدخلت فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق، فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلّا الشك في الحقائق - كما رأيت عن الغزالي سابقاً - وكما وقع في اليونان اثناء القرن الرابع قبل الميلاد.

الحجرات تسلك مسالكها في الكون هائلة تدفعها طاقة بل طاقات نحس آثارها نظراً ولكننا لا ندركها جوهراً.

وكالحركة الحرارة من منا رأى حرارة، من منا وزن حرارة فثقلت أو خفت في ميزان كما تثقل وتنحني الاجسام وكالحرارة الضوء وكالحرارة والضوء سائر صنوف الطاقات، إن هذا الألم إن كان قد تجسم فيه من المادة ما تجسم فقد سيطرت على كل هذه المادات الطاقات، الطاقات هي المحرك الأول والآخر وهي البواطن لكل هذه الظواهر - إنها الأرواح لكل هذه الأبدان، وهي نظام هذا الكون والتي وضعها المبدع الاول منظم الكون بطاقاته).

(١) كتاب المحصل للمحقق ناصر الدين الطوسي، والنص كما ترى، معناه: إن الحس لا يبنى عليه حكم صحيح دون أن يحكم بصدقه العقل، وهذا يوافق ما ورد: بأن النقل غير مقبول إذا لم يوافق المعقول.

يحقق الدكتور العقادي فلسفة (افلاطون) فيقول: المحسوسات في فلسفة افلاطون كلها أوهام وأحلام وكلها غشاء باطل يزداد بعداً عن الحقيقة كلما ابتعد عن العقل وانحدر باتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة، فإن العقل دون الأحد، والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى الهيولى التي لا نفس معها، وهي معدن الشر في العالم لأنها سلب محض يحتاج ابداً إلى الخلق وهو الإيجاد والإيجاب.

وقد يتمشى أفلاطون مع أرسطو في مقدماته التي انتهت به إلى العقل المجرد والعلة الأولى، ولكنه يتجاوزه في التنزيه والتجريد، فيرى أن الله أو الأحد من وراء الوجود ومن وراء الصفات، لا يعرف ولا يوصف ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان، فكماله هو الكمال الذي نفهمه بنفي النقص عنه، وهيهات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات لأننا نستطيع أن نقول:

إنه لا يكون هكذا (ولكننا لا نستطيع أن نقول إنه هكذا يكون) وقد يتصل به الإنسان في حالة الكشف والتجلي حين تتجاوز الروح جسدها (على حدّ قوله) ولكنها حالة لا تقبل التأمل فالتفكير، فإذا انقضت فقد يتوب المرء بعدها إلى عقله، فيتأمل وينكر وينحدر بذلك من مقام (الأحد) إلى مقام العقل الذي هو دونه، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول.

ويقول أيضاً كما يقول (ارسطو): إن الله - أو الأحد - لا يشغل ذاته بغير ذاته لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء، أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد، وصدور النفس عن العقل، وصدور المحسوسات عن النفس في اتصالها (بالهيولى) والمادة الأولى وتفصيل ذلك: إن الأحد عرف ذاته وتأملها فكان العقل من هٰذا التأمل، وإن العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه في مرتبة الوحدانية، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله

لذاته عقل دونه وهو (النفس) أو هو القوة الخالقة التي أبدعت هذه المحسوسات، وبديهي أن صدور جسم من جسم ينقصه ويخرج شيئاً منه ينتقل من المعطي إلى الأخذ فينقص بانتقاله.

أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شيء هو فيه، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذي لا يعتريه نقص بحال من الأحوال.

أقول: وقد يتفق (افلاطون) مع كثير من الإلهيين حول فلسفة الاحد والعقل والنفس والهيولى كالشيرازي صاحب كتاب التنبيه وأحمد بن جابر الغساني وابن شعبة صاحب كتاب تحف العقول.

وقد رأينا كثيراً من الفلاسفة الإلهيين القدماء الذين ليس لديهم كتب سماوية كانوا يعتمدون على العقل والتأمل في (كتاب التكوين) - الطبيعة: بالحس والوجدان فيصلون إلى قناعة بوجود (إله خالق حكيم). واليك المناقشة العقلية الحسية _ التي جرت بين (سقراط) وأحد المتشككين واسمه (ديموس) وكان ديموس - وكما يظهر من النقاش - يقول بقدم المادة يقول سقراط: أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع؟ قال ديموس: نعم وسمى أشخاصاً من الشعراء والمصورين ممن كان يعدهم أبرع من غيرهم.

قال سقراط: أيهم عندك أبرع شأناً، من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟. قال ديموس: من يصنع الصور الحية - اللهم إلّا إذا كانت تلك من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل..

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى مبينة القصد والمنفعة في قولك في تلك الأشياء؟. ما هي التي عندك من

عمل الاتفاق، وما هي التي من فعل العقل؟. قال ديموس: لا إن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط: أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر ليبصر، والأذنين ليسمع؟.

وما فائدة الزوائح لو لم تكن لنا الخياشيم؟. وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو لو لم يكن لنا لسان نذوق به؟.

إن بصرنا معرض للآفات، أولست ترى كيف اعتنت القدرة بذلك؟.

فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها أضرار الرياح وعرق الجبهة؟. وما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ ابداً؟. أما رأيت الحيوانات كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لتقطيع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً؟. فإذا تأملت في ترتيب ذلك، أيمكنك أن تشك، هل هي من فعل الاتفاق ام من فعل العقل؟. قال ديموس: نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من صنع صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته[1].

---

(١) ولد سقراط في أثينا عام ٤٦٩ قبل المسيح وكان والده مثالاً، وأمه قابلة، وعندما بلغ الخمسين تزوج من امراة اسمها (كزانتبي) وقد خلدتها سلاطتها كزوجة، وشراستها كامرأة، ونزقها كربة بيت، وهذا ما جعل سقراط يقول: تزوج يا بني فإن وفقت في زواجك كنت سعيداً، وإن لم توفق غدوت فيلسوفاً - يقول: ديورانت: سقراط اول من نادى بمذهب التوحيد، وحارب تعدد الآلهة، وهو المعلم الأول الذي قدم للمسيحية مذهبها الأخلاقي، ونادى بعدم مقابلة الشر بالشر ومكافحة الجريمة بالجريمة والإثم بالإثم.

سقراط هو أستاذ افلاطون، وأفلاطون - كما رأيت كان يعلم تلاميذه بطريقة التصفية واعمال الفكر الدائم، وهؤلاء (الاشراقيون) يحصلون على أمور ذوقية متناهية، كما علم بعضاً منهم بطريقة البحث والنظر ويسمون (المشائين) ورئيس المشائين (ارسطو) وهذه الطريقة طريقة عقلية، وكان يقول افلاطون أشكر الله على أني ولدت يونانياً لا بربرياً واسيراً لا عبداً وذكراً لا أنثى ولكن أشكره قبل كل شيء على أني ولدت في عهد سقراط.

وهكذا بالحجج العقلية الهادئة وبالذوق والوجدان مع آلة الحس يصل الإنسان المتروي بعقله المتأمل ببصيرته إلى معرفة المجهول والاعتقاد بوجود عالم الغيب عن قناعة تامة دون أن يستسلم للتقليد الأعمى وتضليل العاطفة.

يقول الفيلسوف القديس (توما اللاهوتي): إن معرفة عقلنا في حياتنا هي ناشئة عن الحس، وعليه فكل ما يقع تحت الحس فلا يدركه عقل الإنسان إلّا من حيث يستخلص معرفته عن الحس، والمحسوسات لا يمكن أن تتأدى بعقلنا لولا أن يرى فيها أن الله (ما هو في ذاته). لأنها معلومات أبعد من أن تساوي (العلة ولكن عقلنا يتأدى بالمحسوسات إلى معرفة الله بأن يعرف عن الله (أنه) - اي أنه موجود وما شاكل من المعلومات التي لا بدّ من نسبتها إلى المبدأ الاول، والمراد أن بعض المعقولات الإلهية دانية المنال للعقل الإنساني.

وأما بعضها من وراء طاقة العقل الإنساني فلا تصل مقدرته إلى إدراكه، والعقول تتفاوت في المراتب، فهذان اثنان ينظر الواحد منهما بعين العقل في شيء أدق نظراً من الآخر، فمن كان منهما أسمى عقلاً يدرك عن الشيء معلومات كثيرة يمتنع عن الآخر إدراكها كما ترى ذلك في الرجل الأمي الذي لا يمكنه في وجه من الوجوه أن يدرك الاعتبارت الفلسفية الدقيقة، وعقل الملاك يفوق عقل البشر أكثر فأكثر مما يفوق عقل أعظم الفلاسفة عقل الأحمق الشديد البلاهة، لأن هذا التفاوت منحصر في حدود النوع الإنساني وعقل الملاك تجاوزها، فالملاك يعرف الله بمعلول هو أشرف من الإنسان لأنه يعرفه بجوهر نفسه وجوهر الملاك الذي يتصل به إلى معرفة الله معرفة طبيعية هو أشرف من الأشياء المحسوسة، بل أشرف من النفس الإنسانية التي يرقى بها الإنسان إلى

معرفة الله، وليس كل ما يعرفه الملاك بطبيعته يكون عقل الإنسان كفواً لإدراكه، إذن كما أن الأبله إذا أوجب كذب ما يقول به الفيلسوف لمجرد أنه لا يمكنه أن يدركه فيكون فعله هذا في غاية الحماقة، كذلك الإنسان إذا جرؤ على تكذيب ما أنزل الله بواسطة الملائكة لمجرد أن ذلك المنزل ممتنع تحصيله بالعقل فيكون في أبلغ من تلك الدرجة من الحماقة والجهل.

ويقول بعض الفلاسفة: إن نسبة عقلنا إلى أول الموجودات التي هي بينة الظهور والوضوح في الطبيعة كنسبة عين الخفاش إلى نور الشمس، - فإذاً ليس كل ما يقال عن الله إن كان العقل لا يدركه أو لا يمكنه تحققه يجب إن نرفضه للحال على أنه باطل كما يتوهم الجهلة الحمقى أو يقول الملحدون...ثم يقول هذا القديس: إن من الناس من يحرم وجدان الحقيقة أسوأ مزاجهم، ومنها يحرمها لتفرغهم بالمباحث النظرية والمادية الدنيوية، ومنهم من يحرمها للجهل وقلة العلم، - والعلوم الإلهية لا يصل اليها أحد إلّا بالجهد والمشقة والتوفيق ولا بد من أن يتلقن الناس حق الأمور الإلهية من طريق الإيمان الثابت بثبات اليقين. - ويقول: إن عجز القوة عن إدراك شيء يتأتى عن سببين: أولهما: لأن الشيء ليس موضوعاً للقوة، كما أن البصر يستحيل عليه إدراك الصوت، وإما لأن الشيء وإن كان موضوعاً للقوة فليس مع ذلك بينهما مناسبة كالنور الشديد ايضاً، فإن عين الخفاش لا تبصره فما يدركه الفيلسوف ويعجز عنه الأمي من القسم الثاني لا من القسم الاول، لأن المعلومات التي يدركها الفيلسوف هي أيضاً داخلة في موضوع عقل الأمي لاشتراكهما في النوع، إلّا أن بين مدركات الفيلسوف العالية وقوته المدركة تناسباً لم يكن بين تلك المدركات والقوة المدركة في الأمي.

ويقول الفلاسفة: ما بالحواس يدرك الإنسان حقائق الاشياء، وإن

ادرك ظواهرها، وإنما يكون العلم بحقيقة الكون بوسيلة أخرى غير الحق وهي وسيلة الحدس والعيان العقلي المباشر فهذا الإدراك الحدسي المباشر يجاوز الإنسان حدود الطبيعة وحدود العقل وشروطه.

من كتاب الردود على الخوارج للقديس توما اللاهوتي - ترجمة نعمة الله الماروني -.

٥- معرفة ما وراء الطبيعة عن طريق التأمل والحدس عند بعضهم:

يقول بعض الفلاسفة: يعد الإنسان سفينة في محيط هذه الحياة وربانه (العقل) وقلوعه (النفس) ونزعاته وأهواؤه هي (الرياح) التي تملأ قلوعها وتدفعها، ولا بد إذاً من (بوصلة) تضبط سيره وتحدد وجهته، وما غفلت قدرة الحكيم العليم عن هذا، وكيف، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟.

لقد أودع الخالق سبحانه في الإنسان أدق (بوصلة) وأضبطها وهي (القلب) وحسبك بالقلب رباناً في سفينة الحياة؟.

يقول الفيلسوف الاندلسي (لسان الدين بن الخطيب): إن الإنسان هو كون صغير فيه من الكون الكبير(١) كل شيء، فالعقل جزء من العقل الفعال، والروح من الروح الكلي، والنفس من النفس المطلقة، والقلب فيض من الصورة الفياضة، وهذا الفيض هو الفيض القابل من العقل والروح والنفس.

كذلك فالقلب - قلب المؤمن - حرم الله كما جاء في الحديث القدسي: قلب عبدي المؤمن حرمي...الخ

---

(١) هذه الجملة مأخوذة عن علي عليه السلام بقوله مخاطباً الإنسان:

أتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ويقول(جيمس): إن العقل لا يمكن أن يدرك ما وراء الطبيعة، وإن مكانه الطبيعي هو عالم المادة الذي نعيش فيه، أما ما وراء المادة: فإن السبيل إلى ارتياد عالمه هو (الحدس) والرياضة الروحية تعين على صفاء النفس، وهذا الصفاء هو الذي يقوي ملكة (الحدس) ويجلو مرآتها.

والقلب هو ذلك الحاسة الخفية التي يتذوق بها الإنسان الفضائل والرذائل - هو الذي يصدق الإنسان لو أحسن الالتفات اليه والاستماع إلى ندائه، فإذا اهمله الإنسان يعلو عليه الصدأ ويتراكم عليه ويحل الفساد والعطب فيجري الإنسان حينئذ في حياته على هواه.

هذا الجهاز العجيب جعله الله لتقييم الخير والشر فهو في نظر الإسلام وجميع الفلاسفة مسلمين وغيرهم هو العين الباصرة التي تكشف الإنسان مسالكه وتريه الحسن والقبيح، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. وقال الرسول ﷺ: ألّا وإن في الجسد(مضغة) إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي (القلب) وهو رائد الإنسان الذي لا يكذب.

إذاً فالقلب هو المعيار أو الميزان الذي يرجع اليه الإنسان في تقييم الأشياء، فمصدر المعرفة العالية ظل مقصوراً على القلب ولا يستطيع العقل أن يرتفع اليها.

ويقول الفيلسوف الاميركي (امرسون): العبقرية هي أن تعتقد أن ما هو صادق في قلبك هو صادق للناس جميعاً، ومعناه: أن القلب معيار دقيق تنتظم رؤيته للناس جميعاً، فما يقع فيه يقع في قلوب الناس جميعاً، لأن المصدر الذي تستقي منه القلوب مصدر واحد هو العالم العلوي عالم الحق والنور.

ويقول الفيلسوف الإسلامي محمد اقبال: إنه لكي تكفل إدراك

الحقيقة إدراكاً كاملاً ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن (بالفؤاد) او (القلب) فالحدس ضرب من المعرفة الذاتية التي لا تدرك بالعقل، ومصدرها القلب وهي قوة خفية[١].

ويقول بعض العلماء: إنها شيء يشبه الإلهام أو يكاد يشبه الإلهام تشرق في النفس إشراق الشمس في وسط السحاب فتمتلىء جوانب النفس نوراً هادياً ملهماً ويسميها (امرسون) العيان العقلي المباشر.

ويقول(برجسون) إن الحدس وحده هو الذي يستطيع أن يتفهم الحياة ويصل إلى تيارها المتدفق.

ويرى (الرازي): أن الحدس يتجلى في سرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب، بينما العقل ينتقل تدريجياً من المقدمات إلى النتائج.

ويحدثنا صاحب كتاب (الملل والنحل): أن ارسطو قال: إن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة جوهره، وإنما يدرك من جهة آثاره، وهو الذي لا يعرف اسمه إلّا من جهة أفاعيله وإبداعاته.

أما النتيجة التي وصل اليها (افلاطون) فهي نتيجة قياسية ذهنية ترى غير الموجود قياساً على الموجود، فإنه قال: الموجودات في هذا العالم - عالم الحس - آثار الموجودات في ذلك العالم - عالم ما وراء الحس: فالعالم عالمان: عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية كالمرآة ينطبع فيها صور المحسوسات.

وذهب (الكندي) مذهب افلاطون فقال: إننا متى عرفنا موجوداً من

---

(١) تجديد الفكري الديني الإسلامي للدكتور محمد إقبال.

الموجودات معرفة تامة كان لنا مرآة تنعكس على سائر الموجودات الأخرى في العالم.

والفيلسوف الاميركي (وليم جيمس) يقول: «إن الطبيعة تنطق بالروح، وما العالم المادي سوى تعبير رمزي عن عالم روحي حقيقي»، ويقول: توجد أشياء لا يمكن رؤيتها رؤية مباشرة(كالالكترونات والبروتونات) فإن معرفتنا لها مستنتجة من آثارها.

إننا نرى ما تعمله (الذرة) فقط، أما طبيعتها وأين هي، فليست لنا طريقة لمعرفتها.

إن علم الطبيعة يعامل الذرة على أنها رمز أكثر منها جوهراً محدداً، ويعني أن العلم يفترض وجود الذرة يسند هذه الآثار التي تفيض عنها إلى شيء ما، وهذه الآثار لا بد أن تكون صادرة عن شيء وإن كان هذا الشيء لا يخضع للحس، فإنه لا بد أن يقام له وجود ولو فرضنا حتى تضاف هذه الآثار اليه وتحسب عليه،ولكل معلول علة، فكيف بهذا الوجود وهذا النظام الذي يدور في فلكه؟. إنه لا بد أن يضاف إلى موجد أوجده وقام عليه، وإن كان هذا الموجد غير ظاهر في عالم الحس فإن آثاره أبلغ دليل عليه، وأقوى شاهد على وجوده.

فالاستدلال على وجود الله بالنظر في عالم الموجودات نظر تأمل وتفكر يملأ القلب والنفس روعة وخشية بعد أن يملأ العقل دهشاً وعجباً - لنستمع إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ألم تر في هذه الآية الاعجاز الذي لا تستطيع رده فتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد؟ وليست هذه الآية وحدها بل كل آيات القرآن مثلها[١].

يقول (اناكساجوراس) أحد فلاسفة اليونان - وكان قد بهره ما يشمل الكون من نظام وجمال وتناسق فأدرك أنه يستحيل على قوة عمياء أن تخرج هذا العالم الدفيق المتناغم، فهو كما يظهر - لا يخبط في سيره خبط عشواء، بل يقصد إلى غرض محدود، وإن الطبيعة لتضرب الامثال كل يوم على أن لها فكرة تسعى إلى تحقيقها، وكيف يسيغ العقل أن يكون تناسق الكون وجماله ونظامه من فعل قوة آلية لا تعرف التناسق والنظام؟؟؟ وهل تنتج هذه القوة إذا أطلق لها الأمر إلّا عماء وفوضى؟ وهنا لم يجد (اناكساجوراس) سبيلاً إلى الشك في أن عقلاً ذكياً يدبر المادة ويحكمها ويسلك بها سبيلاً سوياً في هدى وبصيرة إلى غاية معلولة مقصودة وهو الذي رسم خط السير[٢].

قلت: وإذا كان الإنسان المتأمل البصير اهتدى بالعلم والعقل والتفكير إلى القول بوجود قوة أزلية أبدية فعالة وأثبت بالاستدلال والبرهان العقليين أن لهذا الكون صانعاً مدبراً فهل رضي أن يقف عند هذا الحد من المعرفة؟كلا؟؟

بل أخذ يبحث عن هذه القوة الأزلية الغيبية،غير أنه علم - ولا ريب - أن العقل البشري محدود يقف عند حدّ معين من المدركات لا يتعداه، فوقف قائلاً: إن البحث عن الله بطريق المحدود محدود، ومحاولة فاشلة لادراك الكامل المطلق عن طريق الناقص المقيد.

وقد حض القرآن ذوي البصائر والعقول على التأمل بالمخلوقات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قصة الفلسفة اليونانية - نقل مصطفى الكيك - بين عالمين.

الكونية فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟[١].

يقول الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: ظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته، وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة[٢].

ولا نخطئ إذا قلنا: إن جميع الفلاسفة الذين أخذوا يقيناً بالرسالات السماوية، واستيقنت مداركهم ما جاء في الكتب المقدسة وصلوا بقناعة تامة وتثبتٍ صحيح من وجود(الصانع الأول) ولم تفتن عقولهم سفسطات الآخرين ولا تخرصات الملحدين، ويعتبرون كل هذه السفسطات ضرباً من الجهل والعناد والكفر والإلحاد.

تعال معي لنرى ماذا يقول (الغزالي) مصرحاً: إن الكفر هو تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله في شيء مما جاء به، والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به، ويقول: إن كل فرقة تكفر مخالفها تنسبه إلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله فالحنبلي

---

(١) قال تولستوي: إن ملكوت الله في داخلك، وهو يعني ما لدى الإنسان من قوة وعقل وروح ونور، وكله من الله، وهذا ما اشار اليه الإمام علي عليه السلام بقوله:

اتزعم انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الاكبر

وقد مرَّ سابقاً

(٢) المراد أن جميع المخلوقات تدل على وجود الخالق فالصامت منها ينطق بلسان الحال.وعند الهنود في (الكتاب المقدس): إن الكائن الإلهي حقيقة صافية بلا صفات ولا حدود ولا تعريف، إنه هو الذي انبثق منه كل شيء، ويسمونه ايضاً (النفس) لأن الإنسان حين يدرك الكائن المتعالي يشعر بأنه وجد نفسه الحقيقية، والطريقة لإدراك النفس تكون بالتحقق من الفرق بين مظهر الأشياء وحقيقتها، فالفكرة في تعاليم (رأمانا مهارشي) هي البحث في النفس، وحين يسأله الناس عما سيحدث لهم بعد الموت،يقول للسائل: لماذا تريد أن تعرف ما سوف تكون عليه بعد الموت قبل أن تعرف ما أنت عليه: اكتشف ما أنت عليه الآن تعرف ما تكون عليه بعد الموت. (مجلة الكفاح٢٣ كانون اول سنة ١٩٧٩).

يكفر الأشعري زاعماً أنه كذب الرسول في إثبات (الفوق) لله تعالى وفي الاستواء على العرش، والأشعري ايضاً يكفر الحنبلي زاعماً أنه مشبه وكذب الرسول في أنه ليس كمثله شيء[1].

والأشعري أيضاً يكذب ويكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز(الرؤية)[2].

---

(١) أصحاب النص من الحنابلة يطلق عليهم المشبهة لأنهم يشبهون الله عز وجل (بالصفات) فالله عندهم عالم بعلم زائد عليه وقادر بقدرة زائدة عليه، وجل الله.

(٢) المعتزلة ينكرون الرؤية،فالله عندهم لا يرى،وينكرون خبر المعراج، وإن محمداً رأى ربه - يقول عبد الحميد بن ابي الحديد - وهو معتزلي المذهب -: (والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد، علموا ولا جبريل إلى محل القدس يصعد من كنه ذاتك غير أنك واحدي الذات سرمد) - وقال: (عجبت لقوم يزعمون محمد رأى ربه تبّاً لأفلامهم تبًّا).
مع أن بعض المتكلمين وكثيراً من الفلاسفة لا يمنعون الرؤية، ومنهم الفارابي،ولكن المعتزلة - كما رأيت - يمنعونها لأن الرؤية - كما يقولون - لا تكون إلّا لمحسوس، وذلك قولهم بالرغم من أن المتكلمين يجيزون رؤية كل موجود، على اعتبار أن الرؤية نوع من العلم وأن العلم يحصل من غير اتصال النور بين الرائي والمرئي،ولعلها رؤية البصيرة عندهم وهي الصحيح،هذا وقد اختلف الناس منذ عهد النبيﷺ حتى الآن فيما إذا كان الإسراء والمعراج بالجسد يقظة ام بالروح نوماً.
وسأنقل للقارئ الكريم تحليلاً علمياً عن هذا الموضوع من كتاب(ما بين عالمين) بغية الاطلاع والفائدة، يقول المؤلف الاستاذ مصطفى الكيك: فالذين قالوا إن هذه الرحلة كانت بالروح لم يتصوروا انتقال النبيﷺ بصورته الدنيوية من مكة إلى بيت المقدس ثم من بيت المقدس إلى ما فوق السماء السابعة والعودة بعد ذلك إلى مكة في ليلة واحدة،وقد قلنا إن المسافة بين مكة وبين بيت المقدس تقدر بحوالي ألفي ميل يقطعها المسافر في ذلك الوقت في شهر ذهاباً ومثله في الإياب،كما أن الزمن الذي يقضيه المنتقل من سماء إلى سماء يستغرق خمسمائة عام، لم يتصوروا انتقال النبيﷺ بصورته الدنيوية، لأن الجسد الأرضي مادة ثقيلة خاضعة لقانون الجاذبية،وانتقال الإنسان وهو في صورته الأرضية من مكان لا يمكن أن يشذ عن قواعد الزمن وقانون الجاذبية، ولم يقل لنا هؤلاء القوم ما هي صورة الروح في أذهانهم، وعلى أية صورة انتقلت من مكة إلى بيت المقدس، وعلى أية صورة كانت صلاتها بالأنبياء في بيت المقدس وهل اصطنعت (البراق) أم لم تصطنعه؟ وما سبب عجزها عن الانتقال عبر السماوات حتى أعد لها سلماً له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب عددها عشر مراق، سبع منها للسماوات وثلاث لسدرة المنتهى والعرش، ولسنا ندري أيضاً كيف أمكن للروح أن تصف لقريش عيراً مرت بها في الطريق فضلت دابة من العير فدلتهم عليها، إلّا أن تكون الروح مبصرة مدركة قادرة على الكلام وهو ما لا يمكن القول به لأن الروح من أمر الله

ولا يعرف عنها أحد شيئاً، وقد استأثر جل جلاله بعلمها وذلك بنص قوله تعالى: من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾.

أما اولئك الذين قالوا: إن الإسراء بالجسد يقظة فقد استبعدوا أن يكون بالروح لأن رحلة الروح أقرب إلى الأحلام منها إلى الحقيقة وهم مؤمنون بأن هذه الرحلة كانت حقيقة وليست حلماً، والحقائق لا تكون إلّا حيث اليقظة والوعي، وهم لا يعرفون عن الروح شيئاً، ولا يستطيعون تصور هذه الروح لأنها كائن غامض ليس من امرهم في شيء، وإنما هو من أمر الله، وما استأثر الله جل وعلا بعلمه فليس للإنسان سبيل إلى معرفته البتة، ولهذا لم يرتاحوا أن يكون الإسراء بالروح، - ولما كان انتقال النبيﷺ بصورته الدنيوية وجسده الأرضي لا يمكن أن يحدث بين مكة وبين المقدس في الوقت القصير المنصوص عليه، لأنه لا يتفق مع القوانين الفيزيقية وجاذبية الأرض،فقد جعل القوم «البراق» وسيلة لنقله عليه الصلاة والسلام، وقد روى الرواة أن هذا البراق كان يضع حافره مد بصره أي عند الأفق حيث ينتهي بصره ثم يقصر هذا الحافر ويطول الآخر وهكذا، ولم تنقل كتب السيرة تعليلاً لهذه المرونة. وورد في وصف البراق أن له وجهاً كوجه الإنسان وجسداً كجسد الفرس وقوائم كقوائم الثور وذنباً كذنب الغزال وأنه لا ذكر ولا انثى،وروت كتب السيرة أنه كان مطية «الأنبياء» جميعاً من عهد ابراهيمعليه السلام إلى عهد محمدﷺ.

وليس لدينا أي دليل علمي على وجود هذا الكائن في عالم المادة ولم يرد له أي ذكر في كتب التاريخ ولا في تاريخ الحفريات ولا في الكتب المقدسة، كما أنه ليس هناك أي تعليل لشذوذه عن قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إذ ورد أنه لا يتوالد وأنه لا ذكر ولا أنثى، فإذا قيل إنه خرج عن هذه القاعدة كما خرجت الملائكة فإنهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً،قلنا إن الملائكة كائنات روحية، من عالم السماوات، أما البراق فمعروف أنه كائن أرضي ومستوى تكوينه الذري يختلف عن مستوى التكوين الذري للملائكة وما ينطبق على الملائكة لا ينطبق عليه. وإذا كان الإسراء في الجسد يقظة فلا بد أن يكون جبريلعليه السلام الذي رافق النبيﷺ في هذه الرحلة قد انخلع إلى المستوى الآدمي ليتساوى مع المستوى الاهتزازي للنبيﷺ وليتسنى له مصاحبته وذلك طبقاً لقانون التساوي والترنم، لأنه من غير الممكن أن يتصاحب الاثنين وهما من مستويين مختلفين أحدهما من مستوى الملائكة ورفيقه من مستوى عالم، وتنطبق نفس القاعدة على الأنبياءعليهم السلام الذين صلى بهم النبيﷺ في بيت المقدس ليلة الإسراء لأنهم بعد موتهمعليهم السلام قد انتقلوا إلى العالم الآخر وارتفعوا بمستواهم الاهتزازي عن عالم الأرض فلكي يصلي بهم النبيﷺ وهو في مستواه الأرضي وجب أن يتساووا معه في هذا المستوى فينخلعون اليه، وهو ما لم يقل به أحد، أما أولئك الذين يقولون إن الإسراء كان بالجسد والمعراج كان بالروح فإن عليهم أن يقولوا لنا اين كان جسد النبيﷺ عندما عرج به روحاً الى السماوات، إذ إن كتب السيرة قد أغفلت هذا الجسد الطاهر، مع أنها عنيت (بالبراق) وبأنه ربط في الصخرة المباركة ببيت المقدس.

والقول الفصل في رأينا أن الإسراء والمعراج لم يكونا بالجسد الأرضي ولا بالروح وإنما كانا (بالنفس)، فإنها تنفصل عن البدن في حالتي الموت والنوم فتنطلق في العالم الآخر غير

خاضعة لقوانين العالم الفيزيقي، لأنها من مستوى تكويني مغاير ومجالها بعد الانفصال السماء الدنيا الأولى في الترتيب الاهتزازي ويحدث ذلك لجميع الناس طبقاً للقاعدة المنصوص عليها في قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وفي قوله ايضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ والوفاة هي ظاهرة انفصال النفس عن البدن، وفي رحلة الإسراء عنى القرآن بالإشارة إلى حدوث الرحلة وقت الليل أي في وقت النوم على ما هو مفروض عموما حيث تنفصل النفوس عن أبدانها قال جل شأنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فكلمة ليلاً بعد (أسرى) معناها اللغوي السير ليلاً. إذن فرحلة الإسراء حدثت بالنفس ولا بالجسد ولا بالروح. فقد أوى النبيﷺ إلى فراشه فنام واستغرق في نومه وفي هذه الحالة فصلت نفسه الطاهرة إلى العالم السماوي وانطلقت بصحبة جبريلعليه السلام إلى بيت المقدس.

ولما كانت النفس هي الجوهر في تكوين الإنسان وهي الكائن الحي المفكر المدرك فإن الرحلة تعتبر على هذا الاساس حقيقة وليست خيالاً، وفي يقظة كاملة من النفس وليست حلماً، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ - وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ والرؤيا لغوياً ما رأيته في منامك، ومعنى ذلك أن هذه الرؤيا حدثت أثناء نوم النبيﷺ كالإسراء تماماً وفي هذا المعنى إشارة ضمنية إلى حدوثها بالنفس، إن الرؤيا في رحلة المعراج كانت بعين الفؤاد جوهر الإنسان فهي رؤيا فؤادية لا روحية ولا جسدية أرضية، فالإسراء والمعراج رحلة حدثت بالنفس ذات المستوى الاهتزازي السماوي وبذلك يمكن تفسير تلاقي الرسولﷺ بالملاك جبرائيل وبالأنبياء في بيت المقدس لأنهم جميعاً في هذه الحالة كانوا في مستوى اهتزازي واحد، ولما كانت النفس كائناً أثيراً غير خاضع لقوانين الأرض وأنها تنتقل في العالم الأثيري بحكم تكوينها بسرعة تذبذب الموجات الأثيرية وهي(١٨٦) ألف ميل في الثانية فإنه يمكن إذا حساب الزمن الذي تستغرقه في قطع ألفي ميل من مكة إلى بيت المقدس بنسبة(....) إلى (١٨٦) ألفا من الثانية أي بنسبة جزء واحد من (٩٣) جزءاً من الثانية وهو الزمن الذي لا بد أن يكون قد استغرقه الرسولﷺ في رحلة الإسراء ذهاباً ومثله في الإياب. ويؤخذ من ذلك أن معايير الزمن في العالم الآخر مغايرة تماماً لمعاييره في عالم المادة، وذلك راجع لاختلاف طبيعة التكوين في العالمين، بل إن الزمن على هذا القياس يكاد يكون غير موجود في العالم الآخر.

وعليه لم تكن هناك حاجة للنبيﷺ لاستعمال(البراق) وسيلة انتقال، وإنما جاءت فكرة البراق لحل مشكلة كانت في أذهان الناس في ذلك العهد، إذ كانوا يجهلون وجود النفس وخصائصها بالصورة التي عرضناها في هذا الكتاب، كما أنهم لم يربطوا بين أن يتوفى الله الأنفس ليلاً أي يفصلها عن أبدانها الأرضية وبين الإسراء الذي حدث ليلاً أيضاً، والدليل على هذا الجهل اضطراب الناس في امر الإسراء ما إذا كان بالروح أم بالجسد وارتياب بعد اتباعهﷺ بهذا الذي يقوله.

ثم تستأنف هذه النفس الطاهرة رحلتها في السماوات بنفس السرعة خاضعة لقانون المستويات الاهتزازية أو قانون التساوي والترنم فكانﷺ ينخلع إلى مستوى السماء التالية أي يرفع

_وفي إثبات العلم والقدرة والصفات لله.

_والمعتزلي يكفر الأشعري زاعماً أن إثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول في التوحيد.

ثم يقول: التصديق إنما يتطرق للخبر بل إلى المخبر، وحقيقته الاعتراف بوجود ما اخبر الرسولﷺ عن وجوده، إلا أن للوجود خمس درجات، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة فحالفها إلى التكذيب، فإن الوجود: ذاتي وحسي وخيالي وعقلي وشبهي، ومن اعترف بوجود ما أخبر الرسولﷺ عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس يكذب على الإطلاق.

أما الوجود الذاتي: فهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل، وأما الوجود الحسي فهو ما يتمثل في القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين وذلك كما يشاهد النائم، وأما الوجود الخيالي فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك، - وأما الوجود العقلي فهو أن يكون للشيء روح حقيقية ومعنى فيتلفه العقل مجرد معناه دون أن يثبت

مستواه الاهتزازي بما يتلاءم مع المستوى الاهتزازي لكل سماء، وهذه القدرة هي من خصائصهﷺ كان يمارسها عند تلقي الوحي من جبرائيل عليهما الصلاة والسلام، وفي هذه الحالة يرى سكان هذه السماء من الملائكة والمنتقلين إليها من البشر وكذلك كان يفعل جبريلﷺ حتى بلغ الرسولﷺ السماء السابعة وتجاوزها إلى السدرة والمستوى والعرش، ولم يستغرق الرسولﷺ في هذه الرحلة من الزمن تلك الليلة بحسب المعايير الزمانية الأرضية إلّا بالمقدار الذي رآه ملائماً للبقاء في كل سماء وقد ورد أنه قضى في رحلته هذه بين ثلاث ساعات وأربع ساعات اسراءً ومعراجاً وذهاباً وإياباً، ويقول: لم يكن النبيﷺ وحده الذي عرج به إلى السماء وإنما سبقه إليها كثيرون ولحق بهم بعد الرحلة من الموتى المنتقلين كثيرون، والقرآن الكريم يسجل هذه الحقيقة بوضوح في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾...الخ فالمعراج سنّة من سنن الله وقانون من قوانينه ولن نجد لسنة الله تبديلاً.

صوته في خيال أو حس أو خارج كاليد - مثلاً، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها والقدرة على البطش، هي اليد العقلية.

وأما الوجود الشبهي فهو لا يكون نفس الشيء موجوداً إلّا بصورته لا بحقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل، ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته، هذه درجات الوجود عند الفيلسوف الغزالي، ويختلف أكثرها عن الموجودات التي قررتها بعض المذاهب من الصوفية والتي لا تتجاوز الأربعة: وجود في الكتابة - وجود في اللفظ - وجود في الذهن - وجود في العين والوجود العيني عند هؤلاء: هو تجلي الحق مشاكلة لا مجانسة، - أي أنه سبحانه يتجلى في الشكل والمنظر لا بالحقيقة والجوهر - كما هو وارد من رموزهم وإشاراتهم.

٦- الفلاسفة والإيجاد والتكوين ومناقشة القدم والحدوث عندهم:

لما كان موضوع هذا الكتاب هو البحث حول المعتقدات الدينية والاطلاع على ما جاء في الكتب السماوية والمأثور عن الرسل والدعاة والهداة المعصومين وعلى أقوال العلماء والفلاسفة الربانيين والماديين - القدماء والمحدثين، والأخذ بالصحيح والسليم من أقوالهم وآرائهم ومعلوماتهم ونبذ المعتل السقيم منها، وحتى يرى المتردد والمتشكك بأم عينه وبسيط عقله الحقيقة واضحة ماثلة فتلزمه بالقناعة أن لهذا الكون (مكوناً حكيماً مدبراً) هو العلة الاولى وما سواه معلول محدث[1].

(١) قال الفيلسوف (امرسون): كانت العلاقات بين روح القدس وروح الإنسان مباشرة وحرام علينا أن نقيم بينهما الوساطات، أو نجهل وجود الذي نعيش بنوره،- وكان (وليم جيمس) بالرغم من تشككه - يقتنع بما رآه العقل،فكان يقول: إن العقل أستاذنا وهادينا إلى عالم أوفر حرية وعدلاً وخيراً من عالمنا الحاضر، وهذا القول - كما تراه - يدل على أنه مقتنع بوجود خالق حكيم وعالم أسمى من عالمنا هذا.

إذاً فقد نمر على بعض الفلاسفة الذين قالوا بقدم العالم والبعض الآخر الذين أنكروا عليهم آراءهم فقالوا بحدوثه، ونوجز آراء الطرفين للاطلاع والفائدة واعتناق ما هو أولى وأجدر بالاتباع والإيمان بعد تمحيصه وتدقيقه.

يقول الفيلسوف العربي (ابن رشد): أما مسألة قدم العالم وحدوثه[١] فإن الاختلاف فيها عندي بين المتكلمين، وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية، وبخاصة عند بعض القدماء، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفين وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين، واختلفوا في الواسطة، فأما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره - أي: سبب فاعل ومن مادة، والزمان متقدم عليه أعني على وجوده، وهذه هي حال الأجسام التي يدرك

---

(١) يقول أنصار الحدوث: لو كان العالم قديماً لكان مساوياً لله في المدة، فيرد عليهم انصار القدم بقولهم: إن الوجود الإلهي حاصل كله دفعة واحدة، ووجود العالم حاصل بالتعاقب، فليست هناك مساواة، قال الاستاذ العقاد أما قدم العالم عند افلاطون فهو حسب قوله: بأن الزمان هو محاكاة للأبدية او هو الأبدية التي تسمو اليها منزلة المخلوقات فالله سرمد منزه عن التحيز والأجل المحدود، ولا أول له ولا آخر ولا مكان له ولا زمان، وهو بكرمه وانعامه قد شاء للمخلوقات أن تتشبه به في صفات الكمال فأراد لها الدوام وأحب أن يعصمها من الدثور والفناء ولكنه لا يخلع عليها دوام الأبدية - صفته جل وعلا - وهي لا تنتقل من المنعم إلى المنعم عليه، فأعطاها دوام الزمان لأنه اكمل دوام ترتقي اليه المخلوقات، - وابدع الفلك والزمان معاً فشمل بهما جميع مخلوقاته، ومن هذا يظهر أن المادة الاولى - او الهيولى - كما يسميها الفلاسفة - من الفلك ولقدم من الزمان، وليس في مذهب أفلاطون أن الله خلق هذه المحاولات المادية التي تتفاوت في مراتب الخير والجمال، ولكنه يؤمن بأرواح وسطى بين الله والإنسان كأنها الملائكة في الأديان الكتابية، ويسميها (الارواح الصانعة) وينسب إليها التشبه بالإله في الخير والجمال، ويرى أن الارواح تعمر الكواكب السيارة وتحركها في افلاكها المنتظمة وأنها تتوخى الدوران، لأن المتشابه خير من المتنافر والذي لا تتشابه اجزاؤه قلت: الإيمان بأرواح وسطى بين الله والإنسان يتفق مع بعض المذاهب، والقول بأن الأرواح تعمر الكواكب يتماشى مع الفكر العلمي المعاصر كما نرى من حيث العناية بالكشوف الفضائية. . .الخ.

تكوينها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك، فهذا الصنف من الموجودات اتفق الكثير من العلماء والأشعريين على تسميتها محدثة. وأما الطرف الثاني المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً، وهذا الموجود مدرك بالبرهان وهو الله تعالى وتبارك الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له.

وأما الصنف من الموجودات الذي هو بين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء أعني عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره.

والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث، فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه أو يلزمهم ذلك، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه، وكذلك الوجود المستقل، وإنما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي، فالمتكلمون يرون أنه متناه، وهذا هو مذهب افلاطون وشيعته حيث يسمونه محدثاً أزلياً لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي[1].

وأرسطو وفرقته يرونه غير متناهٍ كالحال في المستقبل فهو في الحقيقة

(١) إذا كان العلم منذ أرسطو حتى عصرنا هذا يقوم على افتراض أن الزمان موجود وجوداً مطلقاً، وكذلك المكان فقد جاءت النظرية النسبية(لآينشتاين) تقول: لا وجود للزمان المطلق ولا المكان المطلق رغم تصريح (نيوتن) بوجود زمان مطلق ومكان مطلق، وكان قد سبق منذ ألفي سنة (أبيقور) وقال: لا وجود للزمان بذاته، بل وجوده بالأشياء المحسوسة وحدها - تلك الأشياء التي نشأت عنها فكرة الماضي والحاضر والمستقبل، وكان قبل (آينشتاين) أيضاً (بوانكاريه) يقول: بأن الزمان والمكان أمران نسبيان.

عندهم ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً، فإن المحدث الحقيق فاسد ضرورة، والقديم الحقيق ليس له علة.

ويقول ابن رشد هذا كله، مع أن هذه الآراء في العالم ليست ظاهرة الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعني غير منقطع، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ - يقتضي بظاهرة أن وجوداً كان قبل هذا الوجود، وقوله تعالى: ﴿...ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي دخان يقتضي بظاهر أن السماوات والأرض خلقت من شيء. - وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾......الخ

يقتضي بظاهرة أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود.

والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع بل متأولون، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض، ولا يوجد هذا في نص أبداً[1].

---

(١) لم أدر كيف لم يكن في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هذا في نص أبداً،- والله سبحانه (كلي الوجود فأين العدم المحض وأين محله)؟.

والإلهيون الموحدون يقولون: كان الله ولا مكان ولا دهر ولا زمان ولا حين ولا أوان ولا سماء مبنية ولا أرض مدحوة ولا شمس ولا قمر ولا كوكب ولا نجوم ولا فضاء ولا خلاء ولا منها...وهكذا ولما شاء أن يكون المكان - العقل الاول - حسب قولهم - أبدعه من نور ذاته..الخ وكان (ابيقور) وأتباعه لا يرون أن هناك علة غائية للحياة،وقالوا: إن الوجود كله خاضع للنظام الذي لا دخل لارادة خارجية فيه، ولهذا كانت غاية الحياة عندهم اللذة الجسمية، إلّا أن ابيقور كان يرى أن اللذة العقلية أكبر قيمة من اللذة الجسمية لأن العقل يستطيع أن يستمتع بذكرى ماضية او بأمل في لذة مستقبله، وكان يرى أن خير لذة يتطلبها الإنسان هو هدوء البال وطمأنينة النفس.

بينما كان سقراط يرى: أن في الإنسان روحاً عاقلاً يسيطر على الحس فغايته إذاً عقلية روحية لا تتحقق تماماً إلّا في العالم الآخر حتى تكون النفس قد خلصت من الجسم وشواغله وفرغت لعملها الخاص وهو الفكر، ولهذا فإن من واجب النفس أن تتهيأ للعالم الآخر بممارسة الفضيلة، فالهدف في الحياة عند سقراط البحث عن الفضيلة وممارستها.

فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الإجماع انعقد عليه[١]؟. انتهى -

والظاهر أن الذي عن الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء. ولنستمع إلى رأي الغزالي وهو يقول: اختلف الفلاسفة في قدم العالم، فالذي استقر عليه رأي جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين القول بقدمه وأنه لم يزل موجوداً مع الله سبحانه ومعلولاً له ومساوقاً له غير متأخر عنه بالزمان مساوقة المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان[٢] وحكى عن افلاطون قوله: بحدوث العالم وأنه مكون ومحدث[٣].

قلت: إن الذي يحكى ويقال عن افلاطون أنه لم يكن فكرة واضحة في توحيد الله كما وصفته الأديان السماوية والكتابية بعد عصره، وإنما كان يتكلم عن الله تارة، وعن الآلهة تارة أخرى ولا يفرض وجود إله واحد يفوق هذه الآلهة جميعاً إلّا من قبيل القياس العقلي الذي يقضي بتفضيل الأفضل فالأفضل، ثم اجتماع الفضيلة العليا في واحد لا يتعدد وهو إله آلهة ورب أرباب، واسم الله في اليونانية (ثيوس) او (زيوس) كما شاع في اللغات الأوروبية فالله عند (افلاطون) هو محرك المادة ومخرجها إلى هذا النظام الذي نراه في السماوات والأرض.

والله لأنه عقل، لا يوجد مادة بل يوجد (عقلاً) تستمد منه المادة الحركة والإدراك وتندفع به في معارج الكمال، والله خير محض فلا يصدر منه إلّا الخير، وإنما الشر الذي يقع في الكون من خلق الأرباب المخلوقة ومن نقص المادة وهي تحاول الارتفاع إلى مرتبة الكمال او إلى مرتبة

---

(١) ذيل المنقذ من الضلال تقديم الدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) يقول الفيلسوف الصوفي الحسن بن مكزون السنجاري في ديوانه المخطوط:

له الدهران والزمان الذي انتهى   اليه بحديه لوصل به فصل

وهو يريد أن الحق تعالى ليس عنده ماض وحاضر ومستقبل بل الزمان كله كان واحداً بالنسبة له تعالى. ولذلك قال له الدهران فتأمل، وفي الأثر: (الزمان كله للرب).

(٣) تهافت الفلاسفة للغزالي.

العقل المجرد لأن الله منعم جواد منحها الشوق إلى الكمال فهي أبداً في اشتياق اليه، وهي أبداً صاعدة متسامية كلما اتجهت من التجسد إلى التجريد، وهي بظاهرها باطلة متغيرة وهي بحقيقتها صحيحة خالدة، وهذه الحقيقة لباب الفلسفة الافلاطونية فهو يميز بها على طريقته الخاصة بين موجودات الحس، والموجودات المعقولة التي تتمثل للعقل ولا تتمثل للإحساس، فكل ما يقع عليه الحس فهو - في رأي افلاطون - وهم وباطل أو محاكاة للحقيقة الخفية أو محاولة لإبراز معنى من المعاني المستورة، ومثال ذلك لديه: هذا الشجر الذي نراه، فهذه الشجرة مثمرة وهذه الشجرة ذابلة،وهذه الشجرة يابسة،وهذه ساحقة، وهذه قاصرة، وكل منها فيها نقص عن الشجرة المثالية التي لا نقص فيها.

فأين هذه الشجرة المثالية؟ أهي في عالم المعنى؟ او في عالم العقل؟ وهي وحدها التي فيها وجود صحيح لا يعتريه التبدل ولا تصيبه عوارض الزمان،ولا يزال قائماً في العلم الإلهي تحكيه الأشجار المحسوسة، وتتبدل وتزول وهو منزه عن التبدل والزوال.

وهذه الحقائق المعنوية هي التي يسميها افلاطون(بالصحائح) او (المثل) وقد تعرف عند المناطقة(بالكليات) وتقابلها (الجزئيات) وهي هذه الموجودات الباطلة في رأي افلاطون[١] وعلى صفحات كتاب (تهافت الفلاسفة) تعليق للدكتور سليمان دنيا يقول فيه:

---

(١) كان من عادة أفلاطون أن يعزز آراءه بالأمثلة والأساطير التي تقربه من تلاميذه فكان يضرب المثل للدنيا وحقائقها وموجوداتها (بكهف) يقيم فيه الناس وهم مقيدون يستقبلون فيه (جداراً) لا يتحولون عنه،وراءهم نار تعكس الظلال من خارج الكهف على ذلك الجدار،فالأشباح التي يرونها على الجدار هي هذه الموجودات أو هذه الجزئيات التي تحكي الحقيقة وليست هي بها وإن كانت تحكيها، أما الصورة الصحيحة فلن يراها الناظر إلّا إذا اطلق بنفسه من قيد ذلك الكهف وخرج منه النور، ومعناه اننا محبوسون في كهف الجسد لا نرى من الحقائق إلّا اشباحها المحاكية لها، فإذا خلصنا من ذلك الكهف - الحبس - إلى عالم العقل المجرد فهناك نرى الحقائق الخالدة التي لا تتوقف على المكان ولا تمسها عوارض الزمان ولا يصيبها النقص والتبديل كما يصيب الأشباح المتراقصة على المطوي في الظلمات.

يصور بعض الفلاسفة صدور العالم عن الله فيقولون: صدر عن الله العقل الأول، وهو موجود قائم بنفسه ليس بجسم ولا منطبعاً في جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه، ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور: عقل ثان، ونفس الفلك، وجرم الفلك الأقصى، وذلك لأنه يعقل مبدأه ويعقل نفسه، وهو باعتبار ذاته منكر الوجود، وهذه جهات ثلاث مختلفة فيصدر عن كل جهة شيء - الأشرف عن الأشرف والأدنى عن الأدنى.

ويلزم عن العقل الثاني ثلاثة أمور أيضاً من هذا القبيل، وهكذا حتى تنتهي إلى العقل العاشر المسمى (بالعقل الفعال) الذي يلزم عن وجوده - عنه - المادة التي في مِقْعَر فلك القمر القابلة للكون والفساد[١] ثم إن المواد تمتزج بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة يحصل منها المعادن والنبات والحيوان، فأصل هذه المواليد الثلاثة: العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، فتكون محتويات العالم العلوي العقول العشرة والنفوس التسعة والأفلاك التسعة، ومحتويات العالم السفلي: المادة الموزعة على هذه العناصر الأربعة[٢].

فالعقول والنفوس الفلكية والاجسام الفلكية بموادها وصورها الجسمية والنوعية وأشكالها وأضوائها، والعنصريات بموادها وصورها الجسمية، كل ذلك قديم عندهم، وأما الصور الشخصية للعنصريات فحادثة، وكذلك الأعراض.

وأما الصور النوعية للعنصريات فينقل عنهم بها خلاف، ويخلص الدكتور دنيا من هذا التعليق إلى قوله: كأن يكون القديم مثلاً: هو: أولاً: الهيولى، وثانياً بعض الكائنات الروحية فبقدم الهيولى يتحقق القدم الذي يراه الفلاسفة ضرورياً، وبقدم بعض الكائنات الحية الروحية يمكن تفادي

---

(١) يقصد بالمادة التي في مقعر فلك القمر جميع ما يحيط به هذا الفلك ويتراءى فيه.

(٢) هذا التفصيل كله لكون لكل شيء سبب ولكل معلول علة حتى تنتهي المعلولات إلى علة أولى غير معلولة.

الصعوبة التي تنشأ عن اتصال المادة بالله مباشرة، فكيف لهذه الكائنات الروحية من تعدد الجوانب ما يمكن لها من الاتصال بالله والاتصال بالمادة وبناء على هذا التصوير يمكن تعرض عالم الأفلاك للتغير حسب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ... ﴿٤٨﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ الخ لأنه لا يكون قديماً إلّا هيولاه[2]، أما صوره فيجوز أن تتبدل، هذا ما يقوله بعض الفلاسفة، ولكن الطرف الثاني ينكر قدم العالم أشد النكران ويقول بوجوب الحدوث واستحالة القدم، وان كان يتلاقى الفريقان في بعض نقاط التفصيل والتحليل في مسألة الايجاد والتكوين ومناقشة القدم والحدوث كما نرى في:

٧- نظرية الفيض عند الفارابي وابن سينا

- الفارابي[3] وابن سينا[4].

---

(١) سورة ابراهيم، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢) الهيولى: لفظة يونانية وتعني مادة الشيء وجوهره، وأما ما تشكله المادة فهو صورة ولذلك يقال عن حضرة الحق سبحانه: هيولى الهيولات.

(٣) الفارابي كان يؤمن كثيراً بأقوال أرسطو وفيما نصه القرآن الكريم، ولكنه لم يوافق ارسطو في قدم العالم، والفارابي فارسي الأصل وشيعي المذهب ولد عام (٢٦٠هـ وتوفي عام ٣٢٩هـ).

(٤) ابن سينا فيلسوف كبير من فلاسفة الإسلام كان له في الطب معرفة واسعة وقد ألف فيه كتاب (القانون) وله كتب كثيرة أشهرها كتاب (الاشارات) وكتاب (الشفاء) وكتاب (النجاة) وهو شاعر فارسي الاصل واسماعيلي المذهب ولد عام (٣٧٠هـ وتوفي عام ٤٢٨ هـ) ومن رأيه - كما ترى - أن الافلاك ونفوس السماوات ملائكة، وعنده (كالفارابي) أن الله واجب الوجود بذاته ولذاته، ومعناه واجب الوجود بذاته أي كان وجوده، بذاته من ذاته ولذاته لا من غيره إذ ليس يكون شيء علة لوجود نفسه، والمراد عند الفلاسفة بلفظة (الذات) ولفظة (الوجود) = الماهية والذات وهما غالباً مترادفان - الماهية هي ما به الشيء هو هو، فماهية الإنسان هي ما به الإنسان إنسان اي حيوان ناطق، فالحيوانية والنطق ماهية وسميت ماهية لوقوعها في جواب (ما هو) فصاغوا من قولهم (ما هو) جواباً لا سؤالاً بزيادة ياء النسبة وتاء التأنيث مع قلب الواو ياء، - أما الذات فيطلق عليها العرب اسم (الانية) ويعرفونها بأنها تحقق الوجود العيني من حيث رتبته الذاتية.

فعند الفارابي:

* الوجود الأول - الله - واجب الوجود بذاته ولذاته.

* والوجود الثاني - أو العقل الاول: ممكن الوجود بذاته - واجب الوجود بغيره.

* الوجود الثالث - أو العقل الثاني: السماء الاولى.

* الوجود الرابع - أو العقل الثالث: كرة الكواكب الثابتة.

* الوجود الخامس - أو العقل الرابع: كرة زحل.

* الوجود السادس - أو العقل الخامس: كرة المشتري.

* الوجود السابع - أو العقل السادس: كرة المريخ.

* الوجود الثامن - أو العقل السابع: كرة الشمس.

* الوجود التاسع - أو العقل الثامن: كرة الزهرة.

* الوجود العاشر - أو العقل التاسع: كرة عطارد.

* الوجود الحادي عشر - أو العقل العاشر - (العقل الفعال): كرة القمر.

وهذا الوجود الأخير يصدر عنه الحدوث الطبيعي والنفوس الإنسانية، فالفارابي يرى أن الأول هو واجب الوجود لا غاية من وجوده، فغايته بذاته، ولكن وجود واجب الوجود يلزم ضرورة أن يوجد عنه سائر المخلوقات فيضاً، فوجود غيره فائض عن وجوده وعلة وجود العالم ليس (إرادة) الخالق القادر بل (علمه) بما يجيء عنه، فالأشياء ظهرت لكونه عالماً بذاته فإذن علمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه[١].

(١) المكزون السنجاري نقل تقديم وتحليل الاستاذ حامد حسن، والقارىء - كما أرى - يجد رأي الغزالي مخالفاً لرأي الفارابي حيث يقول: حدث العالم بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه (تهافت الفلاسفة).

تتصدر أولاً عن العقل الفعال(الهيولى) وهي مشتركة بين جميع الأجسام، وهذه الهيولى تتأثر بدوران الافلاك المتباينة بالجوهر والنسب والحركات، ومن هذا الدوران في الأفلاك تحدث في الهيولى استعدادات مختلفة، وعندئذ يفيض العقل الفعال على هذه الاستعدادات صوراً تلائمها فيتكون في البدء (الماء والهواء والهواء والتراب والنار) وهي عناصر بسيطة غير مركبة[1] تتمازج هذه العناصر ببعضها فيحصل من هذا التمازج أجسام تختلط فيما بينها ويختلط بعضها مع بعض العناصر فتحدث امتزاجات أكثر تركيباً وأكثر تعقيداً ثم تحدث استعدادات، وعندئذ يفيض العق الفعال على كل استعداد صورة تلائمه فيحصل من ذلك الأبخرة فالسوائل فالجمادات فالنباتات فالحيوان، وأخيراً فالإنسان فهو آخر ما يحدث لأنه أكثر تعقيداً في اختلاطاته والأكثر تشعباً في امتزاجاته، وهو أفضل ما يصدر عن العقل الفعال، وافضل المخلوقات في العالم الأرضي.

وحينما يوجد الجسم الإنساني الكامل الاستعداد يفيض عليه العقل الفعال نفساً فيغدو إنساناً سوياً -. له رأي آخر بالنسبة للنفس فيقول: إن النفس إذا فارقت الجسد ولما تتهذب بالفضائل، فإنها لا تستطيع مفارقة المادة.

---

(١) إذا قارن المطالع بين ما ذكره (الدكتور سليمان دنيا) عن بعضهم وبين فلسفة الفارابي يجد التقارب والتباعد والتخالف والتوافق واحياناً التلاقي باللفظ والمقصود، وفي الفردوس الأعلى لآل كاشف الغطاء يقول: من أراد أن يعرف الأشياء أو كيف كانت حال الموجودات في علم البارىء في القوة قبل فيضها على العقل بالفعل فليعتبر حال العدد كيف كان في الواحد الذي قبل الاثنين وكيف نشأ عنه؟ ومن اراد أن يعرف الاشياء في العقل الفعال قبل فيضها على النفس الكلية وكيف كان قبولها الرسوم والصور، فليعتبر حال رسوم المعلومات في انفس العلماء؟ - ومن أراد أن يعرف كيف كانت صور الأشياء في النفس الكلية قبل فيضها على الهيولى فليعتبر صور مصنوعات البشر كيف كانت في نفوسهم قبل إظهارهم إياها في الهيولات الموضوعة لهم في صناعاتهم؟ - وهذا التمثيل - كما أرى - جيد ورائع، وهناك الغزالي أورد في إحيائه مثلاً على تسلسل الوجود وارتباط المحسوس بالمعقول، فالذي يقرؤه يجد صورة واضحة مقروءة.

ويلتقي(ابن سينا) مع الفارابي كثيراً وبخاصة في تسلسل الفيض الخلق، فالعالم العلوي - عنده - يبدأ من الأعلى إلى الأدنى، - من العقل الأول حتى العاشر فيضاً، والعالم السفلي على العكس يبدأ من الأدنى إلى الأعلى - من الجماد إلى الإنسان ماراً بالحيوان والنبات لا يختلف معه بالهيولى والإفاضة والامتزاجات، والاستعدادات(١) ويرى ابن سينا أن الأفلاك والعقول هي ملائكة(٢) وأن العقل الفعال هو (جبريل) وأن الإنسان مميز عند الله، فلقد بدأ الخلق بأشرف الجواهر - العقل الاول - واختتم الموجودات بالإنسان وأنه العالم الصغير، فبالحيوانية يشارك الحيوان، وبالطبيعة يشارك النبات وبالإنسانية يوافق الملائكة(٣).

-غير أن الفارابي يدعو رتب العالم الاعلى - وجوداً او عقلاً ثم

---

(١) يتفق هذا القول مع فلسفة القائلين بسلسلة التكوين وترتيب المراتب وأن كل مرتبة دنيا ظل للمرتبة العليا كما يتفق معهم بالإفاضة والامتزاج والاستعداد، ولكن يختلف معهم بترتيب العالم السفلي فعندهم العكس.

(٢) يلتقي هذا الرأي مع الكثير من القائلين بنفوس السماوات والأفلاك والعقول بأنها ملائكة ورتب أحياء لها التصرف بمن دونها، ومن هنا - وربما - وقع الاعتقاد بالتنجيم وعلم الفلك وتأثيره.

(٣) مذهب ابن سينا في الكائنات العلوية معروف بقوله: إنها عقول، وإنها ذات إدراك وذات خيال وهذه العقول العلوية في مذهبه قريبة من ترتيب العقول في مذهب الاسكندر(الافروديسي) واتباع (افلوطين) وهم يلجؤون اليها بكثرة لتفسير وجود الكثرة من الواحد الذي لا يتعدد، فالمحرك الاول قد صدر عنه محرك الفلك الاعظم وهو (العقل) الاول - والعقل الاول صدر عنه الفلك الاعظم، والعقل الثاني، وهكذا إلى العقل التاسع ثم العقل الفعال وهو العقل العاشر الذي يسيطر على العالم الأرضي وما تحت فلك القمر وعنه تصدر النفوس والاجسام في عالم الإنسان، وكل عقل تصدر عنه نفس تناسبه في الشرف والتنزه عن المحسوسات، فالواجب الأول يوحي إلى العقول، والعقول توحي إلى النفوس، والنفوس تؤثر في الأجرام العلوية، وهذه تؤثر في الأرض وفيما تحت فلك القمر، وهكذا تكون حركة الفلك حركة عقل يشتاق إلى مصدره الاول، بل تكون كل حركة شوقاً إلى مصدرها وصعوداً إلى المصدر الاول وهو الله جل وعلا وهو الموجود المحض والخير المحض والعلم المحض والقدرة المحضة من غير أن يدل كل معنى مفرد على صفة على حدة.
ومن قرأ او يقرأ رسالة احمد بن جابر بن ابي العريض الغساني - المخطوطة - يرى فلسفتها حول هذه المعاني واضحة ولعلها طبق الاصل عن مضمون هذه الفلسفة.

كرة، أما ابن سينا: فيسميها عقلاً ومادة ونفساً، ويرى كما يرى الفارابي أن النفس أقدم من البدن، ولا يمكن أن توجد قبل وجوده، وأنها فيض من العقل الفعال حسب الاستعدادات التي تحصل من الامتزاجات بين العناصر والاجسام، فكلما حصل استعداد فاضت عليه النفس.

ولا غرابة بالتقاء هذين الفيلسوفين في أكثر المواضيع فقد استقيا فلسفتهما من منبع المذهب الافلاطوني، زد على علاقتهما في مذهب الشيعة المأخوذ عن المعصومين من آل بيت الرسول صلوات الله عليه وسلم[١].

ويرى ابن سينا أن الكائنات في صبوة إلى الأمثل المعشوق الأول (الله)، ففي العالم العلوي تتحرك الأفلاك شوقاً إلى عقولها، والعقول شوقاً إلى الأول الأكمل، وفي العالم الأرضي تتوق الأرواح إلى الانطلاق لتحلق بعالمها الأعلى[٢].

---

(١) المذهب الأفلاطوني يقول: - كما رأيت - بالمثل، وهبوطها ورجوعها إلى عالمها الاول بالتصفية، ثم هو يقول بحدوث: العالم وكأنه - كما قلنا - يستقي من القرآن الكريم وأقوال المعصوم.

(٢) يكاد الفيلسوف الإلهي احمد بن جابر الغساني المعروف بالشيخ أحمد قرفيص، - يكاد يتفق مع هذا القول، فهو يقول: بحدوث العالم لنستمع له: وأما سبب حركة العالم وسكونهم فأقول: الحركة إما طبيعية كحركة الحجر إلى أسفل طلباً للمركز، والنار إلى فوق طلباً للأثير، وإما قسرية كحركة الحجر الى فوق، او كحركة كل ما ليس فيه شيء تضاد عنصره، والحركة الاختيارية ليست إلّا لما فيه نفس، فالنفس هي المحركة، وهذه النفس معلولة النفس الكلية: والنفس الكلية تتحرك بجرمها السماوي إلى علتها الذي هو العقل حركة شوق إلى تلك العلة الفاضلة والمعلول مشتاق إلى التشبه بعلته فهو يتحرك لطلب تلك الغاية ولا يسكن دونها كحركة العاشق إلى معشوقه وذلك دأب كل نفس من مواليد الاكوان الستة وإن اختلفت في الحقيقة والعيان، كل منهم تتحرك نفسه الجزئية تشبهاً بالنفس الكلية وشوقاً إلى الغاية الإلهية، وكل متحرك إذا بلغ غايته سكن. - والأكوان عنده ستة: الكون النوراني - (الكون الجوهري - الكون المائي - الكون الهوائي - الكون الناري - الكون الترابي)، وعنده إن لكل كون من هذه الأكوان الستة شخصاً معقولاً يدبره ويتصرف به - كما عند كثير غيره (رسالة مخطوطة).

فأنت ترى كثيراً من المشابهة لفظاً ومعنىً يبيّن رأي الفارابي ورأي ابن سينا من جهة وبين ما نقله الدكتور(دنيا) عن بعض الفلاسفة من جهة ثانية، ولكن. فعند الدكتور دنيا أن الاول صدر عن الله صدوراً، بينما عند الفارابي وابن سينا إفاضة، وهذا وحده لا يشكل خلافاً،وقد نترك المقارنة بين هذه الآراء من جهة،وبين رأي الغزالي وابن رشد والدكتور (دنيا) من جهة ثانية ننظر وذهن المطالع لهذه المواضيع، نتركها توفيراً للوقت وحصراً على الإيجاز وثقته بمعلومات القارىء الوافرة.

وقد لا ننسى (الكندي) الذي كان يقول: إن غرض الفيلسوف في علمه (إصابة الحق) وفي عمله العمل الحق، وكان يقتفي رأي ارسطو في الزمان والمكان والمادة والحركة والطبيعة والسبب والعقل والنفس، ويخالفه بما له علاقة بالدين، وفي بعض النواحي تأثر بالآراء الافلاطونية[1].

فالكندي وأفلاطون يقولان بحدوث العالم،وإن اختلفت غايتهما، لأن الكندي يرفض وجود شيء قبل وجود هذا العالم، أما أفلاطون فيقول: بشبه مادة سابقة على وجود هذا العالم لا هي روحانية معقولة ولا مادية محسوسة يسميها(اللا موجود) أو (القابل) أي الذي يقبل فعل (المثل) بحيث ينشئ هذا الفعل عالمنا المادي المحسوس المتغير الزائل،

---

(١) الكندي هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق عربي ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان ولد عام (١٨٥هـ وتوفي عام ٢٦٠هـ) واشتهر باسم فيلسوف العرب،كان يرى أن النبوة ضرورية للبشر في الهداية والمعرفة، ويرى أن لا خلاف بين الفلسفة والدين، ويرى أن النفس جوهر بسيط إلهي روحاني، ولا بد من خلاصها من الشفاء، وأن علاقتها بالبدن عارضة،وهي منفردة عنه مباينة له،ويرى أن الله هو الوجود التام الذي لم يسبقه وجود ولا ينتهي له وجود ولا يكون وجود إلّا به، وهو يتصف بالوحدة الأزلية التي لا علة لها،وهو لا يتحرك لأن في الحركة تبدل،وليس له زمان لأن الزمان عدد الحركة،بل له فعل خاص هو الإبداع، وهو العلة الأولى التي لا على لها - عن كتاب (مائة أوائل - للدكتور سهيل زكار).

فالخلاف بينهما على مفهوم الفاعل الاول، يقول الأستاذ حامد حسن في ترجمة المكزون السنجاري: إن رسائل إخوان الصفا تمتزج فيها الأفلاطونية الحديثة بالتصوف وما قاله أفلاطون في الطبيعة، وفيثاغورس في العدد، كالفارابي أيضا مزج بين آراء الافلاطونية الحديثة وبين أقوال الشيعة في الإمام المعصوم[١] ويستشف المطلع أن محاولة الفلاسفة والمتكلمين الإلهيين قديماً وحديثاً، كل ذلك - ليبرهنوا أن لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً، ولكل حركة محركاً، ولكل مفعول فاعل. وغني عن القول: إن منهم من أغرق في التفكير والاستنتاج فتاه في ظلمات الخيال وفساد الاعتقاد، فجاءت آراؤه مخالفة لكل دعوة سماوية وحجة عقلية سليمة[٢].

نعم غاية كل فيلسوف إلهي أن ينتهي بظرية الأسباب والمسببات إلى السبب الاول هو (الله) مسبب الأسباب الخالق الأول المصور الحكيم، وأن يصل بالدراسة والعقل والرياضة الفكرية والتدقيق إلى غاية من الاستقرار

---

(١) لعل المراد بقوله: مزج بين الآراء الافلاطونية وبين اقوال الشيعة في الإمام المعصوم: القول بالعقل والإشراق الروحي الذي قال به أفلاطون وعصمة الإمام الذي لا يتأتى بقوله الخطأ كما تعتقد الشيعة، هذا وإن افلاطون أكبر وأعظم الفلاسفة اليونانيين لأنه اول من وضع بينهم مذهباً مفصلاً يجعل الفكرة مقدمة إلى المادة سابقة لها في المرتبة وفي الزمان، فأفلاطون وتلاميذه يعرفون أن الروح موجود وأن المادة غشاء باطل لأنها تتغير لا تستقر على حقيقة ثابتة وأن المركب يتغير ولا يبقى على حالة واحدة غير(الجوهر البسيط) وأن المادة والروح عنصران مختلفان وأن الجسد حجاب يحول بين العقل وبين الخلود إلى عالم الكمال وهو عالم الروح وأن الدنيا بأسرها توجد وتزول في دورات تتبعها دورات بغير انتهاء هذا ولم تكن فكرة التوحيد معروفة على عهد افلاطون فالعالم وحده كان هو الواقع الماثل أمام الحس والعقل والخيال وكل ما عداه فهو استخلاص وتفسير يجتهد فيه كل مجتهد بما يراه وربما لا يسلم في اجتهاده من أثر العقائد الوثنية والخرافات والتقديرات العلمية التي كانت تحدث يومئذ بالمفكرين وغيرهم.

(٢) في نظري إن من يريد أن يأخذ الحقيقة عقيدة سمحة نقية خالية لا يشوبها لبس من أخلاط الفلسفة ينبغي عليه أن يتجه قبل كل شيء إلى القرآن الكريم والسنة وشرح المعصوم لهما ويجعل ذلك قاعدة يبني على ضوئها رأيه فما وافق فصواب وما خالف فخطأ.

الروحي واليقيني في معرفة ما وراء الطبيعة - معرفة الحقيقة بعيداً عن التردد والشك متخلصاً من القلق والحيرة. وليس من السهل الوصول إلى الغاية الصحيحة المتوخاة بدون تردد ومعاناة دقيقة إلّا إذا كان هناك ضوء محسوس ومنفحة إلهية يستهديها العقل[1] وتستبصرها الروح، ويستجليها الوجدان إذا أبهم على السالك الطريق وادلهمت سبل التجربة والكشف. والانزلاق - ولا ريب - خطورة كبيرة وانحدار مخيف في ظل هذا الجو المكفهر من المجهول، وإذا رأينا الفلسفة المادية لمعرفة ما وراء الطبيعة تهدم وتبني، وتبني وتهدم، وأخيراً وصلت إلى هوة سحيقة من الظلام الذي يقود إلى الضلال والضياع، وكان من حقها أن تعلن الفشل الذريع وترجع مغلوبة على رأيها وترضى من الغنيمة بالإياب، من حيث بقيت نتيجة التجربة مادة بحتة تشوه الحقائق وتزيف المعرفة والعقل والإيمان.

ولكن الفلسفة الإلهية استضاءت طريق الرُّسل والهداة المعصومين والحديث المأثور، واستخدمت العقل والبصيرة والوجدان فتجلت لها الحقائق الغيبية على طريق الأسباب والمسببات والعلة والمعلول وتسلسل التكوين رتبة ورتبة عن رتبة كما رأيت وسترى.

وقد قالوا: إن النفوس نفوس السماوات مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم، وإن المراد باللوح المحفوظ نفوس السماوات، وإن انتقاش جزئيات العالم فيها يضاهي انتقاش المحفوظات في القوة الحافظة المودعة في دماغ الإنسان، لا أنه جسم صلب عريض مكتوبة عليه الأشياء - كما كان وما يكون.

---

(١) مما لا ريب فيه أن العقل هو الذي يجب أن يوضح ويقرر ما يصادفه من مشاكل دينية كانت أو دنيوية - معنوية أو مادية، لأن للعقل الإنساني إمكانات هائلة وهو الأداة الكبرى للكشف عما في كون المادة وما وراءها من حقائق فمن لا يحكم عقله لا يصل إلى شاطئ السلامة وإن بصرت عينه وسمعت أذنه...

ويقولون: إن الملائكة السماوية هي نفوس السماوات، وإن الملائكة الكروبيين المقربين هي العقول المجردة التي هي جواهر قائمة بأنفسها لا تتحيز وإن هذه الصور الجزئية تفيض على النفوس السماوية منها[1] وهي - أي الملائكة الكروبيون - أشرف من الملائكة السماوية لأنها مفيدة وهذه مستفيدة، والمفيد أشرف من المستفيد، ولذلك يعبر عن الأشرف (بالقلم) قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ لأنه كالنقاش المفيد فمثل المعلم (بالقلم) وشبه المستفيد(باللوح).

ويقولون: إن سائر الحوادث الأرضية تستند إلى الحوادث السماوية إما بغير واسطة، وإما بواسطة واحدة وإما بوسائط كثيرة[2] وهذا منقول استنتاجاً عن طريق تسلسل التكوين وفيما جاء من المأثور، أن الأجرام السماوية والأفلاك هي هياكل عالم النور، وأجسام من عرفوا الله، وهل لي أن أقول: إن هذه التسمية الأخيرة تسمية اصطلاحية او تكاد . . . . .

ومن المأثور عن الرسول ﷺ: أن وراء آدمكم هذا ستة وثلاثين ألف آدم ووراء دنياكم هذه سبعون ألف دنيا لو وضعت دنياكم هذه في إحداهن

---

(١) يريدون بالصور الجزئية هذه صور الملائكة الكروبيون التي هي أشرف من الملائكة السماوية - نفوس السماوات التي هي ملائكة ولكل منهم رتبته ولا يتجاوزها فتأمل - وكما ترى أعلاه.

(٢) هذا يقره العلم القديم والحديث على السواء - (علم الفلك) ولا خلاف عليه من الجميع، وقد يكون برهاناً قوياً على هذه الفلسفة ونتائجها، ومن هنا أخذ الكثيرون برأي المنجمين منذ العصر الأموي وفي العصر العباسي وعصر الفاطميين الذي ساد به هذا العلم، واعتقدوا بصحته لا سيما المتصوفة منهم كما ترى عند إخوان الصفا.

وهل من خلاف فيما ورد على ألسنة الرسل والكتب السماوية وقام بتمحيصه العلماء والفلاسفة الإلهيون في سلسلة التكوين إلّا ما حوله البعض بتأويلهم إلى غير مقصوده ومعناه، فإذا رأيتهم قالوا: نفس وفلك وعقل وروح ونفوس وأفلاك وعقول وأرواح وسماوات الأرواح واراضي الاشباح وعالم الأمر وعالم العقول وعالم النفوس وعالم الجبروت وعالم الملكوت والصافات صفّاً والمدبرات أمراً ونفوس السماوات وعقول مجردة ولوح وقلم وملائكة كروبيون وما اشبه من مركب ومجرد وهيولى - كل هذه الأسماء والألفاظ لها مدلولها في سلسلة التكوين وترتيب العوالم في بداية الايجاب الاول.

لم تكد تبين يقصد بالستة والسبعة الاطلاق كما هو معروف ومعلوم عند أرباب هذا العلم وعليه قول المعري: وما آدم في مذهب الحق واحداً... الخ وبالجملة فكل حادث له سبب إلى أن ينقطع التسلسل بالارتقاء إلى الحركة السماوية الأبدية التي بعضها سبب للبعض[1] يقول حجة الإسلام الغزالي: فنحن لا نعلم ما يقع في المستقبل لأننا لا نعلم جميع أسبابه ولو علمنا جميع الاسباب لعلمنا جميع المسببات.

فإذا علمنا أن النار ستلتقي بالقطن - مثلاً - في وقت معين - نعلم احتراق القطن، ولو علمنا أن إنساناً ظمآن يشرب ماء نعلم أنه سيرتوي، وهكذا، ولكن هذه الاسباب لا نعلمها، وبحكم جهلنا الأسباب فنحن نجهل المسببات، فلو علمنا بعضها لا بدّ أن يقع لنا حدس بوقوع المسبب، وإذا علمنا أكثرها أو أغلبها حصل لنا ظن ظاهر بالوقوع.

فلو حصل لنا العلم بجميع الاسباب لحصلت المعرفة بجميع المسببات، إلّا أن السماوات كثيرة ثم لها اختلاط بالحوادث الأرضية وليس بالقوة البشرية يمكن الاطلاع عليها، ونفوس السماوات مطلعة عليها لاطلاعها على السبب الأول ولوازمه ولوازم لوازمه إلى آخر السلسلة[2].

---

(١) هل المراد - كما مرّ عن الفارابي: أن الهيولى تتأثر بدوران الأفلاك ومن دوران الأفلاك تحدث في الهيولى الاستعدادات ثم يفيض عليها العقل صوراً تلائمها بعد التجسيم، - أو كما مرّ من أن صدور العقل الأول يصدر عنه عقل ثان، وهذا يصدر عنه ثلاثة أمور، وهكذا حتى العقل العاشر الذي تلزم عنه المادة؟ والمواد تمتزج بسبب حركات الكواكب... الخ

(٢) هذا - كما رأى يتفق مع أقوال علماء التوحيد وفلاسفته في التكوين من أن كل مرتبة عليا سماء للرتبة السفلى، والسفلى كأرض للعلياء أو ظل لها، والعليا تتصرف بالدنيا وتحيط بها، وفي المثل الافلاطونية ما يشير اليه. ويقول الفلاسفة: إن الأسباب هي القوانين المودعة في الأشياء والتي هي قوام كل شيء وخاصيته وهي كامنة في ذاتها لا تظهر إلّا إذا تلاقى شيء مع شيء عندئذ تتداعى الأسباب التناسقة بين الشيئين او الأشياء وحينئذ يقع المسبب الناتج من اتصال الاسباب بعضها ببعض، ويقولون: كل شيء فيه قوى كامنة هي قوام وجوده ولا يبرز من هذه القوى إلّا ما يطلبه الحال الذي يكون عليه هذا الشيء، فالماء مثلاً يظل ماء

ولهذا زعموا أن النائم يرى في نومه ما يكون في المستقبل، وذلك لاطلاعه على اللوح المحفوظ ومطالعته، وقالوا مهما اطلع على الشيء فربما بقي ذلك الشيء بعينه في حفظه، وربما سارعت القوة المخيرة إلى محاكاته، فإن من غريزتها محاكاة الأشياء بأمثلة تناسبها بعض المناسبة أو انتقالها منها إلى أضدادها فينمحي المدرك الحقيقي عن الحفظ ويبقى مثال الخيال في الحفظ فيحتاج إلى تعبير ما،وعلم التعبير يتشعب من هذا الأصل كما يقال.

ويقولون: إن الاتصال بتلك النفوس أي نفوس السماوات مبذول إذ ليس ثم حجاب، ولكننا في يقظتنا مشغولون بما تورده الحواس والشهوات علينا، فانشغالنا بهذه الأمور الحسية يصرفنا عنه، فإذا سقط عنا في النوم بعض اشتغال الحواس ظهر بالنائم استعداد ما للاتصال وزعموا أن النبي ﷺ[1] يطلع على الغيب بهذه الطريقة إلّا أن القوة النفسية النبوية قد

محتفظاً بعناصر وجوده كما هي، ولكن إذا سلطت عليه قوة حرارية تبخر وتحول من سائل إلى بخار، وإذا سلطت عليه قوة باردة جمد وصار ثلجاً وتحول إلى سائل جامد - وهو يتشكل في الأواني حسب كل آنية فيأخذ أوضاعا مختلفة الأشكال - مستطيلة - مربعة - مثلثة - مستديرة حسب الإناء - وهو يطفو فوق الحجر - على حين يغوص تحت الزيت وهكذا يأخذ في كل حال الموضع المناسب الذي يستدعيه الشيء الذي يتصل به.

ففي كل شيء أعداد لا حصر لها من القوى والأسباب الكامنة التي تتحرك إلّا بمحرك مناسب لها، فالتلازم بين الأسباب والمسببات يقول به الكثير من الفلاسفة والحكماء ورجال العلم والدين،وعندهم: إن نظام الله سبحانه في مخلوقاته يقتضي أن تتحرك الموجودات كلها في حركة منتظمة لا تتغير ابداً لأن التغير معناه حدوث خلل بها، ومحال أن يلحق النظام الذي تبدعه يد الخالق العليم خلل أو اضطراب، وقد تشهد الخبرة والعيان من اضطراد الحوادث ذات الأسباب الموحدة، فكل سبب إذا برز للوجود أعطى النتيجة التي يعطيها في كل حال إذا تهيأت له نفس الظروف في كل حالة، فالنار إذا اتصلت بالقطن أحرقته وصيرته رماداً. . . وهكذا.

(١) جاء في تفسير الوحي: إنه إلهام روحي بواسطة الملك جبريل وبالرؤيا، وقد يحلو مثل هذا التفسير إلّا أن النبي ﷺ أعطي من علم الغيب ما لم يعط غيره - أعطي اسم الله الاعظم كما ورد - هذا وإن الوحي على ضروب كثيرة فليراجعها من يريد في تفاسير القرآن المجيد.

تقوى قوة لا تستغرقها الحواس الظاهرة، فلا جرم أنه يرى في اليقظة ما يراه غيره في النوم، ثم إن القوة الخيالية تمثل له أيضاً ما يراه، وربما يبقى الشيء بعينيه وفي ذهنه، وربما يبقى مثاله فيفتقر مثل هذا الوحي إلى التأويل كما يفتقر مثل ذلك المنام إلى التعبير وأثبتوا من المعجزات الخارقة للعادات ثلاث: إحداها في القوة المتخيلة فقالوا إنها إذا استولت وقويت ولم تستغرقها الحواس بالاشتغال اطلعت على اللوح المحفوظ فانطبعت فيها صور الجزئيات الكائنة في المستقبل، وذلك في اليقظة للانبياء، ولسائر الناس في النوم[١]، الثانية: خاصية في القوة النظرية العقلية، وهو راجع إلى قوة الحدس.

وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم، فرب ذكي إذا ذكر المدلول تنبه للدليل، وإذا ذكر الدليل تنبه للمدلول من نفسه، والناس في هذا حسب تفاوت الدرجات العقلية والروحية[٢]، الثالثة: في القوى النفسية العملية فقد تنتهي إلى حدٍّ تتأثر فيها الطبيعيات وتتسخر، ومثاله: إن النفس منا متى توهمت شيئاً خدمتها الاعضاء والقوى التي فيها فتحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة حتى إذا توهمت شيئاً طيب المذاق تحلبت أشداق صاحبها وانتهضت القوة الملعبة فياضة باللعاب من معادنه، ذلك كله لأن الأجسام والقوى الجسمانية خُلقت خادمة للنفس، ويختلف ذلك باختلاف

---

(١) انظر فترى أن لكل شيء عندهم سبباً ومسبباً، ولكن يختلف السبب الروحاني عن المادي، وترى قول الرسولﷺ: لولا أن الشياطين يحومون على نفوس بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء يومئ إلى أحقّية قولهم اعلاه.

(٢) إذا كان الفيلسوف (هربرت سبنسر) قال: إن وراء العالم الطبيعي جانباً يستحيل على الإنسان معرفته فقد أراد:

إن جميع الفلاسفة الإلهيين انتهجوا اسلوباً غير أسلوب العلم بالتجربة الحسية ليتصلوا بما وراء عالم الطبيعة وهو أسلوب التأمل والحدس والاستبطان عندما يخفق القلب أمام رائعة من روائع الحقيقة التي تتجلى في ضوء البحث العلمي، وهكذا تحول جانب من وجودهم إلى التصوف واليقين والروحية فرأوا بعين البصيرة ما لا يرى في العين الباصرة.

صفاء النفوس وقوتها، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حدّ تخدمها القوة الطبيعية[1].

٨- إثبات الصانع الأول عن طريق علم النفس والفلسفة العلمية والواقع المحسوس الذي لا يقبل الجدل

الدليل الأول: غرائز بعض المخلوقات، ونوجز قليلاً منها فنقول:

من الأدلة القاطعة على وجود(الصانع الأول ما نراه في حياة بعض المخلوقات فإنها تعيش وتصل إلى أهدافها بالغريزة، يقول الفلاسفة والعلماء الإلهيون: إذا نظر الإنسان في الإبداع الإلهي يلاحظ من قضايا النفس بصورة خاصة قضية الغرائز التي تنير للحيوانات طريقها وتسددها في خطواتها، ويرى آيات الوجدان تناديه مرشدة على أن تزويد الحيوانات بتلك الغرائز ليس إلّا من صنع حكيم قدير، وليس صدفة عابرة وإلا فمن علم النحل بناء الخلايا المسدسة الأشكال، ومن علّم كلاب البحر بناء السدود على الأنهار؟ ومن علّم النمل المدهشات في إقامة مساكنه؟. ثم جمع مؤونة الشتاء وخزنها في أماكن قلما يصيبها التلف، ومن علّم ثعبان البحر أن لا يضع بيضه إلّا في بقعة خاصة من قاع البحر تقرب نسبة الملح فيها من ٣٥٪ وتبعد عن سطح البحر ما لا يقل عن (ألف ومئتي قدم)، ويحرص على أن لا يرى بيضه إلّا في هذه البقعة؟. كما أنه لا ينضج إلّا مع توافر هذين الشرطين - ؟ ويقولون: من علّم البعوضة أن تضع بيضها في المستنقع وكل بيضة تأتي إلى الوجود مزودة بكيسين للطفو؟. من أين تعلمت البعوضة قانون (ارخميدس) تزود بيضها بهذه الاكياس الطافية.

---

(١) من قرأ الكتاب المخطوط - الطالقان - رواية ابي الحسن المدني ومحمد بن خالد البرقي - من قرأ هذا الكتاب واعتبر مضمونه واقعاً، ورأى كيف كانت السباع والطبيعة تخدم سكان ذلك العالم بمنتهى الطاقة لا يستبعد هذه الخوارق، بل يرى مقصود القولين واحداً -، ويقول ابن سينا في كتاب (الاشارات): وصاحب النفس القوية إن كان خيراً رشيداً فهو ذو معجزة من الانبياء وكرامة من الاوّلياء، وقد يصير ذلك الذكاء والصفاء سبباً لازدياد تلك القوة حتى يبلغ الأمر الأقصى، - وإن كان شريراً استعمل تلك القوة في الشر فهو الساحر الخبيث.

يقول الدكتور(احمد زكي) في موسوعته العلمية: في ظلام أعماق البحار أسماك تسير وهي تحمل ضياءها على ظهرها عند رأسها وفي اجزاء شتى من جسمها، إنها تصنعه من دمها، ومنها ما يضيء مصباحه إذا شاء وعندما يشاء، ومنها ما يبخ في الماء وراءه - وهو هارب - مادة تشع بالضياء يعمي عدوه عنه، ولهذه الأصناف الهاربة مثيلات في طبقات البحار العليا حيث النور، فهي تبخ في الماء من ورائها - وهي هاربة - مادة كالحبر سوداء ستاراً يحميها من أعدائها، والحبر ينفع للستر في النور كما ينفع شدة النور في التعمية لذلك تبدل جهاز الدفاع في الأعماق المظلمة عنه في الطبقات العليا، ومن أهداف الضياء تعرف الأنثى على الذكر والعكس أيضاً.

ويقول العلماء: ومن الغرائب ما تنسجه العناكب، فقد تنسج شباكاً لها أشكال عدة، ولكل فصيلة منها شكل لبيته الخاص الذي يبنيه، ومن هذه الأشكال ما هو كالملاءة، وما هو كالقمع، ومنه الهندسي الدائري، وغير ذلك[1].

---

(١) أكثر هذه الشباك تعقداً وتركيباً وحسن صنعة: الهندسي الدائري، وهو يتألف عندما يكتمل عادة من ثلاثة خطوط او أربعة أساسية تحيط به، وعدة خيوط اخرى اساسية تتخلله في داخله ثم أنصاف اقطار كثيرة تخرج من مركز واحد ثم سرة عند هذا المركز من نسيج دائري متقارب، ثم منطقة متوسطة، ثم اخرى لزجة لتلتصق بها الضحية فلا تستطيع هرباً، واختلفت الخيوط التي وجب على العنكبوت أن يصنعها لاختلاف الغاية منها، وإذا اختلفت الغدد التي تصنع الحرير السائل في بطن العنكبوت فيما تصنع من ذلك - كل تخصص في نوع، ونوع يعمل حين يراد منه النتائج وآخر يتوقف، والنسيج من علم العنكبوت كيف ينسج؟. والهندسة: من علمه دروسها، فعرف الدائرة، وعرف اقطار الدائرة. واللزوجة. والجفاف وما تضمنهما من اهداف،؟. والمغازل: ليست كلها تنتج صنعاً واحداً، فليت شعري كيف درس العنكبوت بأن صنفاً اكتفى منه فأوقف مغزله، وإن آخر احتاجه فأطلق غدده؟.؟.
وأغرب من هذا المخلوق هو(الوطواط) مخلوق آخر لا يرى نهاراً يطير ليلاً باحثاً عن غذائه فاتحاً فمه وقد خرج العلماء بالتجارب بأنه (الوطواط) يخرج اصواتاً ذات ذبذبات عالية، والأذن الإنسانية لا تدرك الصوت الذي ينقص ذبذبته عن (١٦) في الثانية ولا التي تزيد على((٢٠٠٠٠)) في الثانية، فالوطواط يخرج اصواتاً تمتد امامه ثم تنعكس على ما تنعكس عليه أصداء تحسبها أذنه فتهديه الطريق أو تكشف له موضع الطعام،وهذه الأصوات تخرج

الدليل الثاني: تركيب الإنسان العجيب:

يقول علماء التشريح: إن الشبكية العينية التي تعكس الشبكة عليها النور: تتكون من تسع طبقات منفصلة مع أنها لا تزيد في سمكها على ورقة رقيقة، والطبقة الأخيرة منها تتكون من ثلاثين مليوناً من الأعواد وثلاثة ملايين من المخروطات، وقد نظمت هذه الأعواد والمخروطات تنظيماً محكماً رائعاً، غير أن الأشعة الضوئية ترتسم عليها بصورة معكوسة، ولهذا شاءت العناية الخالقة أن تزود جهاز الابصار وراء تلك الشبكة بملايين من خريطات الأعصاب، وعندما يحدث بعض التغييرات الكيميائية ويصل إدراك الصورة بوضعها الصحيح، ولم نأت إلّا على هذا العضو العجيب من تركيب الإنسان حرصاً على الإيجاز وهو وحده كاف وقاطع، فلا مصادفة ولا جدل، وعلى ما قاله العلماء عن (المخ البشري) الذي هو عجيبة العجائب فهو يتألف من عشرة آلاف مليون خط عصبي تعمل كلها في وقت واحد وفي كمال معجز، ولو حدث بها عطل هنا او هناك لجأ في أثره الشلل والعمى والخرس والتخليط والهذيان، وهي أمور لا تحدث إلّا استثناء، فما الذي يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها، ومن الذي زودها بكل تلك الكمالات؟.؟. إن هو إلّا عقل مدبر حكيم؟؟

الدليل الثالث: إن الحياة لا تنشأ إلّا من الحياة:

تعال معي أيها القارىء الكريم لنأخذ مثلاً آخر يملأ الوجدان اطمئناناً بالمفهوم الإلهي ورسوخاً فيه حيث انهارت في ضوء علم الحياة

من الوطواط نبضات - نبضة بعد نبضة تأذن للصدى أن يرتد وهي أصوات لها ذبذبات عالية، ربما كانت مئة ألف ذبذبة في الثانية فهي فوق ما تسمعه أذن الإنسان وفي أذن الوطواط والحس الكافي لإدراك هذه النبضات عندما ترتد صدى، وطول الموجة الصوتية التي تخرجها الوطاويط تتراوح بين عشر البوصة والبوصة الواحدة وهي كأطوال: الحشر التي تكشفها في طيرانها، من عدو وغيره وأشياء أخرى تمنعها من الاصطدام بها، وربما استفاد العلم من الوطواط فاكتشف (الرادار) فتأمل.

نظرية(التولد الذاتي) التي كانت تسود الذهنية المادية ويعتقد بها السطحيون والعوام ويسوقون عليها أمثلة عديدة من الحشرات التي تبدو في زعمهم وكأنها تولدت ذاتياً تحت عوامل طبيعية معينة دون أن تسلل من أحياء أخرى كالديدان التي تتكون في الأمعاء وفي قطعة من اللحم إذا عرضت للهواء مدة من الزمن ونحو ذلك من الأمثلة التي كانت توحي بها سذاجة التفكير المادي.

ولكن التجارب العلمية القاطعة برهنت على بطلان نظرية(التوالد الذاتي) وإن الديدان لم تكن لتتولد إلّا بسبب جراثيم الحياة التي كانت تشتمل عليها قطعة اللحم، وقد أثبت (لويس باستور) بتجاربه العلمية أن الجراثيم والميكروبات التي تعيش في الماء كائنات عضوية مستقلة ترد إلى الماء من الخارج ثم تتولد فيه.

ثم باءت بالفشل نظرية (التوالد بالتخمير) على يد (باستور) أيضاً لأنه أظهر أن التخمير لا يحصل في الماء لو حفظت الخميرة بمفردها وقطعت علاقتها بالخارج، وإنما يوجد بسبب انتقال كائنات عضوية معينة إليها وتوالدها فيها، وهذا ما يتفق عليه العقل والنقل والعلم[1].

---

(١) فلسفتنا - للدكتور محمد باقر الصدر، وفي كتاب (بين عالمين) للأستاذ مصطفى الكيك يقول: هذه الحياة التي تجري في صفوف الحيوان والنبات والتشابك الذي يجمع بين (البكتيريا) في أدنى المستويات (والإنسان) في اعلاها، هل تندفع إلى لا غاية؟ - إن الخلية الأولى التي هي أصل الكائنات الحية قد أعطتنا في تطورها ما نشاهده الآن من صنوف وأنواع لهذه الكائنات الحية، كأنما كان هنالك من كان يدفعها في سلم التطور لكي تصل إلى ما هي عليه الآن من إنسان وحيوان ونبات وكأن ما وصلت اليه كان هدفاً مرسوماً لهذه الخلية - إن كل الاشياء التي هي أحط من الإنسان في سلم الرقي تتجه نحوه وغايتها هو الإنسان بحكم أنه أعلى منها في هذا السلم وهذا الإنسان نفسه الذي هو أعلى الكائنات مرتبة بما يملك من قوة ذهنية ميزته عن هذه الكائنات، ما هي الغاية التي يتجه اليها؟ هل لوجوده هدف أم أنه جامد على حال واحد وهل وجوده هذا نتيجة المصادفة التي لا أؤمن بها، أم نتيجة عقل مدبر أوجده لتحقيق هدف معين؟.؟.

لننظر إلى (الغزالي) فنراه يقول: إنه لما كان لا يقبل صورة الحيوان إلّا النطفة، وإنما تفيض القوى الحيوانية عليها من الملائكة التي هي مبادىء الموجودات(عندهم) بالتأثير كما مر سابقاً - ولم يتخلى قط من نطفة الإنسان إلّا إنسان، ومن نطفة الفرس إلّا فرس من حيث إن حصوله من الفرس أوجب ترجيحاً لمناسبة صورة الفرس على سائر الصور فلم يقبل إلّا الصورة المترجمة بهذا الطريق، لذلك لم ينبت قط من الشعير حنطة ولا من بذر الكمثرى تفاح، وقد نرى أجناساً من الحيوانات تتولد من التراب لوجود جرثومتها فيه،ولكنها لا تتوالد كالديدان(١) ومنها ما يتولد ويتوالد كالفأر والحية والعقرب، ويختلف استعدادها لقبول الصور بأمور غابت عنا ولم يمكن في القوى البشرية الاطلاع عليها، ثم يقول: لا خلاف أن انسلاك الروح والقوى المدركة والمحركة في نطفة الحيوانات ليس يتولد من الطبائع المحصورة في الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة،ولا أن الأب فاعل ابنه بإيداعه النطفة في الرحم،ولا هو فاعل حياته وبصره وسمعه وسائر المعاني التي هي فيه، ومعلوم أنها موجودة عنده، ولم يقل أحد إنها موجودة به، بل وجودها من جهة (الاول) إما بغير واسطة، وإما بواسطة الملائكة الموكلين بهذه الأمور الحادثة فقد تبين أن الوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به(٢). وقد انتهى القول علمياً وعقلياً ونقلياً بثبوت قاطع: إن الحياة لا تنشأ إلّا من الحياة وإن

---

(١) ولكن علماء التجربة يقولون: إن الديدان تتولد وتتوالد وينصرهم في هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾، والديدان بأنواعها تمشي على بطنها.

(٢) تهافت الفلاسفة للغزالي - وقد ترى معي أيها القارىء أنه جعل مثل هذه المخلوقات مختلفة الاستعدادات لقبول الصور لأسباب لا يعرفها البشر لأن معرفتها موكلة للخالق العليم الخبير - كذلك لعله يريد بأن الحياة موجودة،ووجودها من قبل الصانع الأول مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ والى قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ سورة الواقعة.

النطفة لا التوالد الذاتي هي القانون الأساسي العام السائد في دنيا الاحياء، وقد وقف الماديون عند هذه النتيجة الحاسمة موقفاً حرجاً لأن نظرية (التوالد الذاتي) إذا كانت قد سقطت من الحساب في ضوء البحوث العلمية، فكيف يمكنهم أن يعللوا نشوء الحياة على وجه الأرض؟.

وهل يبقى من ريب أن الحقيقة الإلهية الناصعة هي التي أودعت سرّ الحياة في (الخلية) والخلايا الاولى ؟.

فنظرية باستور عن الكائنات الحية الميكروبية التي وضعها على أساس حدسي ثم أيدتها المشاهدات الدقيقة بالوسائل العلمية، ونظرية الجاذبية التي أثار افتراضها في ذهن (نيوتن) مشهد بسيط هو مشهد سقوط تفاحة على الأرض، وجعله يتساءل:

لماذا لا تكون القوة التي جعلت التفاحة تسقط على الأرض هي بعينها التي تحفظ للقمر توازنه وترسم حركته[١].

ولم يخلق نيوتن قانون الجاذبية من عدم بل هو طريقة الله في تسيير اجزاء الكون، كان قائماً ثم انكشف عنه الغطاء بالتقدم والعلم.

ثم أيدت التجارب العلمية والمشاهدات بعد ذلك تعميم الجاذبية للأجرام السماوية، كل هذا من الدلائل التي أحبطت آراء الماديين ونظرياتهم الإلحادية.

ثم نرجع فنقول: (إذا كانت الحياة لا تنشأ إلّا من الحياة، فهنالك

---

(١) من المعروف تاريخياً ودينياً أن الناس قديماً كانوا يعبدون الكواكب كالحنفاء قوم نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام والصابئة وغيرهم قبلهم وبعدهم، وقد جاء عن سقراط في دفاعه عن نفسه أمام المحكمة التي حوكم فيها وحكم عليه بالموت وأمام المحلفين الذين أدانوه بالموت جاء عنه قوله: إنك تدهشني يا ميليتوس فهل تعني أنني لا أؤمن بأن الشمس والقمر إلهان؟؟ الأمر الذي به يؤمن الجنس البشري قاطبة؟ قال ميليتوس: إنه بالتأكيد أيها السادة المحلفون لا يؤمن بذلك فإنه يقول: بأن الشمس هي حجر وإن القمر كتلة من التراب

سؤال يطرح نفسه: هل تولدت من الطين خلية أولى تعددت وتفرعت إلى أنواع وفصائل نباتية وحيوانية وأنجبت ما نراه في البر والبحر والجو من احياء بما في ذلك الإنسان)؟.

أم أنه كانت هناك بدايات متعددة، منها بداية تطورت إلى نباتات، وبداية تطورت إلى فروع الحيوانات المائية كالاسفنج، والأسماك وغيرها الكثير من صنوف الحيوانات المائية. . . ، وبداية خرجت منها الزواحف، وبداية خرجت منها الطيور، وبداية خرجت منها الثدييات، وبداية خرجت منها (الهوام والقشاش) وبداية خرج منها الإنسان، وبذلك يكون لكل نوع أصل، أوجد منفصلاً خاص به؟.

وإذا كانت هذه البدايات - كما يقول العلماء - صحيحة، والتشابه التشريحي لهذه الفروع والأنواع والفصائل لا ينفي خروج كل منها من بداية خاصة، فإنما يدل هذا التشابه التشريحي في الجميع على وحدة الخالق سبحانه، لأن صانعها واحد وقد خلقها كلها من خامة واحدة وبأسلوب واحد وهندسة واحدة وبنتيجة حتمية.

غير أن خروجها كلها من أب واحد ليس نتيجة محتمة لتشابهها التشريحي، فهناك صفات جديدة مفاجئة - كما يقول العلماء - تأتي طفرة وتظهر في النسل بسبب تغيرات غير محسوسة في عملية تزاوج (الخلية) الأنثوية و(الخلية) الذكرية ولقاء (الكروموسومات) لتحديد الصفات الوراثية، ولكن هذه النظرية نظرية (الطفرات) التي أقامت التطور على أساس عشوائي قد أسقطت عملية الابداع والعقل، فهي لا تصلح أساساً لما نرى حولنا من إبداع ودقة وإحكام في جميع الأشياء فتبصر.

الدليل الرابع: مبدأ العلّية، وقد نطيل النقل والتعليل فيه لأهميته:

من الأدلة القاطعة التي لا ريب فيها والتي تحبط آراء المادة والماديين: ما يدركه الناس في الحياة الاعتيادية وهو(مبدأ العلية) القائل: (إن لكل شيء سبباً) وهو من المبادىء العقلية الضرورية لأن الإنسان يجد في صميم طبيعته الباعث إلى محاولة تعليل ما يجد من أشياء وتبرير وجودها واستكشاف أسبابها.

يقول الدكتور محمد باقر الصدر: وهذا الباعث موجود بصورة فطرية في الطبيعة الإنسانية، بل قد يوجد عند عدة انواع من الحيوان أيضاً، فالحيوان يلتفت غريزياً إلى مصدر الصوت والحركة ليعرف سببها، ويبحث منشأ الصوت ليدرك علته وهكذا يواجه الإنسان دائماً سؤال (لماذا)مقابل كل وجود ظاهرة يحس بها، حتى أنه إذا لم يجد سبباً معيناً اعتقد بوجود سبب مجهول انبثق عنه الحادث.

وعلى أساس مبدأ (العلية) يتوقف (أولاً) إثبات الواقع الموضوعي للإحساس، (ثانياً) كل النظريات والقوانين العلمية المستندة إلى التجربة، (ثالثاً) جواز الاستدلال وإنتاجه في أي ميدان من الميادين الفلسفية والعلمية.

فلولا مبدأ العلية وقوانينها لما أمكن إثبات موضوعية الإحساس ولا شيء من نظريات العلم وقوانينه، ولما صح الاستدلال بأي دليل كان في مختلف مجالات المعرفة البشرية.

فالنظريات العلمية في مختلف ميادين التجربة والمشاهدة تتوقف بصورة عامة على مبدأ العلية وقوانينها توقفاً أساسياً وإذا سقطت العلية ونظامه الخاص من حساب الكون يصبح من المتعذر تماماً تكوين نظرية علمية.

ولما كان مبدأ العلية وفلسفته أكبر حجة وأوضح دليل على وجود (الصانع الأول) وهو - وحده - الكفيل لدحض آراء الماديين فقد نسهب بالنقل عن فلاسفته مع عرض بعضهم للاطلاع وإتمام النفع بقول الدكتور (الصدر)[١] من قوانين المجموعة الفلسفية العلمية التي يرتكز عليها العلم ما يأتي:

أولاً: مبدأ العلية القائل: (إن لكل حادث سبباً) - ثانياً: قانون الحتمية القائل: إن كل سبب يولد النتيجة الحتمية الطبيعية له بصورة ضرورية، ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها.

ثالثاً: قانون التناسب بيت الأسباب والنتائج القائل: أن كل مجموعة متفقة في حقيقتها من مجاميع الطبيعة يلزم أن تتفق في الأسباب والنتائج، فعلى ضوء مبدأ النتائج العلية نعرف - مثلاً - أن الإشعاع الذي ينبثق عن ذرة (الراديوم) له سبب وهو الانقسام الداخلي في محتوى الذرة.

وعلى ضوء قانون الحتمية نستكشف أن هذا الانقسام عند استكمال الشروط اللازمة يولد الإشعاع الخاص بصورة حتمية وليس من الممكن الفصل بينهما.

وعلى أساس قانون (التناسب) نستطيع أن نعمم ظاهرة الإشعاع وتفسيرها الخاص لجميع ذرات (الراديوم) فنقول: ما دامت ذرات هذا العنصر متفقة الحقيقة فيجب أن تتفق في أسبابها ونتائجها، - فقانون التناسب هذا يقول: إن كل مجموعة متفقة في حقيقتها يجب أن تتفق أيضاً في العلل والآثار، فلو لم يكن في الكون علل وآثار، وكانت الأشياء تجري

---

(١) اعتمدنا في موضوعنا هذا على كتاب (فلسفتنا) لمؤلفه الدكتور محمد باقر الصدر، نظراً لما فيه من العلم والفلسفة والتعليل المشبع بالحجج القاطعة والإيمان، ولأن الكتاب يستوعب ويشتمل على أكثر آراء الفلسفة والفلاسفة الهيين وماديين، قدماء ومحدثين.

على حسب الاتفاق البحت لما أمكن للعالم الطبيعي القول: إن ما صح في مختبره الخاص يصح على كل جزء من أجزاء الطبيعة على الاطلاق.

فالعالم الطبيعي الذي أثبت بالتجربة أن الأجسام تتمدد بالحرارة، فإنه لم يحك بجميع الأجسام التي يحتويها الكون في تجاربه، وإنما أجرى تجاربه على عدة أجسام متنوعة، وحيث إن العقل لا يقبل الصدفة والانفاق، وإنما يفسر الكون بالعلية وقوانينها،ومن هنا يجد في التجارب المحدودة والكفاية للإيمان بالنظرية العامة القائلة بتمدد الأجسام بالحرارة فالتمدد لم يكن صدفة،وإنما كان حصيلة الحرارة ومعلولاتها، وكل محاولة للاستدلال تتوقف على مبدأ العلية، والذين يحاولون إنكار هذا المبدأ والاستناد في نكرانهم إلى دليل، لم يكونوا يقومون بهذه المحاولة لو لم يؤمنوا بأن الدليل الذي يستندون إليه سبب كافٍ للعلم ببطلان مبدأ العلية، وهذا بنفسه تطبيق آخر يوضح هذا المبدأ وينصره نصراً عزيزاً ويعود على المحاولين إنكاره باللائمة والخذلان ويصفهم بالمحاولة المفضوحة.

ومبدأ العلية ليس مديناً للحس في ثبوته أو هو يرتكز عليه، بل هو مبدأ عقلي،يصدق به الإنسان بصورة مستغنية عن الحس الخارجي فهو ليس نظرية تجريبية وإنما هو قانون فلسفي عقلي فوق التجربة، لأن جميع النظريات العلمية تتوقف عليه، ويدعمه وجود العقل قبل التجربة، ولولا وجود العقل قبل التجربة لما استطعنا أن نميز بين الخطأ والصواب في نتائج التجربة[١].

(١) يقول الفيلسوف القديس توما اللاهوتي: إن معرفة عقلنا في حياتنا هي ناشئة عن الحس وعليه فكل ما لا يقع تحت الحس فلا يدركه عقل الإنسان إلّا حيث يستخلص معرفته عن الحس. والمحسوسات لا يمكن أن تتأدى بعقلنا لولا أن يرى فيها إن الله (ما هو في ذاته) لأنها معلومات أبعد من أن تساوي (العلة) ولكن عقلنا يتأدى بالمحسوسات إلى معرفة الله بأن

أما إذا طرح السؤال: لماذا تحتاج الأشياء إلى علة؟ فيكون الجواب: تحتاج الأشياء إلى علة لأنها خاضعة بصورة عامة لمبدأ العلية.؟

وهنا نظريات أربع وضعتها الفلسفة: الأولى: نظرية الوجود: وهي النظرية القائلة: إن الموجود يحتاج إلى علة لأجل وجوده وهذه الحاجة

يعرف عن الله (انه) أي أنه موجود، وما شاكل من المعلومات التي لا بد من نسبتها إلى المبدأ الاول، والمراد أن بعض المعقولات الإلهية دانية المنال للعقل الإنساني، وأما بعضها من وراء طاقة العقل الإنساني فلا تصل مقدرته إلى إدراكه، والعقول تتفاوت في المراتب فهذان اثنان ينظر الواحد منهما بعين العقل في شيء ادق نظراً من الآخر، فمن كان منهما أسمى عقلاً يدرك عن الشيء معلومات كثيرة يمتنع عن الآخر إدراكها، كما يرى ذلك في الرجل الأمي الذي لا يمكنه في وجه من الوجوه أن يدرك الاعتبارت الفلسفية الدقيقة، - وعقل الملاك يفوق عقل البشر أكثر فأكثر مما يفوق عقل أعظم الفلاسفة عقل الأحمق الشديد البلاهة، لأن هذا التفاوت منحصر في حدود العقل الإنساني، وعقل الملاك تجاوزها،فالملاك يعرف الله بمعلول هو أشرف من الإنسان لأنه يعرفه بجوهر نفسه، وجوهر الملاك الذي يتصل به إلى معرفة الله معرفة طبيعية هو أشرف من الاشياء المحسوسة، بل أشرف من النفس الإنسانية التي يرقى بها الإنسان إلى معرفة الله.

وليس كل ما يعرف الملاك بطبيعته يكون عقل الإنسان كفواً لإدراكه إذن كما أن الأبله إذا أوجب كذب ما يقول به الفيلسوف المجرد أنه يدركه فيكون فعله هذا في غاية الحماقة، كذلك الإنسان إذا جرؤ على تكذيب ما أنزل الله بواسطة الملائكة لمجرد أن ذلك المنزل ممتنع تحصيله بالعقل فيكون في أبلغ من تلك الدرجة من الحماقة والجهل. ويقول بعض الفلاسفة: إن نسبة عقلنا إلى اول الموجودات التي هي بينة الوجود في الطبيعة كنسبة عين الخفاش إلى نور الشمس فإذاً ليس كل ما يقال عن الله، إن كان العقل لا يدركه ولا يمكنه تحققه يجب أن نرفضه للحال على أنه باطل كما يتوهم الجهلة ويقول الملحدون - ثم يقول هذا القديس: إن من الناس من يحرم وجدان الحقيقة لسؤ مزاجهم ومنهم من يحرمها لتفرقهم بالمباحث النظرية الدنيوية ومنهم من يحرمها للجهل وقلة العلم، والعلوم الإنسانية لا يصل اليها احد إلّا بالجهد والمشقة والتوفيق، ولا بد من أن يتلقن الناس حق الامور الإلهية من طريق الإيمان الثابت بثبات اليقين،ويقول: إن عجز القوة عن إدراك شيء يتأتى عن سببين: اولهما: لأن الشيء ليس موضوعاً للقوة كما أن البصر يستحيل عليه إدراك الصوت وإما لأن الشيء - وإن كان موضوعاً للقوة - فليس مع ذلك بينهما مناسبة كالنور الشديد فإن عين الخفاش لا تبصره فما يدركه الفيلسوف وعنه الأمي من القسم الثاني لا من القسم الأول،لأن المعلومات التي يدركها الفيلسوف هي أيضا داخلة في عقل الأمي لاشتراكهما في النوع إلّا أن بين مدركات الفيلسوف العالية وقوته المدركة تناسباً لم يكن بين تلك المدركات والقوة المدركة في الأمي. انتهى - كتبت هذا التعليق لما فيه من الأمثلة القيمة والحجج الرائعة والإيمان الصادق والفائدة.

ذاتية للوجود ويترتب على ذلك: إن كل موجود معلول ولا يتجرد عن سببه ولا يستغني عن العلة فالعلية ناموس عام للوجود[1].

الثانية: نظرية الحدوث وهي النظرية التي تعتبر حاجة الأشياء إلى أسبابها مستندة إلى حدوثها فالانفجار أو الحركة أو الحرارة إنما تتطلب لها أسباباً لأنها أمور حدثت بعد العدم فحدوثها بعد أن لم تكن يفتقر إلى علة ومن هنا يجد العقل القناعة الكافية بأن الحدوث يفتقر إلى علة.

الثالثة والرابعة: نظرية الإمكان الذاتي والامكان الوجودي، وهاتان النظريتان تؤمنان بأن الباعث على حاجة الاشياء إلى اسبابها هو الإمكان ونظرية الإمكان الوجودي للفيلسوف الإسلامي صدر الدين الشيرازي حيث قال: إن العلية علاقة قائمة بين وجودين - العلة والمعلول - فهي لون من ألوان الارتباط بين شيئين، وللارتباط ألوان وضروب شتى - مثلاً -

(١) ويقول القديس توما أيضاً: بوجود جوهر فوق جنس الجواهر المادية - جنس الجواهر المنفصلة عن المادة يتناوله تعالى إذا برهن على وجوده فيبرهن على وجود الله، - ويقول: إن الصورة، وان كان منها ما يوجد بدون المادة، ومن الجوهر ما يوجد بمعزل عن العرض، فلا يمكن مع ذلك وجود مادة بلا صورة ولا جوهر بلا عرض، ويبحث في المحرك والمتحرك كما عن أرسطو فيقول: نرى في الأشياء التي تحرك ذاتها أن بعضاً منها يأخذ بالتحرك عن طريق الحدوث والتجدد بسبب حركة ليس الحيوان متحركاً بها عن ذاته فإن المحرك الذي يحرك ذاته بهذه الحركة إنما هو نفسه يتحرك بطريق العرض،يكون هو متحركاً فإن النفس عند تحريكها الجسم تحرك ذاتها بالعرض وهو الجسم،ولما كان ما يحصل بالعرض فيتفق له الزوال،فإن هذه الحركة في الحيوانات يمكنها إن تبطل إذا بطل تحرك الجسم المتحرك ومن ثم حصل أن الكل لا يتحرك دائماً - والجواهر المجردة عند أرسطو على نوعين: الجواهر المحركات للأجرام الفلكية وهي نفوسها، إذ إن كل ما يحرك ذاته فالباعث على تحريكه إياها إنما هو شوق إلى مشتهى أعلى منه،ثم جواهر مشوق مشتهى التشبه بها تكون غايات قريبة لتلك الحركات وفوق كلا النوعين من الجواهر: جوهر أول مفارق وهو (الله) وهو محرك أول مشتهى مفارق لا يكون متحرك البتة هو (الله) ويقول: إن جميع العلل الفاعلة الجارية على نظام متسق، فالأول فيها إنما يكون علة للأوسط وهذا علة للطرف الأخير سواء أكان الأوسط واحداً أو كثيراً ولا بد من علة أولى فاعلة هي الله).
كتاب الردود على الخوارج للقديس توما اللاهوتي - ترجمة المطران نعمة - الله الماروني.

فالرسام مرتبط باللوحة التي يرسم عليها، والكاتب مرتبط بالقلم الذي يكتب به، ولكل من الشيئين المرتبطين وجود خاص به سابق على ارتباطه بالآخر،وهذا الارتباط صفة توجد لهما بعد وجود كل منهما بصورة مستقلة، ولولا العة لما كان المعلول...

إذن فكل حقيقة تعلقية لا يمكن أن تنفك عن شيء تتعلق به وترتبط به ذاتيا، فذلك الشيء هو سببها وعلتها لأنها لا يمكن إن توجد مستقلة عنه فهي لولاه عدم[1].

يقول الفيلسوف الأمريكي (تومس بين) : إن اطراد القوانين الطبيعية ليس هو طريقة الله في تسييره الأجزاء الكون فحسب،بل إن ما يدل على هذا الاطراد والنظام والاتساق لا يكون من صنع الله[2].

وهذا القول يؤكد التلازم بين الأسباب والمسببات وهو قول عالم خبر الطبيعة وشهد عن قرب تفاعل الكائنات بعضها ببعض ووقع على أسرار وصفى له قلبه.

والقائلون بالترابط بين السبب والمسبب كثر منهم الفيلسوف(الكندي) فهو يرى أن كل ما يقع في الكون يرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول، وبمثل هذا يقول الفارابي، فيرى أن الله علة وجود الأشياء فهو الذي يعطيها الوجود الأبدي ويدفع عنها العدم الأبدي، أما الاشياء ذاتها فإنما يثر بعضها في بعض وفقاً لقوانين نعرفها من التجربة.

أما (ابن رشد) فيبسط القول في تقدير الترابط بين الاسباب والمسببات ليدفع رأي (الغزالي) القائل بألا ضرورة لهذا الترابط، ويقول ابن رشد: إن الجاحد لها - اي الأسباب الفاعلة - إما منقاد بشبهة

---

(١) فلسفتنا - للدكتور الصدر.

(٢) حياة الفكر في العالم الجديد.

سفسطائية أو جاحد بلسانه لما في جنانه، ومن ينفي ذلك فليس له أن يعترف بأن كل فعل لا بد له من فاعل وهذا محال لا شك.

ثم يقول: أما أن هناك أسباباً يتم تأثيرها بسبب من خارج لا بنفسها فهذا ليس معروفاً بنفسه لنا وهو يحتاج إلى فحص كثير، وأما أن هناك بعض مسببات تنتج بدون معرفة الاسباب فليس بلازم أن تكون تلك الأسباب خارجية إذ قد تكون داخلية ولكنها مجهولة لنا فقط.

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: إن الذي يريد أن يقرره ابن رشد هنا هو أن هناك ظواهر تبدو في الوجود على غير المألوف تجيء بين الحين والحين فلا نعرف لها سبباً مما اعتدنا.

في خواص الأشياء فيقع في تفكير الناس أن قوة خارجة قد دخلت على مكان الحادثة أو الظاهرة وعطلت أسبابها أو أثرت فيها بزيادة أو نقصان.

وابن رشد مع قوله بذاتية الاسباب الفاعلة فإنه يرى أن هذه الأسباب ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل، والله سبحانه هو الذي خلق الأسباب وقدرها وهو يقوم عليه، إن الموجودات يفعل بعضها في بعض ومن بعض فإنها ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل بل بفاعل من خارج[1].

ويقول (تومس بين): إن الاحتكام إلى الطبيعة هو خير معين لنا على فهم عالمنا الذي نعيش فيه وما الطبيعة إلّا قوانينها التي فرضها الله على المادة تسير بمقتضاها وإن شئت فقل: القوانين التي يحكم الله بها ملكوته فليس الاطراد في حدوث الحوادث الذي هو القوانين الطبيعية من العلم واختراعه فالعلم لم يصنع شيئاً ولم يضف شيئاً، إذ إن الطبيعة قائمة

---

(١) كتاب (القضاء والقدر) الاستاذ عبد الكريم الخطيب.

بنظامها واطرادها واتساقها ومهمة العقل أن يعلن عنها وهل خلق نيوتن قانون الجاذبية من عدم أم هو طريقة آلة في تسيير أجزاء الكون إذ كانت قائمة ثم انكشف عنها الغطاء ؟ ؟؟

ومن الذين لا يؤمنون بالترابط بين السبب والمسبب الفيلسوف الاميركي (سانتيانا) إذ يقول: أن لا ضرورة حتمية في العلاقة بين السبب والمسبب، و ألا يقين بأن القانون الطبيعي ثابت وليس لأية حادثة مبرر لوقوعها من حادثة اخرى لكن: فكما نرى ألّا ينفي العلاقة القائمة بين الأسباب والمسببات، ولكنه ينفي الحتمية والاطراد اللازم، وذلك ليكون على حدّ رأيه مجال للخلق والابتكار والتطور كذلك فالغزالي كان يقول: إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ،فليس بضروري وجود أحدهما عند وجود الآخر ولا عدم أحدهما عند عدم الآخر كالري والشرب والشبع والأكل . . . . وهذا الخلاف الذي وقع بين فلاسفة المسلمين مسألة الأسباب والمسببات والتلازم بينهما وعدم التلازم حصل حول القول بمعجزات الرسل حيث هذه المعجزات خرق للعادة، وإخراج للأشياء على غير ما تقتضي به الأسباب المعروفة لنا، - فإحياء الموتى وإبراء الأكمه والابرص وعدم الاحتراق بالنار: أمور خارجة على ما جرت به طبائع الأشياء،وإذن فالقول بالترابط بين الاسباب والمسببات لا يسمح بوجود المعجزة لأن الأمور لو جرت على التلازم بين الأسباب والمسببات لما وقعت تلك المعجزات التي لا ترجع إلى علة ولا تقوم على سبب مما اعتاد الناس أن يروا آثاراً من علل وأسباب(١).

وكان الفيلسوف محمد اقبال يقول بالأسباب، ومن أقواله: إن تقدير

(١) غريب كيف أن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يسمح بوقوع معجزات الرسل مع أن المعجزة هي خرق للعادة والمألوف؟.

شيء اذاً ليس قضاء غاشماً يؤثر في الأشياء من خارج، ولكنه القوة الكامنة التي تحقق وجود الشيء وممكناته التي تقبل التحقق والتي في أعماق طبيعته، فعنده أن الأسباب القائمة في كل شيء هي تبع لإرادة الله تعمل في ظل هذه الإرادة، ولما كانت هذه الأسباب المودعة في الأشياء قد أودعتها يد الحكمة فإنها تجري على نظام لا يدخل عليه خلل أو اضطراب.

ونستطيع بعد هذا أن نقول: إن في كل شيء أسباباً مودعة فيه، وان هذه الأسباب تنتج مسبباتها عند تحريكها بأسباب مناسبة، والله سبحانه هو خالق الأسباب وخالق المسببات، ووجودنا البشري قائم على أن نحرك الأسباب المودعة في الأشياء على الوجه الذي تهتدي إليه عقولنا وأن ننتظر النتائج المقدرة لهذه الأسباب وفق ما اعتدنا عليه من حصول نتائج عند تحريكنا الأسباب فنحن نزرع وننتظر الحصاد، ونغرس وننتظر أيام الجني، ومعلوم أن طبائع الأشياء لا تعطي إلّا إذا طلب منها، وهذا الطلب هو تحريك الأسباب المودعة فيها.

إن لبن الشاة في ضرعها لا يخرج منها إلّا إذا استحلبتها أو وضع ولدها فمه في ثديها، وحرك لسانه حركة خاصة تجذب اللبن اليه، وهكذا تتجاوب الأسباب وتتساوى فتجيء عنها النتائج[1].

اذاً يتضح من هنا للإنسان الواعي المدرك للأمور أن يعمل بجدٍّ ونشاط ومعرفة ليصل إلى ما يبتغي ويريد. وليست هذه المشيئة التي وصل إليها الإنسان في هذا العصر إلّا ثمرة المعرفة والتي تمكن بها من تسخير القوى الكامنة في الحياة واستخراج ما فيها.

ولم يمنعنا الدين من العمل بل إنه يدعونا ويحفزنا إلى البحث لتحقيق

---

(١) القضاء والقدر، للأستاذ الخطيب، نفس المصدر السابق.

هذا المطلب، والله سبحانه يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾... الخ، وهو تعالى علّم آدم الآسماء كلها، وهي طبائع الاشياء وخصائصها، لأن الاسم الذي يوضع لشيء ما، معناه تحديد ذاتية هذا الاسم -الشيء- والاعتراف بوجود خاص به وما علينا إلّا أن نحكم معرفتنا للأشياء لنستخرج الثمرات المنطوية فيها، أما الذين يقولون: لا نفع بالعمل مع الجهل في الأسباب فمعرفتهم مريضة أو سلبية، ربما كان الجهل خيراً منها لأن الجهل يقيم عذراً لصاحبه على حين تكون المعرفة حجة على صاحبها، وليس للإنسان أن يصير إلى التشاؤم فإن عليه أن يعمل ويتفاءل ويتحرى طريق الخير والسلامة، وما عليه ما تؤول اليه النتائج، فذلك إلى الله وحده ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

ولا ننسى أن الأشعري ومن تابعه رفضوا القول بفاعلية الأسباب ليضعوا كل شيء في محيط القدرة الإلهية فكل حادثة صغيرة أو كبيرة إنما تخلق خلقاً متجدداً غير مكرر وإن بدا التشابه واضحاً بين الحوادث المتتابعة.

(١) من قرأ قصة نبي الله موسى مع العبد الصالح في القرآن الكريم ووعاها واستوعبها رأى التصادم بين الأسباب الظاهرة والأسباب الخفية واضحاً ويدحض حجة كل من ينازع فيما وراء المحسوس في عالمنا الذي نعيش فيه، فالعبد الصالح اشترط على موسى إذا رافقه أن لا ينازعه بشيء يفعله، ولما فعل ما يتنافى مع طبيعة موسى التي تمثل الإنسانية في وضعها في الحياة وتصرفاتها مع الأشياء على مقتضى معلوماتها المحدودة على الإنسان، كان العبد الصالح ممثلاً للعالم العلوي عالم ما وراء المحسوس يستقي معلوماته من عالم النور فيرى بعين الغيب ما تؤول اليه الأمور والتقى الرجلان: هذا بمعلوماته ومدركاته الإنسانية، وذاك بمعارفه العلوية، فالعبد الصالح تخطى حدود الزمان والمكان الذي يعيش فيه الناس إلى النتائج النهائية التي تؤول اليه الأمور الذي يرى النتائج يعلم أن ما تصرف به العبد الصالح هو الأصلح، والعبرة من القصة أن نأخذ بالأسباب الظاهرة لنا ونصرف أمورنا بمقتضاها ولا نتطلع ما وراء ذلك مع إيماننا بقدرة الخالق وتقديره وعلمه بكل شيء.

وكل حادثة ترجع عند الأشاعرة إلى عملية خلق تصدر عن الله[1].

النتيجة:

والنتيجة، قانون النهاية هو القانون القائل: إن العلل المتصاعدة في الحساب الفلسفي التي ينبثق عن بعض يجب أن يكون لها بداية أي علة أولى لم تنبثق عن علة سابقة، فالموجودات المعلولة جميعاً ارتباطات وتعلقات، وهي تحتاج إلى حقيقة مستقلة تنتهي اليها، وإن سلسلة الأسباب إذا كان يوجد فيها سبب غير خاضع لمبدأ العلية ولا يحتاج إلى علة، فهذا هو السبب الأول الذي يضع للسلسلة بدايتها.

فالسلسلة بمجموعها محتاجةٌ إلى سبب، وسؤال لماذا وجد؟ يمتد ما امتدت حلقاتها، ولا يمكن تقديم الجواب الحاسم عليه ما لم ينته التسلسل فيها إلى حلقة غنية بذاتها غير محتاجة إلى علة فتقطع التسلسل وتضع للسلسلة بدايتها الأزلية.

ولعلنا بعد هذه الخلاصة الموجزة التي أتينا بها عن أكبر فلاسفة العالم القديم والحديث يرى القارىء الكريم ما يكفي للبرهنة على تكوين هذا العالم بتسلسل الأسباب حتى تنتهي إلى السبب الأول - الواجب بالذات- الغني بنفسه غير المحتاج إلى سبب، وبالتعبير الفلسفي الدقيق - قالوا-: إن الشيء لا يوجد إلّا إذا امتنع عليه جميع أنحاء العدم ومن جملة أنحاء العدم: عدمه بعدم جميع أسبابه، وهذا لا يمتنع إلّا إذا كان يوجد في جملة أسبابه واجب بالذات غني بنفسه وغير محتاج إلى سبب.

ومما سبق ندرك تمام الإدراك أن للكون والعالم بصورة عامة صانعاً حكيماً يدبره وهو العلة الواجبة بالذات التي ينتهي إليها تسلسل الأسباب.

---

(١) هذا القول والرأي هو قول ورأي أهل الجبر، ومعلوم أن الأشاعرة يقولون بالقدر خيره وشره من الله، وجل الله أن يريد لعبده شراً.

والمسألة الجديدة، هي أن هذه العلة الواجبة بالذات والتي تعتبر الينبوع الأول للوجود، هل هي المادة بعينها، أو هي شيء آخر فوق حدودها ؟ وبالصيغة الفلسفية للسؤال قالوا: إن العلة الفاعلية للعالم، هل هي نفس العلة المادية أم لا ؟[1].

ولأجل توضيح نأخذ مثلاً وليكن الكرسي، فالكرسي هو عبارة عن صفة أو هيئة خاصة تحل من تنظيم عدة أجزاء مادية تنظيماً خاصاً وهو لا يمكن أن يوجد دون مادة من خشب أو حديد ونحوهما، وبهذا يسمى الخشب أو الحديد الذي صنع منه الكرسي (علة مادية) للكرسي، ولكن من الواضح أن هذه العلة المادية ليست هي العلة الحقيقية التي صنعت الكرسي، فإن الفاعل الحقيقي للكرسي شيء غير مادي وهو (النجار).

ولذا تطلق الفلسفة على النجار اسم (العلة الفاعلية) فالعلة الفاعلية للكرسي ليست هي علته المادية من الخشب والحديد، فإذا سئلنا عن مادة الكرسي أجبنا: أن مادته الخشب أو الحديد اللذين صنع منهما، وإذا سُئلنا عن الصانع له (العلة الفاعلية) نقول إنه (النجار) صنعه بوسائله الخاصة[2].

---

(١) فلسفتنا للعلامة الدكتور محمد باقر الصدر، وقد اعتمدت على هذا الكتاب كثيراً وبخاصة في موضوعنا هذا باعتباره كتاباً جامعاً لكل قوانين الفلسفة ونظرياتها الإلهية والمادية ويستحق أن يكون مرجعاً الهياً هاماً لما فيه من الحجج القاطعة التي لا تقبل الجدل. وقد ترى أن المثل الذي وضعه المؤلف هنا (الكرسي) كان قد وضعه الفيلسوف الرباني أحمد بن جابر الغساني في احدى مسائله المخطوطة حيث قال: إن كل مصنوع له اربع علل عدم واحدة منها يقتضي ببطلان وجود ذلك المصنوع وهي: علة هيولانية كالخشب للكرسي وعلة صورية وهي هيئته وكيفيته الخاصة به التي لو لم يعمل عليها لم يسم كرسياً، وعلة غائبة وهي ليتكىء عليه أو يجلس فوقه، وعلة اضافية كالنجار - الذي اسماه المؤلف الصدر علة فاعلية، ثم يقول الغساني: لا يجوز سؤالنا عن العلة إلّا بعد العلم بوجود ذات المسؤول عن علته، فإنا متى سألنا عن علة ما لم نعلم وجوده كان باطلاً.

(٢) فلسفتنا المرجع السابق.

فالمفارقة بين المادة والفاعل في الكرسي، أو في التعبير الفلسفي، بين العلة المادية وبين العلة الفاعلية واضحة كل الوضوح، وعليه نتبين المفارقة في نفس العالم بين مادته الأساسية -العلة المادية، وبين الفاعل الحقيقي- العلة الفاعلية، فهل فاعل هذا العالم وصانعه شيء آخر خارج عن حدود المادة ومغاير لها؟

كما أن صانع الكرسي مغاير لمادته الخشبية، أو أنه نفس المادة التي تتركب منها كائنات العالم؟؟ وهذه هي المسألة التي تقر المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع الفلسفي التي قامت به المادية للتوحيد بين العلة الفيزيائية والعلة المادية للعالم.

وقد درست المادة على ضوء الفيزياء[١]. فخرج الفلاسفة الدارسون بعد تحليل العناصر البسيطة والذرية مستنتجين أن خصائص العناصر إنما هي صفات عرضية للمادة المشتركة بين جميع العناصر البسيطة، فليست صفات الراديوم والرصاص والآزوت والأوكسيجين ذاتية للمواد التي تتمثل في تلك العناصر ما دام في الإمكان تبديلها، البعض بالبعض فتتحول المادة إلى طاقة.

ولما كانت المادة الأصلية للعالم حقيقة واحدة عامة في جميع مظاهره

---

(١) أكبر عالم وفيلسوف في هذا القرن هو آينشتاين، صاحب النظرية النسبية، ومن قرأ فلسفته يراها كثيراً ما تخالف الفلسفة المادية، أسمعه يقول: إن الكون له حقيقة فيزيائية مستقلة، والتجربة التي كان يشيد فيها آينشتاين بعض الأحيان لا يمكنها في رأيه أن تكون مصدراً لادراك الحقيقة، فهو يقول: إنني أؤمن إذ إن التفكير الخالص يمكنه أن يفهم العالم الواقعي كما كان يحلم به الأقدمون، ويؤكد أن الأشياء المادية لا وجود لها في ذاته بل هي تمثل مركبات من الإحساسات تتكرر باستمرار، فالإحساسات هي العنصر الأول، ولذلك فهو يرى أن غاية الفيزياء ليست هي اكتشاف العلاقات القائمة بين الأشياء المادية، وإنما العلاقات القائمة بين الإحساسات، فالإنسان لا سبيل له إلى معرفة العالم والكون، فكل ما في وضعه إنما هو معرفة إحساساته، النظرية النسبية، لآينشتاين، ترجمة عبد الرحمن مرحبا.

وكائناته، ولا يمكن للحقيقة الواحدة أن تختلف آثارها وتتباين أفعالها، كذلك فخصائص المركبات والعناصر كل أتاح البرهان على وجود قوة خارجية جاذبية، وكذلك هذا التنوع والاختلاف في خصائص المادة المشتركة يكشف أيضاً عن سبب وراء المدة، ونتيجة ذلك هي: أن العلة الفاعلية غير علته المادية، أي أن سببه غير المادة الخام التي تشترك فيها الأشياء جميعاً.

ومن دلائل حدوث المادة أنها دائمة التجدد، وكل متجدد متغير، وكل متغير حادث، وهذا يدل الدليل القاطع على ثبوت العلية الفاعلية التي هي الموجد الأول، والصانع الحكيم، والخالق للأشياء كلها علويها وسفليها سماء وأرض ومعقول ومحسوس.

النهاية: لم يزل الكثير من الناس المؤمنين بالله يرون أن تعاطي الفلسفة خروج من الدين وبخاصة الفلسفة المعاصرة التي تعطي الفرد سلطاناً مطلقاً على ذاتيته، مع أنها لا ترفع الإنسان عن الخضوع لخالقه، وقد فتحت لها المعارف التجريبية التي كشف عنها العلم الحديث أكثر من باب تصل به إلى الله لذا كان لمعظم هؤلاء الفلاسفة جانبان: جانب عقلي وآخر روحي، فهم بعقولهم يدركون ماهية الطبيعة ويختبرون الصلات القائمة بين وحداتها، وفي قلوبهم وحدهم يتصورون عالم ما وراء الطبيعة، وبهذا يرون الوجود كله، ويرون الظاهر بالنظر والعيان، ويرون الباطن بالحدس والوجدان، لنستمع إلى فيلسوف عظيم يحدثنا فيقول: إن الإنسان القديس يقع في حب خالص لله، وينشأ الصفاء عنده نتيجة إحساسه بأنه متوجه بكل قدراته وملكاته وعواطفه نحو الله، ويقول: الدين

هو الاعتقاد بعالم غير منظور وإن خيرنا الأسمى كائن في إيجاد الملاءمة الناجمة بيننا وبين ذلك العالم[1].

وما أروع ما يقول (جيمس أيضاً) يقول: إن إضافة صفة القداسة إلى الله تجعلني أعتقد أن الله لا يريد إلّا الخير، ولإضافة العلم الكامل لله أثر على سلوكي لأنها تجعلني أعتقد أنه يمكنه رؤية أفعالي في الظلام، وتصوري للعدل الإلهي يؤثر على سلوكي حيث إن عقابي أمر محتم حين يرى مني عصياناً، وحب الله العباد يحملني على الاعتقاد بأنه مثال للغفران وقبول التوبة[2]. وهناك فيلسوف آخر وهو (برجسون) يقول: الله هو المركز الذي تنبع منه العوالم وهذا المركز ليس شيئاً بل هو انبثاق أو نبع متواصل[3].

قلت: إن هذه البحوث الفلسفية والعلمية غنية بالنتائج الصحيحة التي لا تخضع للنقاش والجدل أو التردد، ولا تخرج بهدفها عن طريق التوحيد، وما جاء به الإسلام وذهب اليه العلماء المسلمين وعرفوه وتحققوه من كتابهم وسنة نبيهم والمعصومين من آل بيت النبوة، والأصحاب الأفاضل فهي جديرة بالدراسة والاستيعاب ولعل من قرأها متأملاً متروياً يرى نفسه مشدوداً بنتائجها إلى الحقائق والأصول الواردة في القرآن الكريم، حيث تلتقي صحة واستدلالاً مع أقوال الأكثر علماً ودراية

---

(١) يقول أحد الفلاسفة: ما بالحواس يدرك الإنسان حقائق الأشياء، وإن أدرك ظواهرها، وإنما يكون العلم بحقيقة الكون وسيلة أخرى غير الحس، وهي وسيلة الحدس والعيان العقلي المباشر، فهذا الإدراك الحدسي المباشر يجاوز الإنسان حدود الطبيعة المحسوسة وحدود العقل وشروطه.

(٢) وليم جيمس ص ١٦٠.

(٣) برجسون ص ١٧٥، وهذا الفيلسوف يقال: إنه مزج بين الفلسفة والتصوف، فهو مؤمن بالإنسان الذي يراه بعقله، ومؤمن بالله الذي يستشعره بوجدانه.

بالأصول والتأويل، والذين وصلت معارفهم لإثبات الصانع الأول ومعلوماتهم الاعتقادية بحدوث المادة والعالم وخلود النفس.

وإليك أيها القارىء الكريم ما قاله أحد فلاسفة المسلمين الموحدين الأفذاذ أحمد بن جابر الغساني في إحدى مسائله من رسالته المخطوطة[١].

ذكر الابداع الأول[٢] والهيولى، فقال الإبداع الأول نور كامل وخير شامل تام لا نقص يعتريه وعلة العالم بما فيه، والمعلول واجب بوجوب علته كامل لافاضته نوره ورحمته غير متبدل ولا متغير لأن علته لا تتبدل ولا تتغير إلى قوله: فالذات الحق تعالى واحد والفيض واحد كالسراج نوره موجود بوجوده ولا ثان لنوره ولا تبدل ولا تغير إلّا بتغير علته وهو السراج.

وعند شرحه الهيولى قال: الهيولى الأولى في الطبائع التي منها تكون عالم الكون والفساد وهي أصل أجسادهم، والهيولى الأعلى: هيولى الطبائع وهي الفلك لأنه خارج عن الطبائع، ويقول إن هيولى الطبائع والنقوش الفلكية لأن الجسم لا يحدث جسماً إلّا إذا كان مادة له، والفلك لا ينفصل بإجماعهم ثم قال: إنما يعبر عن العقل بالهيولى، إذ كان أصل الموجودات، ويعبر عن الحق الأول: هيولى الهيولات إذ كان أصل

(١) أحمد بن جابر هذا المتصوف هو المعروف بالشيخ أحمد قرفيص، ومسائله، تدل على قوته المنطقية ومعرفته بالإلهيات معرفة عالية وهي لم تزل مخطوطة عند البعض، ومن قرأها يعلم أن هذا الفيلسوف كغيره من الفلاسفة القائلين إن الصادر عن الذات (الله) موجود واحد وهو أول المخلوقات، وهو عقل مجرد قائم بنفسه غير متحيز واجب بوجود علته يعرف نفسه ويعرف مبدأه، ويعبر عنه (بالحقيقة المحمدية).

(٢) الإبداع على غير مثال سابق، والفرق بين الاختراع والابداع هو: أن الاختراع يكون مسبوقاً بمادة دون مدة، وأما الابداع فهو ما لا يكون مسبوقاً بمادة ولا مدة، ويقال: إن الابداع عند الحكماء إيجاد الشيء غير مسبوق بالعدم، وقيل: وجود الشيء من العدم إلى الوجود بغير مدة، أما التكوين فهو ما يكون مسبوقاً بمدة ومدة، ويقال: إن الله يبدع الشيء إبداعاً.

الأصول، ثم قال: في كتب الصوفية الموحدة: هيولى الهيولات، رأس الحركات وصانع الآلات، منه بدأ الأمر واليه يعود[1].

ولعله يريد بالإبداع الأول: العقل الأول الواجب بوجوب علته، كما عند غيره الذين يحتمل أن يقصدوا به (الحقيقة المحمدية) الصادرة عن نور الذات فيضاً، كما يقولون، وبعضهم يقول صدرت صدوراً، وبعضهم يقول أشرقت إشراقاً، وبعضهم يقول أبدعت إبداعاً، فالحق سبحانه علة العلل (العلة الأولى) الواجبة بالذات التي تنتهي اليها تسلسل الأسباب، وهذا العقل نور مجرد معلول العلة الأولى واجب بوجوب علته، ولكن هذا الفيلسوف يختلف مع بعضهم من حيث سلسلة التكوين، فعنده أن العقل صدرت عنه النفس الكلية ومن هنا بدأ التكوين رتبة رتبة ورتبة عن رتبة، العليا سماء للسفلى، والسفلى ظل للعليا، إلى أن ينتهي بالعقل العاشر الذي سماه الفلاسفة بالعقل الفعال، الذي يصدر عنه الحدوث الطبيعي والنفوس الجزئية وهذا كله بقانون وطريق الأسباب والمسببات وقانون العلية والمعلول كما رأيت آنفاً وكأن هذا الفيلسوف استخلص كما أرى آراء وأقوال العلماء والفلاسفة الإلهيين، أو بالأصح، درس أقوالهم وآراءهم ومحصها تمحيصاً عميقاً مركزاً وجمعها خلاصة لمسائله المذكورة والتي لم تنتشر بعد، واتماماً للفائدة رأيت أن أضيف علاوة على ما سبق نبذة أخرى من آراء الفلسفة علها تمنح المطلع المدقق معلومات أوسع وطريقاً أوضح.

ونقول ختاماً لهذا البحث: تقسم الفلسفة عادة إلى قسمين شاملين

---

(١) الباريء تعالى لا يسمى هيولى، ولا يقال عنه هيولى، لا أصلاً ولا اصطلاحاً، إلّا إذا قلت هيولى الهيولات، أي أصل الأصول، علة العلل، والقصد بقوله: منه بدا الأمر واليه يعود، قوله تعالى: ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، واليه ينتهي الأمر فلا أمر إلّا له.

هما: (قسم الفلسفة المادية) التي يرى أصحابها أن مادة العالم في غنى عمن يدبرها من خارجها، وقسم الفلسفة الإلهية، وهي التي يرى أصحابها: أن المادة لا تستغني عن قدرة عاقلة[١] غير مادية تستمد منها حركتها.

وأشد المذاهب المادية مناقضة للفلسفة الإلهية: مذهب (المادة الثنائية) الذي يقول: إن المادة قديمة متحركة بذاتها مشتملة على العنصر التي تنشأ منها الحياة حسب الطبيعة المستكنة فيها ومن قوانينها اجتماع الأضداد فيها ريثما يتغلب ضد على ضد بغير انقطاع لهذه المغالبة الدائمة، وإن الصفة الكمية فيها تتحول إلى الصفة الكيفية، فتنشأ الحياة كما ينشأ العقل من هذا التحول إما على التدريج وإما طفرة كما تظهر بعض أنواع النبات من الأنواع الأخرى، فلا توجد كيفية إلّا وهي نتيجة التغير ولا

---

(١) عند الفيلسوف آينشتاين: إن العقل يشيع في الطبيعة، فهو يعتقد بنوع من العقل الكوني وبنظام سابق يسود في الطبيعة ووظيفة الرياضيات عنده هي أن تعمد إلى اكتشافه، يقول: بدون الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت للعالم قائمة، فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل خلق علمي، وسيظل كذلك إلى الأبد، ويقول: من الواضح أن كل بحث علمي دقيق يقوم على عقيدة مشابهة للشعور الديني، ومؤداه: إن العالم مؤسس على العقل ومن الممكن فهمه (النظرية النسبية - ترجمة عبد الرحمن مرحبا)، (ولد آينشتاين في ١٤ آذار عام ١٨٧٩ م وتوفي في ١٨ نيسان سنة ١٩٥٥، ولد في أولم - ألمانيا وتوفي في برنستوف -أميركا) وهو يهودي الأصل والدين.
يقول الدكتور محمد اقبال: ليس هناك من سبب يدعو إلى الظن أن الفكر والبداهة وهي صورة من صور (الحدس) متضادان بالضرورة، فهما ينبعان من أصل واحد، وكل منهما يكمل الآخر، فأحدهما وهو العقل يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً، والآخر وهو (القلب) يدركها في جملتها، كلاهما يفتقر إلى الآخر في تجديده وقواه، وكلاهما يتلمس شهود نفس الحقيقة التي تنكشف لكل منهما على نحو يتلاءم ووظيفته في الحياة، واذاً فالمعرفة هي الطريق الصحيح للإيمان، فبالمعرفة يقوى العقل ويستنير الفكر وتتاح له فرص الاستبصار التي يتولد من شررها (الحدس) - (تجديد الفكر الديني الإسلامي).
ويقول هويتد: إن عصور الإيمان هي عصور النظر العقلي، ويقول آخر: إن الحدس بمعناه الصحيح يقظة من يقظات العقل المشرقة وومضة من ومضاته العلوية الإلهية - قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

توجد حالة قط إلّا وهي تنطوي على ما يناقضها، فلا تبلغ تمامها إلّا ظهر منها النقيض الذي تنطوي عليه، وهذا عندهم هو تفسير ظهور الحياة من المدة العمياء، التي لا تشبهها، وهو كذلك تفسير ظهور العقل في الحياة كلما تطورت فيها الكميات والكيفيات على النحو المتقدم أي نحو الانتقال بين الضد والضد، ولتحويل من صفات الكمية إلى صفات الكيفية، وهم يؤمنون بالدور الدائم في المدة الأولية، لنسمع إلى انجلز يقول: إن المادة تتحرك في دورات أبدية تستتم كل دورة منها مداه في دهر من الزمان تلوح السنة الأرضية إلى جانبه كأنه عدم دورة تلوح فيها فترة التطور الأعلى ونعني بها فترة الحياة العضوية التي يتوجبها الوعي الذاتي شيئاً فشيئاً صغيراً بالقياس إلى تاريخ الحياة وتاريخ الوعي نفسه، دورة تكون فيها كل هيئة خاصة من هيئات المادة سواء كانت شمساً أو سديماً أو كانت حيواناً أو نوعاً من أنواع الحيوان أو كانت تركيباً كيميائياً أو انحلالاً كيميائياً، أبداً في تحول وانتقال، دورة لا يدوم فيها إلّا المادة المتغيرة ابداً، وإلا ناموس التغير الأبدي، والحركة الأبدية، ومنها تتكرر هذه الدورة ويبلغ من قوة تكرارها في الزمان والمكان، أو مهما يطلع فيها من شموس وأرضين ثم تغرب بعد حين، أو مهما يطل الانتظار قبل أن تبرز هنا أو هناك منظومة شمسية أو كوكب تتهيأ عليه البيئة للحياة العضوية. ومهما ينشأ وينقرض من الخلائق قبل أن تنوجد بينهما أحياء تفكر بأدمغتها وتجد لها ملاذاً يسمح لها بالحياة ولو إلى فترة وجيزة، فإننا على يقين أن المادة في كل تغير تظل أبداً كما هي وأنها لم تفقد صفة من صفاتها، وأن تلك الضرورة الحديدية التي تقضي بزوال أرفع ذرات المادة وهي (القوة المفكرة) هي بعينها تفضي بميلادها كرة أخرى في زمان آخر.

أما موقف الفلسفة الإلهية: من أمثال هذه الآراء الرعناء فيقول: إن الإلهيين الأقدمين يقولون بأن الحركة الأزلية مستحيلة لأن الحركة هي

الانتقال من مكان إلى مكان أو من حالة إلى حالة أخرى، فقبل الحركة توجد الحالة أو يوجد المكان، وليس قبل الأزل سابق يسبقه في المكان أو الزمان، وإذا قيل: إن المكان سابق للحركة الأولى فكأنما نقول: إن المكان زمان قبل الزمان[1].

ويردون على الثنائية في مسألة الأضداد بأنها قد جعلت المشكلة حلاً وسكتت عن ذلك وهو خلف لا يعقل السكوت عليه، إذاً ما هي المشكلة في العقل وفي التعليلات الفلسفية؟

هي التناقض وقيام الأضداد، وأين هي المشكلة إذا كان التناقض هو الحل المعقول؟

ويردون عليهم أيضاً بأن الثنائية مفهومة حين يتقابل العقل والمادة، أو تتقابل الروح والمادة إما أن تكون مادة أو مضادة لمادة في طبيعتها، وهذا هو موضع العجب لا موضع التفسير، وعلى الماديين الثنائيين أن ينتظروا سؤالاً لا بدّ له من جواب وهو: لماذا قدروا أن الحياة والقوة الفكرية تظهر في الوقت الذي ظهرتا فيه؟

---

(١) يقول آينشتاين: ترى هل عسانا نفكر بالزمان والمكان لو محقت جميع الأشياء التي ننظر اليها من خلالهما؟ وبالأحرى التي ننظر من خلالها إلى الزمان والمكان؟ إن الزمان لا يمكن تصوره بذاته مستقلاً عن حركة الأشياء أو سكونها.
وهناك أيضاً: بونكاريه يرى أنه من المستحيل تصور المكان الخالي، فكل من يتكلم عن المكان المطلق إنما يهذر في كلام لا معنى له، ولو كبر حجم العالم ألف ضعف عن حجمه الحالي فإنه يظل يبدو لنا كما هو، ولا تحس أجسامنا بأي فرق لأن جميع الأطوال والمقاييس تكبر بهذه النسبة أيضاً، فالمكان نسبي والزمان نسبي، ويقصد بونكاريه وغيره من القائلين بنسبة الزمان والمكان قبل آينشتاين بأن الأمتار هي التي تخلق المكان وان الساعات هي التي تخلق الزمان والخلاصة: إن الزمان المطلق لا وجود له بل هو رهن الحركة وكذلك وجود للمكان المطلق بل هو رهن بالأشياء الممكنة - أي التي تحتل مكاناً، ومن هنا يرى المطلع أن القائلين بنسبة المكان والزمان يقولون: إن المادة معلولة الوجود وإنها حادثة لا قديمة وليست كما يقول الماديون...

إن المسألة ليست بمسألة مقدار من السنين والدورات، يقال مثلاً: إن عشرة آلاف سنة لا تكفي، فتكفي عشرون ألف سنة أو أن عشرين ألف سنة لا تكفي، فلا بدّ من ضعفها، أو أن مئة ألف سنة لا تكفي فلا بدّ من مليون سنة أو مليونين أو أكثر من ذلك بما يقاس أو لا يقاس.

البحث الثاني
معرفة ما وراء الطبيعة من طريق التجلي
وفق ما يرويه القائلون به

١- تمهيد:

كتب العلامة الدكتور عبد الحليم محمود واسترسل وأطال متسائلاً حول مشاكل ما وراء الطبيعة نستخلص من كتابته هذه ما فيه الحاجة[١].

قال: القرآن الكريم يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها، فقوم يفسر وصفه على أنه حسي وروحاني ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت، ونتساءل، ما هدف الله في ايجاد هذا العالم؟ أخلقه ليعبده بحكم قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؟ أم خلقه ليعرف كما قيل: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني؟

إن كمال الله غني عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى أن يعرف، وهو القائل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

أخلق الله العالم اعتباطاً، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾؟ تعالى الله

(١) من تعليق للدكتور عبد الحليم محمود على صفات كتاب (المنقذ من الضلال) للغزالي.

عن ذلك علواً كبيراً، والحكمة إنما هي تعبير عن الفرض أو الغاية، وذلك ينبيء عن الحاجة والله تعالى منزه عن الحاجة.

نعود لنتساءل لِمَ أوجد الله العالم؟ هذه المشاكل تصادفنا في الفلسفة وتصادفنا في علم الكلام وهي موجودة قديماً وحديثاً، فكيف نصل حقيقة إلى الإجابة عليها؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنه؟ هل نردها أو نرد الأمر منها إلى الحواس والملاحظة والتجربة والعلم الحديث وما فيه من طبيعة وكيمياء أو من فلك وطب، اللهم لا؟

أم هل نرد ذلك إلى العقل اذاً أيكشف العقل حقاً عن ذلك؟ ايصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة، واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى؟ ولكن أمام الشيعة -بحسب نظرهم- معصوم وهم يلجأون اليه فيما ادلهم من الأمور وسوف لا يرضون بغير حكمة بديلاً وهم ملايين عدة، أنستلهم الرشد في هذه المسائل؟

إن هذه المسائل شغلت النفوس والرؤوس على اختلاف أنواعها قديماً وحديثاً، أنلجأ إلى عقل أفلاطون؟ أم عقل أرسطو؟ أم عقل بيكون؟ أم عقل ديكارت؟ هل نلجأ إلى عقل فيلسوف حسي أم إلى عقل فيلسوف مثالي، أم نلجأ إلى علم الكلام ؟؟؟ أم نقول في النهاية مع الشاعر اسماعيل صبري:

يا رب أهلني لفضلك واكفني   شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فإن هذه المشاكل تقض مضاجع الكثير من ذوي الإحساس الديني المرهف، ومثلهم في ذلك مثل ابراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

فما هي الوسيلة التي تطمئن اليها القلوب؟ إن الدين لم يتعرض لهذه

المشاكل، والحس لا يصل إلى حلها، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده عاجز كل العجز، كما رأينا، عن الوصول إلى حلها، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذي عينين، إنّ التجربة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر وتتضارب وتحل وتعقد ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة في أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة، وعلم الكلام مختلف مضطرب يحارب بعضه بعضاً بل ويكفر رجاله بعضهم البعض، إلام نتجه اذاً؟

إننا إذا أنفضنا أيدينا من الحس فذلك لأننا لم نجد فيه غناءً فيما وراء الطبيعة، وإذا أعرضنا عن العقل فليس ذلك احتقاراً له، لأننا نستعمله معترفين بفضله في ميدانه الخاص به، وإنما كان إعراضنا عنه فيما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه[1].

نعود فنقول إلام نتجه؟ فإن الأمر ليس بهيّن، وتكشف الطريق بسهولة للصواب ليس من السهولة - ثم أردف الكاتب يقول: ولكن إذا ما لجأنا إلى الله، نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد، وإذا ما توجهنا إلى القرآن الكريم فنسترشده فيما ادلهم وخفي فماذا نجد؟ نجد أن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يرشد في مواطن إلى نوع من

---

(١) قلت: للعقل اختصاصات لا يقوم بها غيره وهي في المعقولات أكثر منها في الحسيات، فهل يمكن الوصول لمعرفة الإلهيات إلّا عن طريقه؟
وبه يعرف الخطأ والصواب، وكل العلماء والفلاسفة الإلهيين يسيرون على ضوئه وهديه، وقد قالوا: إن (الحدس) بمعناه الصحيح يقظة من يقظات العقل المشرقة وومضة من ومضاته العلوية الإلهية، وقالوا: إن عصور الإيمان هي عصور النظر العقلي، وقال أحدهم: إن العقل يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً، وقالوا: العقل هو أول ابداع إلهي وعنه صدرت العقول، ومن أين لنا أن نصدق أو لا نصدق لولا ميزان العقل؟ فسبحان من جعل لدكتورنا الكاتب عقلاً يعدل به ليعرف الله (بالرؤيا)؟؟.

المعرفة ليس طريقه الحس وليس طريقه العقل ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة.

ذلك النوع في أبسط صورة وأتمها وأشملها هو (الرؤيا) فالقرآن الكريم يحدثنا عن الرؤيا في سورة يوسف، وعن عدة رؤى كشفت شيئاً من المجهول عن المستقبل[1].

٢- ضوء على تمهيد

بعد كل هذه التساؤلات من الكاتب، وبعد تلك الحيرة والتشكك اللذين يمران على أذهان البشر كما يقول ومصادفاتهم في الفلسفة وعلم الفلسفة وعلم الكلام قديماً وحديثاً، كنا نتمنى على دكتورنا الفاضل أن يكون استلهم امام الشيعة عن طريقهم وهم الذين كما قال - أخذوا كل معارفهم ومعلوماتهم الدينية عن إمامهم، فلعله كان وجد لديهم ضالته المنشودة، قبل أن يجده في الرؤيا-[2] عن طريق البصيرة التي عاناها الصوفي اعواماً كثيرة، ولم يجدها كما يرام، ومن وجدها منهم قلما سلم، وربما اتهم بالزندقة والكفر أو بالغلو.

---

(١) إلى هنا انتهى كلام الدكتور محمود وما نقلناه يكاد يكون بألفاظه تملماً.

(٢) وقد نرى عند الحارث المحاسبي وأبي حامد الغزالي: أن المعرفة الصوفية تتم عن طريق الرؤى، ويستشهدون برؤيا (يوسف) وبرؤيا الرسول، وبرؤيا ابراهيمعليه السلام، والعلم اللدني عندهم هو النور الذي يقذفه (البارىء) في قلب المؤمن، وعندهم أن الخضرعليه السلام لم يكن علمه حسياً ولا عقلياً، بل ربانياً، واليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾، ولكن إذا كان علم الخضر ربانياً لماذا لا تكون معرفة يوسف ورؤياه ومعرفة ابراهيم ورؤياه ومعرفة محمد ورؤياه، لماذا لا تكون كلها ربانية، لماذا لا تكون معارفهم ورؤياهم ربانية؟؟. إما وحياً وإما الهاماً، وإما تجلياً، كما يذهب اليه القائلون بالتجلي، وهل الخضر عليه وعليهم السلام بأفضل منهم، ومهما كان الأمر فليس لمثلنا نحن أن نصل إلى هذه الرتبة، وليس للإنسان العادي أن يكتشف عالم الغيب ويعرف الله بالرؤيا، ولو صح ذلك لكثرت الأنبياء أو قلت فتأمل.

وكان يمكن هناك استخدام البصيرة والبصر والنقل والعقل في النوم واليقظة والمقارنة بين النتيجتين والأخذ بأصح الحالتين أو الاثنين معاً إذا تعاونتا واتفقتا معاً على كشف المجهول من عالم الغيب[1].

ولعله كان قد كفانا مؤونة البحث ووفر علينا تساؤلات كنا نستغني عنها، كما كانت الفائدة من اجتهاده ومعلوماته وتساؤلاته وتدقيقه أعم وأشمل، ولم نكن بعدئذٍ مضطرين أن نكدّ الذهن ونرعن اليراع في البحث والتنقيب والنقل والتسجيل لما جاء من المأثور عن الرسول ﷺ، وعن المعصوم عليه السلام، وتصديق ما جاء بعرضه على القرآن الكريم.

وهل نسي دكتورنا العلامة: أن هذا الإمام المعصوم الذي لم يرض أن يأذن لقلمه أن يقف - ولو برهة قصيرة ويستلهمه؟. هل نسي أن هذا الإمام المعصوم حض القرآن الكريم على سؤاله بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وأهل الذكر بإجماع الكثير من العلماء والمحدثين والمفسرين هم آل بيت رسول الله ﷺ وبرهان ذلك قوله ﷺ: إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فلن يفترقا حتى يردا علي الحوض[2].

أما وقد نسي الكاتب - أو تناسى هاتين الإشارتين بالآية والحديث

---

(١) قيل: إن القلب إذا ظهر من أدران المعاصي وصقل بالطاعات أشرقت صفحته فانعكس عليه من اللوح المحفوظ ما شاء الله أن يكون، وهذا هو العلم المعروف بالعلم اللدني اشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، وفسروا الرزق في قوله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فسروه بالعلم من غير تعلم.

(٢) الظاهر من لوازم هذا الحديث المتفق عليه من الجميع: وجوب عصمة العترة، ووجه اللزوم أنه ﷺ حكم بنفي وقوع من تمسك بهم في الضلالة نفياً مؤبداً ولا يكون ذلك إلا إذا كان المتمسك به معصوماً لأن غير المعصوم يمكن أن يخطىء فيقع من تمسك به في الضلالة، وهنا ثبتت عصمة آل البيت عليهم السلام، بهذا الحديث المجمع عليه فإذا قال قائل بعدم عصمتهم يعرض قوله على سنة الرسول القطعية فيعرف أنه مردود ومطروح.

فهو مدين لهما ونتركه وشأنه معهما، وما علينا بعدئذٍ إلا الرجوع إلى ما ورد عنهم وبهم علنا نجد به ما يكشف لنا شيئاً مما غاب عنا، أو على الأقل - يكون ضوءاً لنا على الطريق نعالج به ما يصادفنا من تشكك وحيرة ومرض فكري أو تردد.

وقد مرّ معنا في موضوع إثبات الصانع الأول: أن الفلاسفة والعلماء الإلهيين الذين استقوا معارفهم بطريق النقل والعلم والعقل وبما جاءت به الرسل بكتبها المقدسة والهداة المعصومون هؤلاء استيقنت مداركهم وجود الصانع الأول، وذلك عندهم مسلم به بداهةً وضرورة واستدلالاً، ولكنهم أخذوا يبحثون عن معرفة هذا الصانع الذي لا تصح معرفته إلّا بذاته وذاته لا تعرف إلّا برؤيته، ورؤيته لا تمكن إلّا بتجليه، وتجليه لا يدرك لكماله، وقالوا: التجلي يقع بحسب قوة الناظر اليه واستعداده... الخ[1].

وعليه فقد أوجز لك ايها القارىء الكريم ملخصاً من أقوال وحجج القائلين بالتجلي.

وإذا صعب عليك معرفة هذا المذهب فلم تلن له نفسك، فإليك هذه الأضواء الساطعة على الطريق، وتعال معي لأقرئك على ضوئها ما قد يسهل عليك الدخول لمعرفته وقبول مسلماته أو عدم قبولها، بل ويريد اطلاعاتك معلومات جديدة بشرط أن يكون لديك استعداد للنظر والتأمل، وابتعاد عن جو المراهقة والتسرع أو الاستغراق خوفاً من الإفراط أو التفريط والغلو المتهم فيه بعض أصحاب هذا المذهب وإن كان هذا

(١) عند الصوفيين: إن التقوى مفتاح الهداية والكشف، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وعندهم: إذا صنعت الهمة وحسنت السريرة والمواظبة تلمع لوامع الحق في القلب ويرتفع الحجب بلطف خفي، وينكشف الغيب للمؤمن ويحصل اليقين بعينه وحقه وحقيقته، وهذا هو من باب التجلي- كما أرى- وهل يرى عالم الغيب إلّا متجلياً، و إلا فكيف ينكشف الغيب؟.

الاتهام ظلماً وتعنتاً، وعدم انتباه تام لكيفية التجلي وفهمه فهماً دقيقاً كما يزعمون. قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

وسأنقل لك بعض أدلة وحجج أصحاب هذا المذهب - التي يعتمدون عليها ويحتجون بها نقلاً صحيحاً ثابتاً مأثوراً سنداً عن سند وثقةً عن ثقة، وصدق روايته المؤالف والمخالف، إلّا من في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه - على حدّ تعبير وقول أصحاب المذهب.

وهذا البعض - على ما أحسب - تراه مشجعاً على ما قيل في الرؤية والتجلي وينطبق على المحكم انطباقاً كاملاً لا عوج فيه ولا أمتاً، بعد أن وصل يقينك الروحي والوجداني وعقلك العلمي وحسك المرهف إلى قناعة كبيرة واعتقاد تام من الصانع الأول، وعالم الغيب. وإذا وقع لديك ارتياب بالنقل فالجأ إلى مصادره ومحض بعين عقلك وصفاء ذهنك ولا تقنع إلّا بما يقبله العقل السليم والفطرة والوجدان.

وهنا لا بد لنا من أن نعرف لماذا أخذ هؤلاء العلماء والفلاسفة الموحدون من أصحاب هذا المذهب يبحثون وصولاً إلى معرفة الغيب عن طريق التجلي، وهل تأكدوا من ثبوته، ومن أين، وهل جاء به القرآن الكريم أو السنة أو المعصوم ؟؟؟

وهم يعلمون أن كل ما لم يأت عن هذا الطريق أو يوافقه، مردود شرعاً ولا يؤخذ به بتاتاً، اذاً فعلينا الآن أن نمر على أقوالهم وآرائهم ومستنداتهم وندرسها دراسة عميقة مركزة واسعة ونجمل ما فصلوه بخلاصة توضح لنا طريق هذا المذهب الصوفي الموحد ونعلم كيف استنبطوا الحقيقة الغيبية عن الحس والنظر.

كلنا يعلم أن مذهب التصوف يقول: بثنائية الشريعة، الظاهر

والباطن[1] وأكثر علمائهم وفلاسفتهم يؤمنون بالتجلي، ومنهم الجنيد والشبلي وابن عربي والحلاج والفارض والغزالي والمكزون السنجاري، والبلخي والمحاسبي وأبو يزيد البسطامي، وكثير غيرهم.

ويقولون: الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة -الباطن- مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة، فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة انباء عن تعريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر[2].

وفي مصباح الشريعة للامام الصادق عليه السلام: العبودية جوهرة كنهها الربوبية ومعناه: أن حقيقة العبد آية الرب تعالى وظهوره له به كصورته كما قال الإمام علي عليه السلام: لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها ـ فالعبد له جهتان جهة عبودية هي جهته من نفسه، وجهة ربوبية وهي جهته من

---

(١) الظاهر والباطن هما الشريعة والحقيقة عند الصوفيين، ويشبهونهما بالقشر واللب، وبالدائرة ومركزها، وهذه الصورة الرمزية تعني: إن الطريقة -الشريعة- هي الخط الذاهب من المحيط إلى المركز وكل نقطة على المحيط هو مبدأ الخط، وهذه الخطوط التي لا تحصى لكثرتها تنتهي كلها إلى المركز، وقد تختلف هذه الطرق تبعاً لاختلاف الطبائع والاستعدادات والمعلومات البشرية والامتزاجات، ولذلك قيل: طرق معرفة الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ومهما اختلفت فالهدف واحد، وفي هذا المعنى يقول المكزون السنجاري: إذا كان شرع الله في الدين واحد، وعن مسلك التفريق فيه نهى الرسل، فإن سبيل الرشد للناس واحد ولا غيّ إلّا في متابعة السبل. وهذا تضمينٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ويفتخر المكزون بمعرفته الحقيقة التي ستجمع من ضل إذا اراد الله به الخير، فيقول: وإن داري لم تزل دائرة تجمع من ضل السبيل واهتدى، ويريد بداره الإسلام والحقيقة، ويشير القرآن إلى الظاهر والباطن بكثير من الآيات وفي الحديث: إن للقرآن ظهراً وبطناً إلى سبعة أبطن، ولو لم يكن هناك ظاهر وباطن ما كان خاصة وعامة كما هو معروف (فتنبه) ومعلوم أن القرآن يشتمل على معاني جميع ما في الوجود، إلّا أن اشتماله على انحاء منها بالتنزل ومنها بالتأويل ومنها بالظاهر وظاهر الظاهر، ومنه بالباطن وباطن الباطن، كما يقول الصوفيون ومنها بالمطابقة ومنها بالتضمين ومنها بالالتزام، ومنها، ومنها.. الباقلاني.

(٢) الرسالة القشيرية - عن ذيل المنقذ من الضلال - عبد الحليم محمود.

ربه، ولا ريب أن جهته العبودية من حيث هي مخالفة لجهة الربوبية، فهي حاجبة عن جمال الرب ما دامت باقية على حالها، وجميع العباد مكلفون بكشف ذلك الحجاب ليحصل لهم معرفة الرب ما دامت باقية على حالها، وجميع العباد مكلفون بكشف ذلك الحجاب ليحصل لهم معرفة رب الأرباب ومشاهدة جماله الظهوري بعينه[1] التي أعطاهم اياها وهي المعبر عنها بالعين الفؤادي[2] ولا يحصل الكشف إلّا بسحق جهة العبودية بصلابة الآداب الشرعية والأخلاق الروحانية والحقائق الربانية.

قسم الغزالي في كتابه (الإحياء) الإسلام إلى قسمين: الفقه والتصوف، حركات ظاهرة سماها (الجوارح) ثم أسرار ومعانٍ باطنة سماها (اعمال القلوب) فاقتصر الفقه على أعمال الجوارح، واختص التصوف بأعمال القلوب، وجعل لكل عبادة من العبادات سراً باطناً،

فللوضوء والصلاة أسرار ومعانٍ باطنة، وللزكاة والصيام والحج شروط وأدوات وأعمال باطنة لا تصح إلّا بها.

ثم يقول: إن التصوف هو لبّ الدين، وإنه علم الحقيقة وهو العلم النافع وهو المقصود[3].

ولكن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: الإيمان الصحيح هو: عمل بالجوارح وإقرار باللسان، وتصديق بالقلب.

هذا وقد عرّف العلماء (التجلي) وفسروه فقالوا: إن التجلي لغة هو الظهور والظهور كل منهما مرادف للآخر لغةً ومعنى، ولكن ربما قالوا: التجلي خاص كتجلي البارىء سبحانه لنبيه موسى، والظهور عام كظهور القدرة، ولعل الأصح: أن مفهوم التجلي والظهور واحد.

---

(١) صحيفة الأبرار، والمقصود بجماله الظهوري: التجلي كما هو واضح.

(٢) اشارة إلى قوله تعالى في سورة النجم: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، وهذا ما أشار اليه الإمام علي عليه السلام بقوله للسائل: لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.

(٣) عن كتاب التصوف في الإسلام للأستاذ سميح عاطف الزين.

وتأويلاً للحديث القدسي الوارد بالتواتر عند الجميع: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني.

نزولاً عند هذا الحديث قالوا - أي علماء مذهب التجلي -: كان الله ولا مكان ولا دهر ولا زمان ولا حين ولا أوان، ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر ولا كوكب. فلما شاء أن يكون المكان أبدعه من نور ذاته وجعله موقع أسمائه وصفاته، وهو العقل الأول الوارد بالحديث القدسي: أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب الي منك، بل آخذ وبك أعطي وبك أخلق وبك أرزق وبك أحاسب وبك أعاقب..

وبهذا العقل - كما رأيت في موضوع اثبات الصانع الأول - ابتدأت سلسلة للتكوين، وعند هؤلاء العلماء أن الله منزه عن الاسم والصفة، فكل اسم أو صفة لا تليق بكماله تقع على هذا (المكان) العقل المبدع والاسم المفاض عن نور الذات، وهو العقل الأول الذي يؤولونه (بالحقيقة المحمدية) كما عندهم كثير غيرهم، وعن هذا العقل صدر العقل الثاني - لنفس الكلية كما يسميها غيرهم.

وفسروا وشرحوا كغيرهم من الفلاسفة: العقل بالقلم، والنفس الكلية باللوح المحفوظ المدون فيه ما كان وما يكون، وتمتد سلسلة التكوين هذه مرتبة عن مرتبة ودرجة عن درجة حتى العالم الجسماني المركب من الطبائع والعناصر الأربعة المتمازجة في عالمها الجسماني الطبيعي الجديد[١].

وتلك المراتب والدّرج أرقى عقولاً وأصفى نفوساً، وأبسط اجساماً،

---

(١) يتفق هذا القول من حيث التكوين - أو يكاد - مع قول الفلاسفة الالهيين القائلين إن نفوس السماوات والأفلاك والعقول بأنها ملائكة بل إن القولين كادا يكونان واحداً بالمعنى، ولكن الترتيب هنا أدق وأجلى، فارجع إلى ما قرأت سابقاً وتأمل.

وكل مرتبة سفلى ظلّ لما فوقها، فالعليا أشرف من السفلى، وأصفى حسب سبق التكوين.

ولكن كل هذه المراتب والدرج تتجسم النور وتتحكم التخيير، وتتفاضل أنوارهم صفاءً، وتتفاوت بتفاوت القدم في التكوين، فكل مرتبة أو درجة ظل لما فوقه استدلالاً من قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله أيضاً: هم وظلالهم عن اليمين والشمال سجّد لله وهم داخرون.

٣- فلسفة التجلي عند القائلين بالتجلي:

يقولون لما تم تكوين هذا العالم عالم النور - أو عالم الأجسام البسيطة - كما يسمونها ايضاً - وهي عالم الغيب، وتم ترتيبهم، تجلى لهم الباريء كصفاتهم بدليل الآية الكريمة من كتاب الله بسورة الأعراف، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ﴾... الخ الآية وعندما تكونت المادة وتركبت الأجسام البشرية منها، وهبطت الأرواح من علمها - الملأ الأعلى[1].

تجلى الباري لهم مشاكلة لا مجانسة ليعدل عليهم كما عدل على غيرهم - عالم العقل الأول - وتشاهده قدرته وحكمته وعلمه الأرواح

(١) أكثر العلماء والفلاسفة الروحيين قالوا بهبوط الأرواح من الملأ الأعلى، فالقائلون بفيض النفوس من العقل الفعال على الأجسام الكاملة الاستعداد -تكويناً كأنهم يقولون بالهبوط الذي قال فيه غيرهم ولا مشاحة في اللفظ إذا اتضح المعنى واتفق المقصود، وعلاوة على هذا فإن علماء مذهب التجلي يستندون على أقوال المعصومين آل بيت الرسول الذين أقروا هبوط الأرواح، والآية التالية تشير بوضوح (على الهبوط) قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ـ سورة البقرة ـ.

الهابطة في عالم الشهادة - عالم الحس- كما شاهدته في عالم العقل -عالم الغيب- عالم النور، عالمها الأول قبل هبوطها، أي لتشاهدها متجلياً (قدرة وحكمة وعلماً) في عالم البشر كما شاهدته متجلياً نوراً في عالم النور والعقل.

وعليه فيكون للبارىء تجليان:

أحدهما في النور كالنور،

والثاني في البشر (قدرة وعلماً وحكمة) كالبشر،

وفي كلا الظهورين لم يزل عن كيانه وإن ظهر لعيانه، فهو منزه عن الصفتين وعن الانتقال من حال إلى حال وله أن يظهر كيف يشاء، فهو ليس بجسم متحيز يضمه مكان دون مكان، بل هو في كل مكان، ولا يشغله شأن عن شأن، ولكن اينما ظهرت القدرة فهناك القادر - وهو قدرة كله، ليس في الأشياء بوالج ولا عنه بخارجٍ.

ولكن ما هي الأدلة التي تشير إلى هذا التجلي وتقرره عندهم؟ هي القرآن الكريم والحديث الشريف، وأقوال المعصوم، والعقل المتأمل[١].

ومن تكن هذه مستنداتهم، ومنها أخذوا معلوماتهم وأدلتهم وبراهينهم على آرائهم فجدير بهم أن تكون حججهم قوية قاطعة وآراؤهم صحيحة مانعة، ومذهبهم هو المذهب السليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فما عسى أن تكون تلك الأدلة والحجج.

---

(١) يقول بعض الفلاسفة: من لم يحكم عقله لم يصل إلى شاطىء السلامة، وإن سمعت أذنه وبصرت عينه، وقيل إن ديكارت والغزالي تشابها في أمر المعرفة وموقف العقل من الوحي، فديكارت نحى حقائق الوحي عن مجال العقل لأنها في رأيه لا تدرك إلّا في مدد من السماء خارق للعادة، وأما الغزالي فقد قال: إن العقل قاصر عن إدراك حقائق الأمور الإلهية ودعا إلى مصدر آخر وهو خبر النبي المعصوم (تهافت الفلاسفة للغزالي).

قالوا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي ليعرفون كما عند أكثر المفسرين، وقالوا: جاء في الحديث القدسي: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني، فكلمة (فبي) فسرت على وجوه، منها: (بقدرتي) عرفوني، ومنها: بظهوري قدرة لهم كشكلهم عرفوني، ومنها: عرفوني بما وهبتهم من العقل والعلم والمعرفة واليقين، ومنه: عرفوني بما أعطيتهم من نعمة البصر والسمع والبصيرة والشعور والحس والتركيب العجيب، ومنها: عرفوني بمخلوقاتي الدالة على سماء وأرض وعلى (أي) فسرت هذه الكلمة فباؤها للسببية.

وكل هذه المعاني لا تخرج عن أنه تعالى قدير مدبر حكيم لطيف... كما يتبادر للذهن الأول مرة، غير أن علماء هذا المذهب اشتقوا من (لفظة) ليعبدون، في الآية، و(لفظة) فبي عرفوني من الحديث القدسي: إن المعرفة لا تتم إلّا بالمشاهدة، ولم يكن الحديث إلّا تلميحاً وايماءً إلى الآية الكريمة وتوضيحاً، واستنباط الحقائق يخفى إلّا على المتأملين الذين يغوصون بالتدقيق وراء كل كلمة وكل إشارة أو رمز، وبرهنوا بقولهم: إنه ورد في القرآن أن لله ستة تجليات:

الأول: التجلي للشيء من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾..

الثاني: التجلي من الشيء كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾...

الثالث: التجلي مع الشيء كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾... الخ.

الرابع: التجلي في الشيء كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾.. الخ.

الخامس التجلي على الشيء كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾....

السادس: التجلي كالشيء كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وهذا التجلي بما يشاكل المتجلى لهم، -وفلسفة هذا المذهب - كما أرى- لا تقنع بالآراء العقلية وحدها، بل يجب أن يتفق معها النقل، فكل خبر أو حديث أو رأي لا يتفق والنص المعصوم فهو لغو، وينبذونه ظهرياً، أو يردونه إلى صاحبه عملاً بالحديث المأثور الذي يوردونه عن الرسول صلى الله عليه وآله وهو:

ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فإذا وافق كتاب الله فأنا قلته، وإذا لم يوافق كتاب الله فاضربوا به عرض الحائط، أو ردوه لصاحبه، ثم يدعمون هذا الحديث بقول الإمام علي عليه السلام وهو يصف القرآن: هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، فاستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم واتهموا عليه آراءكم، واستشفوا فيه أهواءكم، ثم قال: فانظر ايها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فأتم به واستضىء بنور هدايته (النهج) فهم لم يتمسكوا في القول بالتجلي عبثاً أو بدون دليل واضح ولكنهم تحققوه فاعتقدوه من القرآن الكريم كما رأينا سابقاً وتحققوه من الرسول ﷺ[1]، وعن المعصوم الذي لا يفارق القرآن ولا القرآن يفارقه بحكم الحديث

---

(١) يقول حجة الإسلام (الغزالي) الكفر هو تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به، والإيمان هو تصديقه بكل ما جاء به، وجاء في مقدمة (حياة محمد) للدكتور هيكل قوله: سيدنا محمد ﷺ معجزة التاريخ وهو المنارة التي يهتدي بها الإنسان كلما انبهمت الأمور أو ضلت الآراء فلا إسلام ولا إيمان إلّا فيما جاء به وقال وبشر...
قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فقوله: وقد أخذ ميثاقكم يسيء قبل هبوط الأرواح تجلى لهم بصفتهم، وفي تفسير الجلالين: أخذ الميثاق عند تجليه لهم في عالم الذر.

الشريف: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ويقولون: إنهم بصفاء الروح وطهارة الضمير والعقل النير والأخذ بالنقل الصحيح تأكدوا أن التجلي هو أوضح الأسباب لمعرفة عالم الغيب، ومن لم يعرف عالم الغيب عن طريق التجلي لم يصل إلى معرفته كما يقولون: إنه من الغريب نكران التجلي والقرآن يثبته بوضوح.

وكيف يتجلى الله في الآخرة يوم القيامة للعباد بصفة أهل الآخرة، ولم يتجل لهم في الدنيا كصفة أهل الدنيا مشاكلاً لا مجانساً، فكما هو أهل لتجليه في الآخرة هو أهل لتجليه في هذه الدنيا ؟

ويضيفون قائلين: وغريب من منكري مذهب التجلي قولهم: إن الشيطان يتجلى بالصورة البشرية والتي يريدها -للتضليل- وقادر على ذلك، ولكن البارىء غيب منيع ولم يتجل لإثبات وجوده ومعرفته؟؟ ففي سورة الانفال قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقد جاء في تفسير هذه الآية: إن الشيطان كان قد أتاهم في صورة (سراقة بن مالك الكناني) سيد تلك الناحية، فإذا كان الشيطان قادر على أن يتجلى بالصورة التي يريدها، أو أنه أعطي من الله هذه القوة أو القدرة للاختبار والاستدراج والتضليل.

فما هو المانع من تجلي البارىء كصورة من يشاء من خلقه ايناساً ولطفاً ورحمةً وامتحاناً ليعلم المطيع من العاصي، والمنكر من المقر، والمؤمن من الجاحد، والمتبع الحق من متبع الباطل. ولتثبت الحجة واضحة على المنكرين، ولا يكون على البارىء حجة لمحتج، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾؟

قال أحدهم:

لـو لـم يـظـهـر بـيـن الـبـشـر كـانـت عـلـيـه حـجـة لـمـن كـفـر

وقد أنزل الله سبحانه الكتب وأرسلَ الأنبياء وتجلى بقدرته وحكمته وعلمه بينهم كَهُمْ لطفاً ورحمةً بالعباد، ولا يستنكرون تجلي الشيطان بالصورة التي يريدها للتضليل والاختبار، ولكن بصورة أبعد الخلق عن الحق وأقربهم إلى الباطل والكفر.

كما أن الله سبحانه وتعالى إذا تجلى لعباده يقع التجلي بصورة أقرب الخلق وأحبهم اليه وأحسنهم صفات وذلك التجلي يكون بصفات القدرة والعلم، أي يظهر شيئاً من قدرته وعلمه وحكمته وصفاته على يد من يشاء من رسول أو نبي ووصي وولي، يظهرها على يد من يحبهم ويحبونه.

وفي الحديث القدسي: ما يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه الناظرة وأذنه السامعة ويده الباطشة ورجله الساعية ولسانه الناطق وقلبه الخافق، ولا غرابة في ذلك والله سبحانه يقول أيضاً على لسان الحديث الآخر المأثور وهو: إن قلب عبدي المؤمن حرمي، وحرام على حرمي أن يسكنه أحد غيري، وهل من حجة أوضح من هذين الحديثين على تجلي (الله) سبحانه كصفات خلقه تجلي مشاكلة لا مجانسة يظهر قدرته، وعلمه وحكمته بأقرب خلقه اليه فضيلة وفضلاً وصفات ونبلاً.

والباري تعالى (واجب الوجود) ويتجلى قدرة بأعيان الموجودات على حسب ما تقتضيه قابليات وهيئات الموجودات، وهو واحد أحد لا تعدد لذاته جزء أصم لا يتجزأ ولا يتبعض، والقدرة ذاتية له وفي غيره مستعارة، فإذا تجلى قدرة بصورة إنسان فتلك القدرة لله ليست لذلك الإنسان.

فالصورة والصفات الحسية العينية هي للمتجلي لهم ليست للمتجلي

فهو منزه عنه وعن كل صفة لا تليق بكماله، وهو سبحانه ليست له صنعة زائدة عليه[1].

فتجليه تعالى بصفات القدرة والعلم والحكمة وغيرها من الصفات الحسنى هو لإثبات الوجود ونفي العدم، يتجلى بالقدرة التي تدل على وحدانيته وفيض رحمته فيستدل المتأمل البصير أن صاحب هذه القدرة يرتفع عن هذه الصورة وحدودها وعجزها، فإذا كانت الصورة بشرية، فالقدرة إلهية.

والقاعدة عندهم لهذا المعنى: من هذه القدرة قدرته فليست هذه الصورة صورته، يتجلى من حيث هو فيرى من حيث هم، يقول الفيلسوف الصوفي لمعروف الحسن بن مكزون السنجاري:

فما شهدته العين معنى فذاتها ومن هيئة فهي المثال لهيئتي[2]

ويقصد بلفظة (معنى) أي قدرة، والمقصود أن ما رأته العين من القدرة حال التجلي فهو المتجلي وما رأته من الصفات الكونية والعجز فهو مثال المتجلى لهم.

---

(١) إن بعض أئمة المذاهب من يقول: إن لله صفات زائدة على ذاته، فهو قادر بقدرة وعالم بعلم زائدتان على ذاته، وحي بحياة زائدة على ذاته، وهكذا، وجلّ الله أن تكون صفة زائدة على ذاته، فإذا كان له صفة فهي هو، والمعتزلة يؤولون الصفات ويرون أن الوحدة لا تقبل التركيب، وإن القول بوجود صفات قائمة بالذات الإلهية منذ الأزل هو إشراك له سبحانه وتعالى في القدم، وتعليق تلك الصفات بعالم الزمان والمكان، أما علماء الكلام الصفاتية فيقولون: إن الله عالم قادر مريد، ولا معنى للعالم إلّا أنه ذو علم ولا للقادر إلّا أنه ذو قدرة، ولا للمريد إلّا أنه ذو إرادة، وليست الإرادة أو القدرة أو العلم شركاء للذات، ولكنها تقتضي تعريف الله بأنه عالم وقادر ومريد، أما الشيعة الذين أخذوا عن المعصوم فيقولون: لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر، فهو عالم بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة.

(٢) ديوان المكزون (مخطوط).

ومن فلسفة هذا المذهب قولهم: يتجلى من حيث هو فنراه من حيث نحن، ومثلهم: أينما ظهرت القدرة فهناك القادر، والقدرة في الله ذاتية وفي غيره مستعارة، والحق تعالى: لا يظهر إلّا بالذات لا بالأمثلة والصفات، فهو يغير ولا يتغير، ويبدل ولا يتبدل يقلب القلوب والأبصار، قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.. الخ.

ثم يقولون: فالتجلي ثبت من القرآن الكريم - كما رأيت آنفاً- وعن الرسول ﷺ وقد كان جبريل ﵇ يأتيه بالوحي، وهو على صورة دحية بن خليفة الكلبي[1]، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: إذا رأيتم (دحية) عندي فلا تطيلوا الجلوس[2].

وقيل إنه ﷺ لم ير جبريل بصورته الحقيقية إلا مرتين، وجاء في كتاب (بين عالمين) للمؤلف (مصطفى الكيك) نقلاً عن الاتقان في علوم القرآن جزء أول ص ٤٤ عن كيفية نزول القرآن الكريم: قال: وفي التنزيل طريقان: أحدهما أن النبي ﷺ، انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه جبريل، والثاني: أن الملك انخلع من البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحالين.

---

(١) في كتاب (الامام الصادق) الجزء الأول يقول المؤلف محمد الحسين المظفري: إن معاوية بن وهب حاور الصادق ﵇ فقال: يا بن رسول الله ما تقول في الخبر الذي روي أن رسول الله ﷺ رأى ربه؟ فقال له: يا معاوية إن محمداً ﷺ، لم ير الرب تبارك وتعالى برؤية القلب، فهو مصيب ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وبآياته لقول الرسول ﷺ: من شبه الله بخلقه فقد كفر... الخ، وسأله أحد الملحدين، فقال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟ فقال له: رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمة (دون رؤيته).

(٢) قال الفارض:

وها دحية وافى الأمين نبينـا　　بصورته في بدء وحي النبوة

..... الخ

ومعنى هذا أن النبي ﷺ، كان يتلقى القرآن الكريم من جبريل عليه السلام وهم في مستوى اهتزازي واحد، فإما انخلع النبي عليه الصلاة وآله، إلى المستوى الذري للملاك، وفي هذا إشارة إلى انفصال الكائن السماوي الذي يشابك بدن النبي ﷺ وهو النفس، وإما اكتسى جبريل عليه السلام بكساء من المادة الأرضية وهي (الأكتوبلازم)، ويقول الإمام السيوطي: إن الانخلاع الأول أصعب من الاكتساء لأنه كما نعلم يتطلب الغيبوبة التي كانت تحدث للنبي ﷺ عند نزول الوحي والتي تنفصل أثناءها النفس ولم يؤثر عن صحابة النبي ﷺ أو عن جلسائه عند نزول الوحي بطريق الغيبوبة أنهم رأوا هذه النفس وهي تنفصل عن بدنه ﷺ، لأنهما كما قلنا تكون حينئذٍ في مستوى ملائكي سماوي خارج مجال العالم الأرضي المنظور، أما إذا احتفظ كل من النبي ﷺ وجبريل عليه السلام بدرجته الاهتزازية ومستواه الذري فإن الاتصال بينهما يكون مستحيلاً، ومن هنا تتضح لنا أهمية قانون التساوي في مستويات التكوين الذري الذي يضبط العلاقة بين علم المادة والعالم الآخر، وهو أيضاً القانون الذي يفسر لنا بوضوح سبب الانفصال القائم بين الإنسان والملائكة والجن مع وجود الجميع في محيط كوني واحد، كذلك من هنا نعلم كيف كان جبريل يأتي بالوحي وهو على صورة (دحية).

وهذا لا يختلف عما جاء ورواه السنجاري أنه قال ﷺ: إن سيد الناس يوم القيامة وفيما رواه النبهاني في كتابه (في معجزات سيد المرسلين) بقوله: إنه ﷺ أفضل من الملائكة لأنه أفضل من آدم، وآدم أفضل من الملائكة وأول ما خلق الله روح محمد ﷺ فرحم الله به الموجودات الكونية، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وحقيقته لا يعلمها إلّا الله تعالى، فهو معدن الأسرار الربانية لأنه مرآة لتجلي الذات العلية.

وقد ورد في القرآن الكريم: إن جبريل عليه السلام، تمثل لمريم بصورة رجل، تمثل لها بشرياً سوياً، فأنكرته، وقالت له: أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، وهذا برهان كبير يستند عليه مذهب القائلين ويؤيده تأييداً واضحاً، كما أنهم يوردون قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾... الخ..

يتساءلون فيقولون: **ما هذا الحجاب الذي يحجب الله وراءه ليكلم البشر، وهل شيء أكبر منه فيحجبه؟** إن هو إلّا تجليه كصفتهم قدرة وعلماً... والقدرة تنفي الصورة، فالصورة نقص وعجز، والباري لا يتصف إلّا بصفة الكمال، فإذا ظهرت القدرة بطلت الصورة، اذاً فالتجلي قدرة لا صورة، ولا حصر ولا إحاطة، ولكن إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، فالله سبحانه منزه عن الصورة والتصوير والعجز والتغيير.

وربما يتصور الجاهل أن الله سبحانه صورة رجل ضخم يستوي على عرشه ثم يأمر وينهى، -كما روي - أن رجلاً ساذجاً حضر مجلساً من مجالس المعتزلة، فسمعهم يتحدثون عن الله سبحانه ويقولون: ليس بفوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا بخلف ولا أمام وليس بمادة ولا عرض، فخرج من عندهم ثائراً يعلن ويقول: هؤلاء قوم كفرة يريدون أن يقولوا أن ليس في السماء إله.

فهذا الرجل الساذج يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسات، ولم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله، فاعتقد أن المعتزلة كفرة ينكرون وجود الله، فلو كان هذا الرجل يعلم المحكم والمتشابه والتنزيل والتأويل، وما يقوله علماء مذهب التجلي من أن الله ليس بصورة ولا قيدته صورة بل الصور كلها له من حيث قيام الكائنات كله به بيديه بقدرته، وإذا قالوا عنه صورة أو جسم أو شيء، قالوا: صورة لا كالصور، وجسم لا كالأجسام،

وشيء لا كالأشياء، ليثبتوا وجوده من جهة لأن ما لا صورة له ولا جسم يوشك أن لا يكون شيئاً، ثم ينفوا عنه العجز والإحاطة والنقص والتخطيط من جهة ثانية تنزيهاً لكامله عن هذه التخطيطات.

والحق تعالى ظاهر موجود تدل عليه جميع مصنوعاته ومكوناته، ولكن كل ما يتصور أو يتخيل في الذهن فالله غيره وخلافه، فلو كان ذلك الرجل الساذج يعلم ويفكر لما قال ما قال بتكفير جماعة ينزهون ربهم ويرفعونه عن الحصر والتحيز - فهو لم يعلم أن الله سبحانه ليس بجسم يشغل مكاناً دون مكان بل هو في كل مكان ولا يخلو منه مكان.

وأصحاب مذهب التجلي يقولون: لا يجوز ظهور الباري كشفاً لأنه لا تستطاع رؤيته كشفاً لذلك فهو من لطفه بخلقه يتجلى لهم بصفاتهم لتمكن معرفته بقدرته، أكان الخلق المتخلي لهم نوراً أو بشراً.

فقد سأل موسى قومه أن يريهم الله جهراً فأخذتهم الصاعقة، ثم سأل موسى ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[١]، وقال شراح القرآن: لم يثبت الجبل لمقدار نصف أنملة الخنصر[٢].

وجاء في القرآن الكريم: وقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، فرد الله على القائلين: ﴿...وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[٣].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٨، ٩.

ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾[1] اي لا يمكن ولا يجوز أن يكون الرسول إلّا من جنس المرسل اليهم ليفهموا عنه نهيه وأوامره وما جاء به اليهم[2]، ثم يقولون: وفي هاتين الآيتين ما يدل دلالة قطعية على التجلي بالصفة كالصفة، والصورة كالصورة[3]، ويقولون: إن الحقيقة المحمدية التي هي العقل الأول، تجلت بمحمد رسول الله ﷺ بصفة الخلق وبها تمكن من تبليغ رسالته، وبها كان يعلم الغيب، وبها كان معصوماً، وليس بمعصوم من لا يعلم الغيب، لأنه يجوز عليه الخطأ وكفى دليلاً على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾، فقد أعطاه مرسله العلم والقدرة والحكمة لإظهار المعجزة الخارقة التي تتطلبها رسالته السماوية - كما أعطي اسم الله الأعظم في بعض القول، وهذا كله معناه: ليس للبشر طاقة الرؤية (الملك) وكل منهما مادته غير مادة الآخر، كما مر معك علمياً بالنسبة للدرجة الاهتزازية والمستوى الذري.

ومن هنا نعلم أنه يستحيل على الحس رؤية المعقول، فكيف برؤية (البارىء) بنورانيته المجردة قال أحدهم: ولو ظهر الجبار في حدِّ ذاته تبادرت الأجسام محترقات، فالكثيف لا يطيق الثبات لتجلي اللطيف المجرد، وفي القرآن الكريم: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ - ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٩٤، ٩٥.

(٢) لا يستطيع البشر مقابلة النور، ولكن للنوري أن يتجلى بصورة البشري ليمكنه من تأدية رسالته وتنفيذ غايته ومهمته، والعجز من القادر قدرة، ومعلوم: أن القادر يستطيع اظهار العجز، والمعجز بينما العاجز لا يستطيع ذلك، قال الحافظ السيوطي: نقله النبهاني: أوتي ﷺ، علم كل شيء، ولما كانت الروح المحمدية مشتملة على الخلافة بالتبعية كان لا يغرب على علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء من حيث مرتبته فهو ملكوتي الباطن بشري الظاهر. فتأمل.

(٣) المقصود بالصفة كالصفة، والصورة كالصورة: صفة وصورة المتجلي لهم.

يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾، وانتقال كوكب من مكانه إلى مكان آخر- كما يقول العامة - أو سقوط النيازك - يكاد يغشي الأبصار.

فالتجلي بالنور المجرد لا يمكن رؤيته بالعين الحاسة، ولو ظهر المتجلي بحقيقته لأحرق ما علا وما سفل والأرض ومن عليها(١).

يقول الأستاذ حامد حسن في ترجمة المكزون السنجاري مشيراً إلى مذهب التجلي: ولكن لا بد من رؤية الصفة وظهور القدرة التي تنفيها، وذلك لمعرفة المتجلي ووفقاً للشك والضلال والإلحاد، فيجب إثبات القدرة ونفي الصفة، لأن إثبات الصورة يدخل الموصوف بها في حدود الرؤية والرسم والشكل والهيئة، ويروى عن ابن عربي أنه قال: إن الإيمان لا يتصور إلّا بالرؤية في أي عالم كان، ولهذا قال النبيﷺ لحارثة: ما حقيقة إيمانك؟ فأجابه حارثة: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، فأثبت الرؤية وبها صحت له حقيقة الإيمان، فلا فائدة للايمان بالغيب إلّا لحوقه بالمشاهدة.

فكأن الإيمان بالغيب يبقى ناقصاً فلا يتم إلّا بمعرفة التجلي الذي منه يستلهم الوجدان الرشد والمعرفة، وبهذا يشير الفيلسوف الأمير حسن بن مكزون السنجاري بقوله:

اسم الحبيب متاع وإنما اختص قلبي
بين الأنام وبيني عنهم برؤية عيني

ويقولون ليس من المتناقض اجتماع الإثبات والنفي في الصورة، من حيث إن الإثبات لسلب لعدم، والنفي لرفع الحصر والإحاطة، فطرفا

---

(١) كان حجة الإسلام (الغزالي) يشك في المحسوسات ولا يؤمن بها، ولكنه يعشق ويؤمن بنظرية الاشراقيين في الفيض والتلقي، ويؤيد بها فكرة الكشف والذوق والعلم اللدني في التصوف، كما كان يقول: إن علم الكلام أفضل العلوم وأجلّها، وهذا بالرغم من مهاجمته لرجال هذا العلم، (من كتاب التصوف في الإسلام)، للأستاذ سميح الزين.

القضية (العدم والإحاطة) وهما لا يليقان بكمال الخالق - وإذا سئلوا ما هو الداعي للتجلي بالصورة؟ أجابوا: تجلى الله بالصورة لطفاً منه بخلقه وايناساً لهم، ولحاجتهم إلى الكلام، لأنه لا كلام إلّا من صورة، فأتاهم من حيث يعرفون ويفهمون[1].

وليعدل عليهم كما عدل على غيرهم - ليعدل على عالم البشر كما عدل على عالم النور، وقد تجلى لهم كصورهم - قال عند تجليه لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾... الخ.

٤- بعض آراء وأقوال العلماء السابقين حول الصانع الأول:

يعرض أصحاب مذهب التجلي بعض أقوال علماء وفلاسفة الكلام الإلهيين بأنهم قضوا أعمارهم وهم يبحثون عما وراء الطبيعة، وعالم الغيب ومعرفة الخالق سبحانه، ولم يصلوا إلى نتيجة حاسمة يتفقون عليها، بل وصلوا إلى مشادات وتكهنات خيالية لا طائل تحتها، لأنها بقيت تتقاذفها أمواج الشك فلم تصل إلى شاطىء أمين، فهم لو سلكوا النهج الصحيح لعرفوا (الله) بالتجلي الذي صرح به القرآن تلميحاً وتصريحاً وذكره المأثور من الحديث تأويلاً وتوضيحاً، ووافق عليه العقل المتأمل وجداناً ويقيناً، وكانوا وفروا على أنفسهم التردد والعناء، والتشكك والمراء ووصلوا إلى غاية مرجوة من معرفة عالم الغيب والصانع الأول على حد تعبير أصحاب هذا المذهب مذهب التجلي الذي استعرض أقوالهم فقال:

قال العلامة عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي عند شرحه قول

(١) كتاب الأسس، كتاب مخطوط، سائل ومجيب.

الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور ودلت عليه أعلام الظهور(١).

قال العلامة المذكور: حكى أبو إسحاق النظام محمد بن عيسى بن غوث: إن قوماً قالوا: **إنه تعالى هو (الفضاء) نفسه** فليس بجسم لأن الجسم يحتاج إلى مكان، ونفسه مكان الأشياء، ثم قال ابن غوث: وطائفة منهم يقولون: هو الفضاء نفسه وهو جسم تحل الأشياء فيه، وليس بذي غاية ولا نهاية واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(٢).

وأما من قال: **إنه جسم لا كالأجسام**، نفوا عنه معنى الجسمية لأنهم أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء، وذات لا كالذوات، وهم علي بن منصور والسّكاك ويونس بن عبد الرحمن والفضل بن شاذان، وكلهم من قدماء الشيعة، ويعنون بقولهم (جسم) أنه قائم بذاته لا بغيره (لا كالأجسام) أي أنه بخلاف العرض ويقول بعض المعتزلة وجمهور المحققين المتكلمين: أنه سبحانه ليس في جهة ولا في مكان، وإن ذلك من توابع الجسمية أو العرضية اللاحقة بالجسمية، فإذا انتفى عنه كونه جسماً وكونه عرضاً لم يكن له جهة أصلاً، والى هذا القول يذهب الفلاسفة.

وذهب محمد بن الهيصم متكلم الكرامية: **إلى أنه تعالى ذات منفردة بنفسها عن سائر الموجودات لا تحل شيئاً حلول الأعراض ولا تمازج**

---

(١) نهج البلاغة -شرح ابن أبي الحديد.

(٢) يعني (بالفضاء) أنه هو الله، وجل الله عن مثل هذا القول، ولكن قالوا: الكون في الله على سبيل الخروج والدخول، والباري في الكون لا على سبيل الاتحاد والحلول، ومعنى ذلك أن قيام الكائنات بالله ونظامها وتدبيرها له.

شيئاً ممازجة الأجسام، بل هو مبين للمخلوقين، إلّا أنه في جهة (فوق)[1] **وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى.**

ويعتقد المعتزلة أنه في كل مكان، وكأنه موجود في كل الأمكنة لإحاطته بالجميع، ويقول قدماء الفلاسفة: **إن الباري تعالى شديد في غاية اللطافة وفي غاية القوة ينفذ في كل العالم**، فهؤلاء يطلقون عليه أنه في كل مكان حقيقة لا تأويلاً، ومن هؤلاء من أوضح فقال: إنه تعالى روح سار في هذا العالم سريان نفس الإنسان الواحد منا في بدنه، فكما أن كل بدن منا له نفس سارية فيه تدبره، كذلك الباري سبحانه هو نفس العالم وسارٍ في كل جزء من العالم، فإذن هو في كل مكان بهذا الاعتبار لأن النفس في كل جزء من البدن[2].

وحكى الحسن بن موسى النوبختي عن أصل الرواق من الفلاسفة

---

(١) لينظر القارىء الكريم الفرق بين هذا الرأي والاعتقاد، وبين معرفة ورأي المكزون السنجاري حيث يقول: وهو لي فوق وتحت ووراء وأمام وجليس عن يدي، ويقول: فأين وجهت وجهي عنه أراه اليه، مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.. الخ غير أن ذلك المتكلم كاد يلتقي بالتنزيه مع علماء مذهب التجلي لولا انحرافه الأخير وعدوله عن طريق الآية، فالباري تعالى ذات موجودة منفردة عن سائر الذرات والموجودات لا تحل شيئاً حلول الأعراض، ولا تمازج شيئاً ممازجة الأجسام، وهو مباين للمخلوقين، ولكن كما قال الإمام علي عليه السلام: مباين للأشياء بينونة صفة لا بينونة عزلة.

(٢) يلتقي هذا القول بالكثير من أقوال علماء مذهب التجلي كالفيلسوف أحمد بن جابر الغساني في مسائله بقوله لسائله: وكيف نجده؟ أجابه كما تجد نفسك... الخ، فليراجع مسائله من يريد المزيد، كما يلتقي ايضاً مع الشاعر محمد المنتجب العاني بقوله: (الكون جسم فيه روح.. الخ) أما قوله ليس له صورة فخطأ إلّا أن صورته ليست كالصور، وأصاب بقوله: انه قادر على أن يتصور بأي صورة شاء، وهذا القول يشير إلى (التجلي) وإن لم يرده، أما قوله: ينفذ في الكل بذاته وقوته لا بعلمه وتدبيره، فلا يقبل، لأن الباري ليس له صفة تنال ولا حد تضرب به الأمثال، فهو ليس له صفة زائدة على كماله، وهو لا يوصف بصفة زائدة عليه، فهو ليس عالماً بعلم ولا قادراً بقدرة، بل علم كله وقدرة كله، وهل علمه غيره؟ كلا؟ يقول الفيلسوف الروماني ابيكتاتوس الله هو القوة كلها والحكمة كلها والخير كله.. وكان يقول: إن الحق شأن وشأن أشعة الشمس يصل الينا من خلال نوافذ عديدة في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة وكلمات مختلفة.

قالوا: **إن الجوهر الإلهي روح ناري عقلي ليس له صورة لكنه قادر على أن يتصور بأي صورة شاء** ويتشبه بالكل وينفذ في الكل بذاته وقوته لا بعلمه وتدبيره.

ومن هنا يرى المطلع النبيه كيف تتخبط الأفكار والمعلومات في معرفة الصانع الأول وعالم الغيب فكل يذهب وفق تصوره وخياله وتفكيره وعلمه ويقينه، ولكن من دون دليل من كتاب أو برهان من مأثور أو أثر عن معصوم، فتراهم بعكس أولئك الذين استقوا معلوماتهم من الكتاب والسنة وعن المعصوم فاستنارت بها عقولهم واستيقنتها مداركهم وبصائرهم فقالوا (بالتجلي) وهم على أتم يقينٍ واطمئنانٍ من صدق آرائهم وحجة معلوماتهم ومذهبهم - كما يدعون.

تعال معي أيها القارىء الكريم لنستمع إلى ما نقله الأستاذ حامد حسن عن أحد القائلين بالتجلي الفيلسوف الصوفي ابن مكزون السنجاري، وانظر كيف يفند الآراء الخاطئة ويعين بعدئذٍ نقطة: الانطلاق إلى الحقيقة بالنقاش والدليل والمقارنة والأحكام العقلية والنقلية فيقول:

* من الناس من قال: **عرفت الحق بالعجز عن معرفته**، فاقتنع من المعرفة بعجزه دون معرفة الحق وذاك سبيل الحائرين.

* ومنهم من قال: **عرفته بمصنوعاته وآثار صنعته**، وذلك مقام المنقطعين.

* ومنهم من قال: **عرفته بأوصافه**، ولم يعرف أن جهله بإدخاله في حدّ الصفة الموجودة من قبل الواصف وأوجب تعدده بتعدد الأوصاف التي أوقعها به من طريق جهله بوحدة ذاته واستغنائها عن الوصف الزائد عليه الجاري في حدث الواصف لها به وذلك مقام المشركين.

* ومنهم من قال: **عرفته بنفي معرفته**، ولم يعلم أنه قد جوّز مكان

العدم لوجود ذاته تعالى، لأن ما لم يمكن شرحه ومعرفته لا يمتنع عدمه، وتلك اشارة الملحدين.

* ومنهم من قال: **عرفته بأسمائه**، والأسماء يعرف بها من يكتنفه حد العارفين به ليحصل لهم بالإشارة اليه ويحصل بذلك له التمييز عنهم فيه وذلك قول المجسمين[(١)].

* ومنهم من قال: **عرفته بعقلي**، ولم يعرف سفه دعواه في أنه عرف عقله، وذلك تصور الجاهلين.

* ومنهم من قال: **عرفته بكليته**، فأدخله في حيز معرفته وتلك دعوى التائهين.

وقد صرفت وجهي عن الإحاطة في تعديد هذه الأقوال الفاسدة، ويبدو أن هناك أقوالاً لم يذكرها وهي فاسدة أخطأت طريق الصواب، والحقيقة هي ما يعرفه هو ويقول به،و هو:

إن معرفة الله لا تصح إلّا بذاته وذاته لا تعرف إلّا برؤيته، ورؤيته لا تمكن إلّا بتجليه، وتجليه لا يدرك بكماله، والتجلي يقع بحسب قوة الناظر ليه، ومعناه رفع حجاب الظلمة عن بصر المبصر ليشهد من ذات المتجلي على قدر طاقته في حدّ عجزه وكلال بصره عن مشاهدة نور اللاهوت من غير تغير في ذات المتجلي. . . .الخ.

---

(١) يقول العلامة عبد الحميد بن أبي الحديد بشرحه إحدى خطب الإمام علي عليه السلام المسماة (خطبة الأشباح) قال الشارح: استدل بعض المتكلمين على نفي كون الباري جسماً بما هو مأخوذ من الفاظ هذه الخطبة، فقالوا: لو جاز أن يكون الباري جسماً لجاز أن يكون القمر إله العالم، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم، فلا يجوز أن يكون الباري جسماً، بيان الملازمة: إنه لو جاز أن يكون الباري جسماً لما كان له بين الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعهما، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هو إله العالم، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلّا كونه جسماً ويجوز عليه الحركة والأفول - نهج البلاغة-.

تعالى الله عن الحركة والسكون وتنزه عن حلول الأجساد والتغير والفساد، لا تحويه الجهات ولا تقع عليه الأسماء والصفات، -الحي القائم بذاته-، الغني عن أسمائه وصفاته، لا يفعل إلّا إبداعاً.

أفاد وجوده وجود الموجودين، ما عرفه من كيفه، وجهل ذاته من وصفه، فبإفادته القدرة للقادرين سمي قادراً، وبتعليمه العلم للعالمين سمي عالماً، وكذلك كل ما وصفناه به إنما أجري عليه من قبل أنه وهبه لا من قبل أن الوصف كمال لذاته وهو زائد عليها.

وأكمل المعارف به لأهل المزاج نفي خط الخيال العارض في الوهم ونفي حده عند تجليه بإثبات القدرة والظاهرة وتحقيق الحق، ووجود العيان ورفع الحصر عن الصورة المشهودة(١).

ويستنتج القارىء مما ورد أن التجلي يكون على حسب ما تقتضيه قابليات وهيئات الموجودات(٢). قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾الخ.

فهل تسبيح هذه الموجودات كلها من جماد ونبات وحيوان وإنسان نوع واحد؟ أم أن تسبيح الناطق منها خلاف تسبيح الصامت؟ وهل تسبيح الموجودات الصامتة إلّا وجودها الدال على عظمة موجدها -فهو تسبيح بلسان الحال-؟

ويشرح هذا بوضوح له، وان كان خلقه صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة(٣).

---

(١) تزكية النفس، رسالة مخطوطة للفيلسوف المكزون، ذكرها وقدم لها الأستاذ حامد حسن في ترجمته للمكزون السنجاري وهي تتضمن الحدود والواجبات الشرعية.

(٢) يقول آينشتاين: إن الاعتقاد بإله متشخص يتدخل في ظواهر الطبيعة أمر لا يمكن نقضه علمياً، فما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً، النظرية النسبية.

(٣) نهج البلاغة للإمام علي

ولكن تجليه للحي الناطق - الإنسان- هو ظهوره بقدرته وعلمه وحكمته كصفته، يقول المكزون السنجاري (فما شهدته العين (معنى) فذاتها ومن هيئة فهي المثال لهيئتي). معنى - أي قدرة، فالقدرة هي الحقيقة المتجلية في الصورة والصورة للناظر وهي هيئته، وقال هذا الشاعر الفيلسوف أيضاً:

ومثل لي الحقيقة في خيال   كما في النور يحكي الشخص ظلّ

فهو يرى أن الحقيقة تجلت في الصورة التي هي خيال زائل وعرض ماثل.

والصوفيون - وأكثرهم يقولون بالتجلي - يرددون هذه المعاني في أشعارهم وتآليفهم وألفاظهم وفق أذواقهم، ويقولون: إن القدرة تقتضي العلم، والعلم يقتضي ما يختص بالغيب، ويرددون عن الإمام علي عليه السلام الكثير مما يطابق آراءهم كقوله: الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته، وكقوله اليماني عندما سأله كيف تعبد ربك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه:

ما كنت أعبد رباً لا أراه، فقال ذعلب: وكيف تراه؟ أجابه: لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.

ومن قوله عليه السلام: كل ظاهر غيره غير باطن.. الخ ومن قوله: إنما تحد الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها، بها تجلى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، ومن قوله: ظهر فبطن، وبطن فعلن[1]، وهذا كله يدعم مذهب التجلي دعماً قاطعاً، ويوضحه وضوحاً جلياً.

وكثير من مثل هذه الأخبار والمأثورات يأتي بها أصحاب هذا

---

(١) المصدر السابق.

المذهب تأييداً لمذهبهم مقتنعين أن مثل هذه الأدلة واضحة لا تحتاج إلى شرح في معرفة التجلي وصحته، ولا تترك في ذهن المطلع ريبة ولاتردد أمام واقعه وتأكده.

ويوردون من أخبار معراج الرسولﷺ قوله: رأيت ربي في أحسن صورة وخاطبني بلسان علي[١]، بأن قوله هذا دليل ساطع على (التجلي) وليس فيه لبس ولا غموض فهو واضح وصريح.

وعلى هذا الطريق أخذ علماء هذا المذهب يسيرون ويتوسعون تمحيصاً، وتدقيقاً. وينتبهون لأية اشارة تومىء إلى رأيهم، فيستوضحونها كيلا يقعوا -حسب قولهم- كغيرهم في التجسيم أو التعطيل أو التشبيه، قال أحدهم: الأسماء حدود، والصفات أعراض والصورة صفة من الصفات، لا ذات حاصرة الذات، ولا قائمة بنفسها، بل تقوم بموجدها.

وقال هذا الفيلسوف: الصورة تدل على الناسوت دلالة التزام، وتدل على اللاهوت دلالة تضمين[٢] وفي كثير من كتبهم: كل ما وقعت عليه الأبصار فهو من الله غيره. وهناك خبر يروونه عن محمد بن سنان الزاهري، وقد دخل عليه سبعة عشر رجلاً كلهم يدعي أنه بلغ الذروة في العلم والتوحيد، نختصر الخبر لطوله فنذكر ما فيه الحاجة، قال لهم ابن

---

(١) لما كان الإمام عليعليه السلام أفصح العرب، فقد أولوا قول الرسولﷺ هذا بأنه خاطبه بلسان عربي مبين، وزاد آخرون فقالوا: هذا إظهار لعظمة الإمام علي ورفع لمقامه وشأنه وأنه كان عند الله عظيماً، وجاء في كتاب صحيفة الأبرار، أن الرسولﷺ رأى في معراجه عند ساق العرش الإمام فقال له: اسبقتني إلى هنا يا علي؟ كما تورد هذه الصحيفة أن الرسولﷺ بعد رجوعه رأى علياً فحدثه بكل ما جرى بينه وبين ربه، ويؤول أصحاب مذهب التجلي هذا الخبر بقولهم: لا ريب أن الله سبحانه تمثل أو تجلى بعبده محمد كصورة الإمام علي، برهانه: خاطبني بلسان علي.

(٢) كتاب الأصيفر لـ محمد بن شعبة الحراني، وقوله هذا: الناسوت يلتزم الصورة لأنها من نوعه واللاهوت تدل عليه دلالة تضمين، للتباين بين اللاهوت والناسوت، فالقدرة تظهر من صورة، واللاهوت كله قدرة.

سنان: أتوحدون الله؟ قالوا له: نعم نعرفه ونوحده، قال لهم: إن الله ظهر بالظاهر امتحاناً منه لخلقه -يريد ظهور الباري متجلياً- ولم يكن لظهوره بالظاهر حقيقة، وإنما ظهر لتكون له الحجة على خلقه، فقالوا له: الظاهر خلاف الباطن، والباطن خلاف الظاهر؟ قال لهم: نعم؟ هذا هو الحق، لأن الحجاب خلاف المحتجب به، والقدرة خلاف الناسوت، وهو البيوت التي نطق منها الرب، ثم قال: إن الله لا تدركه الأبصار بل هو يدرك الأبصار، أليس الله باطناً محتجباً؟ قالوا: نعم. فقال: الباطن المحتجب هو الله القديم الأزل[1].

ويقول صاحب صحيفة الأبرار: إنه تعالى لا يدرك من نحو ذاته لتعاليه عن منتهى حدود مشاعر المخلوقين، لذلك انحصر دليل العباد عليه في آياته التي أظهرها بخلقه الخلق كي يستدل بها العباد على وجوده وصفاته الكمالية التي ظهرت آثارها في صنع المخلوقين من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والحكمة والكبرياء والعظمة وأشباهها التي وصف بها نفسه فعلاً وقولاً، وندب عباده على معرفته ووصفه بها، وجعلها آية وعنواناً لهم ليتوجهوا بها اليه.

ولم يكتف بالبيان القولي في ذلك، لأن البيان الشهودي[2] أتم وأكمل، والجمع بينهما أكمل منه وهو تعالى لا يختار المرجوح على الراجح مع قدرته عليه، وقد أخبر عن هذا البيان في كتابه العزيز بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ... الخ.

---

(١) كتاب الحقائق وهو كتاب مخطوط لعلي بن الحسن بن شعبة الحراني، وهو صاحب كتاب تحف العقول الشهير، وهذا الكتاب جيد الفائدة، كما أن المؤلف محدث وفقيه كبير كما يظهر من تآليفه، وأخباره وأحاديثه كلها مسندة عن ثقاة معروفين بالصدق والتواتر، وتوفي هذا المحدث الفقيه في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

(٢) المقصود عندهم بالبيان الشهودي كما يبدو لي هو التجلي بالصورة مشاكلة، وهذا كما أرى هو بعينه أحد علمائهم وفلاسفتهم جمال الدين بن معمار الصوفي في كتابه المخطوط المسمى تقويم الأسماء حيث يقول: والصورة الحسية أوكد في الذهن و أوضح...الخ.

والمستدلون والمستدل بهم على الله هم الخلق، وعليه يكون ما خلقه الله دليلاً عليه بحيث لا يمكن في الإمكان إيجاد أكمل منه، والممكن لا يكون غنياً بالذات أبداً، كما أن الواجب لا يكون فقيراً بالذات أبداً، وإلا لانقلب الممكن واجباً، والواجب ممكناً وهذا محال.

والشعاع بصدوره عن إشراق الشعلة الذي هو مثل فعل الصانع لا ينقلب شعلة بل هو دائماً شعاع محتاج إلى الاستمداد للوجود من الشعلة التي صدر عنها ولا بقاء له بدون مددها[1].

وأرى أن عند أكثر العلماء والفلاسفة الصوفيين القائلين بالتجلي: كابن عربي، والفارض، والشبلي، والجنيد، والمكزون، والحلاج، وماهان الآبلي، وغيرهم كثيراً.

عند هؤلاء: إن محمداً وآل بيته المعصومين كانوا أدلاء على الألوهية، من حيث إنهم تحلوا بجميع الصفات التي تستدعي عصمتهم: كالعلم والحكمة والصدق، والوفاء، والعدل، والكرم، والعفة، واللين، إلى آخر هذه الصفات العالية التي لم تجتمع بغيرهم من البشر، وهذا ما أجمع عليه الرواة والمحدثون بالتواتر دون أن يذكروا في أحد منهم نقيصة أو عيباً أو نقيضاً لتلك الصفات.

وعلاوة على هذا فإنهم أعطوا -كما يقال- اسم الله الأعظم، ثم نطقوا بالغيب ولم يخطئوا، وعند البعض، إن اسم الله الأعظم: هو تجلي العلم والقدرة والحكمة والنطق بالغيب، وعند آخرين - كما روي- أن اسم الله

---

(١) المراد هنا بالشعاع عندهم - كما أرى- نور الحقيقة المحمدية، وآل بيت النبوة المعصومين، والمراد بالشعلة: نور الباريء سبحانه، فيكون تأويله عندهم: إن نور محمدﷺ وأنوار بيته وأبنائه الاثني عشر عليه وعليهم الصلاة والسلام متصل أبداً بنور علتهم، ومنه المدد الدائم لكل ما علموه وفعلوه من علم وقدرة وحكمة وعلم غيب.

الأعظم: هو الإمام علي عليه السلام أو ولايته، كما جاء في كتاب (مشارق الأنوار) للحافظ البرسي.

ويشرحون ذلك بقولهم: أن تكون ذوات الأئمة الاثني عشر المعصومين بالنسبة إلى أمر الله سبحانه كالصورة في المرآة القائمة بإشراق الشاخص المقابل، فلا تكون مستغنية عن مدد الايجاد طرفة عين، وتكون تلك الكمالات كلها لله تعالى أولاً وبالذات(١).

لذلك يقولون: هم مظاهر صفات الله ومصادر أحكامه وأفعاله، فالصفات على الحقيقة صفات الله(٢) والأفعال أفعاله لم يزل متفرداً بها، ولكنه يظهرها على يد من يشاء من خلقه، فهو يجريها على يد حججه، وتكون معجزة خارقة، (ولكل معلول علة) فالله سبحانه أبدع خلقاً واحداً منيراً، والمنير(٣) لم يكن بغير أشعة، ولكن الأشعة تكون أدنى رتبة من ذي الشعاع لمن تبصر بعين العقل والحقيقة، قال الإمام علي عليه السلام: ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه(٤)، وهذه معيّة قيومية لا معية حلول واتحاد، فصاحب الولاية الكلية قد ملأ بظهوره القيومي آفاق القوابل فيظهر لمن يشاء فيما يشاء وكيف يشاء، من المرايا الكونية، من غير أن يشوب ظهوره هذا شيء من شوب تلك المرايا فهو كمثل أشعة الشمس الواقعة على الزجاجات الملونة، فنور الشمس لا تغيير فيه إذا عكسته الزجاجات بلونها.

---

(١) صحيفة الأبرار -للعلامة محمد تقي التبريزي-.

(٢) يقول العلماء الصوفيون موحدون إذا كان لله صفة فهي هو لأنه سبحانه منزه عن الأسماء والصفات، ويضيفون بقولهم: إن الإبداع الأول هو موقع اسمائه وصفاته، ولكن المراد به عند بعضهم (التجلي) علماً وقدرة وحكمة... الخ.

(٣) المراد عندهم بالإبداع المنير: العقل الأول، الحقيقة المحمدية، وأشعته آل بيته الطاهرين الذين نفى القرآن عنهم الرجس بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، والمطهر من الرجس معصوم من الخطأ.

(٤) نهج البلاغة للإمام علي.

والتجلي عندهم معروف بديهياً لا يشكون فيه، ومن حججهم أن أكثر آيات القرآن نزلت لأسباب ومسببات، وقد نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فقالوا جاء في تفسير القرآن،وأسباب نزول هذه الآية: هو أن أكابر المشركين في قريش اجتمعوا في دار الندوة ووجدوا على الباب شيخاً، فاعترضهم ابليس بصورة ذلك الشيخ، فلما رأوه سألوه من أنت؟ فقال لهم: شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم عليه فأردت أن أحضركم ولم يعدمكم مني رأي ونصح، فدخل معهم، وقالوا: انظروا في شأن هذا الرجل يريد الرسول ﷺ فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، فهو كأحدهم، فقال الشيخ النجدي. لا والله ما هذا لكم برأي، فقال آخر: اخرجوه من اظهركم واستريحوا منه، فقال الشيخ النجدي: ولا هذا برأي، ثم قال أبو جهل: لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه، قالوا: وما هذا الرأي؟ قال: نأخذ من كل قبيلة شاباً ونعطيه سيفاً فيهجمون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد، فإذا طالبت بنو هاشم بدمه يتوزع على قبائل قريش كلها، ولا يستطيعون حرباً، فقال الشيخ النجدي: هذا هو الرأي الصحيح[(١)].

وقد استطاع ابليس أن يتجلى بصورة ذلك النجدي، فأتى جبريل وأخبر الرسول ﷺ بما عزم عليه المشركون وقدروه، وعندئذٍ هاجر الرسول ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق (رضه) ونام علي عليه السلام في فراش الرسول ﷺ ليوهم المشركين أن الرسول هو النائم في الفراش، وحينئذٍ نزلت الآية بهذا السبب، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. . . . الخ.

---

(١) تفسير الجلالين.

قال عبد الحميد بن أبي الحديد شارح نهج البلاغة: إن نوم علي عليه السلام في فراش الرسول ﷺ هو مكر الله، ولكن القائلين بالتجلي: يقولون: مكر الله في هذه الآية: تجليه قدرة وعلماً وحكمة وقوة بعلي معتبرين هذه الآية من الأدلة القاطعة على مذهبهم أيضاً. ويضيفون قولهم: كيف يجوز لإبليس ويستطيع أن يتجلى كما يريد؟

والخالق سبحانه هو القادر على كل شيء، لا يجوز أن يتجلى بصفات القدرة والعلم والحكمة والعدل لعباده امتحاناً لهم وإيناساً؟ ألا إن هذا لشيء عجاب؟؟

ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال: لقد باهى الله سبحانه ملائكته بعلي، وأرسل جبريل فنام عند رأسه وميكائيل نام عند رجليه.

وبما أن أصحاب هذا المذهب يقولون: - كما أرى ويرى القارىء- يقولون: بوقوع التجلي في علي وأبنائه المعصومين عليه وعليهم السلام - فلا بدَّ من المرور على شيء مما قيل فيهم وعنهم، أكان وحياً في القرآن الكريم، وكان مأثوراً عن الرسول ﷺ أو جاء عنهم أنفسهم وصدقه التواتر والواقع، علنا نجد ما يدعو إلى التأمل والحيطة والتفكير.

٥- فضل علي وأفضليته على لسان الوحي:

جاء في كتاب (علي في القرآن) تأليف العلامة السيد صادق الشيرازي:

أنه قد نزلت ثلاثمائة آية من القرآن الكريم في علي، وقد سجلها قلم المؤلف آية الله مع ذكر الكتب التي نقل عنها. وذكر أصحابها والذين نقلوا عنهم بالاسناد المتواتر.

وقد ننقل منها بضع آيات فقط حرصاً على الإيجاز فإن كتابنا لا

يستوعبها، ويكفي من هذا العقد درة واحدة لمن يتبصره فكيف إذا تعددت ؟

قال الفقيه الحنفي الحاكم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) قال: رسول الله ﷺ: إن القرآن أربعة أرباع، فربع فينا أهل البيت خاصة، وربع في أعدائنا وربع حلال وحرام، وربع فرائض وأحكام. إن الله أنزل في علي كرائم القرآن[١].

قال يزيد بن رومان: ما أنزل في حق أحد ما أنزل في علي من الفضل في القرآن[٢]، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لقد نزلت في علي ثمانون آية صفوا في كتاب الله ما يشركه فيها أحد من هذه الأمة[٣]. وقال ابن عباس: نزلت في علي أكثر من ثلاثمائة آية في مدحه[٤]، قال صاحب كتاب (علي في القرآن) العلامة صادق الشيرازي: واعتمدت أكثر الشيء فيما نقلته على ثلاثة كتب هي: (شواهد التنزيل) للفقيه الحنفي الحاكم الحسكاني، و(غاية المرام) للسيد هاشم البحراني، مما نقلته من كتب العامة فقط، ولم أنقل عنه ما نقله من كتب الشيعة و(ينابيع المودة) للعالم الحنفي الحافظ سليمان القندوزي، علاوة على ما نقلت من تفرقات كثيرة من عشرات الكتب الأخرى، ولم أتعرض لذكر آيات وردت بحق علي بن أبي طالب عليه السلام في كتب الشيعة، مما لم أجد له مصدراً من تفاسير وكتب

---

(١) شواهد التنزيل ج١ ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ينابيع المودة ص ١٢٦، وفي هذا الكتاب بالاسناد عن ابن عباس مرفوعاً عن الرسول ﷺ قال: يا علي، ما مثلك في الناس إلّا كمثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في القرآن، من قرأها مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، وكذا أنت، من أحبك بقلبه فقد أخذ ثلث الإيمان، ومن أحبك بقلبه ولسانه، فقد أخذ ثلثي الإيمان، ومن أحبك بقلبه ولسانه ويده، فقد جمع الإيمان كله، والذي بعثني بالحق نبياً لو أحبك أهل الأرض كما يحبك أهل السماء لما عذب الله أحداً منهم بالنار، ينابيع المودة ص ١٢٥.

العامة، ليكون كتابي هذا متمحضاً في منقولات العامة، وكثيراً ما كانت أحاديث كثيرة واردة من طريق العامة في بيان نزول آية بحق أمير المؤمنين عليه السلام، غير أني اقتصرت منها بحديث أو حديثين فقط على الأغلب من غير استيعاب، روماً للاختصار. . .

بسم الله الرحمن الرحيم الفاتحة

روى الحافظ سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي المتوفى ١٢٩٤ هجرية في كتابه ينابيع المودة قال: وفي الدر المنظم لابن ابي طلحة الحلبي:

لا أعلم أن جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي هي تحت الباء، ثم قال: قال الإمام علي كرم الله وجهه: أنا النقطة التي تحت الباء[١].

يقول المؤلف الشيرازي: لعل المقصود بذلك هو أن الباء بلا نقطة يكون حرفاً مهملاً لا دلالة له على شيء، فـ (بسم الله الرحمن الرحيم) بلا نقطة الباء لا تعني شيئاً ولا تدل على شيء.

وهكذا منزلة علي بن أبي طالب بالنسبة للقرآن، فعلي هو القرآن الناطق[٢] الذي بدونه لا يتم الإيمان بالقرآن، وبجهاده استقام الإسلام - كما في الحديث النبوي الشريف- وبولايته أكمل الله الدين، وأتم الله على عباده النعمة، ورضي بها لهم الإسلام ديناً، بحكم قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٣].

(١) ينابيع المودة، ص ٦٩.

(٢) أورد القندوزي هذا قال: قال الإمام علي رضي الله عنه: أنا القرآن الناطق، ينابيع المودة ص ٦٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

فالدين بدون ولاية علي بن أبي طالب ناقص، والنعمة بدون ولاية علي بن أبي طالب نعمة ناقصة، والإسلام بدون ولاية علي بن أبي طالب ليس إسلاماً.

وأخرج الحافظ القندوزي هذا، عن الحكيم الترمذي محمد بن علي في شرح الرسالة الموسومة بالفتح المبين، قال ابن عباس(رض) يشرح لنا علي عليه السلام نقطة الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ليلة فانفلق عمود الصبح وهو بعد لم يفرغ الخ[1]..

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: أخرج ابراهيم بن محمد الحمويني (الشافعي) في فرائد السمطين، روى بإسناده عن خثيمة الجعفي، عن ابي جعفر، قال: سمعته يقول: نحن خيرة الله، ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله[2]، وروى الثعلبي في تفسيره (كشف البيان في تفسير القرآن) في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال مسلم ابن حيان: سمعت أبا بريدة يقول: (صراط محمد وآله)[3].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة ٢٧٤).

روى العلامة البحراني عن أبي المؤيد موفق بن أحمد الحنفي (بإسناده المذكور) عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه قال: كان لعلي أربعة دراهم فأنفقها واحداً، وواحداً نهاراً، وواحداً سراً وواحداً علانية، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾... الخ وأخرج هذا الكثير من المحدثين[4].

---

(١) ينابيع المودة ص ٧٠.
(٢) غاية المرام ص ٢٤٦.
(٣) غاية المرام ص ٢٤٦.
(٤) غاية المرام ص ٣٤٧، الخازن في تفسيره ج٢ ص ٢٠١ فرائد السمطين ج١ ص ٦٧، الفصول المهمة الفصل الأول.

وعن عكرمة بالإسناد عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] إلّا وعلي أميرها وشريفها، ثم قال عكرمة: إني لأعلم أن لعلي منقبة لو حدثت بها لنفدت أقطار السماوات والأرض[2].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾... الخ[3] روى القاضي شهاب الدين بن حجر العسقلاني (الشافعي) في إصابته بسنده عن الأخضر ابن أبي الأخضر أن النبي ﷺ، قال: أنا أقاتل على تنزيل القرآن وعلي يقاتل على تأويله[4].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾... الخ (آل عمران / ١٠٣).

روى العلامة البحراني عن صاحب كتاب (المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة) ابي عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن حنبل (امام الحنابلة) عن ابن المبارك بن مسرور (بإسناده المذكور عن سعد بن جبير، عن عبد الله بن العباس، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي فقال: يا رسول الله سمعتك تقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ فما حبل الله الذي نعتصم به؟ فضرب النبي ﷺ في يد علي وقال: تمسكوا بهذا فهذا هو الحبل المتين[5]، وروى العلامة القمي في سفينته، عن الزمخشري صاحب التفسير وغيره بإسناده عن النبي ﷺ، قال: فاطمة مهجة قلبي، وابناها ثمرة فؤادي، وبعلها نور بصري، والأئمة من ولدها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٧.

(٢) شواهد التنزيل ج١ / ٢١ الدر المنثور الجزء الأول.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٤) الاصابة في تمييز الصحابة ج١ ص ٢٢ ورواه أبو ذر وأبو سعيد الخدري، كنز العمال ج ٦ ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٥) غاية المرام ص ٢٤٢.

أمناء ربي - حبل ممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.. الخ (آل عمران ١٠٢)

اخرج الفقيه الشافعي محمد بن يوسف بن محمد الكنجي في كفايته عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ما في القرآن آية فيها يا أيها الذين آمنوا إلّا وعلي رأسها وأميرها[2].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء ٨٠).

روى العلامة البحراني عن ابن شهر آشوب من طريق العامة عن أبي طالب الهروي بإسناده عن علقمة وابي أيوب قالا: إن النبي ﷺ قال لعمار في حديث: يا عمار إن علياً لا يردك عن هدى، ولا يردك إلى ردى، يا عمار طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله، وروى هو أيضاً عن مسند احمد بن حنبل (بإسناده المذكور) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: إنه من فارقني فقد فارق الله، ومن فارقك فقد فارقني[3].

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾... الخ (الأعراف ١٧٢).

روى العلامة الحلي عن جمهور علماء السنة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.. الخ. أنه قال رسول الله ﷺ: لو يعلم الناس متى سمي علي أمير المؤمنين ما أنكروا فضله، سمي أمير المؤمنين وآدم

(١) سفينة البحار ج ١ ص ١٩٣.
(٢) كفاية الطالب ص ٥٤. حلية الأولياء ج ١ ص ٦٤.
(٣) غاية المرام ص ٤٠٣ - ٤٠٤، غاية المرام ص ٥٤٢.

بين الروح والجسد، قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، فقال الله تعالى: أنا ربكم، ومحمد نبيكم، وعلي أميركم[1].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف ٤٤).

روى الحاكم الحسكاني قال: اخبرنا أبو عبد الله الشيرازي بإسناده المذكور، عن محمد بن الحنفية عن علي قال: في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأنا ذلك المؤذن[2].

وروى هو أيضاً عن فرات بن إبراهيم الكوفي (بإسناده المذكور) عن ابن عباس قال: إن لعلي بن أبي طالب في كتاب الله اسماء لا يعرفها الناس، قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، فهو المؤذن بينهم، يقول: ألا لعنة الله علي الذين كذبوا بولايتي، واستخفوا بحقي[3].

عندما دخلنا في هذا الموضوع، موضوع فضل وأفضلية الإمام علي عليه السلام على لسان الوحي وعدنا بنقل بضع آيات من القرآن الكريم، فقط إيجازاً للموضوع، وعليه فقد اقتصرنا على ما وعدنا به،رغم أنه نزل به ما يزيد على السبعمائة آية بالنقل الصحيح المتواتر، وكلها تدل على عظمة الإمام عليه السلام، وما أتينا به من تلك الآيات نقطة من بحر ولمحة من شعلة، وقبس من نور، فهو كاف للاستدلال على ما لم نأت به، ومن أراد الزيادة فعليه بكتاب (علي في القرآن) نعم اقتصرنا على ما نقلناه لنترك مجالاً بنقل

---

(١) دلائل الصدق، نقلاً عن العلامة الديلمي في الفردوس.
(٢) شواهد التنزيل ج١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
(٣) ينابيع المودة ص ١٠١.

بعض ما خصه الرسول ﷺ به من الأحاديث التي تدل على عظمة هذا الرجل الفريد الذي لا يماثل ولا يطاول.

وما خصه الرسول به من المدح والثناء هو وحي من السماء كما عبرت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[١].

ولا نحتاج أن نطيل الكلام حول هذا المعنى المعروف عند الجميع، ويكفي أن نعرض بضعة احاديث عن الرسول ﷺ وحسبنا بها برهاناً ودليلاً على الفضل والفضيلة، وبالقليل عن الكثير، فضل علي وأفضليته في أحاديث الرسول ﷺ.

أجمع المحدثون والمفسرون أن الحديث كله وحي وبخاصة ما جاء في علي عليه السلام ولا يجوز إلّا كذلك ولو كان غير ذلك ما سأل سائل بعذاب واقع[٢] بعد بيعة الغدير.

فماذا قال الرسول ﷺ في علي عليه السلام؟ قال في حديث طويل: أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة[٣]، وقال ﷺ: إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني اسرائيل، من دخله غفر له[٤]. وقال ﷺ: علي بن أبي طالب باب حطة من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً[٥]، وقال ﷺ في حديث: والذين فروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم: يعني كفروا وكذبوا بالولاية وبحق علي[٦] وبالاسناد المرفوع عن ابن عباس قال

---

(١) المائدة ٦٧.

(٢) وفي هذه البيعة قال الإمام عمر (رضه) لعلي: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

(٣) غاية المرام ص ٥٤٤.

(٤) مجمع الزوائد للحافظ الهيتمي الشافعي.

(٥) كنز العمال ج ٦ ص ١٥٣.

(٦) غاية المرام ص ٤١٦.

سمعت رسول الله يقول: معاشر الناس من أحب أن يعرف الحجة بعدي فليعرف علي بن أبي طالب، معاشر الناس من سرّه أن يقتدي بي فعليه أن يتوالى ولاية علي بن أبي طالب والأئمة ذريتي[١].

وقالﷺ: قسمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطي علي تسعة أجزاء والناس واحداً[٢].

روى العلامة البحراني عن الفقيه الحنفي أبي المؤيد موفق بن أحمد الخوارزمي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي يعلى، قال: قال رسول اللهﷺ، لعلي: أنت العروة الوثقى[٣].

وبالإسناد مرفوعاً عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ لعلي بن أبي طالب: أنت الطريق الواضح، وأنت الصراط المستقيم، وأنت يعسوب المؤمنين[٤].

نقل العلامة القبيسي عن الإمام جعفر محمد بن جرير الطبري شيخ المفسرين والمؤرخين عند أهل السنة حديثاً مسنداً إلى زيد بن أرقم عن رسول اللهﷺ أنه قال في خطبة الغدير: معاشر الناس، قولوا ما قلت لكم، وسلموا على علي بإمرة المؤمنين، وقولوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله... فإن الله يعلم كل صوت ويعلم خائنة كل نفس[٥].

---

(١) وقد ذكر في المناقب المئة لعلي بن شاذان، وفي غاية المرام ص ٢٤٤.

(٢) شواهد التنزيل، البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣٥٩، جاء الحديث بعد ذكر آية: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، غاية المرام ص ٢٤٤.

(٤) شواهد التنزيل ج ١ ص ٥٨.

(٥) كتاب ماذا في التاريخ ج ٣ ص ١٥٦.

روى المحب الطبري (في ذخائر العقبى) عن أبي الخميس قال: قال رسول الله ﷺ: أسري بي الى السماء، فنظرت إلى ساق العرش الأيمن فرأيت كتاباً فهمته محمد رسول الله، أيدته بعلي، ونصرته به[1].

قلت: بعد أن أتينا ببضعة أحاديث عن الرسول في الإمام علي عليه السلام ـ وأحاديثه فيه كثيرة تكاد لا تحصى، وذلك لكثرة مواقفه الرائعة التي كان يقفها في سبيل نصرة الدين منذ طفولته وحتى استشهاده، زد على ذلك حبه للرسول واسلامه قبل غيره من سائر البشر الذكور وقد قال عليه السلام: نزل الوحي على الرسول يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء، وقد اكتفينا بما نقلناه وذكرناه، فكتابنا هذا لا يستوعب الزيادة، وقد يكون ما ذكرناه ضوءاً للمطالع والمستزيد، وما علينا بعدئذٍ إلّا أن نستمع إلى بعض ما قاله عليه السلام عن نفسه، أكان مما أخرجه للناس على سبيل الحكمة والعلم، أو ما دل به على معرفته من مجهول ومساتير غيبته فوق العلم والمعرفة البشرية.

٦- ما كان يتكلم الإمام علي عليه السلام فيه عن نفسه، من علم ومساتير غيبية

قال عليه السلام: انا عبد الله وأخو رسول الله ﷺ، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلّا كاذب، آمنت قبل الناس سبع سنين[2] وبرهاناً على قوله: روى ابن عدي في الكامل عن حذيفة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيد علي

---

(١) ذخائر العقبى، ص ٦٩، وفي كتاب تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان، هامش تفسير الطبري ج٦ ص ١٩٤-١٩٥. للعلامة النيسابوري نظام الدين في تفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.. الخ نزلت في فضل علي بعد بيعة الغدير، وفيها قال الرسول ﷺ من كنت مولاه فهذا علي مولاه... الخ وقد لقي عمر علياً فقال له: هنيئاً لك يابن ابي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

(٢) فضائل الخمسة ج٢ نقلاً عن الخصائص.

فقال: هذا أول من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمة(١).

بالإسناد عن عبد الله الجدلي، قال: دخلت على علي عليه السلام، فقال: يا أبا عبد الله، ألا أنبئك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنة، والسيئة التي من جاء بها أكبه الله في النار، ولم يقبل له معها عملاً؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين. قال: الحسنة حبنا، والسيئة بغضنا(٢). وفي بعض خطبه عليه السلام يقول: أنا الشاهد يوم الدين، وأنا النبأ العظيم(٣) وعندي علم المنايا والقضايا والبلايا، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده، لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة وتضل مئة، إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت من أهله موتاً، قال عبد الحميد بن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بشرحه هذا النص: قد امتحنا أخباره فوجدناها موافقة، واستدللنا بذلك على صدقها، وذلك بكثير من الحوادث والأمور التي أشار اليها، وحصلت كما أخبر عنها، ونحن الآن نلفت اليه نظر المطالع في المجلد الثاني من نهج البلاغة، وفي مواضيع متقاربة فليقرأها هناك مفصلة، ثم قال: كم له من الأخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى مما لو أردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة، وكتب السيرة حافلة بها(٤) وتشتمل عليها مشروحة بتآويلهم الكثيرة.

ومن خطبة له عليه السلام قال: لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه

---

(١) فضائل الخمسة ج٢ نقلاً عن الكامل.

(٢) شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٢٦.

(٣) قال عمرو بن العاص وهو من ألد اعدائه: هو النبأ العظيم وفلك نوح وباب الله وانقطع الخطاب.

(٤) كلام الشارح: دليل على أن كلامه عليه السلام في الغيبيات كثير متواتر وصحيح غير مستنكر، وكلامه أننا امتحنا أقواله فرأيناها صادقة لوقوعها كما أخبر عنها قوة مع رأي القائلين بـ(التجلي).

ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله ﷺ، إلّا وإني لمفضية إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه[1].

قال ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الجمل: اقسم عليه السلام أنه لو شاء أن يخبر كل واحد منهم من أين خرج وكيفية خروجه من منزله، وأين يلج وكيفية ولوجه وجميع شأنه من مطعمه ومشربه، وما عزم عليه من أفعاله، وما أكله وما ادخره في بيته وغير ذلك من شؤونه وأحواله لفعل، ولكن خاف من الغلو فأفضاه إلى الخاصة[2]. الذين لديهم الاستعداد لتقبله والنضوج لتأويله[3]. وهو القائل: هلك فيّ اثنان، محب غال ومبغض قال، وقال عليه السلام: يهلك فيّ اثنان محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق.

وجاء في صحيفة الأبرار وفي بحار الأنوار أنه عليه السلام قال: معرفتي بالنورانية معرفة الله، ومعرفة الله بالنورانية معرفتي.

وقال عليه السلام في إحدى خطبه: وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيره.

علق على هذه الجملة الأستاذ لبيب وجيه بيضون بقوله: اثبت العلم الحديث باستخدام الهزهزات الصوتية، أن الأذن البشرية تتحسس فقط بمجال معين من الاهتزازات، وهي التي يقع تواترها بين ١٥ هزة في الثانية و١٥٠٠ فإذا كان تواتر الصوت أقل من ١٥ هزة في الثانية، ولعل هذا هو المقصود بلطيف الأصوات، وكبير الأصوات[4].

---

(١) هذا دليل على أن كتمان الأسرار عمن لا يحتملونها واجب ضروري.

(٢) الخاصة هم الذين لديهم استعداد لتقبله وحمله ولديهم النضوج العقلي والصفاء الروحي.

(٣) قال المكزون السنجاري: فأجبتهم هل عاقل يرمي الكنوز بغير حرز.

(٤) تصنيف نهج البلاغة -تأليف لبيب بيضون، وقد يستغرب المطالع من أين للامام عليه السلام هذا العلم الذي لم يكن معروفاً في تلك العصور؟ ولعله من علم لدني، كما يقال، وله في هذا القدح المعلى، والذي فاق به على البشر جميعاً.

وقال عليه السلام في إحدى خطبه: وكل بصير غيره يحمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام.

علق المؤلف لبيب بيضون فقال: كثير من الحيوانات لا ترى الألوان، بل ترى الصورة سوداء وبيضاء فقط، أما الإنسان فإنه يرى الألوان السبعة التي هي ألوان الطيف المنظور والتي تنحصر أطوال موجاتها بين ٠,٤ مكرون (البنفسجي) وبين ١,٨ مكرون الأحمر.

أما الأضواء التي تقع أطوال موجاتها خارج هذا المجال، فإن الإنسان يراها، ومنها الأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء، اذاً فقدرة الإنسان البصرية محدودة.

أما الله تعالى فهو يرى كل جسم وكل لون مهما كان نوعه أو لطافته[١].

ومن أقواله المشهورة عليه السلام وقد كان جالساً على نهر الفرات وبيده قضيب فضرب به على صفحة الماء وقال: لو شئت لجعلت لكم من الماء نوراً وناراً[٢].

علّق الأستاذ بيضون فقال: لم يفصح الإمام عن مضمون كلامه، بل أجراه مجرى الرموز، وذلك لأن عقول الناس في ذلك الزمان لا تتحمل أكثر من هذا، وفي قوله عليه السلام: لجعلت لكم من الماء نوراً وناراً، دلالة خفية إلى ما في الماء من طاقة يمكن أن تولد النور (وهو الكهرباء) والنار (وهي الطاقة الحرارية) وإذا تعمقنا في النظرة وجدنا أن الماء يتركب من عنصرين هما: الهيدروجين والأوكسيجين، الأول قابل للاحتراق وإعطاء النور، والثاني يساعد على الاحتراق ويعطي الحرارة، كل هذه المعاني

(١) تصنيف نهج البلاغة ص ٣١٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٢.

الدقيقة والأسرار العميقة تضمنها قول الإمام علي﴿ع﴾ وعلمه، وهو القائل: بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة-أي- كاضطراب الدلو في البئر، ولو جئنا على العشر من عناوين أقواله فقط كما وسعها كتابنا هذا فاقتصرنا على ما سجلناه وهو غيض من فيض[١].

٧- ضرورة الالتزام بما جاء به الرسول﴿ص﴾ أو جاء عنه:

كل من عنده مسكة من إيمان أو ذرية من إسلام لا يعتريه شك في القرآن، وأنه كتاب لا ريب فيه تنزيل من حكيم حميد، وأن من نزل عليه هو رسول الحق ونبي الصدق، لا ينطق عن الهوى، فكل ما جاء به وحي يوحى علمه شديد القوى.

وباعتباره﴿ص﴾ هو الداعي إلى الله، والهادي والمنذر والبشير والسراج المنير الذي اختاره الله دون سائر البشر لتبليغ رسالته ووحيه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وباعتباره الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى - على لسان الوحي -﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٢] وباعتباره هو الناصح للخلق من قبل الحق، وأفضل الخلق وخير الخلق، والموجه والمعلم والمرشد للخلق، والقرآن كما رأينا نص على وجوب الأخذ بكل ما يقوله، وهو لم يقل شيئاً -باتفاق جميع المسلمين- إلّا بتعليم ووحي من ربه.

وقد أمر الله سبحانه بإطاعته والائتمار بأمره والانتهاء بنواهيه، لأن

---

(١) قال﴿ع﴾ في خطبته المسماة القاصعة: ولم يجتمع بيت واحد في الإسلام غير رسول الله﴿ص﴾ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه﴿ص﴾ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال﴿ص﴾: هذا الشيطان قد آيس من عبادته، انك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا أنك لست بنبي.. ولكنك وصي نبي.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

أمره امر الله ونهيه نهي الله، وقد كرر الوحي هذا كثيراً، كرره حفظاً على أوامر الرسالة من النسيان والضياع، وخوفاً من الانحراف عن منهجيتها ومعالمها، وليكون الرسول ﷺ هو الدليل والدال، والخلق المستدلين، فيما يقول ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾[4]... وغيرها الكثير من مثل هذه الآيات في القرآن التي جاء بها الوحي آمراً باتباع الرسول ﷺ والأخذ بأمره ونهيه وجميع أقواله وإشاراته، وهو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يميل عن نهج رسالته السماوية وما أوحي اليه[5].

وعليه فلا يجوز العدول عما يقول ويأمر وينهى ويحجره والمخالف له مخالف بالله سبحانه وهنا لم يبق للمسلم المؤمن من خروج عما يقوله ﷺ إلّا إذا ارتد عن الإسلام ومرق منه مروق السهم من الرمية، ﴿...وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾... الخ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[6]. اذاً فقد وجب الأخذ بجميع أقواله المرموزة الواضحة

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٥) لما كانت طاعة الرسول ﷺ طاعة الله سبحانه، كان من البديهيات أن مخالفته الله كما هو مساس بالضرورة، وعليه فلا يمكن العدول عنها بتاتاً- قال حجة الإسلام الغزالي: من كذّب الرسل بشيء مما جاء به فقد كفر وخرج عن الإسلام.
(٦) سورة النساء، الآية: ٦٥.

المكنونة الصريحة ولا مندوحة بعدئذٍ عما جاء به من وحي في كتابه أو حديث عنهﷺ كما أنه لا مندوحة من الاعتراف بأحقية مذهب القائلين (بالتجلي) ووجهة نظرهم عملاً بما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف، كما مرّ ورأيت في هذا البحث وهو القليل من الكثير يوردونه استغنينا عن ايراده حرصاً على الايجاز مرة أخرى.

مع العلم: أن ليس كل القائلين به استمروا على طريقة واحدة تؤدي إلى نقطة معينة، فمنهم من انحرف وقال (بوحدة الوجود)[1]. التي ينكرونها

---

(١) نظرية وحدة الوجود يقول بها بعض المتصوفة، وعلى رأسهم ابن عربي، وهي النظرية التي تقول: إن ما ثم موجود على الحقيقة سوى الله، أما العالم بكل ما يحويه، فليس وجوداً حقيقياً، بل هو ظل أو خيال للوجود الحق، وهو الخير المحض، كما كان يقول (أفلاطون) من قبل، ومن هنا كان ابن عربي يقول يخلو العالم من وجود شر أصيل فيه وحرية الإنسان واختياره ومسؤوليته عن أفعاله ما دام علم الله السابق بما سيفعله كل أحد من الناس ولا يؤثر ولا يتعارض مع حرية الإنسان، فالإنسان ليس شريراً بطبعه، بل إنه خلق مجبولاً على الخير، فروحه لا بد أن تكون طاهرة بحسب أصلها فالخير فيها أمر ذاتيّ لا عارض، والجسم الذي قبل التسوية والعدل لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾، طاهراً أيضاً لأنه قبل التسوية والعدل، فالنفس خير بطبيعتها، وهي ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور، ولجهلها بالحكم المشروع، فالله يلهمها الخير والشيطان يلهمها الشر، فالله الخير المحض لأنه هو الوجود المطلق الذي يقابل العدم المحض الذي هو شر المطلق، ولما كان العدم المحض لا وجود له، اذاً فلا وجود للشر المطلق، فالخير في العالم أصيل وذاتي، أما ما نراه فيه من شرٌ فليس إلّا أمراً عارضاً قال تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وقل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، ويدعو ابن عربي في خاتمة كتابه (الفتوحات المكية) لمن يظن به خيراً ولمن لا يظن به خيراً وينادي بالتسامح والإخاء اللذين حققهما الإسلام، قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ ويحتج ابن عربي لرأيه بما جاء في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨﴾، فإنهم لم يظهروا في عالم الشهادة إلّا على ما كانوا عليه في عالم الغيب، فعلم الله ليس سبباً وليس مؤثراً، إن جميع الكائنات تطالب بنعمة الوجود والله يوجدها بقدرته وفقاً لعلمه وحكمته، وطبائع الأشياء هي التي تحدد أفعالها، وعلم الله لا يؤثر في هذه الطبائع بل يعملها على ما هي عليه سواء كانت في حالة الإمكان أم في حالة الوجود الفعلي، وطبيعة الإنسان الذاتية هي التي تجبره على الاختيار، ويقول ابن عربي بين نوعين من الإيمان: إيمان بالحق وإيمان بالباطل، فالمؤمنون بالحق هم الذين قال الله

ويعتبرون القول فيها خروجاً على المذهب، كذلك كل منهم من لا يحترم الأحكام الفقهية، ويرى الشريعة من خط العوام، والحقيقة من خط الخواص، وهذا لا يجوز في مذهبهم لا شرعاً ولا حقيقةً، ولا عقلاً، كما أن كثيراً من أصحاب مذهب التصوف القائلين (بالتجلي) والرؤية اتهموا بالحلول والاتحاد المخالف لقاعدة المذهب وأصولها.

ذلك الاتهام الذي جرّه عليهم إفراطهم في القول (بالتجلي) كقول أحد فلاسفتهم (هو حقيقة كل شيء وعين كل شيء، سوى تقييد الشيء وتعيينه) فلفظة ضمير الشأن يعني بها (الله) فقد استبعدوا هذا القول حتى عرضوه وقابلوه مع قول الإمام علي عليه السلام حيث يقول: لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق، ويقول أيضاً: ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج[1] فرأوا القولين يتفقان معنى ومقصوداً.

كذلك وجدوا من باب الإفراط قول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ومن بدا لخلقه ظاهراً ... بصورة الآكل والشارب

ولو بقي هنا واكتفى لهان الأمر تأويلاً، ولكن ما فتىء أن قال من مقطوعة أخرى غير السابقة:

وظاهراً باطناً تجلى ... من كل شيء بكل

فيهم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾. والمؤمنون بالباطل فهم الذين آمنوا بالطاغوت وانصرفوا عن الإيمان بالحق، وعلى هذا الاساس يمكن القول بأن المسلمين لا يهزمون إلّا إذا آمنوا بالباطل، وكفروا بالحق، فقد هزموا في أحد عندما عصوا الرسول وتركوا أماكنهم وانصرفوا عن الحق إلى الباطل، وكذلك هزموا في حنين يوم أعجبتهم كثرتهم، وكثيراً ما يهزم المسلمون بسبب خوفهم من الموت وتكذيبهم ما جاء في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، وهكذا -القرآن الكريم- نظرة عصرية، بقلم محمود قاسم عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة.

(١) نهج البلاغة للإمام علي، شرح ابن أبي الحديد.

يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري مني لي ؟

وكقول ابي يزيد البسطامي: ما في جبتي إلّا الله.

فمثل هذا القول أو الاعتقاد يستنكرونه ولم ينطبق على قاعدتهم، ومثل هذه الأقوال وإن لم يقصد صاحبها الحلول أو الاتحاد الذي يتنافى مع معتقدهم، فإنه يوهم ضعفاء العلم والمعرفة أن المراد منه الحلول والواحدة والاتحاد، كذلك فهم لا يذهبون والفارض بقوله:

ويجمعنا في المظهرين تشابه وليست لحالي حالة بشبيهة

ولا مع ابن عربي بقوله:

ونزّهه وشبّهه وقم في مقعد الصدق

وكن في الجمع إن شئت وان شئت ففي الفرق

وعلى كل فلن نستطيع تحليل هذه الآراء ومناقشتها، وأقوال من قال بها الآن في هذا الموجز، ولكن وضعنا عليها رؤوس أقلام، ونهيب بالمطالعين قراءتها في كتب أصحابها المفضلة لتناقش بدقة لعل الفائدة تكون أشمل، والحكم لها أو عليها أوفى وأعدل.

مثل هذه الأقوال يرونها مخالفة لكتابهم، وحديث نبيهم، والمأثور المتواتر والواضح عن إمامهم والمعصومين من أبنائه الطاهرين، فهم لا يعدلون عن النص المتفق عليه في الشريعة ولا المأثور المؤول عندهم في الحقيقة.

٨- علي بن أبي طالب وأبناؤه الطاهرون في نظر شيعتهم ومحبيهم:

علي بن أبي طالب وأبناؤه المعصومون في نظر شيعتهم ومحبيهم وكثير غيرهم من الناس ممن عاصروا الدعوة وصحبوا الرسول ﷺ وصحبوا الامام عليه السلام حتى آخر حياته، ورووا أقوال الرسول فيه، وأقواله هو عن نفسه وعلمه.

في نظر هؤلاء جميعاً - وفي نظر من جاء بعدهم وأخذ بأقوالهم وأحاديثهم، أن الامام عليه السلام مظهر تام أكمل، أو المظهر التام الأكمل.

وقد كان هؤلاء يلتفتون إلى كل حادثة أو شاردة أو واردة، أو نكتة، أو كلمة تقال، وتعني هذا الرجل العظيم، أكانت عن الرسول صلى الله عليه وآله أو منه، أو من أبنائه أو عن أحد ثقاته الصحابة من محبيه، وقد كان هو عليه السلام نظراً لما هو فيه من العلم والمعرفة والقوة والشجاعة والقدرة الهائلة والمكانة الرفيعة من الإسلام ومن صاحب الدعوة صلى الله عليه وآله ومن الأعمال التي لا تماثل وبالأخص لما كان له من المعارف الإلهية التي لا يغيب عنها شيء ولا لها فيه علم يجلوه، زد على ذلك ما كان يطلقه الرسول صلى الله عليه وآله عليه من الفضل والقيم التي تجعله في صفوف الصديقين، وأسمى-قلت: نظراً لهذا كله وخيفة من الغلو فيه، قال: يهلك فيّ اثنان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالاً النمط الأوسط[(١)].

وقد أنقل للقارىء المطلع بعض ما روي بالتواتر الصادق عنه وفيه تأييداً لما ذهبنا اليه من عظمة هذا الرجل الفريد، وعظمة أبنائه الكرام البررة المعصومين.

قلت: إنه كان عليه السلام يخاف من الغلو فيه وبخاصة عندما كان يتكلم عن الغيبيات فيخاف من الاشتراك[(٢)] فينتبه ويقول: أنا عبد الله وأخو رسول

---

(١) نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد.

(٢) قال عليه السلام في إحدى خطبه: لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله إلّا واني لمفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه، وهذا معناه -كما ترى- وجوب كتمان الأسرار عمن ليس لديه استعداد لحملها وفهمها -قال المكزون: فأجبتهم هل عاقل يرمي الكنوز بغير رمز.

الله، يقول: إذا سئل: من أين لك هذا العلم بالغيب؟ فيجيب من ذي علم -وأحياناً يقول: علمنيه رسول الله ﷺ وكثير من كلامه عليه السلام في المغيبات ظهر صدقه في زمانه وبعد زمانه - كما روى بعضهم، وخصوصاً ما جاء به ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة.

والمعروف عند الكثير وبالتواتر عن علماء ومحدثين ومؤلفين ثقاة: أن الرسول ﷺ والأئمة الاثني عشر صلوات الله عليه وعليهم -لهم ما ليس لغيرهم- لأحد من البشر بالنسبة للمعارف الإلهية والقداسة الروحية، والمعلومات الغيبية.

جاء في كتاب نور الأبصار، أن الإمام الكاظم عليه السلام لما حبسه الرشيد، دخل عليه القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة ليسألاه ويختبراه عن مكانه في العلم، فجاء بعض الموكلين، وقال له: إن نوبتي قد انتهت اليوم وأريد الانصراف فهل من حاجة لأقدمها لك غداً؟ فقال الإمام: لا حاجة لي فانصرف.

ثم التفت لأبي يوسف وصاحبه، وقال: يسألني هذا الرجل أن أكلفه حاجة غداً، وهو ميت في ليلته، وهنا قام أبو يوسف وصاحبه ولم يسألاه شيئاً وقالا: جئناه لنسأله عن الفرض والسنة، فأخذ يتكلم بالغيب، ثم أرسلا من قبلهما رجلاً يقف على باب دار الرجل، وبعد برهة جاءهما بخبر موته[١].

فالأئمة عند أصحاب مذهب التجلي معصومون عن الخطأ والزلل، وهم الذين باهى بهم الرسول ﷺ وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

(١) نور الأبصار كتاب يتضمن كرامات ومعاجز ومناقب الرسول والأئمة الاثني عشر - من آل بيته وهو (للعلامة المصري الشبلنجي).

﴿تَطۡهِيرٗا﴾[1]، ولا شك أن المطهر من الرجس معصوم عن الخطأ والزلل، والغلط والخطل في القول والفعل والعمل، وهم الذين قالﷺ فيهم بوصيته حال مرضه: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، فجعلهم كالقرآن لن يضل من تمسك بهم، وهم يعلمون تنزيله وتأويله، وأولهم أخوه ووصيه وخليفته الإمام علي عليه السلام[2].

وأيضاً تعال معي أيها القارىء لأتلو عليك، أو لنتلو معاً: للبعض من الأحاديث المأثورة عن الرسولﷺ التي يوردونها في علي عليه السلام والقليل ينم -ولاشك- عن الكثير إذ لا نستطيع إيرادها كلها في هذا الموجز.

وهم يحتجون بها -نتلوها معاً بعد أن علمت أن كل ما قاله الرسولﷺ وحي يوحى، والمخالف له مخالف لله سبحانه، كما عند الجميع، ولا تنس ما قرأت سابقاً بعنوان (علي في القرآن) وما قاله فيه الرسولﷺ وما قاله عليه السلام في نفسه أيضاً، وإذا نسيت فارجع له، قالﷺ لعلي عليه السلام: أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبي بعدي، وقالﷺ: إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة، وقالﷺ في موقعة الأحزاب عندما برز الإمام لعمرو بن ود

---

(١) جاء في كتاب (القرآن، نظرة عصرية جديدة، بقلم طالب الحسيني الرفاعي) قال: إن آية التطهير من الرجس نزلت في أصحاب العباءة الخمسة وهم الذين باهى بهم النبيﷺ، وقال: أجمع الناس على هذا، وتواترت روايات السنة والشيعة عليه فما يزيد على السبعين حديثاً، وقال: إن الرواية التي ذكرها ابن جرير في أن المراد بلفظ (البيت) في الآية (أزواجه) يدحضها ما روي عن عائشة وأم سلمة، من صريح اختصاصها بغير نسائهﷺ ووجود الآية بين تلك الآيات التي نزلت بنساء النبي في سورة الأحزاب، لا يعني نزولها مع تلك الآيات ولا في زمانها، وإنما وضعت بأمر النبيﷺ... الخ.

(٢) قالﷺ: عندما سئل عن القرآن: أنا أعلم بتنزيله، وعلي أعلم بتأويله، ورويت بشكل آخر: أنا أعلم بتنزيله وخاصف النعل أعلم بتأويله، يقولون: كان علي عليه السلام وقتئذٍ يخصف نعلاً للرسولﷺ وقد تواتر الحديث بهذا الشكل والحديث - كما أرى- يحتاج إلى تأويل وتأمل، لأن القرآن، لا يعلم تأويله إلّا الله..؟؟ وقيل عن ابن عباس، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾... الخ.

العامري: (برز الإيمان كله إلى الشرك كله) وإن قتل علي عليه السلام لابن ودّ تساوي عبادة الثقلين.

وقال صلى الله عليه وآله: عليّ بمنزلة رأسي من بدني.

وقال صلى الله عليه وآله: أنا المنذر، وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدي المهتدون.

وقال صلى الله عليه وآله: مكتوب على ساق العرش: لا إله إلّا الله محمد رسول الله أيدته بعلي ونصرته بعلي.

وقال صلى الله عليه وآله: لا يحبك يا علي إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا كافر.

وقال صلى الله عليه وآله: من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، والى آدم في علمه، والى ابراهيم في حلمه والى موسى في فطنته، والى عيسى في زهده، فلينظر إلى علي بن أبي طالب(١).

وقال صلى الله عليه وآله في بيعة الغدير: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره... الخ...

وهذه البيعة -كما هو معلوم- جرت في حجة الوداع، وكان نزل على الرسول قبلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾... الخ.

وبعد البيعة نزلت الآية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، ويقول أكثر المحدثين والمفسرين إن هذه آخر آية نزلت من القرآن الكريم(٢).

---

(١) يقولون إن هذا الحديث يصرح بأن علياً جمع الصفات التي تحلى بها جميع الأنبياء، فتأمل.

(٢) نقلنا هذه الأحاديث عن مراجعات العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، وهي محققة بالتواتر الصادق عند جميع المسلمين، وفي هذا الكتاب كثير مثلها، ولكننا اكتفينا بها حرصاً على الإيجاز.

يقول أصحاب مذهب التجلي من محبي الإمام علي عليه السلام: يتساءل القارىء لمثل هذه الأخبار، ويقول: ما هي الأسباب الداعية لإعطاء الامام عليه السلام كل هذه الميزات التي فاقت الميزات البشرية كلها، أو بالأحرى: ما أعطيها غيره من البشر، ومعلوم: أن الرسول صلى الله عليه وآله ما قال

وروي أن الرسول ﷺ، قال عند نزولها: اليوم تمت النعمة (قالها مرتين) كما يروى عن عمر بن الخطاب (رض) أنه قال: بخ بخ لك يا أبا الحسن، لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ويدل ويؤيد أنه هكذا قال: ما روي أنه أرسل اليه اثنين يتقاضيان فقال أحدهما: العند هذا نذهب؟ فصدمه بقوله: ويحك هذا مولاي ومولاك.

ثم يروون حديث الطير الذي أهدي للرسول ﷺ فقال ﷺ: اللهم آتني بأحب خلقك إليك ليأكل معي من هذا الطير، وكان علي عليه السلام غائباً، وجاء مفاجأة وأكل مع الرسول ﷺ والخبر طويل يرويه (ابن الجوزي) فمن أراده فليطالعه هناك[1].

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين: إن كل من كان بصيراً مستبصراً برسول الله ﷺ وحكمته البالغة ونبوته الخاتمة فقدرا قدره في أفعاله وأقواله، وان لا ينطق عن الهوى، ومن كان لا تفوته مقاصد السنين، والأحاديث ولا تخفى عليه لوازمها، يعلم أن تلك السنين والأحاديث قد أعطت (علياً) من المنازل المتعالية ما لا يجوز على الله تعالى وأنبياؤه إعطاؤها إلّا لخلفائهم وأمنائهم على الدين وأهله..الخ.

هذا إلّا بأمر من ربه، ويبالغون فيقولون: اذاً فلم يبق إلّا أنه ﷺ يومىء تلويحاً على معنى التجلي بالعلم والقدرة والحكمة، و إلافكيف يقول: عن القرآن: أنا أعلم بتنزيله وخاصف النعل أعلم بتأويله - والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويقول ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدي المهتدون، والهادي هو الله، بلسان القرآن، والله يهدي إلى الحق...؟؟.

(١) ويحتج الفيلسوف ابن مكزون السنجاري بحديث الطير فيقول مشيراً إلى التجلي:

إذا المولى لعبد صار سمعاً — وعيناً في الرضا ويدا ورجلا
فلم ذا في الأحب اليه تفنى — مقالة من يقول به تجلى

كما يشير بأول البيتين إلى الحديث القدسي: ما زال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت أذنه السامعة وعينه الباصرة ويده ورجله الساعية، وهو بعد هذا يستغرب كيف يكون الباري عين العبد الذي يحبه وأذنه ويده ورجله، ولا يمكن أن يتجلى بقدرته.وعلمه وفي أحب خلقه اليه؟.

ولكن يزيدون فيقولون: إن لم تكن تدل على التجلي بالمطابقة الواضحة فهي تومىء اليه بالدليل العقلي، ولعل اللزوم بيّن فيها بالمعنى الأخص الذي أعطى علياً كل الفضائل والقيم التي لم يعطها إلّا نبي أو وصي نبي، فكيف: وقتل عمرو بن ودّ العامري يساوي عبادة الثقلين؟

كيف برز الإيمان كله إلى الكفر كله، ؟ كيف جميع الصفات النبيلة التي تحلى بها الرسل وأولو العزم جمعها وتحلى بها علي بن أبي طالب، كيف، كيف ؟؟؟ وما تأويل ذلك ؟ دلونا يا ذوي الألباب، وأنصفونا بالتأويل والدليل ؟؟ هكذا يقولون.

جاء في كتاب صحيفة الأبرار رواية حذيفة بالاسناد: أن النبيﷺ، قال: إن حجة الله هو (علي) وهو حبل الله المتين، وعروته الوثقى التي لا انفصام لها..

وفيها أيضاً قالﷺ: يا علي، لولانا ما خلق الله آدم ولا حواء ولا جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض، فنحن أفضل من الملائكة إذ سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسبيحه وتهليله وتكبيره[1].

وفي الصحيفة أيضاً مسنداً عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سألت النبيﷺ عن حاله وحال الأوصياء في الولادة، فسكت ملياً ثم قال: يا جابر لقد سألت عن أمر عظيم، لا يحتمله إلّا ذو خط جسيم: إن الأنبياء والأوصياء مخلوقون من نور عظمة الله جل ثناؤه يودع الله أنوارهم

---

(١) من هذا الحديث - كما أظن- أخذ عبد الحميد بن أبي الحديد قوله في إحدى قصائده السبع التي مدح بها الامام:

والله لولا حيدر ما كانت الـ ... دنيا ولا جمع البرية مجمع

من أجله خلق الزمان.. الخ وقوله:

يا علة الدنيا ومن بدو كونها ... له وسيتلو البدو في الحشر تعقيب

أصلاباً طيبة، وأرحاماً طاهرة، يحفظها بملائكته ويربيها بحكمته ويغذيها بعلمه، فأمرهم يجلّ عن أن يوصف وأحوالهم تدقّ عن أن تعلم لأنهم نجوم الله في أرضه، وأعلامه في بريته وخلفاؤه على عباده، وحججه على خلقه، يا جابر هذا من مكنون العلم، فاكتمه إلّا عن أهله، المفهوم من قوله: فاكتمه إلّا عن أهله، أن أهله هم الخاصة ولديهم الاستعداد لتقبله وحمله.

وعن الباقرعليه السلام، رواية جابر بن يزيد الجعفي مسندة.

قال: يا جابر أكان الله ولا أكون معه، ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول فأول ما خلق خلقه هو محمدصلى الله عليه وآله، وخلقنا أهل البيت من نور عظمته، فأوقعنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا زمان ولا ليل ونهار ولا شمس ولا قمر، يفضل نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس، نسبح الله ونقدسه ونحمده ونعبده حق عبادته[1].

وقال فيهم الرسولصلى الله عليه وآله: أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها ضل وهوى، وقالصلى الله عليه وآله: أهل بيتي فيكم مثل باب (حطة) في اسرائيل، من دخله كان آمناً وغفر له.

وفي القرآن الكريم، قالصلى الله عليه وآله: هم العروة الوثقى والصراط المستقيم وحبل الله المتين - قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، فهم حبل الله يعني حبهم وولايتهم، وهم أهل الذكر بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) صحيفة الأبرار، محمد تقي الدين التبريزي.

(٢) المصدر نفسه.

وقال ﷺ: اجعلوا أهل بيتي فيكم ومنكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلّا بالعينين[١].

قال الصادق عليه السلام: يا مفضل، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾، يا مفضل، إن من في السماوات هم الملائكة، ومن في الأرض هم الجن والإنس وكل ذي حركة، فمن الذي عنده؟ نحن الذين كنا عنده، ولا كون قبلنا ولا حدوث، ولا سماء ولا أرض، ولا ملك ولا نبي ولا رسول، وهو المحجب ونحن حجبه[٢]، وهو المشيء ونحن الشيء، وهو المعنى ونحن أسماؤه وحجبه قبل الحلول في التمكين -قبل حلول أرواحنا وأنوارنا في الأجسام والأعراض، وقبل أن نوصف بالبشرية والصور والأجسام، والأشخاص كائنين لا مكونين أجساماً وصوراً- ناشئين لا متناسلين[٣].

ثم قال الصادق عليه السلام: إن لنا من الله منزلة إذا كنا بها كنا نحن كهو، وإذا لم نكن بها كنا نحن كما نعلم وهو كما هو، وقال عليه السلام: اجعلوا لنا رباً نؤول اليه وقولوا في فضلنا ما شئتم[٤].

---

(١) كتاب الشرف والمؤبد للشيخ يوسف النبهاني رواه مرفوعاً عن أبي ذر عن الرسول ﷺ، وهذا الحديث يدل دلالة قطعية أنهم طريق الهدى من الضلال وطريق الصلاح من الفساد وطريق الخير من الشر، وهذا الخبر نقله العلامة السيد عبد الحسين في مراجعاته، وقد أهيب بكل من يريد الوصول إلى الأصول من معرفة الأئمة والرسالة المحمدية أن يطالع هذا الكتاب ففيه الحقائق المدروسة المدققة والحجج الثابتة القاطعة عن طريق المؤالف والمخالف، أضف إلى ذلك إلى ما في الكتاب من العلم والفقه.

(٢) المقصود بجملة هو المستجيب ونحن حجبه، تجلي الباري بصورهم النورية قبل عالم التمكين، هذا كما فهمت من الخبر.

(٣) المعنى: أن أجسامهم من طينة خاصة أنقى وأرقى من المادة طينة البشر، وفي رواية: أن طينة شيعتهم من فضل طينتهم، كما ورد عنهم، ويمكن إن يكون المراد غير ذلك فتأمل.

(٤) هذان الخبران من الأخبار الهامة التي يتمسك بها كل شيعي أو محب لآل بيت الرسول بالنسبة

٩- عودة إلى بعض الفِقر والجمل والمقاطع التي كان يتكلم بها الإمام خلال خطبه:

ولنا أن نعرج ونعود إلى بعض الفِقَر والجمل والمقاطع التي كان الامام عليه السلام يعرضها إظهاراً لقدرته وعلمه وهي مما يستند عليها أنصار مذهب التجلي كبرهان مع القائلين بالتجلي حيث كان عليه السلام يتكلم بها مشيراً إلى علمه وعظمته ومعرفته بما كان وما يكون.

قالوا: لما كان عليه السلام صادقاً على لسان الوحي ولسان الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، وقد قال فيه ما قال، وتصدقه الآيات الكثيرة التي نزلت به في القرآن الكريم، وأعطته السبق في كل مجال من مجالات الإعظام والتعالي والفضيلة.

كما أعطته الإيمان كله بحديث الرسول صلى الله عليه وآله: برز الإيمان كله الى الكفر كله، فامتثالاً لما ورد من الكتاب وما ورد من الحديث الشريف الذي لا يتطرق اليه الشك ولا يترك مجالاً في النفس يجعلها تتردد أو تتشكك فتستبعد أو تستنكر تجلي الأفعال الربوبية على يد تلك الشخصية الفردية التي كان نورها، وآدم بين الماء والطين، والإلهية في قدرته وعلمه وحكمتها وعدلها وقضائها، تلك الشخصية هي علي بن أبي طالب الذي قال: (ما كذبت ولا كذبت) وأنا النبأ العظيم. نعم امتثالاً لما ورد وتصديقاً به نقول: فهل يجوز أن يقول ما لا يقال، وهو من هو - من العلم والأخلاق والفضيلة والدين وجميع ما يتحلى به الأنبياء من فضائل،

لعظمتهم وعلمهم بالغيب، وحجة يتمسك بها القائلون بالتجلي، إذ يقولون: ما هي هذه المنزلة التي إذا كانوا بها كانوا كهو، وإذا لم يكونوا بها، كان هو كما هو وهم كما هم؟؟ هل هي غير اعطائهم من ربهم القدرة والفعل فيقدرون بها ويعملون بها؟.؟. وخوفاً من الغلو فيهم حينئذٍ قالوا: اجعلوا لنا رباً نؤول اليه وقولوا في فضلنا ما شئتم، اي لا تجعلونا أرباباً، إذا رأيتم منا قدرة خارقة يعجز عنها سوانا.

والأوصياء من مناقب، والبشرية من أصالة وكرم ونبل[١]، كلا، وألف كلا؟؟ فهو لا يقول إلّا حقاً ولا ينطق إلّا صدقاً.

وقد جاء (بالاسناد) في صحيفة الأبرار، وفي بحار الأنوار، أنه قال عليه السلام: معرفتي بالنورانية معرفة الله، ومعرفة الله بالنورانية معرفتي.

ومن أقواله عليه السلام وقد دخل عليه الحارث الهمداني مع نفر من الشيعة، وبعد كلام بينهم، قال له الحارث: زادني داء وعللاً يا أمير المؤمنين اختصام الناس وحتى أصحابك فيك، فمن مبغض قالٍ، ومن محب غالٍ، ومن مترددٍ مرتاب فما يدري، أيقدم أم يحجم؟.

فلو كشفت عن قلوبنا الرين، وجعلتنا في ذلك على بصيرة من أمرنا؟

فقال له: إنك امرؤ ملبوس عليك، إن دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية الحق فاعرف الحق تعرف أهله، يا حادر: إن الحق ما أقوله: اني عبد الله وأخو رسول الله، فنحن الأولون، ونحن الآخرون، وأوتيت فهم الكتاب، وفصل الخطاب، وعلم القرون والأسباب[٢] وأنا قسيم الجنة والنار[٣].

وقال عليه السلام: أنا الشاهد يوم الدين، وأنا النبأ العظيم[٤]، وعندي علم المنايا والقضايا والبلايا، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده، ولا تسألونني عن شيء فيما بينكم، وبين قيام الساعة، ولا عن فئة تهدي

---

(١) روي أن رجلاً من أعدائه، جاء معاوية فقال معاوية: من أين أتيت؟ قال له: من عند أبخل الناس، قال معاوية: ويلك من هو؟ قال له: من عند علي، فقال معاوية: كيف يكون أبخل الناس، وهو القائل: لو كان عندي بيت من تبن وبيت من تبر لنفد التبر قبل التبن؟ مع العلم أن معاوية من ألدّ أعدائه وأعداء الله. (والتبر الذهب).

(٢) أوتيت: دلالة على أنه عليه السلام أتاه من ذي علم، فالقدرة في الله ذاتية، وفي غيره مستعارة، وكذلك العلم.

(٣) روي أن رجلاً من أعدائه عابه في أبيه، قال له: أتفخر وأبوك أبو طالب في النار؟ فأجابه الامام عليه السلام: كيف يكون في النار وأنا قسيم الجنة والنار؟.

(٤) قال عمرو بن العاص وهو من ألد أعدائه: هو النبأ العظيم وفلك نوح وباب الله، وانقطع الخطاب.

مئة وتضل مئة، إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت من أهلها موتاً.

قال عبد الحميد بن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بشرحه هذا النص: قد امتحنا أخباره فوجدناها موافقة واستدللنا بذلك على صدقها، وذلك بكثير من الحوادث والأمور التي أشار اليها وحصلت كما أخبر عنها، وقد ذكرها وسماها هذا العلامة وأشار إلى مواقعها بعينها ونحن نلفت إليها نظر المطالع، وهي في المجلد الثاني من مجلدات النهج كلها أو أكثرها، وفي مواضع متقاربة فليقرأها هناك مفصلة إذا شاء.

ثم قال هذا الشارح العظيم: كم له عليه السلام من الأخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى مما لو أردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة، وكتب السيرة حافلة بها[1]، وتشتمل عليها مشروحة بتآويلهم الكثيرة، ومن خطبة له عليه السلام قال: لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله ألا وإني لمفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه، قال ابن ابي الحديد في شرحه هذه الجمل:

أقسم عليه السلام: أنه لو شاء أن يخبر كل واحد منهم من أين خرج وكيفية خروجه من منزله وأين يلج وكيفية ولوجه، وجميع شأنه من مطعمه ومشربه وما عزم عليه من أفعاله وما أكله وما ادخره في بيته، وغير ذلك من شؤونه

---

(١) كلام الشارح ابن أبي الحديد: دليل على أن كلامه عليه السلام في الغيبيات كثير متواتر وصحيح غير مستنكر، وكلام الشارح أيضاً: إننا امتحنا أقواله فرأيناها صادقة لوقوعها كما أخبر عنها: قوة ودعم مع القائلين بالتجلي، كما يؤيد قولهم أيضاً ثقة هذا الشارح بكلام الإمام عليه السلام وهو معتزلي المذهب ومن أكابر العلماء والمتكلمين في الاستنباط والتقصي للحقائق والأصول، وكأنه بكلامه يدفعهم للتمسك برأيهم، وهو القائل بالإمام في بعض قصائده السبع مدحاً به:

تقبلت أفعال الربوبية التي ... عذرت بها من شك أنك مربوب
وقد قيل في عيسى نظيرك مثله ... فخسر لمن عادى علاك وتتبيب
وقال: يجل عن الأعراض والأين والمتى ... ويكبر عن تشبيهه بالعناصر

وأحواله لفعل، ولكن خاف من الغلو فأفضاه إلى الخاصة[١]. الذين لديهم الاستعداد لتقبله والنضوج لتأويله[٢].

وهو القائل: هلك فيّ اثنان: محب غالٍ ومبغضٌ قالٍ، وقال: يهلك فيّ اثنان محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حلاً النمط الأوسط فالزموه[٣].

ولكن بالرغم من هذه الوصية وتكرارها فقد غالى به كثير من عباقرة الفكر والأدب والكلام وذوي النضوج العقلي والعلمي شعراً ونثراً وقولاً وروايةً[٤].

---

(١) هذا دليل على أن كتمان الأسرار عمن لا يحتملونها واجب وضروري قال المكزون:

قالوا تكلم بالصريح من الحديث بغير رمـز
فأجبتهـم هل عاقل يرمي الكنوز بغير حرز

(٢) روي أن رجلاً قال للامام الصادق عليه السلام: لماذا رفع الرسول صلى الله عليه وآله: علياً على كتفه ليرمي هبلاً؟ قال له الصادق: ليعرف الناس مقامه ورفعته، فقال الرجل: زدني يا بن رسول الله، فقال الصادق: ليعلم الناس أنه أحق بمقام رسول الله بعده، فقال الرجل: زدني، فقال الصادق: هيهات، فوالله لو أخبرتك لقمت عني وأنت تقول: جعفر بن محمد كذاب في قوله أو مجنون.

(٣) مثل هذا الإفراط هو الذي جعل الآخرين يتهمون محبي علي عليه السلام مع القائلين بالتجلي يتهمونهم جميعاً بالغلو وعبادة الصورة والجسم، وهو الغلو الفاحش والقول بالحلول والاتحاد، وجل الله عن قول أهل الجهل، هذا، ومن القائلين بالتجلي فئة تقول: نحن النمط الأوسط حيث نقول: بأن الصفات الإلهية من علم وقدرة وحكمة وجميع الصفات الحسنى تجلت بعلي فنحن بذلك لسنا مغالين نقول بالتجسيم ولا مبغضين ومعطلين قدرة الله سبحانه فقد يفعل ما يشاء إذا شاء، وفئة أخرى تقول: بل نحن النمط الأوسط، فإننا نقول: أعطى الله علياً من العلم والقدرة والحكمة والقوة ما لم يعطها لأحد غيره بعد محمد صلى الله عليه وآله فالمحب المفرط هو الذي جعله إلهاً وعبده عندما رأى قدرته ومعاجزه، أما المبغض المفرط فهو معاوية وزمرته.

(٤) قال الشافعي:

يـمـوت الـشـافـعـي ولـيـس يـدري عــلـــي ربـــه، أم ربـــه الله

ومكتوب على قبره في النجف الأشرف بيتين من الشعر هما:

أيـا علّـة الايـجـاد حـار بـك الـفـكـر وفـي كـنـه مـعـنـى ذاتـك الـتـبـس الأمـر
لـقـد قـال قـومٌ فـيـك والـسـتـر دونـهـم بـأنـك ربٌّ كـيـف كـشـف الـسـتـر؟

ويقول ابن أبي الحديد:

يـجـل عـن الأعـراض والأيـن والـمـتـى ويـكـبـر عـن تـشـبـيـهـه بـالـعـنـاصـر

ولعل هؤلاء المغالين، لو كانوا أولوا أقواله عليه السلام بفهم وتدقيق على رأي القائلين بالتجلي لأراحوا واستراحوا، ووفروا على أنفسهم وزر القول بالغلو، والقال والقيل، حتى ولو كان المعصوم قال: إلينا يفيء الغالي، وبنا يلحق التالي.

وقد استعضنا بكتابة القليل من أقوال المغالين بالامام عليه السلام بدلاً من الإسهاب والتطويل والكتب القديمة غنية بها، فلتؤخذ من مصادرها لمن يريد.

ومن كلامه عليه السلام: فأين تذهبون؟ وأنى تؤفكون؟ والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنائر منصوبة، فأين يتاه بكم؟ بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن[1] وردوهم ورود الهيم العطاش، وقال عليه السلام: والله ما دحوت باب خيبر بقوة بشرية ولكن بقوة إلهية، ثم قال: أيها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله: إنه يموت من مات وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببالٍ، فلا تقولوا بما لا تعرفون،

ويقول الشاعر المعاصر محمد مجذوب وقد زار قبره بالنجف:

علم الهدى وامام كل مطهر ... ومثابة العلم الذي لا يجمد
ورثت شمائله مكارم أحمد ... فيكاد من برديه يشرق أحمد
تلك العظام أعز ربك قدرها ... فتكاد لولا خوف ربك تعبد

وكثيراً من مثل هذه لأقوال قديماً وحديثاً نستغني عن ايرادها، هنا لشهرتها.

(١) يعني بذلك: الحديث الشريف: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا - كتاب الله، وعترتي آل بيتي، الحديث وقد ذكرناه سابقاً، سئل الخليل بن أحمد ما تقول في الإمام علي؟ فقال: احتياج الكل اليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه امام الكل في الكل.

ومن كلام ابن ابي الحديد المعتزلي في شرح النهج: أما فضائله عليه السلام فإنها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمح له التعرض لذكرها والتصدي لتفصيلها، وما أقول في رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله، وكان كالمسك كلما ستر انتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره، وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة رأته عيون، وعلمه حدث ولا حرج، وقيل في كلامه عليه السلام إنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

فإن أكثر الحق فيما تنكرون واعذرونا واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا[١].

وفي صحيفة الأبرار: ورد أنه قال لسلمان: إن ميتنا إذا مات لم يمت، ومقتولنا إذا قتل لم يقتل، وغائبنا إذا غاب لم يغب، ولا نلد ولا نولد، ولا نحمل في البطون، ولا يقاس بنا أحد.

ومن كلامه عليه السلام في وصف الملأ الأعلى: صور عارية عن المواد، خالية من القوى والاستعداد، تجلى لها صانعها فأشرقت، وطالعها بنوره فتلألأت، فألقى في هويتها مثاله، وأصدر عنها أفعاله.

يقول علماء مذهب التجلي - كما هو وارد في صحيفة الأبرار عند ذكر هذه الجمل، من قول الامام عليه السلام: فالفعل والقدرة لله بشراً ونوراً، ولكن المعصوم يحمل أفعال الربوبية، لأن الله سبحانه اختص المعصومين واختارهم من بريته فأدرأ عنهم أفعاله، ولكن لا على جهة التوكيل ورفع اليد بل على الشبح المرآتي تجلياً.

ولكي نفهم هذا المتوسط بين الإفراط والتفريط، فلننظر أنهم وصفوا أنفسهم عليهم السلام بالنسبة لله عز وجل: بالوجه والعين والأذن واليد والنفس والقلب واللسان والجنب[٢]. وأشباه ذلك من الأوصاف من باب تمثيل

---

(١) قال الشيخ محمد عبده المصري في شرحه نهج البلاغة: يريد عليه السلام أي خذوا هذه القضية عنه صلى الله عليه وآله وهي أنه يموت الميت من أهل البيت وهو في الحقيقة غير ميت لبقاء روحه ساطعة للنور في عالم الظهور، قلت: لعل الشارح أومأ إلى قول الرسول صلى الله عليه وآله: إن الله قد حرم لحومنا على الأرض فلا تطعم منها شيئاً. وقلت لعل القارىء يرى أن كلامهم يفسر بعضه بعضاً، فلا يحتاج إلى من يشرحه، فيعدل عن المراد به، وعن الحقيقة التي يشيرون اليها، فتأمل.

(٢) هذه أسماء محسوسة، والباري تعالى منزه عنها، ولكن لها عندهم صور غيبية نورية مجردة وهي أشخاص روحية قائمة بنفسها، وواجبة بوجوب علتها، فكل اسم وكل صفة لا تليق بكماله تعالى، يرفعونه عنها، وينزهونه عن كل اسم أو صفة، معتبرين الأسماء والصفات حدوداً، ومن وصف الله فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد ثنّاه، ومن ثناه فقد جزأه،

الأنوار المعقولة بالصور المحسوسة، وهم لا يقولون إلّا حقاً وصدقاً، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟.

وأزيد القارىء والمطالع ختاماً لهذا البحث: إن أكثر علماء هذا المذهب وفلاسفته الصوفيين الذين أخذوا معلوماتهم بما تحققوه في القرآن وسنة الرسول والمأثور عن آل البيت والأصحاب الأوائل الأفاضل قالوا: كما استنتجت عنهم: أن عالم الشهادة ظلال عالم الغيب، وشرحوا ذلك وأسهبوا، فجعلوا الكل محسوس صورة مجردة غير محسوسة، وقالوا: إن الحسيات معابر للعقليات، وما في عالم الشهادة دال على ما في عالم الغيب، وما غاب عنا لا نراه ولا نعلمه، إلّا بما حضر لدينا، ولذلك جعلوا لكل كائن غيبي صورة كائن محسوس يدل عليه، فكان عندهم للروح صورة، وللعقل صورة، وللإيمان صورة، وللصلاة صورة، وللصوم صورة، وللزكاة صورة، وللحج صورة، وللجهاد صورة، وللعرش صورة، وللكرسي صورة، وللشيطان صورة، وللرحمن صورة... الخ.. إلى قولهم: في كليات ما يرى وجزئيات ما يعرف، وقد لا يختلف قولهم هذا مع رأي الغزالي الذي ذكرناه في البحث الأول إلّا باللفظ تقريباً، وقد

ومن جزأه فقد أشار اليه، ومن أشار اليه فقد جهله، وهكذا نقلاً عن الامامعليه السلام في تنزيه الباري تعالى، وجل الله عن التحديد والتعديد، وعن كل ما لا يليق بكماله، لذلك فهم يوقعون الأسماء والصفات على غيره تنزيهاً له، لأنه تعالى ليس صفة تنال، ولا حدّاً يضرب به الأمثال.

جاء في بحار الأنوار، الجزء الثالث ص ٩٠ سئل الإمام جعفر الصادقعليه السلام عن المتشابهات كاليد والجنب والوجه وما أشبه فقال: إن الجسم محدود متناهٍ، والصورة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً، فقال السائل: فماذا أقول: قال له: قل: لا جسم ولا صورة وهو مجسم الأجسام ومصور الصور، لم يتحيز ولم يتناه، ولم يتزايد ولم يتناقص، لو كان كما يقولون، لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق.

يلتقون أيضاً مع الفلاسفة الآخرين القائلين: إن للسماوات نفوساً مطلعة على جزئيات هذا العالم، وإن المراد باللوح المحفوظ نفوس السماوات، وهي الملائكة السماوية، وربما يقصدون: إن الله سبحانه جعل لهذه النفوس التصرف بما دونها في الرتبة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾؟ أما الملائكة الكروبيون المقربون فهي العقول المجردة، وقد تقدم شيء من هذه المعاني بألفاظها، ولعل هذا القول والتعليل عند أولئك العلماء هو المقصود بالتشخيص ويكاد يكون لدي قناعة كبيرة في صحته وهو وجه وجيه لما ذهبوا اليه[1].

وسبق قولنا: إن كل قول ليس له شاهد من كتاب الله أو من أحاديث الرسولﷺ أو أثر عن معصوم فهو لغو لا يؤبه له، ولا يؤخذ به، قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾؟

---

(١) فالأسماء المحسوسة - كما فهمت- لها عندهم أشخاص غيبية مجردة، منها رحمانية، ومنها شيطانية، فعالم الشهادة ظلال عالم الغيب، والمحمود ظله محمود، والمذموم ظله مذموم ولديهم أنهم وصلوا لمعرفة عالم الغيب عن هذا الطريق الذي هو بزعمهم أسلم الطرق، والذي سلكوه - على قولهم - على ضوء ما جاء في القرآن الكريم، وحديث الرسولﷺ وشرح المعصوم ومن شرحهم لكل كائن غيبي صورة كائن محسوس، فالشيطان -مثلاً- صورته الأعمال السيئة والرذيلة، والرحمن صورته الأعمال الصالحة والفضيلة بكامل صفاتها، والجنة صورتها العلم والمعرفة وصفاء النفس والروح، والنار صورتها: الجهل والكدورة، والمسوخية. وهكذا، ولا يبعد أن تشتم من هذا لقول رائحة (المثل) الأفلاطونية، واعتقاد التقمص، وربما تختلف تفسيراتهم هذه باختلاف درجات السلوك، فقد قيل: لاختلاف اسباب الترقي للسالك اختلفت اسماء السلوك والمقامات عندهم، فقد سموا درجات السلوك التي هي كما يقولون: التجليات الإلهية للسالك: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ولأنها تخص رؤية إلبصيرة سموها: شعاع البصيرة وعين البصيرة وحق البصيرة ولأنها من مولدات الإيمان سموها: الفراسة والمشاهدة والمكاشفة، وهي عندهم العقود التي علق الله على توفيتها إحلال بهية الانعام، وهن الفناءات الثلاثة: فناء الافعال، فناء الصفات، فناء الذات. الخ...

ولهذا تراهم يقولون: ما غاب فلا يرى يوشك أن لا يكون شيئاً.

ولكن القرآن فيه المحكم والمتشابه فيجب أن يطلب للآيات المتشابهة محمل صحيح من الكتاب أو ما يشرحها من المأثور مما لا ينافي الضرورة، فإن وجد ذلك، و إلا فيجب الإيمان على سبيل الإجمال بما أريد منها فقط، وقد قيل على لسان الحكماء: الأمور ثلاثة: أمر تبين لك رشده فاتبعه، وأمر تبين لك غيّه فاجتنبه، وأمر استشكل عليك فرده إلى الله.

اجتمعت مرة -على غير موعد- مع العلماء القائلين بوقوع التجلي بصورة الامام عليه السلام وأبنائه عليهم السلام، وتناقشنا الأمر طويلاً، وأخيراً قال لي: أسألك هل يقصد الرسول صلى الله عليه وآله بقوله: أنا مدينة العلم وعلي بابها، إلّا التجلي؟ اي إن هذه الصورة صورة الإمام عليه السلام اشتملت على قدرة ربانية وعلم رباني وصفات ربانية لا مثيل لها عنده غيره فكان بهذه الصفات الربانية باباً لمعرفة الله المنزه عن الصفة والرؤية عن طريق ما أظهره من القدرة والعلم بالغيبيات، وعجيب كيف عدوّه (عمرو بن العاص) يعرف ذلك ويقول به:

هو النبأ العظيم وفلك نوح وباب الله وانقطع الخطاب

ونحن نجهله، أو نعرفه ونؤوله تأويلات أخرى، بينة الخطأ؟ وهو واضح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وأضاف ماذا يعني الرسول أيضاً: أنا المنذر وعلي الهادي، ثم قال: اقرأ وتتبع النص والحديث والأخبار بصفاء وتأمل، وهنا لا بد لك ولكل متأمل من الوقوف على حالات ثلاث: الأولى: الكفر به عليه السلام وبأقواله كلها مع العلم أن الكفر وبأقواله هو كفر بالرسول صلى الله عليه وآله وفي أقواله كلها حيث إنه دعا اليه وقال فيه ما جعله أفضل ما خلق الله تعالى، ومعلوم أن من كفر بالرسول صلى الله عليه وآله وما جاء به فقد خرج عن الدين والإسلام برأي الجميع،

الثانية: أن يقول بألوهية الإمام عليه السلام وهذا يمتنع عقلاً وفعلاً إذ لا يجوز أن يكون الخالق جسماً وصورة ومادة، الثالثة: لم يبق إلّا القول بتجلي قدرة الباري وعلمه في صورة الإمام عليه السلام والتصديق بما قاله صاحب هذه الصورة، ولا شك أن تصديقه هو التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وآله وما جاء به وقاله صلوات الله عليه وآله.

وقرأت للعلامة الشيخ سليمان الأحمد في رسالته المخطوطة قوله: إن علم موالينا الأئمة الطاهرين ليكاد يكون علماً (ذاتياً) فيهم لا بواسطة جفر ولا حرف، ومعجزاتهم لتكاد تكون قدرة (ذاتية) لا بواسطة اسم يتلونه، وكانوا عليهم السلام يجيبون من يسألهم عما يبدو منهم من علم المغيبات، أنه تعلم من ذي علم، ومن الجفر والجامعة، وعما يبدو عنهم من المعجزات، أنه الاسم الأعظم الذي أحضر به (آصف) عرش بلقيس قبل ارتداد الطرف تلافياً من الغلو، وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: إذا كان آصف عنده علم من الكتاب وأحضر به عرش بلقيس قبل ارتداد الطرف، فعندنا نحن علم الكتاب كله فعندنا ما عنده وزيادة.

وأخيراً يرى المتأمل البصير أن كل هذه الروايات والأخبار التي يأتي بها القائلون بالتجلي لا تخرج عن معنى واحد ومقصود واحد وهو: **إن الله سبحانه غيب منيع لا تدركه الأبصار ولا يرى من نحو ذاته فهو نور مجرد لا تستطيع الأبصار رؤيته.**

ولكنه لطفاً بعباده وتأنيساً لهم يتجلى لهم كهم بالعلم والقدرة وأن له سبحانه تجليات كثيرة لا تحصى ولم يزل متجلياً بقدرته، وأعظم تجلياته كان لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله حين خاطبه بلسان علي كما صرح في خبر المعراج، وقد وقع هذا التجلي بصور الأئمة الذين عصمهم وطهرهم من الرجس وعصمهم من الخطأ ووصلهم بقدرته وعلمه وحكمته وأظهر على ايديهم قدرته وعلمه وأفعاله وهو منزه عن الاسم والصفة والنعت، وهذا

معنى قولهم: إن لنا من الله منزلة، إذا كنا بها كنا نحن كهو، وإذا لم نكن بها كن نحن كما نحن وهو كما هو، قولهم خوفاً من الغلو:

اجعلو لنا رباً نؤول إليه وقولوا في فضلنا ما شئتم(١).

---

(١) أنا لا أدري ماذا يقول المطلع على هذه الأخبار المروية بالتواتر عن الأئمة فهو أمام أمرين لا بد من القول بأحدهما الأول: إما إن يكون الأئمة عليهم السلام صادقين، وإما غير صادقين، فإذا كانوا غير صادقين - وأستغفر الله - فيكون كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله عنهم وكله كذب وبهتان، ورسالته - وحاشاه وحاشاها غير صادقة أيضاً، وعليه يكون كل ما جاء في القرآن الكريم هراء، وتكون عقول ومعارف جميع المسلمين فلاسفة وعلماء ضلت وأخطأت سواء الصراط - وأستغفر الله.
الثاني: وأما إذا كان الأئمة صادقين في أقوالهم (وهو الصحيح عندي وعند كل ذي لب) لأن صدقهم يجعل الرسالة والدعوة الإسلامية صادقة، فلا مانع ولا استغراب من تجلي الله بقدرته وعلمه وأفعاله في هؤلاء الكرام البررة عندما وحيثما كانوا ينطقون بالغيب.
ولقائل هنا أن يقول: إذا كان لهم هذه القدرة والعلم والحكمة والقوة فلِمَ نكبوا وقتلوا ولم يزودوا عن أنفسهم ويدفعوا عنهم الشر والأذى والظلم والقتل، ولكن يجاب على هذا الاعتراض - كما يقول اصحاب المذهب - بأن لله حكمة خفية وسنّة الحياة واستمرار الكون يتطلبان وجود عنصري خير وشر، وايمان وكفر، وعلم وجهل، وعدل وظلم..، الخ، وقد أصاب الرسل الكرام والهداة ما أصابهم من الأقوام الذين أرسلوا اليهم، ارسل الله سبحانه موسى إلى فرعون وقال له: قل له قولاً ليناً لعله يذكر أو يخشى، ولم يقل له: قل له وبلّغه، فإذا أطاع ولبى فاتركه، وإن عصى فاضربه ضربة قاسمة قاضية عليه وعلى من اتبعه، هذه الحكمة الإلهية، التي لم يستوعبها الإنسان ولو استوعبها لكان حكيماً، ولله البدأ والمشيئة... ولا اعتراض على ما يفعل.
هذا وقد قرأت مقالاً للأستاذ حسنين كروم، موضوعه: المثالية والسلطة، بعنوان: علي نظرة عصرية جديدة، يقول فيه: يبدو علي عليه السلام بالنسبة الينا كبطل اسطوري أضفت عليه الروايات والأحداث طابعاً تحول بسببه رمزاً لكل مقدس ونبيل في الحياة الإنسانية، ورمزاً لكل قيمة انسانية شريفة يطمح كل إنسان في أن يراها قيد التحقيق، فعلي عليه السلام رمز للشجاعة والبسالة والتضحية ورمز للأخلاق الكريمة والسامية التي يطمح الناس للتجلي بها، ثم هو رمز للشوق الأبدي إلى قوله: وقد اخذت تتعرض عائلته وأبناؤه إلى التقتيل والتنكيل بهم اللاانساني والذي استحقوا بسببه أن يكونوا رمزاً للثورة الدائمة على الظلم والاستبداد - إلى قوله:
وهذه الحلقات المتتابعة في المأساة كأنها (أعمال مقصودة) منهم لتكون فيما بعد (شعلة تضيء للأجيال الآتية طريقها نحو الثورة ضد الظلم والطغيان..).
وقد يبدو للقارىء أن الأستاذ حسنين كروم في مقاله هذا يرى: أن علياً وأبناءه عليهم السلام كانوا أقوى من أن يستكينوا للظلم الذي وقع عليهم، ولكنهم هكذا شاؤوا وأرادوا فتبصر.

١٠- يقول أصحاب هذا المذهب:

ومن هنا يستخلص المطلع المدقق والمجتهد المستبصر: أنهم الاشارة لمن فطن العبارة، وحسبه برهاناً على صحة ما يستنتج وتوضيحاً لما يستنبط ما جاء عن الإمام الحسن العسكريعليه السلام بقوله:

نحن معدن النور وقمص الظهور، وألسن العبارة، ومعدن الاشارة، حجبكم بنا عنه ودلكم منا عليه...

وحسبه معرفة: أن علياًعليه السلام إمامه وإمام الأئمة ومفتاح الرحمة وينبوع الحكمة، وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة، وكفى الله المؤمنين به يقيناً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

وبعد: **لعل المطالع لهذا البحث يبدو له أو يستشف أحياناً، أنني أعطيت بعض الأخبار عناية أو ثقة كبرى، و بعض الآراء قيمة أكبر، فيظن أن هذا جرّه الميل والعاطفة أو التقليد المتبع عند الكثير.**

ولكنني أقول له وبكل صراحة صادقة: إن بعض الظن إثم، وإنني ما قلدت ولا أقلد إلّا على ضوء العقل والبصيرة، وبعد التمحيص والتدقيق، - وقد لا أنكر أن بعض تقاليدنا الدينية طاردت وتطارد كل محاولة نبيلة وسليمة، واصلاح فكري ديني، بالرغم من أن الإسلام جاء لمحاربة التقاليد وحورب بها، فكان الرسولصلى الله عليه وآله كلما طلب من المشركين الإيمان بدعوته يقولون له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ - ويقولون: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وعليه فليعلم القارىء أنني لا أؤمن إلّا فيما جاء به الكتاب الكريم والسنة والمعصوم الذي لا يفارق الكتاب ولا الكتاب يفارقه.

وإذا ارتبت ولم يتضح لي الواقع أعرضه على العقل والروية والمحكم من المأثور، وبعد ثبوته نقلاً وعقلاً وتدقيقاً، لا أتأخر عن تقليده اقتداءً بقول الشاعر:

كن مع الحق كيف كان عياناً وبه عز من باطل التقليد

وقوله أيضاً:

من كابر البرهان في بحثه فذاك لا يحسب انسانا[1]

وليس من السهل الوصول إلى النتيجة الصحيحة بدون تردد أو ارتياب، اللهم إلّا إذا كان هناك ضوء محسوس يستبصر به العقل وتستجليه البصيرة، وتستسيغه الفطرة والذوق السليم.

وبخاصة إذا أبهم الطريق، وادلهمّت السبل واستعصت التجربة والكشف.

ومن المعروف: أن الانزلاق في البحوث الدينية خطورة كبيرة، وانحراف مخيف غير أن الفلسفة الإلهية - والحمد لله- انتصرت على المادة وفلسفتها، وأصبحت واضحة المعالم عندما استضاءت طريق الرسل والهداة الإلهيين والكتب السماوية والمأثور الصادق المتواتر عن المعصومين، ثم استخدمت العقل والبصيرة والوجدان، فتجلت برتبه ودرجاته، رتبة رتبة، ودرجة درجة، كما رأيت في بحوثنا السابقة.

ومن هنا: فلا يخشى على المؤلف المنصف، أو الكاتب المدقق البصير من الانزلاق، ما دامت الطريق واضحة، وهو يكتب بفكر صافٍ وضمير نقي.

وأخيراً: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ

(١) ديوان المكزون السنجاري.

﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ - المائدة.

وقد روى الحاكم وغيره أن أبا ثعلبة الخشني سأل الرسول ﷺ عن هذا المعنى: فقال له: ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك - والله الهادي.

البحث الثالث
فيما قيل في القضاء والقدر والجبر والاختيار والكسب والخير والشر

١- القضاء والقدر:

أعنف مشكلة واجهها العقل البشري هي مشكلة القضاء والقدر، فقد شغلت هذه المشكلة الفكر قديماً وحديثاً، وضل في متاهاتها العقل الإنساني بالرغم من أن الشعلة المنيرة التي منحها الخالق لعبده الإنسان ليسير على ضوئها لبلوغ اهدافه.

وهذه المشكلة لن يلتقي عندها العلماء والفلاسفة والمفكرون على رأي واحد، باعتباره في يد (عالم مجهول) لا يوصل اليه عن طريق حاسة من الحواس، وقد كثرت فيها هزائم العقل وكاد يستسلم، وأكثر العلماء والمفكرين أغمدوا سلاح العقل، ولجأوا إلى القلب دليلاً لمعرفة ذلك العالم المجهول بالحدس والتأمل الوحداني، والرؤى الروحية، ونزعوا منزع (الصوفية).

فقد رأى الكثير أن الاستدلال على وجود (عالم ما وراء الطبيعة) ليس من منطق الفلسفة المبنية على كشف الحقيقة من مواد مسلم بصدقها يراها

العقل ويقنع بها دون اللجوء إلى القلب، كما أن القياس لا يصل إلى نتيجة ترتفع إلى مرتبة اليقين، إلّا إذا كان وراءه قلب يخفق ايماناً، وروح ينطلق صفاءً ويقيناً[١].

٢- النهي عن الجدل والقضاء والقدر:

إن الكلام والخوض في مسألة القضاء والقدر نهت عنه الرسل والهداة والحكماء لأن القضاء والقدر من الغيبيات، ولا يمكن معرفته لبسطاء الفهم، ولا يؤمن الخوض لغير العلماء البالغين الذين وصلت معارفهم العلمية، ومداركهم العقلية إلى معرفة المحكم والمتشابه من الكلام والنصوص، قال الإمام علي عليه السلام وقد سئل عن القضاء والقدر: طريق شائك فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه[٢].

وفي الحديث: نهى النبي ﷺ عن الكلام في القدر فقال: أمسكوا عن القدر، وروى عمر بن الخطاب (رض) أن الرسول ﷺ قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم[٣]. وقال ابن عبد البر في كتاب (جامع بيان العلم) قال: نهى السلف الصالح رحمهم الله عن الجدل في الله جل ثناؤه في صفاته وأسمائه، وأما الفقه، فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر لأنه

---

(١) كان القشيري وهو من أئمة الصوفية، يؤمن بالتوكل ويقول: اعلم أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنفي التواكل بالقلب بعد ما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره، ويقول: هذا اقتداء بالرسول ﷺ حيث قال: (اعقلوا وتوكلوا) قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الخ.

وكان أحد الصوفيين وهو حمدون القصار يقول: التوكل هو الاعتصام بالله تعالى وذلك باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، واعتصام بالله في النتائج.

(٢) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام.

(٣) العقد الفريد: لابن عبد ربه، والمقصود من الخبر أن الرسول ﷺ نهى عن الجدل من لا يعلم المحكم والمتشابه.

علم يحتاج فيه إلى ردّ الفروع إلى الأصول، للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك، لأن الله عز وجل لا يوصف عن الجماعة إلّا بما وصف نفسه، أو وصفه فيه رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة وليس كمثله شيء فيدرك بقياس او إنعام نظر.

وفي كتاب (التمهيد) للشيخ مصطفى عبد الرزاق عن الهروي المتوفى عام ٤٨١ هـ اخرج عن طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: خرج رسول الله ﷺ على اصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال: يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضهم ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدّق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به(١).

واخرج عن أبي الدرداء، وأبي أمامة، وأنس بن مالك وواثلة بن الأصقع، قالوا: خرج الينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين، فغضب غضباً شديداً، لم يغضب مثله ثم انتهرنا وقال: إن الإسلام

---

(١) ذيل المنقذ من الضلال - تحليل الدكتور عبد الحليم محمود، ويروى أن الحجاج بن يوسف كتب إلى الحسن البصري والى عمر بن عبيد والى واصل بن عطاء والى عامر الشعبي، أن يذكروا ما عندهم في القضاء والقدر، فكتب اليه الحسن البصري: إن حسن ما انتهى الينا من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: من الذي دهاك إنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذلك؟.

وكتب اليه عمر بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب: لو كان الوزر محتوماً في الأصل كان الموزور في القصاص مظلوماً، وكتب اليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: كل ما استغفرت الله تعالى منه، فهو منك، وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه، فلما وصلت كتبهم إلى الحجاج قال: لقد اخذوها من عين صافية.

نقلت هذا الخبر عن كتاب (قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام): تأليف العلامة الخبير المحقق البارع الحاج الشيخ محمد تقي التستري.

بدا غريباً وسيعود كما بدا، فطوبى للغرباء فقلنا: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمادون في دين الله وقال ﷺ: هلك المتنطعون - هلك المتنطعون - هلك المتنطعون- أي المتعمقون في البحث والاستقصاء جدلاً، والذين لم يعملوا بما عرفوا، ولم يؤمنوا بما تشابه(١).

وفي كتاب (الحقائق) لابن شعبة الحراني، بالإسناد ونقلاً عن كتاب (الكافي): إن الله علم وشاء وأراد، وقدر وقضى وأمضى، فالعلم متقدم على المشيئة، والمشيئة متقدمة على الإرادة، والإرادة متقدمة على القدر، والقدر متقدم على القضاء، والقضاء متقدم على المضاء، ولله البداء(٢) فيما علم وشاء وأراد وقدر وقضى، فإذا وقع القضاء في المضاء فقد زال البداء(٣).

وفي هذا الكتاب عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك، ما تقول في القضاء والقدر؟ قال: أقول إن الله إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهده اليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم.

وفي هذا الكتاب عن حمزة بن حمران قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام، نخالط الناس ولا نفارقهم، ولا بدّ من القول والكلام

---

(١) كأنه ﷺ يقول: لم تعملوا بالمحكم والمتشابه، ولعلهم جهلوا المتشابه، ولم يعلموا بالمحكم.

(٢) كتاب الحقائق مخطوط لابن شعبة صاحب كتاب (تحف العقول المطبوع). وهو كتاب كثير النفع جليل الأثر.

(٣) البداء: معناه لغةً الظهور بعد الخفاء، وله معنى آخر وهو ظهور رأي جديد لم يكن موجوداً سابقاً، والشيعة تقول بالبداء، ومن أدلتهم عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.. الخ. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ الخ، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.. الخ.

معهم، وها أنا أعرض عليك ما نقول، فإذا كان صواباً ما أمرتنا به وان كان خطأ نهيتنا عنه، فأخذنا بقولك؟ قال: هات ما عندك.

قلت: نقول لهم: إن الله سبحانه لا يكلف العباد إلّا ما آتاهم، وكل ما لا يستطيعون فهو موضوع عنهم، ولا يكون إلّا ما شاء الله وأراد وقدّر وقضى، فقال الامام: هذا ديني ودين آبائي[1].

وفي كتاب العقد الفريد أن رجلاً جاء لعند الإمام علي عليه السلام، وقال له: ماذا تقول في القدر؟ قال الامام: ويحك؟؟ أخبرني عن رحمة الله[2] أكانت قبل طاعة العباد؟ قال: الرجل نعم، قال الامام: أسلم صاحبكم وقد كان كافراً؟، فقال الرجل: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني فيها أقوم وأقعد وأقبض وأبسط؟. قال الامام: إنك بعد في المشيئة.. أما أني أسألك عن ثلاث، فإن قلت بواحدة منها (لا) كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت، فمد القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال الامام: أخبرني عنك أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟

قال الرجل: كما شاء، قال الامام: فخلقك لما شئت أو لما شاء؟ قال الرجل: لما شاء،

قال الامام: فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ فقال الرجل: بما شاء، قال الامام: قم فلا مشيئة لك[3].

---

(١) كتاب الحقائق - المصدر السابق.

(٢) رحمة الله وسعت كل شيء، وهو الرحيم الودود، فرحمته تعالى سابقة لغضبه، اذاً فقد ترك للعبد حرية العمل والفعل عدلاً منه سبحانه، وهذا هو القصد من سؤال الامام عليه السلام، وجوابه.

(٣) هذا الخبر من المتشابهات يجب رده إلى المحكم من أقوال الامام عليه السلام، وكلام الأئمة الذين نقلوا الحقائق ومحصوها، مع أن كلامهم فيه المحكم والمتشابه، أو الذي يحتاج إلى تأويل، والخبر بذاته يدل على أن بعلمه تعالى كل شي ء، ومحيط بكل شيء علماً، لا حول ولا قوة إلّا بالله، ومعناه لا حول للعبد ولا قوة إلّا بحوله تعالى وقوته، والقدرة ذاتية في الله وفي غيره مستعارة، فإذا سلبها الله من أي كان بقي لا حول له ولا طول - والله الواهب وذو القوة...

٣- الناس ومشكلة القضاء والقدر:

تولد عن مشكلة القضاء والقدر انقسام الناس إلى فئات متعددة، وكاد ينحصر انقسامهم إلى فئتين اثنتين هما (الجبرية، والقدرية) من جهة، و(المفوضة من شيعة ومعتزلة) من جهة ثانية، ولكل من الفئتين آراؤها، وأدلتها النقلية والعقلية، وها أنا أنقل للقارىء الكريم آراء وأقوال الطرفين باختصار، وأترك له حرية النقاش بين رأيين مختلفين، ونظرين متناقضين، يناقشهما على ضوء من عقله وبصيرته ووجدانه ومعلوماته، ويمكن أن يطلع على آراء كثيرة، والمهم أن يخرج منها برأي سليم مقتنعاً به كل القنوع آخذاً فيما يقره العدل الإلهي، والعقل والعلم والواقع.

٤- الجبريون:

يقول الجبريون: إن الله سبحانه خلق الإنسان غير مخير، فهو اذاً مجبر على القيام بأعماله على اختلافها، كذلك القدرية يقولون: إن الله سبحانه خلق الإنسان مسيراً، فهو اذاً مجبر، أو قدّر سبحانه عمل كل إنسان منذ أوجده، أو قبل إيجاده ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فالقولان: قول الجبرية والقدرية لا يختلفان في النتيجة، وهؤلاء يحتجون بكثير من آيات الكتاب كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ ـ وكقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[(١)].

كان الجهم بن صفوان وأتباعه يقولون بالجبر المطلق ويرون كل أفعال الناس واقعة بقدر من الله وليس الله إلّا محلاً لما يجريه، وإن الإنسان والجماد سواء لا يختلفان إلّا في المظهر، فمظهر الإنسان أنه مختار، وفي

---

(١) ترجمة حياة المكزون السنجاري للأستاذ حامد حسن.

الحقيقة ليس له اختيار، أما الجماد فمجبر مظهراً وحقيقةً، والأفعال تنسب إلى الإنسان مجازاً كقوله: كتب فلان وأحسن وأساء، وهي مجازات كقولنا: اثمرت الشجرة وطلعت الشمس، فالأفعال جبر، والتكليف جبر، والثواب والعقاب جبر[1].

وتتعرض فلسفة أبي العلاء المعري إلى القول بالجبر أحياناً كثيرة ولكنه يرجع فيقول بالاختيار لنستمع إلى قول وهو (جبري)، أشهد أني رجل ناقص لا أدعي الفضل ولا انتحل، جئت كما شاء الذي صاغني فمن يصفني بجميل يحل، أي يحيل خيره وشره إلى صانعه[2]، ومن حجج الجبريين وأدلتهم العقلية: إن كان الإنسان موجداً لأفعاله وخالقاً لها، وجب أن تكون هناك أفعال لا تجري على مشيئة الله واختياره، ويكون هناك خالق غير الله[3].

---

(١) جاء في كتاب (العقد الفريد): إنه اصطحب مجوسي وقدري فقال القدري للمجوسي: ما لك لا تسلم فالإسلام خير الأديان؟ فقال المجوسي: إن أذن الله في ذلك كان، فقال المسلم: قد أذن الله، ولكن الشيطان لا يدعك، فقال المجوسي: فما علي إذا كنت مع أقواهما؟
قلت: ومعلوم أن المجوس كانوا يقولون بإلهين: إله للخير وهو الله، وإله للشر وهو الشيطان، ومن هنا كان الجواب مفحماً للقدري.

(٢) لزوميات المعري.

(٣) قال الفيلسوف وليم جيمس: إن الإله عقل يشمل سائر العقول وليس منفصلاً عن الكون كما تتصور الديانات التقليدية، ولا هو حال في الوجود كله كما تصورت فلسفة وحدة الوجود، ولكنه إله بينه وبين سائر العقول الفردية قسط مشترك، ولكنه في الوقت نفسه يتميز بفردية مستقلة، فالصورة هي أقرب إلى سلم متدرج من عقول، فعقل أكبر من عقل لأنه يدرك إدراكات هذا العقل ثم يزيد عليه، ثم عقل ثالث أكبر من هذا العقل فرابع أكبر وهكذا دواليك صعوداً إلى العقل الأعلى (مطلق) والذي يريده جيمس من هذه الفكرة دون أن تضيع في ذلك شخصية العقل الفردي، هو لأنه اراد أن يحتفظ لكل فرد إنساني بإرادته المستقلة لتقع عليه مسؤوليته الخلقية، وهذا ما يجعل لكفاح الأفراد نحو الخير معنى لأنه يجعل في مستطاع الأفراد تغيير ما هو كائن إذا كان شراً ليصبح أفضل مما هو وأكمل وهذا أكمل لذاتية الإنسان مع وجود الله، فلا يلغي إرادة الإنسان مع إرادة الله، ولعله يريد أن الإنسان مطلق من جهة ومقيد من جهة أخرى.

وإليك هذه النكتة: قال ثمامة بن أشرس: دخل يوماً أبو العتاهية على المأمون، وأخذ يحادثه قال له: ما في الناس أجهل من القدرية، وطلب من المأمون أن يجمعه في أحدهم، فأرسل اليّ، ولما دخلت عليهما قال لي المأمون: هذا يزعم أنك وأصحابك لا حجة عندكم، قال ثمامة: قلت فليسأل عما بدا لهِ، فحرك أبو العتاهية يده وقال: من حرك هذه؟ فقلت له من فعل كيت وكيت بأمه، فقال: أما تراه يشتمني يا أمير المؤمنين؟ فقلت له: نقضت أصلك يا عاض بظر أمه، تحرك يدك وتسألني -يا جاهل- من حركها، ولم أشتمك؟ وإن كنت أنت المحرك لها فهو قولي[(١)].

٥- المفوضة والشيعة - والقضاء والقدر:

إن الردود عن المفوضة على (الجبريين) كثيرة، فهناك المعتزلة القائلون: إن إرادة الإنسان الحرة، وقدرته تخلق ما يعمل، وفي استطاعته إن يعمل وأن لا يعمل، وأن يفعل وأن لا يفعل، هو مختار، فإن كان حراً كان مسؤولاً، وإن فقد حريته زالت عنه التبعة والمسؤولية، ويقولون: إن كان الله هو الخالق لأفعال العباد، فهو اذاً لا يرضى بما فعل ويغضب مما خلق، ويكره ما دبر بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾[(٢)].

وبمثل هذا الاحتجاج يحتج الشيعة، لنستمع إلى إحدى حججهم الدامغة بلسان أحدهم وهو الفيلسوف الحسن بن مكزون السنجاري قال:

قل لمن قال إن باري البرايا ... ليس في خلقه مريد سواه
من ترى إن اراد بالبعد سوءاً ... راح في العبد كارهاً ما قضاه
اتقوا الله ذاك أمر محال ... أن يرى ساخطاً رضاه رضاه

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٨.

وإذا لم يكن فقد ثبت الفعل   ومان في ما ادّعاه.

والمعنى: إذا لم يكن في الخلق مريد إلّا الله، ولا يكون إلّا ما يريده الله، فمن الكاره للسوء إذا اراد الله سبحانه (بالإنسان) سوءاً وكرهه الإنسان؟ فإذا كان الله سبحانه هو الكاره فقد فعل ضد إرادته، وكان غير الذي يريده، وإن كان العبد هو الكاره للسوء فيكون مريداً للخير دون الشر، وهما يتعقبانه دائماً، ويكون ثبت أن في الخلق مريد غير الله تعالى، وهو القائل: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ومن الصريح المحكم قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، ويكفي بهاتين الآيتين صراحة، وهل يجوز بعدئذٍ القول: بالقدر خيره وشره من الله، أو القول: لا يكون إلّا ما يريده الله ؟؟

يقول العلامة الشيخ سليمان الأحمد في شرحه الأبيات السابقة: ولا ندعي أنهم لا يؤولون ذلك، بل ندعي أنهم مخطئون باتكالهم على اجتهادهم، إذ لم يأخذوا الحق عن أهله، ولم يأتوا البيوت من أبوابها[2].

---

(١) ديوان المكزون، مخطوط، شرحه العلامة الشيخ سليمان الأحمد قبل ترجمة الأستاذ حامد حسن له.

(٢) لعل العلامة الشيخ سليمان الأحمد يريد بقوله: ولم يأتوا البيوت من أبوابها، قول الإمام علي عليه السلام: نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها، ومن أتاها من غير بابها سمي سارقاً، وقول الإمام هذا يشير إلى قول الرسول ﷺ: انا مدينة العلم وعلي بابها، الحديث، وإذا كان هو -أي الامام- باب مدينة العلم، فالأحرى أنه لم يكتم علمه عن أبنائه البررة، أو لعل العلامة الأحمد أراد: قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. باعتبار أهل الذكر الأئمة الطاهرون كما ورد في الحديث الشريف.

ومن احتجاجات الشيعة بلسان الفيلسوف المكزون أيضاً قوله:

لو كان فعلي له مراداً فلم بما قد قضى يعصى
ولم دعاني إلى أمور مني لها الخلق ليس يحصى

وبقوة هذه الحجة حجة الفيلسوف المعري حيث قال:

زعم الجهول ومن يقول بقوله إن المعاصي من قضاء الخالق
لو كان حقاً ما يقول فلم قضى حدّ الزناة وقطع كفّ السارق

أما الآيات التي يحتج بها الجبريون دعماً لرأيهم فقد يردها (المفوضة) بقولهم إنها تنافي العدل الإلهي، فهي متشابهة يجب ردّها إلى المحكم من القرآن، ومنها: ما له مدلول آخر وتأويل ينطبق على المحكم، والقرآن حمّال وله وجوده كثيرة، فالذي لا يرد منه إلى المحكم إذا استعصى معناه يجب رده إلى الله تلبية للحديث الشريف (ما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به) أي لا تنكروه لعدم معرفتكم له ولكن ردوه إلى الله أو إلى الرسول ﷺ أو إلى ذوي العصمة - قال الإمام جعفر الصادق: ردّوا لنا ولا تردّوا علينا.

ذكر (القدر) في مجلس الحسن البصري فقال: إن الله خلق الخلق للابتلاء، لم يطيعوه بإكراه ولم يعصوه بغلبة، ولم يمهلهم من الملك وهو القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملكهم إياه، فإن يأتمر العباد بطاعة الله لم يكن مثبطاً، بل يزيدهم هدى إلى هداهم، وتقى إلى تقواهم وإن يأتمروا بمعصيته لله كان الله قادراً على صرفهم إن شاء وإن حال بينهم وبين المعصية[1].

ومن الأدلة القاطعة على مذهب الاختيار ما يحتج به المعتزلة من

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، وهذا الخبر واضح الدلالة أن صاحبه يقول بالاختيار مع بقاء الأشياء والأعمال بعلم الله تعالى.

آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾، فقد دلت هذه الآيات دلالة واضحة على أن للإنسان مشيئة وإرادة[1].

وعندهم أن الله سبحانه أعطى العبد قدرة على أن يفعل وأن لا يفعل، وبدونها ييسر اليسرى والعسرى، فاليسرى للنفس المستعدة لقبول النفحات القدسية، والعسرى للنفس المدبرة عن هذه النفحات وعن الخير، زد على ذلك: أن الله يمتحن عباده مؤمناً كان أو كافراً يمتحنهم بما يفرحهم وبما يسيئهم، ولا يرتاب بذلك إلّا القوم الجاهلون.

قال الإمام علي عليه السلام وهو في موقعة صفين لمن سأله: أكان سيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قال له: والله ما هبطتم وادياً، ولا جبتم تلعة إلّا بقضاء الله وقدره، ولكن السائل همس في نفسه يقول: عند الله أحتسب أجري، فسمعه الإمام فقال له: ويحك؟؟ لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك لسقط العقاب وبطل الثواب وسقط الوعد والوعيد، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع

(١) جاء في كتاب القضاء والقدر: قول المؤلف: لم يرتض كثير من المسلمين آراء (المعتزلة) وإن حمدوا لكثير منهم دفاعهم عن الدين وكسرهم حدة هذه النزعة السلبية التي استولت على اهل البيت على يد الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء، فكان الاستسلام للأحداث والتسليم بالخذلان هو العزاء لكثير من النفوس حتى لقد شاع في الناس القول: إن هذا ما قضى الله وقدر، قولاً يقال في كل حال وعزاء، ويتردد عند كل خذلان، وهذا حق ولكن الاستنامة في ظل هذا القول، ورمي القدر بكل أخطائنا، هو الذي لا يرضاه عقل ولا يقره دين، من هذا قام المعتزلة في وجه هذه الدعوة المريضة، ولكن بدلاً من أن يقتصدوا في تقرير مسؤولية الإنسان وفي إبراز شخصيته مع أحداث الحياة بالغوا أيما مبالغة... على حدّ تعبيره.

مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، وذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار[1].

من هنا تعلم أن العدل من صفات الله الثبوتية فهو منزه عن فعل القبيح، فلا يجوز في قضائه، ولا يحيف في حكمه، وهو يثيب المطيع، ويجازي العاصي، ولا يكلف العباد ما لا يطيقون، وقد يلوح لي: إن الإنسان لا قدرة له إلّا بقدرة الله ومشيئته وعلمه، وتيسيره، لا حول ولا قوة إلّا بالله، فالصالح ميسر، والطالح معسر، كل بحسب طبيعته واستعداده وطويته، وكل شيء في علم الله سبحانه ولكن علمه الأشياء ليس قضاء عليها، وما أجلى: أمركم تخييراً ونهاكم تحذيراً؟..

فعلمه تعالى لا ينفي الاختيار، نعم هو محيط بكل الأشياء والأفعال قبل أن توجد الأشياء وتحدث الأفعال، ولكن علمه بأفعالنا لا يستلزم أن تكون هذه الأفعال جبرية، بل تبقى اختيارية، فالإنسان يختار الطريق التي يريدها بملء إرادته، والله يعلم ما سيفعله باختياره، فعلمه تعالى مستقل عن فعل الإنسان، يلازمه ولا يلزمه، والله بكل شيء عليم.

٦- نظرة في واقع الحياة:

إذا نظر الإنسان في واقع الحياة يرى العجائب من المتناقضات، فحيناً يكون الإنسان سيد نفسه، وحيناً آخر يكون لا يملك من أمره شيئاً، وكأنه لعبة في يد القدر، ففي شبابه يمشي مختالاً قوياً يكاد يخرق الأرض، وفي شيخوخته يحسد النملة على سيرها الحثيث وفي غناه يطغى، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾، وفي فقره يبدو وكأنه من النسّاك،

---

(١) نهج البلاغة: الأصل في الجملة المزيلة بالأحمر: لبطل الثواب والعقاب وهو الصواب.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

وفي هذه المتناقضات يبدو مخيراً حيناً، ومسيراً حيناً آخر، وفق أحواله وظروفه وننظر اليه من آفاق أخرى فنرى أنه مطلق في نظره للأشياء وتقديره لها، وتفكيره في عمله، وما عليه إلّا أن يتحرك، فهو حرٌّ في تفكيره ونظره، حرٌّ في أن يرى الشيء خيراً وشراً، ولكن حين يحاول تطبيق ما يتخيله ويخطط في ذهنه، ويتحرك ليبرره من حيز التصوير وعالم الفكر إلى عالم الواقع يجد الحوائل الكثيرة المانعة تقف بينه وبين ما أراد، فإذا قرر الفكر عملاقاً وتحرك الإنسان لتنفيذه، وقفت أمام التنفيذ عثرات لم تكن في الحسبان، ربما كانت قبل آخرين منعوه بلوغ هدفه، ربما كانت قوة مادية أو أدبية كالقانون أو العرف،أو الصداقة أو القرابة والمجاملة.

كل هذه عوائق تحدّ من حريته وتقف دون بلوغ أهدافه كما يشاء، قد يرى أنه يقوم بعمل فيرى من هو أقوى منه مادة أو جاهاً، أو قوة جسمية سبقه اليه.

ومن هنا نرى أن الإنسان حرٌّ من جهة ومقيد من جهة أخرى، وإذا أراد أن ينفلت من القيود فلا يرعى حرمة لقانون سماوياً كان أو أرضياً، ولا يقيم وزناً للأعراف والصلات التي تربط الإنسان بمجتمعه، ويعيش كما تملي عليه ميوله ونوازعه، ويتعرى من الأخلاق الاجتماعية، فإن مثل هذا لا يمكن أن يعيش، فقد ينبذه المجتمع ويناله العقاب الصارم الذي يقيد حريته التي أطلقها ويفرض عليه الرجوع إلى الحدود التي فرضها المجتمع لنفسه.

وقديماً قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقال:

أريد فلا أعطي، وأعطى ولم أرد وقصّر علمي أن أنال المغيبا

ولنستمع للشاعر الحديث ايليا ابو ماضي ماذا يقول:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرت قدماي طريقاً فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري؟

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود[1]

هل أنا حرٌّ طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنني أدري ولكني لست أدري

وما لنا وخيال الشعراء؟ فهو لا يبنى عليه رأي فقهي ولا ديني، ومشكلة القضاء والقدر مشكلة عويصة يجب أن نتجه بها نحو العقل لا الخيال، وهل أولى من الفلاسفة بهذا الاتجاه؟

لعلنا نجد عندهم ما يضيء طريقنا نحو الحقيقة.

٧- آراء الفلاسفة:

قال الفلاسفة: لما كان الإنسان جسداً وروحاً فإنه ذو طبيعتين: طبيعة روحية (مجردة) وطبيعة مادية (مركبة) فالروح بطبيعته حر مطلق، ولكنه إذا لبس الجسد خضع لقيود المادة، فإذا قلنا: إن الإنسان حر فهذا حق، لأن فيه روحاً جاء من عالم لا يخضع لقيود أو حدود، وإذا قلنا: إنه مقيد فهذا

(١) ايليا أبو ماضي، شاعر عربي من شعراء المهجر وهو لبناني الجنسية، ويظهر أنه كان يعتقد التناسخ من قوله أجديد أم قديم... الخ.

حق أيضاً لأن فيه جسداً هو من مادة كثيفة، وروحه المطلق قد لبس هذا الجسد، وسجن فيه، فالإنسان اذاً حر مقيد معاً، فهذه نظرة الفلسفة إلى الإنسان في حريته وجبره.

فالفيلسوف الأندلسي لسان الدين بن الخطيب يرى أن الإنسان هو كون صغير فيه من لكون الكبير كل شيء[1]. فالعقل جزء من العقل الكلي، والروح من الروح الكلي والنفس من النفس الكلية المطلقة، والقلب فيض من الصورة الفيضانية، وهذا الفيض هو الفيض القابل لفيض العقل والروح والنفس، ثم يقول: فتبين من هذا أن الإنسان نسخة من العالم العلوي، يتوق إلى أهله، غير أن لنفسه جهتين ونظرين: نظر إلى أعلى بما في النفس من يقظة، ونظر إلى أسف بما فيها من أعراض طبيعية.

وهذا الرأي الفلسفي منقول عن أفلاطون، إذ كان يقول به ويرى الإنسان متردداً بين هذين الجانبين: جانب العلو وجانب الاسفاف، والتدني، فيشبه الإنسان بسائق عربة يتحكم في حصانين ناريين يمثل أحدهما المشاعر النبيلة، ويمثل الآخر المشاعر الخسيسة، وهذا التمثيل يجعل الإنسان هو المتحكم في سلوكه، ولكنه محكوم آخر الأمر بالوجهة التي تتخذها العربة يميناً ويساراً، فإنها منطلقة بقوة حصانين أقوى من السائق - الإنسان.

أما الفارابي: فإنه مع نظرة أن الإنسان مخيرٌ في تصرفاته وحرٌّ في سلوكه، فقد يرى أن هذا الاختيار، إنما هو من عمل الفكر، والفكر مقدر في علم الله وفيض من العقل الأول، فالإنسان بهذا المعنى حرٌّ في الظاهر

---

(١) الفلسفة والاخلاص عند ابن الخطيب، وفي قوله هذا يتفق وقول الإمام علي:

اتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر.

مقيد في الباطن[1] وابن الخطيب وأفلاطون والفارابي ثلاثتهم في نظرية الفيض واحد، وكما أرى غير مختلفين في نظرية الاختيار فتأمل.

ورد عن أحد الفلاسفة: إن مسألة الحرية الإنسانية ليست هي من محض المسائل الفلسفية وإنما هي من مسائل الفلسفة الدينية الكبرى لأنها تربط بينها وبين حساب الإنسان على أعماله وما يستحقه في الأعمال الأخرى، أو في الحياة الدنيا من الثواب والعقاب.

والعدل صفة من صفات الله سبحانه، ومسألة الحرية الإنسانية في مذهب الفلسفة الدينية هي مسألة التوفيق بين العدل الإلهي وبين الثواب والعقاب في الدارين[2].

٨- حرية الإنسان في الفلسفة الحديثة:

نطلع أول ما نطلع على رأي فيلسوف أميركي تمثل فلسفته في تصويرها لحرية الإنسان وتحديد مداها كل الفلسفة الحديثة، وقد انتهت به فلسفته إلى الإيمان بالخالق، وتلقى ايمانه عن هذا الفيض الذي تلقيه الطبيعة من عجائبها وأسرارها، فيرى الخالق المبدع بقلبه وحدسه على حين يرى الموجودات بفكره وعقله -يرى في كل شيء حياة وروحاً سارياً

---

(١) أهداف الفلسفة الإسلامية، ص ٥٥.

(٢) جرت مناظرة بين ثمامة بن أشرس، وبين يحيى بن أكثم، قال ثمامة: ليست تخلو أفعال العباد من أمور، إما أن تكون كلها من الله وليس للعباد فيها صنع، وإما أن يكون بعضها من الله وبعضها من العباد فإن زعمت أنه ليس للعباد فيها صنع كفرت ونسبت كل فعل قبيح لله، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد كفرت، لأنك جعلت الله شركاء للعباد في فعل الفواحش والكبائر، وإن زعمت أنها للعباد وليس لله فيها صنع حرث إلى ما أقوله، ويروق لي قول المعري:

ان كان من فعل الكبائر مجبراً　　فعقابه ظلم على ما يفعل
والله إذا خلق المعادن عالم　　أن الحداد البيض منها تجعل

لكن الإمام يقول: ليس علم الله في الأشياء قضاء عليها.
وعلم الله سبحانه سابق لقضائه، فعلمه بخلقه ومكوناته قبل أن يبرئهم فتأمل.

من الملأ الأعلى. كما يرى في كل حي درجة من درجات الحرية يكيف بها وضعه في الطبيعة، ولكنه يفرق بين حرية الإنسان وحرية سائر الحيوان، لأن حرية الإنسان تلقائية روحية، وحرية الحيوان شعورية تلقائية لنستمع له يقول: إننا لو أنعمنا النظر في حريتنا لوجدنا أنها تلقائية روحية محض لا سبيل للخلط بينها وبين التلقائية الحيوانية التي تتصف بها سائر الكائنات الرحية.

ويقول: الإنسان وحده هو الكائن الحر بكل معنى الكلمة، لأن التطور الذي يؤدي إلى الفعل الحر عند الإنسان تطور عقلي فضلاً عن أن لديه قدرة إرادية بها يستطيع أن يقوم بالجهد أو يكف عنه(١).

فنظرة (برجسون) هذه لا تعني الحرية التي تبدو في حياة الأفراد، ولكنها الحرية الإنسانية كلها، فهو يرى الحرية في الطبيعة على درجات متفاوتة، إذ هي مفقودة تماماً في عالم الجماد ولا تعبر إلّا عن وجودها في عالم الأحياء.

وهي في عالم الأحياء مختلفة قوة وضعفاً حسب درجة الحيوان من الحيوانية، ومكانه في سلسلة التطور والرقي، فإذا بلغت عالم الإنسان كانت حرية كاملة.

اسمعه معي يقول: إن مهمة الكائن الحي أن يخلق، وبالتالي، فإن الكائن الحي في وسط ذلك العالم الشامل - عالم المادة الذي تسوده الحتمية- يمثل منطقة حرة ولا موضع فيها (للحتمية) - وبهذا تكون المادة هي الضرورة، والشعور به عند الإنسان والحيوان- هو الحرية، والحياة هي التي توفق بينهما - من حيث إن الحياة: إن هي إلّا حرية مندمجة في الضرورة، وعاملة على الاستفادة منها لصالحها.

---

(١) برجسون، للدكتور زكريا ابراهيم، ص ٩٦.

ولو لم تكن الحتمية الطبيعية مرنة متراخية في بعض نواحيها، لما كان في استطاعة تلك الحرية أن تعمل في صميم الطبيعة، ويقول برجسون: إن الحرية البشرية ليست في الطبيعة مملكة داخل مملكة أخرى، بل إن جذور الحرية، لتمتد إلى أعماق الضرورة الكونية -المادة - لأن الروح تستمد من المادة تلك الإدراكات الحسية التي تقتات منها، ثم لا تلبث أن تعيدها إلى تلك المادة على شكل حركات قط انطبعت بطابع حريتها.

فبرجسون بهذا القول: يرى كل ما يصدر عن الإنسان إنما هو تعبير عن تلك الحرية التي تتمتع بها الإنسانية في صورة كاملة، وأن كل ما يقع من أخطاء، وما ينجم من شرور في أعمال الأفراد وتصرفاتهم إنما هي اخطاء وشرور نسبية تتحول إلى صواب وخير في المجرى العام للحياة.

ولندع (برجسون) وننتقل نحو فيلسوف عظيم آخر وهو: (وليم جيمس) لنرى ماذا يقول حول حرية الإنسان واختياره؟ فهو من الذين يؤمنون بالله وبالحرية.

نعم يرى أن الحرية حق لكل فرد، وقد أفسح الله للانسان، فترك له مطلق الحرية يعمل كيف يشاء دون أن تتدخل إرادة الله في الخفاء لمصادمة إرادة الإنسان، فالإنسان لا ينتظر إرادة السماء لتقول له: اعمل أو لا تعمل، هو حرّ اذاً. . . ، فالخالق سبحانه ترك له أن يقوم بجميع أموره حسب إرادته، مع علمه تعالى -مقدماً- بجميع نتائج هذه الأمور وتفاصيلها.

ويقول جيمس: ليس المهم أن نعرف ما إذا كان الخالق هو الذي يقرر الإمكانيات ويحدد المصادفات، أم أنه يترك هذا التحديد للمخلوقات المحدودة مثلنا. . ، ما يهمنا هذا، إن الذي يهمنا هو أن الامكان حقيقة واقعة -سواء أكان هو - أي الله - الذي يقدر الإمكانيات أو

يباشرها عن طريقنا، إن هذا قليل الأهمية، ما دامت النتيجة لا تكون إلّا هنا والآن[1].

والمعنى عنده: أن الإنسان يجب أن يعمل دون أن يلتفت إلّا الى إرادته وتفكيره، وليدع إرادة الله وما قدّر الله، ما دام ذلك غير منكشف له، إن الاحتكام إلى إرادة الله والى قدره قبل مباشرة العمل أو في أثناء مباشرته غير مجدٍ في هذا الموقف، لأننا لا نعلم ما هي إرادة الله وما هو قدره وهناك فيلسوف ثالث حديث، تعال معي لنستجلي رأيه وهو (جون مل):

يقول (جون مل): إن الإنسان مجبر في سلوكه، بمعنى أن السلوك ينشأ عن سلسلة منظمة من العلل هي دوافعه الطبيعية وظروفه المحيطة به، إذ لا توجد أفعال بدون علل، والإنسان (مختار) في سلوكه بمعنى أن ميوله ورغباته هو «لا سلطة» خارجة عنه هي التي توجه أعماله، فإذا رغب في تغيير سلوكه استطاع، نعم.. يستطيع أن يغير سلوكه، ولكنه لا يستطيع أن يغير طبائع الاشياء أو يوقف سير الزمن[2].

قد يرى المطلع على الفلسفة الحديثة: أنها تؤمن بالله، وتؤمن بحرية الإنسان ولكن لا تؤمن بإطلاقها، لأنها إذا أطلقت من قبضة القدر، فقد يقيدها شيء ما - الأوضاع الاجتماعية والأوضاع القائمة في الحياة، التي تربط الأحداث بسلسلة العليّة، والأسباب التي تتوالد بمقتضاها الأحداث باطراد وانتظام.

وعلى هذا التقدير، فالإنسان حرٌّ في ذاتيته - حرٌّ في تفكيره وإرادته- ولكنه يلتقي بالحياة فيضطر أن يعدل مكرهاً من وجهة سفينته، حسب اتجاه الرياح التي لا حول له ولا قوة عليها.

---

(١) وليم جيمس ١٧٨.

(٢) من كتاب وليم جيمس ٢٢/٣.

٩- فلسفة الأسباب والمسببات: يقول بها الفلاسفة والحكماء ورجال الدين:

قال الفلاسفة: إن الأسباب هي القوانين المودعة في الأشياء، والتي هي قوام كل شيء وخاصيته، وهي كامنة في ذواته لا تظهر إلّا إذا تلاقى شيء مع شيء، فكل شيء فيه قوى كامنة هي قوام وجوده ولا يبرز من هذه القوى إلّا ما يطلبه الحال الذي يكون عليه هذا الشيء.

فالماء -مثلاً- يظل ماء محتفظاً بعناصر وجوده كما هي، ولكن إذا سلطت عليه قوة حرارية تبخر وتحول إلى بخار، وإذا سلطت عليه قوة باردة جمد وصار ثلجاً، وتحول من سائل إلى جامد...

وهكذا، ثم يأخذ في كل حال الوضع المناسب الذي يستدعيه الشيء الذي يتصل به، فهو يتشكل في الآنية التي يوضع فيها بشكلها، كذلك فالنار إذا اتصلت بالقطن أحرقته وصيرته رماداً.

ويقولون بالتلازم بين الأسباب والمسببات، لنستمع إلى فيلسوف أمريكي هو تومس بين، يقول. في ايمان وثيق بقدرة الله وابداعه: إن اطراد القوانين الطبيعية ليس هو طريقة الله في تسييره لأجزاء الكون فحسب: بل إن ما لا يدل على هذا الاضطراد والنظام والاتساق لا يكون من صنع الله[١].

ويقولون: إن نظام الله في مخلوقاته يقتضي أن تتحرك الموجودات كلها في حركة منتظمة لا تتغير أبداً، لأن التغيير معناه حدوث خلل بها، ومحال أن يلحق النظام الذي أبدعته يد الخلاق العليم خللٌ أو اضطرابٌ[٢].

---

(١) حياة الفكر في العالم الجديد.

(٢) القضاء والقدر بين الفلسفة والدين.

ومن القائلين بالترابط بين السبب والمسبب (الفيلسوف الكندي) فهو يرى: أن كل ما يقع في الكون مرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول[١].

وبمثل قوله هذا يقول الفارابي، فيرى أن الله هو علة وجود الأشياء، وهو الذي يعطيها الوجود الأبدي، ويدفع عنها العدم الأبدي، أما الأشياء ذاتها، فإنما يؤثر بعضها في بعض وفقاً لقوانين نعرفها من التجربة[٢].

أما ابن رشد: فيبسط القول في تقدير الترابط بين الأسباب والمسببات ليدفع رأي (الغزالي) فيقول: - أي ابن رشد- إن الجاحد لها، - أي الأسباب الفاعلة- إما منقاد بشبهة سفسطائية أو جاحد بلسانه لما في جنانه، ومن ينف ذلك فليس له أن يعترف بأن كل فعل لا بد له من فاعل، وهذا محال لا شك.

ثم يقول: إما أن هناك اسباباً يتم تأثيرها بسبب من خارج لا بنفسها فهذا ليس معروفاً بنفسه لنا ومتأكداً لدينا، وهو يحتاج إلى فحص كثير، أما أن هناك بعض مسببات تنتج بدون معرفة الأسباب فليس بلازم أن تكون تلك الأسباب خارجية إذ قد تكون داخلية ولكنها مجهولة لنا فقط.

ويشرح هذا القول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فيقول: والذي يريد أن يقرره ابن رشد هنا هو: أن هناك ظواهر تبدو في الوجود على غير المألوف، تجيء بين الحين والحين فلا نعرف لها سبباً مما اعتدنا ملاحظته في خواص الأشياء، فيقع في تفكير بعض الناس أن قوة خارجة قد دخلت على مكان الحادثة أو الظاهرة، وعطلت اسبابها أو أثرت فيها بزيادة أو نقصان.

قلت: لما كان ابن رشد يبسط القول في تقدير الترابط بين الأسباب

---

(١) أهداف الفلسفة الإسلامية ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق، نقل الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

والمسببات وهو خير فيلسوف يجلوها واضحة فقد أطيل النقل عنه في هذا الموضوع عله يوفر علينا كثير من النقل عن غيره من الفلاسفة وتكون الفائدة تامة شاملة، فأكثر الفلاسفة أخذوا عنه واتفقوا معه في فلسفته.

يقول (ابن رشد): إن الواقع يؤكد وجود المسبب عند وجود السبب، وقد يكون السبب مضافاً إلى سبب آخر، إضافة لا تتناهى، وقد توجد أشياء أخرى تعوق السبب عن التأثير وايجاد المسبب كما في حجر (الطلق) حجر لا تؤثر فيه النار، و لهذا فليس من المؤكد أن النار إذا دنت من جسم أحرقته حتماً، إذ لا يبعد أن يكون سبب آخر يمنع النار من التأثر، ولكن هذا لا يسلبها صفة النار المحرقة.

ويكشف أخيراً عن حجته في القول بقيام الأسباب الفاعلة في الأشياء فيسأل المنكرين، فبماذا يقولون في الأسباب الذاتية التي لا يفهم الموجود إلّا بها؟ إذ لو لم يكن لكل موجود فعل يخصه لما كان له اسم يخصه ولا حدّ، وإذا كان كذلك كانت كل الأشياء واحداً، لأن ذلك الواحد يسأل عنه، هل له فعل واحد يخصه، وانفعال يخصه؟ أوليس له ذلك؟ فإن كان له فعل يخصه فهنا أفعال خاصة صادرة عن طبائع خاصة، وان لم يكن له فعل يخصه ارتفعت طبيعة الواحد وارتفعت طبيعة الموجود، وإذا ارتفعت طبيعة الموجود لزم العدم.

وابن رشد، مع قوله بذاتية الأسباب الفاعلة، فإنه يرى أن هذه الأسباب ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل، والله سبحانه هو الذي خلق الأسباب وقدرها، وهو يقوم عليها كما يقوم على كل مخلوق من مخلوقاته، إن الموجودات يفعل بعضها في بعض وأنها ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط في فعلها، بل في وجودها فضلاً عن فعلها.

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب[١]: والفلسفة الحديثة تؤيد هذا المذهب (الرأي) القائل بفاعلية الأسباب وبالترابط بين الأسباب والمسببات، وما كان للفلسفة الحديثة أن تقول غير هذا بعد هذا التقدم العلمي الذي أحرزه الإنسان في كل مجال، وليست القوانين التي استخدمها العلم في كشف اسرار الطبيعة إلّا من نسيج الأسباب وفاعليتها.

فهذا الاضطراد في ظواهر الطبيعة هو الذي أتاح للعلماء وضع قوانين ثابتة لطبائع الأشياء، ولما تحدثه الأسباب من احتكاك بها، وبهذا أمكن تسخير الأشياء بمقتضى هذه القوانين كما أمكن التنبؤ بما سيحدث قبل حدوثه اعتماداً على معرفتنا السابقة بخواص الأشياء وبالآثار التي تحدث عند تحريك أسبابها.

ونترك ابن رشد ونمر ولو قليلاً على فيلسوف أمريكي حديث هو (تومس بين) فنراه يقول: إن الاحتكام إلى الطبيعة هو خير معين لنا على فهم عالمنا الذي نعيش فيه، وما الطبيعة إلّا قوانينها التي فرضها الله على المادة لتسير بمقتضاها.

وان شئت فقل القوانين التي يحكم الله بها ملكوته، فليس الاطراد في حدوث الحوادث الذي هو القوانين الطبيعية من خلق العلم واختراعه، فالعلم لم يصنع شيئاً ولم يضف شيئاً، إذ إن الطبيعة قائمة بنظامها، واطرادها واتساقها، ومهمة العقل أن يعلن عنها وهل خلق (نيوتن) قانون الجاذبية من عدم، أم هو طريقة الله في تسيير أجزاء الكون، كانت قائمة ثم انكشف عنها الغطاء؟[٢].

---

(١) تهافت الفلاسفة لابن رشد، ص ١١٢ وما بعدها، نقلاً عن القضاء والقدر بين الفلسفة والدين للأستاذ الخطيب.

(٢) حياة الفكر في العالم الجديد.

قلت: ما أروع هذا القول وأصدقه وهذا هو العلم الصحيح والذي لا يختلف مع الدين الصحيح، فالله سبحانه خلق هذا الكون سماء وأرضاً في شموسه وأقماره ونجومه وكواكبه ومجراته وجباله ووديانه وأنهاره وبحاره وجماده ونباته وحيوانه وما فيه من ثخين ودقيق وأصناف وأنواع، وما فيه شيء إلّا ويدل على عظمة المبدع الخلاق.

والمتأمل في هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان يجد أن كل ما فيه من حيوان ونبات وجماد يسير في دورته على أسس وقوانين علمية ثابتة وأن هذه الأسس لم تتغير منذ النشأة الأولى لهذا العالم، وهي مدرسة كبيرة للتحصيل والاستنتاج والعلم.

وان الإنسان بما أودعه الله من المواهب والعقل وخصيصته البحث عن الحقائق ولكشف عن المجهول وحب الاستطلاع، دأب من قديم على استقراء المحيط الذي يدور فيه وعلى استجلاء غوامضه عن طريق الملاحظة والموازنة والتجربة والاستنتاج، فاستطاع أن يعلل كثيراً من الظواهر الطبيعية ويكتشف القوانين التي تحكمها وتضبط تصرفاتها، واتخذ من المادة التي يدرسها مجالاً لتجاربه العلمية واستطاع أن يفرق بين الخير والشر والنفع والضر.

إن عالم المادة اذاً خلق على أسس علمية لتحقيق هدف معين، إنه خلق ليكون معهداً كبيراً يدرس فيه الإنسان ويجمع ألوان وأنواع العلم وصنوف المعرفة مما اشتمل عليه من ظواهر الطبيعة ونواميسها وخصائص الكائنات، وعلى الإنسان تفسير هذه النواميس والكشف عما فيها من قوانين الحركة وخصائص المادة، ومن هنا يجب أن نعلم المقصود من قوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٦٤ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فلينظر المتأمل البصير إلى هذه الآية فيرى أنها تدعو للبحث في مجال السماوات ودراسة ما فيها من عوالم وأفلاك كل يجري في مداره إلى أجل مسمى، وللبحث في مجال الأرض ودراسة ما بها من عوالم الحيوان والنبات والمعادن، وتبين أسباب اختلاف الليل والنهار وأسباب طولهما وقصرهما وحرارتهما وبرودتهما واختلاف الفصول وتوجيه النظر إلى السفن الشراعية والبخارية التي تجري على الماء وطبيعة هذا الماء، وقانون الثقل في الأجسام وطبيعة الهواء والبخار والمطر الذي يحيي الأرض بعد موتها، وكيف يخرج من البحار والأنهر بخاراً يتكاثف ويتجمع فيكون سحباً تثقل شيئاً فشيئاً ثم تسيرها الرياح، ثم يسقط مطراً، وتصريف الرياح وتدبيرها وقواعد توجيهها، فمرة من الشمال وأخرى من الجنوب، وتارة حارة وتارة باردة والسحاب المذلل بين السماء والأرض، كيف تكوّن وتجمع ثم تفرق بنزوله مطراً[1]، وهذه كلها آيات لمن يعقل الأمور ويعلم ويبحث أسبابها ومسبباتها، والقرآن جامع وفيه الآيات الكثيرة لدراسة الكون دقيقه وجليله، وكتابنا هذا ليس لهذه الدراسة وما قيل عنه وفيها فلنرجع إلى ما كنا فيه من أقوال الفلاسفة في الأسباب والمسببات والتلازم بين الأسباب والمسببات.

هناك بعض الفلاسفة يقولون بعدم الترابط بين الأسباب والمسببات محتجين: أن نظام الكون قائم على الخلق المتجدد، فلو كان الترابط قائماً بين الأسباب والمسببات بصنعة لا انفكاك لها أو معها لجرت الحياة على نهج واحد وبطل الابتكار والتجديد فهم لا ينفون العلاقة القائمة بين

---

(١) التفسير الواضح جزء ثان ص ١٤.

الأسباب والمسببات، ولكنهم ينفون الحتمية والاطراد اللازم ليبقى مجالاً للتطور والابتكار، ففلاسفة المسلمين الذين يقولون بعدم التلازم يحتجون أن التلازم بين الأسباب والمسببات يمنع القول بمعجزات الرسل ولا يسمح بوجود المعجزة، لأن المعجزة هي خرق للعادة وإخراج للأشياء على غير ما تقضي به الأسباب المعروفة لنا، فإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وعدم الاحتراق بالنار: أمور خارجة على ما جرت به طبائع الأشياء.

ولهذا رفض الأشعري وأتباعه القول بفاعلية الأسباب وبالترابط بين الأسباب والمسببات، ويريدون بذلك أن يجعلوا كل شيء في محيط القدرة الإلهية - الجزئيات والكليات جميعها فكل حادثة صغيرة أو كبيرة قد تخلق خلقاً متجدداً غير مكرر -.

وهذا لا يمنع القول بحدوث المعجزة الخارقة، فالمعجزة في هذه الحالة تخلقها القدرة فيما تخلق على غير نمط سابق، فالأسباب تتحرك في المجال الذي يريده الله، فالأشاعرة لا يقولون ولا يعترفون بوجود أسباب مطلقاً، وإنما يقولون بالخلق المتجدد من غير أسباب[1]، بخلاف ما يقوله الفيلسوف المسلم (محمد اقبال) إذ يقول بالأسباب.

ولكنها أسباب يقظة واعية تتخلق منها الحوادث خلقاً يحفظ لكل حادثة ذاتيتها المستقلة فلا تنتظم في ركب حوادث صماء متتابعة لا نهاية لها، والواقع أن كل نشاط خالق هو نشاط حرّ، فالخلق يضاد التكرار الذي هو من خصائص الفعل الآلي[2].

---

(١) غريب كيف يكون القول بالأسباب والمسبيات وهي النواميس والقوانين الكونية والطبيعية التي أودعها الله في الأشياء ونظم بها الكائنات أو جعلها نظاماً لا يشوبه خلل ولا عيب، كيف يمنع المعجزة، مع أن المعجزة يجب أن تكون خارقة و إلافليست بمعجزة.

(٢) تجديد التفكير الديني الإسلامي، ص ٦١.

إن الأسباب القائمة في كل شيء هي تبع لارادة الله تعمل في ظل هذه الارادة، ولما كانت هذه الأسباب المودعة في الأشياء قد أودعتها يد الحكمة، فإنها تجري على نظام لا يدخل عليه خلل أو اضطراب، ومن هنا تجد هذا التشابه في الحوادث حتى تبدو وكأنها مكررة، وذلك لما في النظام القائم عنها من دقة وإحكام، وهنا وبعد هذا يناقش الأستاذ الخطيب هذا القول والرأي فيقول:

نستطيع أن نقول: إن في كل شيء أسباباً مودعة فيه، وإن هذه الأسباب تنتج مسبباتها عند تحريكها بأسباب مناسبة لها، والتلازم بين الأسباب والمسببات فلا يعنينا أكان محكماً لا يتخلف أم كان فيه خلخلة تسمح بتخلف المسببات عن الأسباب ما دمنا نؤمن بأن الله هو خالق الأسباب والمسببات، ولكن ما يجب أن نعرفه هو أن وجودنا البشري قائم على أن نحرك الأسباب المودعة في الأشياء على الوجه الذي اهتدت اليه عقولنا، وأن ننتظر النتائج المقدرة لهذه الأسباب على حسب ما اعتدنا أن نحصل عليه من نتائج عند تحريكها.

فالإنسان يبني حياته على المستقبل أكثر من الحاضر الذي يعيش فيه، وهذا المستقبل إنما يبنيه من أسباب يحركها ويرقب ثمرتها، فهو يزرع وينتظر الحصاد.

إن رحمة ربنا قد جعلت بيننا وبين الأشياء تفاهماً، وهذا التفاهم هو الذي يكشف لنا عن طبائع الأشياء ويدلنا على معطياتها ومن طبائع الأشياء ألا تعطي إلّا إذا طلب منها، وهذا الطلب لا يكون إلّا بتحريك الأسباب المودعة فيها - إن اللبن في الضرع- مثلاً- لا يخرج منه بدون طلب، فإذا طلبه طالب واتخذ الأسباب الصحيحة التي تستدعيه خرج كوضع الطفل فمه في ثدي أمه، وتحريك لسانه حركة خاصة تجذب اللبن اليه، فينجذب

ويجري في فمه، وهكذا تتجاوب الأسباب وتتنادى فتجيء النتائج عنها ولا تتخلف أبداً.

قلت: لقد أطلنا الكلام في هذا الموضوع بغية الفائدة للقارىء المطالع وليعمل بالأسباب التي يعرفها، ولا يقف عاجزاً وكالاً على هامش الحياة[1].

فالحياة تتطلب العمل، وعليه أن يعمل، فالتلميذ يقرأ لينجح، والمتعلم يطالع ليزداد معرفة، والمزارع يعمل ليثمر ويجني ويحصد.. الخ، فعلى الإنسان أن يتحرك ويتحرى طريق الخير والسلامة، وما عليه ما تؤول إليه النتائج، ألّا الى الله تصير الأمور.

فالله سبحانه أعطاه العقل والإدراك ووسائل الحركة والحرية الذاتية وأعضاء الحس كيلا يحتج على الخالق إذا سأله، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الإنسان أن يعلم أن القدر هو الأسباب المودعة في طبائع الأشياء فليحركها بأسباب أخرى غير طبيعية تتدخل فيها إرادته[2].

---

(١) القضاء، والقدر بين الفلسفة والدين.

(٢) لنأخذ هذا المثل الصغير، وهو البذرة، فمن شأنها أن تنبت إذا وضعت في أرض لينة وسقيت بالماء، وعندئذٍ تكون أسبابها المودعة فيها وهي قوة الإنبات قد تحركت بالأسباب المودعة في الأرض المنداة بالماء، فيحصل الإنبات، ولكن إذا وضعت هذه البذرة في صخرة فإنها لا تنبت لأنه ليس في الصخرة قوة للإنبات، أي ليس فيها الأسباب التي تحرك البذرة، أو بمعنى أدق: تحرك الأسباب المودعة في البذرة؟؟ فالنار إذا اتصلت بثوب الإنسان كانت سبباً في احراق الثوب، وقد تمتد إلى الجسم لأنها اشتعلت في شيء قابل للاشتعال، فتوافقت أسبابها مع أسبابه وتداعى بعضها إلى بعض، ويمكننا ايجاد اسباب تبطل اسباب اشتعال النار كأن نلقي عليها الماء أو نمنع عنها الهواء، وبهذا نرفع اسبابها بأسباب وأقدار بأقدار، ومن هنا قيل أسباب ومسببات (المصدر السابق).

١٠- عودة إلى المفوضة

نـنقل للقارىء الكريم بعض احتجاجات المفوضة من المعتزلة باختصار[(١)]:

(١) كثير من الذين سمعوا بالصراع الفكري الذي دار بين المعتزلة وبين خصومهم حول قضية القول بخلق القرآن وخاصة في زمن المأمون عام ٢١٨ هـ لا يعلمون إلّا أن المعتزلة اضطهدوا عدداً كبيراً من الخصوم كابن حنبل وغيره، ولكن هذه الصورة البسيطة ليست بأهم ما في الموضوع، وذلك أن المعنى الذي أراده المعتزلة من وراء القول بأن القرآن مخلوق، إنما كان مقصود به بالدرجة الأولى تنزيه الذات الإلهية، والحفاظ على نقاء عقيدة التوحيد كما جاء به الإسلام وحدث عنه القرآن، ذلك أن المعتزلة قد رأوا أن في القول بقدم القرآن الاعتراف بوجود قديم آخر غير الله، وهي شبهة وثنية وتعدد يتنافى مع عقيدة التوحيد، لذلك قالوا: إن القرآن مخلوق من حيث هو كلمات وحروف وأصوات ومداد مكتوب في الصحائف، وهو (محدث مخلوق) بل هو بهذه الصفات فعل الإنسان المتكلم به والقارىء له والكاتب لآياته، وقال أغلبهم: إن القرآن كما نحكيه نحن الآن ليس هو ذات (المحكي) من الله سبحانه، فإن الحكاية في (المحكي)، والذي نحكيه نحن كلام وصوت وحروف ومداد، أما المحكي عن الله سبحانه فهو المعنى، ولقد عبر الرسولﷺ عن هذا المعنى بلغة العرب التي جاء بها القرآن.
أما خصومهم فقالوا: إن كلام الله هو المسموع قديم أنه غير مخلوق ولا محدث، وينقلون عن (الملل والنحل) أن الآية التي تقول: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ والتي توهم المجبرة فيها دليلاً قاطعاً على ما يقولون يفسرها الإمام (يحيى بن الحسين) في كتابه (الرد على ابن الحنفية) يفسرها بواسطة آية أخرى عندما يقول: إن الله سبحانه لم يقل (أضللت ولاهديت) في هذا الموضوع لأنه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف ذكر ذلك، وكيف قاله ومن فعله، فقال سبحانه في سورة ابراهيم:
﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾، كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلّا مادة وزيادة للمؤمنين وحرباً ونقمة على الكافرين الظالمين، ألّا ترى كيف يقول ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يقل الذين ظلموا؟ غير أنه لم يثبت غير المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضل إلّا الظالمين المستوجبين اسم الضلالة بفعلهم، ويخبر سبحانه عن قدرته في خلقه، وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنه لم يرد ذلك إلّا من جهة التخيير منهم والاختيار لعبادته والرغبة فيما رغب والوقوف عما حذر منه، وإنما قوله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ تخييراً عن نفسه واثباتاً أن له القدرة على كل شيء، ومن ثم ينعى الإمام (يحيى) على المجبرة عدم ربطهم بالآيات بسياقها إذ لو ميز وأما قبل هذه الآيات وما بعدها تبين لهم الحق ووضح، انتهى القرآن نظرة عصرية جديدة (المعتزلة والقرآن) بقلم محمد عمارة.

فالمعتزلة يرون أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وباختياره، فله فعلها، وله تركها وأدلتهم كثيرة منها:

أولاً: ما يشعر به الإنسان من التفرقة بين الحركة الاختيارية عند تحريك يده وبين الحركة الاضطرارية في الرعشة، فالحركة الأولى مرادة من الإنسان ومقدرة منه إن شاء فعل وان شاء ترك، أما الحركة الثانية فلا سلطان له عليها، فهو لا يستطيع أن يوجدها إذا لم تكن، ولا يستطيع ردها إذا جاءت، ويستدلون على ذلك من الكتاب كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، وقوله أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾، فالآيتان دالتان على أن للإنسان مشيئة وإرادة.

ثانياً: إن الله سبحانه عادل ومقتضى العدل أن تكون أوامره ونواهيه موافقة لإرادتنا ولو كان التكليف لغير مريد وغير قادر لكان ذلك خارجاً عن مقتضى الحكمة، فإذا حوسب المكلف الذي لا إرادة له ولا قدرة يكون حسابه غير عادل، والله سبحانه حكم عدل، ويستشهدون على ذلك بآيات قرآنية كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ﴾، وقوله أيضاً ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾، فالثواب والعقاب يتعلقان بأعمال الإنسان.

ثالثاً: إن الله سبحانه فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، فإنه أعانه بخلق الأعضاء وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، ولكن أولياءه اختاروا لأنفسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لأنفسهم الكفر من غير أن يكون سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان أو خذل هؤلاء بما أوجب لهم الكفر.

رابعاً: ما يلقاه الإنسان في الآخرة من نعيم فهو ثمن لأعماله

الحسنة، وما يلقاه من عذاب فهو جزاء لأعماله السيئة، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾، وقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾.

ولولا ارتباط الجزاء بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً أو أجراً أو ثواباً من معنى[1].

خامساً: وزن الأعمال يوم القيامة: دليل على تعلق الثواب والعقاب بالأعمال، كما أنه دليل على تعلق الأعمال بأصحابها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾.

هذا من احتجاجات المعتزلة في تقرير حرية الإنسان، وإضافة كسبه إليه، فما عمل من خير فهو منه وإليه وله، وما عمل من شرّ فهو منه وعليه.

وفي مقابل هذا الرأي رأى جماعة الجبرية الذي يضع الإنسان مسيراً لا مخيراً، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً مذكوراً، فهو حلقة في سلسلة الموجودات من حيوان وجماد فكما لا ينسب للحيوان فعل إرادي فكذلك لا إرادة للانسان.

وليس عندهم للعبادات والطاعات معنى إلّا مجرد امتثال الأمر دون أن يكون سبباً للسعادة في الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة، ولا يقرون الأسباب والمسببات، فليست النار سبباً للإحراق، ولا الماء سبباً للري، ولكن يقع مثل هذا بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا والتكليف بالشرائع تكليف بما ليس من فعل الإنسان، فالله كلف العباد بأفعال ليسوا قادرين عليها، وقالوا: ليس في الكون معصية، إذ الفاعل

---

(١) التفسير القيم ص ٢٧٣، وأهداف الفلسفة الإسلامية ص٤٢.

مطيع للإرادة[١]. والمعنى أن الإنسان مجرد أداة تنفذها إرادة الله، فالإنسان عندهم مجرد من كل إرادة.

وعلى هذا الرأي فيكون الإنسان أسوأ حالاً من حال الحيوان الذي يهتدي بفطرته الغريزية فيتجه إلى ما ينفعه، ويبتعد عما يضره، ويدافع في طريق حاجته ونجاحه.

وقد علل الأشعري تعليلاً (كحل وسط) بين الجبر والاختيار، أو بين القائلين بالجبر وبين القائلين بالاختيار، فجاء يقول (بالكسب) ومعناه - كما يزعم- الاقتران العادي بين القدرة المحدثة - أي قدرة الإنسان - والفعل، فالله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند إرادة العبد وقدرته لا بقدرة العبد وإرادته[٢].

ومما لا شك فيه: أن اختلاف الآراء حول موضوع القضاء والقدر في الإسلام نشأ عن اختلاف النصوص وتباين الآراء، والاختلاف في تأويلها، وعدم رد المتشابه منها إلى المحكم الصريح الذي لا يتنافى مع العدل الإلهي، كما أمر الشرع والشارع ﷺ ومن جهة أخرى - ولعلها الأحرى- فقد شجع على القول بالجبر قيام حكام وقادة مسلمين حرفتهم السيادة والسيطرة وحب الدنيا بعد الخلفاء الراشدين - عن الخط الإسلامي الصحي، فالإسلام - كما عرف- لم يملأ قلوبهم ولم تتعرض نفوسهم لنفحاته القدسية لا سابقاً ولا لاحقاً، فأخذوا يشترون أمثالهم ويبذلون لهم

---

(١) هذا القول: سبق إليه ابليس لعنه الله - فقد اعترض على خالقه حين عصى أمره ولم يسجد لآدم فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٣٩﴾﴾، وهذه الحجة باطلة لا تدفع عن المخلوق سوء ما يعمل، ولا تخليه من المسؤولية عن جرائمه، ولا غرو أن كل إنسان يحسّ نفسه أنه هو الفاعل لكل ما يعمل، وأنه يعمل بمحض إرادته، إن الذي لا يؤمن بالله احسن حالاً في هذا الموقف من أولئك الذين يؤمنون بالله ثم يلقون اليه كل آثامهم وتبعاتهم ومخازيهم، وهذا القول مرفوض عند كل ذي لب.

(٢) هذا القول: لا بد أنه تهرب من القول (بالجبر) لمخالفته العدالة الإلهية عقلاً وفعلاً، ومخالفة للقول بالاختيار.

الأموال، وهؤلاء -بدورهم - أخذوا يضعون الأحاديث الكاذبة عن الرسولﷺ[1].

ويفسرون القرآن وفق مصالحهم ومصالح حكامهم كأمثال أبي هريرة مع معاوية وغيره[2].

وإليك بعض ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود نقلاً عن الجاحظ، وما كتبه هو نفس الحقيقة والواقع كما يتضح للمطلع: إن الذي مكن بالجبر في الإسلام وعمل على اشاعته بين عامة المسلمين: هم بنو أمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، فإن استيلاءه على الحكم والخلافة كان في نظر أكثر المسلمين مخالفاً لأصول الخلافة وخروجاً على قاعدتها الديمقراطية -الشورى- وإن الملابسات التي رافقت التحكيم والدور الذي لعبه عمرو بن العاص -كل ذلك كان معروفاً عند المسلمين، ولذلك أراد

---

(١) قال العلامة الشيخ محمد عبده المصري في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) إن الحديث الموضوع المنسوب إلى الرسولﷺ كذباً، إن له أسباباً: أحدها وأهمها المسلمين، إلى قوله: والرابع قصد التقرب من الملوك والسلاطين تقرباً للدنيا، وقد وضع ستة أسباب تركناها لأننا ذكرناها سابقاً في موضعها اللائق،ولا ننسى كيف اشترى معاوية أبا هريرة فوضع أحاديث ليس لها حقيقة، وكان الخلفاء الأربعة منعوا حديثه والأخذ به لكذبه، كما كذبته عائشة، ومن قرأ كتاب (شيخ المضيرة أبو هريرة) للأستاذ محمود أبي رية لا تنقصه معرفة هذا المحدث والراوي الوضاع.

(٢) في كتاب (بين عالمين) للأستاذ مصطفى الكيك يقول: إن حرية الفكر أصيبت بضربة شديدة من أهل السنة الذين جمدوا التفكير العلمي بمعارضتهم لكل جديد من الرأي واعتباره ابتداعاً أو خروجاً على ما جاء في القرآن والحديث مع أن القرآن والحديث يحثان على البحث والتأمل في الحياة ومظاهرها بل وفيما وراء المادة، والسر في هذا التوقف وغلق باب الاجتهاد هو دخول العالم الإسلامي في مرحلة الضعف التي زادته الحالة السياسية تعثراً، وذلك حينما هوى العالم الإسلامي في الظلام الدامس وتوقف عن التطور وتوالت عليه حكومات مستبدة ساندها العلماء التقليديون ووالوها وأيدوا الأمراء والسلاطين إلى قوله: أما الاجتهاد فقد قالوا: إن طريقة أغلق بعد ظهور اصحاب المذاهب الأربعة، وأما المنطق والفلسفة فقد اعتبروهما كفراً... إلى قوله:
وكان من نتائج ترك الاجتهاد اهمال العقل، وقطع طريق العلم والحرمان من استقلاله وظهور حصيلة ضخمة من الخرافات والبدع.. الخ.

الحاكمون أن يشيعوا بين الناس- العامة والدهماء، أن كل حركة من حركات الإنسان، وكل ما في الكون، إنما يتم بقضاء الله وقدره، وأن الإنسان مجبر فيما يأتيه من الأعمال، وأن الخلافة بناء على ذلك جاءت بقضاء من الله وقدره.

وهذا القول يبرر انتقال الخلافة إلى يزيد وأمثال يزيد، وجعلها ملكاً عضوداً متوارثاً بعيدة عن رأي المسلمين واختيارهم وشوراهم، بخلاف النص القرآني، وأمرهم شورى بينهم، كما يبرر كل ما يقوم به الطغاة والمستبدون الظالمون من المظالم[1].

ويروى عن عطاء بن سيّار ومعبد الجهني، وهما ممن كان يقول بالإرادة والاختيار: أنهما جاء الحسن البصري وسألاه قائلين: يا أبا سعيد: إن هؤلاء الحكام والملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله، كذب أعداء الله.

وجاء في كتاب المبادىء العامة في الفقه الجعفري: إن مذهب المرجئة يرى أن المعاصي مهما كان نوعها لا تتنافى مع الإيمان، كما لا تنفع مع الكفر الطاعات، وليس لأحد أن يحكم على أهل الكبائر بشيء في الدنيا ويقول مؤلف الكتاب المذكور: جاء في بعض الروايات: أن أبا سفيان الثوري، وشريك والحسن بن صالح وابن أبي ليلى وكلهم فقهاء اجتمعوا بالإمام أبي حنيفة فسألوه عن رجل قتل أباه ونكح أمه وشرب الخمر في رأس أبيه، فقال هو مؤمن؟ فأطلقوا ألسنتهم في سبّه.

وجاء في هذا الكتاب: إن فكرة الإرجاء التي حدثت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بين العلماء، كانت تمثل رغبة الحكام وإن

---

(١) عن الفكر الفلسفي في ضحى الإسلام للأستاذ أحمد امين.

لم تكن بوحي منهم، لأنهم مارسوا جميع أنواع المنكرات وسموا أنفسهم أمراء المؤمنين، فاحتاجوا إلى من يمنحهم صفة الإيمان، ووجدوا عند أصحاب هذه الفكرة منفساً لشرعية خلافتهم والتمويه على الناس بإيمانهم، ولهذه الغاية كانوا يخادعون الناس والعلماء بالأموال ومظاهر التعظيم والتقديس[١].

قال الجاحظ: إن معاوية حول الخلافة إلى ملك كسروي وغصب قيصري[٢] وله به كلام طويل، اختصرناه لضيق الوقت وإيجازاً، وليس من مطلع على التاريخ الإسلامي في قرونه الثلاثة الأولى من يرتاب بهذه الأقوال والأعمال المستنكرة التي قام بها الحكام في تلك الحقبة من الزمن[٣].

---

(١) كتاب الفقه الجعفري: تأليف الأستاذ هاشم معروف وهو كتاب ضخم في التشريعات الفقهية والجعفرية وتناقضات المذاهب الأربعة وهو كتاب مفيد.

(٢) قال الأستاذ حسين أمين: نحن نعلم يقيناً أن الكثير مما نخاله من الدين قد أضيف إليه وأقحم فيه على مدى قرون وقرون، من تصارع الأهواء والفرق وشيوع الجهل والخرافة والحرص على ارضاء الولاة والسلاطين والتأويل الزائف من قبل أصحاب المذاهب للقرآن والعدول عن التفسير الصحيح للقرآن إلى تفاسير تخدم أغراضاً مستجدة، واختراع الحديث من أجل فرض الرأي، والمبالغة في تقديس الأولياء وكتابه السيرة النبوية على نحو يتمشى مع قيم العصر الزائلة، والكذب الذي يحسب أصحابه أنه يخدم الإيمان، كل هذا وغيره قد بات تراثاً دينياً ثقيلاً يضل المؤمن في متاهاته، وقد يعتنق بعضه، وهو ليس من الدين، كذلك فالأحرى بالمسلمين أن يصرفوا همهم إلى محاولة النفوذ إلى حقيقة الدين وتنقيته مما علق عليه من شوائب الوضع ويجمعوا ما استخلصوه من جوهر ثمين (نقلاً عن مجلة العربي عدد ٢٣٥ حزيران ١٩٧٨).

(٣) قرأت للدكتور والشاعر الأديب الحموي المعاصر وجيه البارودي، مقطوعة من ديوانه الغواني استخرجت منها ابياتاً تصلح أن تكون تعليقاً هنا.

قال:

فيا رب باسمك كم توجوا جفاة وكم اهلكوا من ثقاة
وكم حللوا ثم كم حرموا فصول مآسٍ من المضحكات
يا رب باسمك كم اسدلوا حجاباً كثيفاً على النيرات
فجف سراج الهدى وانطفا وخيم جهل على الكائنات

١١- مشكلة الإنسان: بين القضاء والقدر، والجبر والاختيار:

ما فتئت ولا تفتأ الأقوال مترددة في نفوس البشر عن القضاء والقدر والجبر والاختيار، وهي قديمة وكثيرة، فالإنسان يعيش متردداً بين أن يفعل أو لا يفعل، بين أن يستجيب لهواه ونوازعه، وبين أن يرضخ لدعوة العقل والحكمة، فهو دائماً يذكر القضاء والقدر - أصاب أو أخطأ -، - نجح أو أخفق في مسعاه-، شمله نفع أو مسه ضر، فهو يضيف اليهما الكثير مما يقع به وله وعليه، وأكثر ما يضيف اليهما نتائج الفشل، وحصائد الأعمال السيئة لتكون حجة في إدباره قضاياه التي تفلت منه عن عجز وسوء تدبير.

١٢- الخير والشر في واقع الحياة:

إذا كان الله سبحانه أنعم على العبد وعرفه طريق الخير وطريق الشر، وطريق النفع وطريق الضر، عرفه الحلال والحرام، وأعطاه القدرة في الفعل، وجعل له عينين ولساناً وشفتين وهداه النجدين، منحه العقل ليستضيء بحكمته على ما يريد ويفعل، فالإنسان تستوجب محاسبته على تصرفاته لأنه قادر على تقييم أعماله ووزنه في ميزان العقل الذي يريه ما هو خير له وما هو شر عليه، بل الإنسان على نفسه بصيرة، ففيه ما أودع الله من قوى يدرك بها الأمور، ويميز بين النافع والضار، وتعلل بالأسباب والمقادير لا يقيم له حجة تسقط عنه المسؤولية.

ومنذ القديم ووجود الشر يستلزم البحث ويثير الجدل، ويستلفت التساؤل، لماذا وجد الشر؟ فالسؤال قائم بالذهن، وعن نشأ الصراع الحاد بين الفلاسفة ورجال الدين، ويقوم الجدل والتساؤلات، أيريد الله الشر، والله خير محض؟ وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في العالم رغماً عنه؟ وهو القادر القاهر فوق عباده، أم يحدث وهو عنه راضٍ، أيرضى الله عن الشر أم يكرهه؟ إن رضاه بالشر يتنافى مع كماله، وإذا كان يكره الشر، فكيف يوجد مع كراهته له؟

أيحب الله أن يعصى، والعصيان كفر، والله لا يرضى لعباده الكفر ؟؟؟.

الى الكثير من هذه التساؤلات التي تحوم على الذهن وتثير الجدل والشكوك، وكما وعدت سابقاً سأنقل للقارىء الكريم ملخصاً موجزاً عما قيل في هذه المشكلة التي تعددت فيها الآراء والتساؤلات وضلت في متاهاتها الأقوال والأفهام، وقد أترك للقارىء الواعي والمستبصر مناقشتها على ضوء فهمه وعقله واستبصاره ليأخذ الصحيح السليم منها الذي ينطبق مع الحياة والعدالة الإلهية، ويسير بعدئذٍ على النهج الذي ارتضاه لنفسه وللواقع في دنياه وآخرته.

١٣- الشر في مفهوم الإسلام:

لم يورد الإسلام اتباعه ومعتنقيه إلى هذه المواقف الخاسرة والمترددة بين الحيرة والشك بل صرفهم عنا بتعريفهم طريق الخير وطريق الشر، مسالك الخير ومنزله وثمراته ودعاهم اليها، ثم أراهم مزالق الشر وحسراته خوفهم منه، ونهاهم عن الخوض في القدر، قال ﷺ: امسكوا عن القدر، وفي حديث آخر: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم، وقال ﷺ: هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً، وقال الإمام علي عليه السلام عن القدر: طريق شائك فلا تسلكوه.. الخ، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق فلا حاجة لتكراره أكثر.

ولكن المسلمين بعد اختلاطهم بالأمم كالهنود والفرس وبعد اطلاعهم على فلسفة اليونان، استجابت عقولهم واستحسنت الدخول في مشكلة القضاء والقدر، والخوض في معركتها، فبعضهم عللها بقلب المسلم المؤمن الذي يريد الكشف عن معلومات جديدة، وبعضهم أخذها وأثارها خدمة لمصلحته وأهدافه كما أخذها معاوية وأنصاره وخلفاؤه.

وبعضهم دخلها بعقل الفيلسوف الذي يريد الوصول إلى قناعة كافية ببحثه المشكلة والأصح كانوا فريقين: المعتزلة وأتباعهم من المفوضة والفلاسفة وأتباعهم من المتكلمين، وبقي فريق ثالث هم أهل السنة من الأشاعرة وغيرهم الذين لم يتجاوزوا حرفية الشريعة والنص من الكتاب وسنة الرسول، ولكنهم مع انقسامهم هذا متفقون جميعاً (ما عدا اصحاب حرفية الشريعة)، على أن الإسلام ينظر إلى الفرد نظرة احترام وتقدير، ويجعله هو الذي يتولى تقييم ذاتيته، سواء من قال منهم بالأسباب والمسببات، ومن قال بعلل الأشياء ونتائجها، بشرط أن يتجلى الفرد بالفضيلة، ويبتعد عن الرذيلة، أو بمعنى أوضح، أن يتحلى بالمأمور فيه من الخير وينهى عما نهي عنه، يتجلى بالأخلاق والقيم، ومن هنا تعددت لديهم طرق الوصول بالفرد إلى تقييم ذاتيته، وهذه النظرية -بالنسبة للفرد الذي يتولى تقييم ذاتيته تلتقي مع أحداث النظريات الأخلاقية المثالية التي تعنيها الفلسفة الحديثة من رفع كيان الإنسان[١].

بعد هذا التمهيد أرى أن نستمع إلى أقوال الفلاسفة والمفكرين، ونبدأ بفيلسوف كبير هو تومس بين فنراه يقول: إن الطبيعة وهي مسيرة بالقوانين، وإن الحقائق الفردية لا وجود لها في منطق العقل، فهذا الفيلسوف لا يعترف في عالم الواقع بالوجود الفردي لمعنى من المعاني أو حقيقة من الحقائق ولا يضمن بقاء الأشياء عنده إلّا المزاوجة التي تجمع بين الشيء وضده، فالحق ضد الباطل، والنور ضده الظلم، والخير ضده الشر، وهكذا عن طريق الثنائية نشأ الارتباط بين الخير والشر، فإذا ذكر الخير،ذكر الشر معه، فهذان اللفظان هما ميزان الحياة الذي يقدر به الإنسان كل شيء يعمل له أو يدعه الخير في كفة، والشر في الكفة

(١) القضاء والقدر: الأستاذ عبد الكريم الخطيب، واعتمدنا بالنقل عن هذا الكتاب لأنه يشتمل على أكثر ما قيل في هذه المشكلة قديماً وحديثاً.

الأخرى، وعلى وزن هاتين الكفتين يقع حساب المرء نفسه وحساب خالقه له[1].

فما هو الخير وما هو الشر، وبالتعرف على أحدهما نعرف الآخر، وبضدهما تتميز الأشياء.

تعال معي أيها القارىء الكريم لنأخذ كلمة الخير، ونشرحها لأنها أكثر اشاعة بين الناء وترددا على الألسن، فنرى معناها يتماشى مع ميول الناس ونزعاتهم وأذواقهم، وعليه فيكون الخير هو ما أصاب هوى في نفس الإنسان وحقق رغباته واهدافه من لذة أو راحة أو غنى أو أدب أو علم أو جسد أو روح، أي حقق للإنسان الفرد ما يصبو اليه ويميل اليه وعلى هذا تختلف معايير الناس في الخير لاختلاف رغباتهم وأهدافها.

فربما كانت جريمة العقل خيراً عند القاتل، بينما عند المقتول (شر) وهي عند الناس أيضاً شرّ والسرقة عند السارق خير، وهي عند المسروق شر، وربما حكم القانون على شخص بجريمة ارتكبها بالسجن، فالسجن عند هذا الشخص شر، بينما هو في القانون وعند الناس (خير) يمنع حدوث مثلها... وهكذا.

١٤- الخير والشر عند ابن سينا وابن القيم الجوزية:

يرى ابن سينا أن القضاء هو علم الله المتعلق بالكل، وأن القدر هو إفاضة الكائنات على حسب ما في علمه، فالكل صادر من الله ومعلول له، وإذا كان الأمر كذلك،فكيف يتفق أن يكون هذا العالم فائضاً عن الله وهو مفعم بالشرور والله خير محض؟.

ولكن ابن سينا يجيب على هذا الاعتراض، فلندعه يقول: نبحث أولاً

---

(١) سئل الإمام علي عليه السلام عن الخير والشر فأجاب السائل بقوله: لقد سألت عالماً خبيراً، إن الله خلق الخير والشر، والعباد العاملون بهما.

عن معنى الشر ليسهل علينا بعد ذلك أن نجيب على ما يعترض به، فكلمة شر يطلقها الناس على اشياء متعددة منها أمور عدمية كالموت والجهل، لأن أضدادها هي الحياة والعلم، ومنها أمور وجودية، وهذه أصناف كثيرة، فمنها ما يحبس الأشياء عن كمالها، وذلك كالبرد الذي يحول بين الثمار وبين النضج، ومنها الأفعال المذمومة كالظلم والزنى مثلاً، ومنها الأخلاق الرذيلة، وهي الهيئات الراسخة في النفس التي تحول بين الناس وبين الكمال، ومنها الآلام التي تحرم الإنسان الراحة،و تجعله شقياً في الحياة، هكذا يستعرض ابن سينا أنواع الشرور ويناقشها فيقول: هذه هي أغلب ما يطلق عليها أنها شرّ، فهي هي من حيث إنها شر لها وجود ذاتي؟ ويجيب قائلاً: الأمور العدمية كالموت مثلاً من الظاهر أنها لا وجود لها بل هي عدم وجود[1].

وأما ما حال عن الكمال (كالبرد) فهي من حيث هي ليست شراً، بل هو بمقتضى عليّة من كمال الوجود، وإنما صار شراً نسبة إلى الثمار لحيلولته دون كمالها، فالشر عارض له، والشر في الحقيقة هنا هو فقدان الثمار ما يجب أن يكون لها من الكمال، فالشر هنا أمر عدمي، وكذلك الأفعال المذمومة كالظلم مثلاً، فإنه من حيث هو معلول للقوة الغضبية ليس بشر على الإطلاق، فإن الظلم من حيث ذاته، ومن حيث هو مقتضى للقوة الغضبية، كمال لهذه القوة فالظلم شر بالقياس إلى المظلوم، وكذلك الأخلاق الرديئة والآلام ليست شراً، من حيث هي إدراكات، ومن حيث هي أمور وجودية في نفسها، ومن حيث صدورها عن علتها، وإنما هي شر بالقياس إلى النفس التي فقدت كمالها، وما يجب أن تتحلى به من الفضيلة.

ويعود ابن سينا فيقول ويجمل هذا التفصيل في وجوه الشر والجهات

---

(١) المعنى: إن الموت صفة سلوب، والصفات السلبية لا يحس بها أحد، فلا يحس الحي بالموت.

التي يضاف اليها فيقول: فالشر من حيث ذاته أمر لا وجود له وإنما هو أمر يعرض للأشياء التي يكون وجودها عن علتها خيراً في الوجود، أو الشر في ذاته ليس إلّا عدم وجود، أو عدم كمال الموجود، من حيث إن ذلك العدم غير لائق به، والشرور أمور اضافية مقيسة إلى أفراد شخصية[1]، معينة.

وأما في نفسها، وبالنسبة لما يجب أن يكون عليه الكل من النظام، فلا شر أصلاً، فالخير مقتضى بالذات، والشر مقتضى بالعرض، والأصل في الوجود أن يكون خيراً، وإنما يعرض له الشر لأشياء خارجة عن ذاته[2]. وبهذا نرى ابن سينا يؤمن أن هذا الوجود خير لأنه صادر عن حكيم كامل، والحكيم الكامل لا يصدر عنه شر، فلا يصدر عنه إلّا الخير، والذي يظهر في الحياة من أشياء ونسميها شروراً فهي في أصلها خير، ولكن اتصالها ببعضها، أو اتصالها ببعض الأمور يجعل منها شراً، ولكنه شر (اضافي) بالنسبة للغير الذي اتصل به، وأما ما وراء ذلك فهو خير يؤدي وظيفته في كمال الوجود وحسن نظامه.

وندع ابن سينا لنرى ابن القيم الجوزية يقول: إن النار كمالها في إحراقها فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير، وإن صادفت ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته، فهو شر إضافي بالنسبة إلى المحل المعين، فالأمور الوجودية ليست شروراً بالذات، بل بالعرض، فإنك لا تجد شيئاً من الأفعال التي هي شر إلّا وهي كمال بالنسبة إلى أمور، ومن جهة الشر فيه بالنسبة إلى أمور أخر،فدخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة لا أنها من حيث وجودها وذراتها شر[3].

---

(١) أي أن الشرحين يقع على فرد قد يكون في الوقت ذاته خيراً للكثير من الأفراد.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني.

(٣) شفاء العليل لابن القيم الجوزية.

نحن نعلم أن ابن القيم الجوزية جاء بعد ابن سينا ويتفق مع ابن سينا، ويقرر رأيه، وكلاهما يقرآن نظرية واحدة، وإن الشر لا ذاتية له، وإنما هو شرارات تتولد من الخير باحتكاكه في الخير.

وهذه الشرارات ليست شراً في ذاتها، وإنما هي شر بالإضافة إلى أحد الطرفين المتصادمين أو كلاهما معاً، أما في مجرى النظام العام للوجود فلا يبدو للشر وجه أبداً، ورأيهما هذا ينزه الباري عن النقص ويفرده بالكمال المطلق.

وقد علمنا مما سبق عند كلامنا عن حرية الإنسان: إن الفلسفة المعاصرة تتفق وهذه الآراء في الفلسفة الإسلامية، فتنكر أن يكون للخير والشر أمراً ذاتياً في الأشياء، فليس عند هؤلاء الفلاسفة ما هو خير وما هو شر في ذاته، وإنما الخير والشر أمر نسبي يظهر في تفكير الفرد حسب تقديره ولهذا فإن الشيء الواحد يكون خيراً عند انسان، بينما هو شر عند آخر أو آخرين.

ويرى بعض هؤلاء الفلاسفة: أن هناك عالماً هو عالم الخير المحض والحق المحض، وأن هذا الخير والحق: إنما يفيضان من نبع القدرة الإلهية التي تقوم على هذا الوجود وتدبير اموره ولما كان الإنسان فيه جانب من عالم الحق والخير هو جانب الروح، يجب أن ينزعه بسلوكه الى عالم الحق والخير ويتجه بآماله إلى هذا العالم ليبرز الجانب العلوي من كيانه الإنساني.

وقد رأينا الفيلسوف وليم جيمس ينكر أن يكون في الأشياء ما هو خير وما هو شر، وما هو حسن وما هو قبيح، إلّا أن يرجع في هذا الإحساس الشخصي لكل فرد تجاه الأشياء فما يراه خير فهو خير، وما يراه شر فهو شر، فالحسن ما استحسنه الفرد، والقبيح ما استقبحه.

أما الأشياء في ذاتها فليس لها حسن أو قبح، وليس فيها خيراً أو شراً،

كما نرى هنالك فيلسوفاً كبيراً هو (هيجل) يقرر ما سبق فقرره مفكرو الإسلام من عدم ذاتية الشر، وأن ما يبدو شراً إنما هو خير في النظام العام للكون[1].

١٥- رأي الفارابي

ولا يجوز لنا أن نمر دون أن نأخذ رأي فيلسوف اسلامي شهير درس المشكلة بعمق وهو الفارابي، فنراه يقول: ليس في العالم شر فيما تجاوز الفلك الأدنى -فلك القمر، وهو فلك الممكنات فالموجودات الواجبة لا يصدر منها ضرورة غير الخير، فالعقول العليا هي من الموجودات الوجودية لأنها على اتصال متفاوت بواجب الوجود، فكل ما يصدر عنها خير محض لا يشوبه الشر ولا تخالطه الرذيلة، فالشر من عالم الإمكان يكثر فيه النقص، وتتزاحم فيه الحدود، ويكون التزاحم أو التغالب سبباً للعدل أو الصلاح، ويأتي منه الخير لمن أولى بالخير إلى أن تخلص النفوس إلى عالم الوجوب، أو عالم العقل المحض، فينتفي الشر العارض، ويصمد الخير الأصيل.

---

(١) حياة الفكر في العالم الجديد، وفي كتاب الهبطة للعلامة الشيخ أحمد حيدر، المطبوع في ايران: إن الشرور الطبيعية كالحيوانات المفترسة والحشرات السامة والنيران المحرقة، والزوابع الممزقة، وما أشبه هذه الكائنات خير لأنفسها بأنفسها، وقد قيل لو كان السم بذاته شراً لقتل العقرب قبل كل شيء، ولو كان السلاح بذاته شراً لقتل صاحبه الحامل له، قبل غيره، لا بل لم يتم نظام الكون، ولا تمت حاجاته، فخيرها اذاً بالذات، وشرها بالعرض، لذلك اتفق أكثر الحكماء والفلاسفة على أن الوجود خير محض، والشرور اعدام، ويقول: نعم، إن الله خلق الخير والشر وكل شيء، ولكن الإفاضات الإلهية كلها نوع واحد، كما أن مصدرها واحد، ولكن اختلاف الاستعدادات تحيلها وتكيفها إلى أنواع شتى، كنور الشمس الذي ينفذ من البلور والزجاج الصافي الملون فيعكس على الجدران المقابلة لون الزجاج، وكذلك الإفاضات الإلهية تصدر خيراً محضاً بتكيفها القوابل وتحيلها أنواعاً شتى من ضروب الخير وفنون الشر، ويقول: إذا كان المصاب بالشرور مؤمناً فجميع ما يصيبه هو تكفير لزلاته وحط لسيئاته، وإذا كان كافراً كان جميع ما يصيبه انتقاماً منه على سوء أعماله ومغالبته النواهي الشرعية والأوامر الإلهية، وهذا كله لم يتعد طور العدل، وقد ورد (النوازل) بالمؤمنين كفارات، وبالكافرين انتقام وزلات.

وقد يتبين للمطلع على هذه الفلسفة أن الفارابي يقول بالوجوب المقترن بواجب الوجود والفيض الذي ينبثق من وجوده على وجه اللزوم، ولكن ما يصدر عنه فهو خير محض لا يشوبه الشر وبهذا القول نراه يؤمن: بأن الله يوحي إلى العقل الفعال إن يصطفي العقول التي تتجه اليه بقدر مقدور، ولكن الشر من عالم الإمكان الذي يكثر فيه النقص، وهو عرض لا أصل له في عالم العقل والابداع، مع العلم أن ابن سينا الذي جاء بعد الفارابي يقول:

ليس في الوسع أن نتصور العالم الذي نحن فيه خيراً محضاً، فلو كان كذلك لما كان فيه محل للممكنات ممكنات الوجود، ولا للفوارق بين الأشياء، ولا أن نتصوره أيضاً شراً محضاً، لأنه لو كان كذلك لكان عدماً أو قائماً على الفساد، فلم يبق إلّا أن نتصوره عالماً يراد فيه الخير قصداً وأصلاً، ويأتي الشر فيه عرضاً لضرورة يقتضيها الخير[١].

وهكذا العالم الذي نحن فيه، فلا تكون النار نافعة لا إذا أمكن حصول الضرر منها بالإحراق، ولا يكون السحاب ضاراً بمحجبة الشمس عنا[٢].

وقد يكون الشر نقصاً كالجهل والضعف والتشويه في الخلقة، وقد يكون ألماً وغماً وفوات مقصود.

وهذا كله لا يتأتى اجتنابه في عالم يتسع للممكنات، فالخير أصل في العالم، والشر عارض من لوازم الخير المتاح للممكنات، وبهذا يتفق الفيلسوفان: الفارابي وابن سينا.

---

(١) قال القديس أوغسطين: يسمح الله بالشر من أجل خير أعظم.

(٢) يقول أفلاطون: إن الشر من ضرورات المادة في قصورها ومحاولتها التي تشرئب بها إلى ما هو أكمل وأعلى، والله سبحانه لم يخلق إلّا الخير ولا يصدر عنه إلّا الخير، وعند ارسطو: إن الله لم يضع الشر في العالم، وإنما كان علة لحركة العالم بالشوق اليه كما يكون المحبوب علة لاشتياق المحب وتحركه إلى لقائه، وهو صاحب الفضل في ارتقاء الهيولى إلى الصورة وارتقاء الصورة إلى الكمال.

يقول أفلوطين: إن الشر في العالم هو الهيولى، لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التي تلابسها ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها، وعلى النفوس أن تجاهدها وتنتصر عليها[1].

---

(١) نذكر هنا نظرية زرادشت الشهيرة عن الصراع بين الخير والشر وهي: ما نحن إلّا جنود ومجندون مدى الحياة في هذا الصراع، وقد أرادنا الله أن نحارب إلى جانبه لنجعل من العالم شيئاً أفضل، ونبطل الشر، ونوطد اركان الخير، وعنده: إن العالم ساحة قتال بين أهورمازدا روح النور وبين أهريمان قوة الظلام، ولكل من النور والظلام والخير والشر أهمية في جعل نمط الكون كاملاً، فعالم من غير شر مستحيل وجوده تماماً، كحياة بدون ألم ولا يجعل الحياة مثيرة شائعة إلّا عنصر التنافر بين الاثنين، وإسهاماً في جو متآلف من الفوضى الشاملة وتنحصر قيمة الخير في الانتصار على الشر تماماً، كما تنحصر قيمة الصحة في الانتصار على الألم، ويقول زرادشت: يتعاون الله معك ومعي لنخرج من الفوضى نظاماً، ومن القبح جمالاً ومن الحرب سلاماً، وعندما يصبي الناس لله قائلين: نجنا من الشر، يجيبهم الله: نجوا نفوسكم من الشر، إن عملنا معاً، أعاونكم وتعاونوني، وعقيدته: أن هناك جهاداً يشترك فيه الله مع الإنسان ضد الشيطان بعكس رأي نيتشه القائل: إن هناك مؤامرة يشترك فيها الشيطان مع الإنسان ضد الله، وأول من قال بإلهين هم حكماء الفرس، وقد رمزوا لإله الخير بالنور يزدان، ولإله الشر بالظلام أهرمن وقالوا: إن يزدان وهو النور أزلي قديم، وأما اهرمن وهو الظلام فحادث مخلوق، ويروي الشهرستاني أسطورة الحرب بين يزدان النور، وأهرمن الظلام، وتركناها خوف الاسهاب.
وزرادشت الذي يزعم المجوس نبوته يقول بالنور والظلام، وهذا المذهب يقوم على الاعتقاد بوجود إله واحد قديم لا شريك له ولا ضد ولا ند، وهو الذي خلق النور والظلام، ولا يجوز أن ينسب اليه وجود الظلمة، ولكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث، إنما حدث من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان للعالم وجود، وهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الشر، ثم يتخلص الخير إلى عالمه والباري تعالى هو الذي خلطهما ومزجهما لحكمة رآها في التركيب، ويقول زرادشت: إن النور هو الأصل وإن وجوده وجود حقيقي، وأما الظلمة فتبع له كالظل بالنسبة للشخص، ولما كان الباري يرى أنه موجود، وليس بموجود فقد أبدع النور، وحصل الظلام تبعاً، لأن من ضرورة الوجود (التضاد) ويلاحظ المطلع على هذا القول بأنه يقارب كثيراً ما تقول به الديانات السماوية من اجتماع الروح والجسد، فعالم الأرواح عالم نور وخير، وعالم الأجساد عالم ظلام وشهوة، وإن دعوة الأديان قائمة على الانتصار للروح والعمل على حمايته من تسلط الجسد عليه بظلامه وكثافته، كما يلاحظ أيضاً أن قول زرادشت بأن الخير والشر والصلاح والطلاح.. الخ إنما حدثت من امتزاج النور والظلمة يلاحظ أن هذا

١٦- ما تقول الشريعة الإسلامية حول الشر:

إن ما قدمناه من آراء الفلسفة الإسلامية والفلسفة المعاصرة القديمة لا تقف عنده الشريعة الإسلامية بحذافيره، بل تأخذ منه ما يتماشى مع منطوقها ونصوصها الأثرية.

فهي لا ترى الشر عدماً بالنسبة للخير، وإنما له كيان قائم بذاته إزاء الخير، فللشر ذاتية قائمة في هذه الحياة وعلى الناس أن يجاهدوه، ويحاولوا التغلب عليه والانتصار للخير، ويعملوا حسابه في موازنة الأمور التي تعرض لهم.

فالشر في رأي الشريعة الإسلامية موجود، ولكنه لا يرتفع إلى أكثر من ضرورات الحياة التي يعتبر الشر فيها عنصراً من العناصر العاملة في دفع عجلة الحياة، ودوران دولاب العمل فيها، ويمثلونه بالتيار السالب في الكهرباء، فبه تتم الدائرة الكهربائية، حين يتصل بالتيار الموجب لتظهر القوة الكهربية وتبرز آثارها.

وقد عدّد الإسلام وجوه الخير ووجوه الشر ليعمل الإنسان فيما ينفعه ويتحاشى ما يضره، والسلام يدعو اتباعه إلى الخير وينهاهم عن الشر، وأقام منهجه التربوي على هذا الاعتبار، وفرض على الأعمال ثواباً وعقاباً، فكل ينال جزاء عمله، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فالثواب والعقاب هما اللذان يجعلان للأمر

القول يتفق مع أحدث المذاهب الفلسفية التي تقول إن الخير والشر لا يوجدان خالصين، فالخير ممتزج بالشر، والشعر معه الخير، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ومن ادعية زرادشت: أرجو منك أيها الرب الخالق القادر المطلق أن تغفر لي ما ارتكبت من سيئات وما دار في خلدي من تفكير سيىء وما صدر عني من قول أو عمل غير صالح، إلهي أرجو منك أن تباعد بيني وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار والأخيار، وهو يوم النيروز الذي هو أقدس أيامهم وأعيادهم، ومن هنا يعلم المطلع أنهم يقولون بوجود خلاق.

والنهي قيمة واضحة الأثر في حياة الناس، إنهما الامتحان الذي يرون فيه أعمالهم ويلقون فيه جزاء ما عملوا - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1].

وطريق الإيمان الصحيح - كما تقول الشريعة الإسلامية - هو الإيمان بالقدر والتسليم بالمقدور والرضا به فالمؤمن بالله وقدره، إذا غلبته نفسه الأمارة بالسوء إلى مقارنة معصية يجب أن يسعى إلى ربه نادماً تائباً فيجد رباً غفوراً رحيماً يفتح له أبواب رحمته وغفرانه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

وللإنسان في كل وقت وكل حين أن يتوب ويستغفر ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، فالإيمان بالقدر خيره وشره يحفظ توازن المرء في السراء والضراء، فإذا أصابه خير حمد الله وقال: هذا من فضل ربي، وإذا نزل به مكروه أو أصابه سوء يقول: هذا من ذنبي، وإذا أصابه بلاء يتوقع من ورائه عواقب محمودة وثواباً قال:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

أما الاستسلام للقدر فليس من الإسلام في شيء، وليس مما يرضى به العقل، يقول ابن تيمية: الذين يحتجون بالقدر لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه، إنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم، كما قال فيهم بعض العلماء (أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري)[2].

---

(١) العبودية لابن تيمية.

(٢) كتب غيلان بن مسلم الدمشقي: إلى عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة كتاباً جاء فيه: ظهرت البدعة، وأخفيت العالم فلا يتكلم، ويعطى الجاهل ولا يسأل، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالامام، فانظر أي الإمامين أنت؟
فهل وجدت (ياعمر) حكيماً يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى أو يقضي ما يعذب عليه، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه؟ أم هل وجدت

فالإنسان الذي يعطل حواسه وجوارحه، ويميت مشاعره، ويلقي بنفسه متاهة العجز والتواكل ويحتج بأن قدراً سيقع سواء سعى أو لم يسع، هذا الإنسان ليس أهلاً للحياة ولا أن يعيش بين الناس أو يحسب في الأحياء.

يقول الأستاذ لبيب وجيه بيضون في كتاب تصنيف نهج البلاغة: من لطفه ورحمته أن لا يتخير للإنسان إلّا ما فيه صلاحه، فإن هو استفاد من هذا الصلاح سار في طريق الخير، فكانت حسناته بتوفيق من الله تعالى، وإن هو ترك هذا الصلاح، وسار في طريق الشر كانت سيئاته من فعل نفسه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾، فالله سبحانه لا يصنع الظلم ولا يفعل القبيح - إن الله لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم لا يظلمون.

فالله سبحانه خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وفضله على كثير من مخلوقاته بأن خصه بالقدرة والعقل والارادة، وأوكل اليه حمل الأمانة وجعله خليفته في الأرض ليمتحنه في عبادته وطاعته له، ومنحه عقلاً يميز به بين الخير والشر، ثم أعطاه القدرة، وهي شرط التكليف، ودعاه إلى فعل الخير، وأعطاه الإرادة والاختيار ليستحق الثواب والعقاب، على قدر إمكانيات الإنسان يكون تكليفه، فلا يكلف الله نفساً إلّا وسعها.

رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة؟ أو يعذبهم على الطاعة؟ أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟..، .. الخ.

والكتاب -كما ترى- يعني سياسة الحكام وخروجهم عن جادة السنة والكتاب، ليبرروا اعمالهم الفاسدة بادعائهم أن الله هكذا أراد وقضى وقدر، ولكن غيلان هذا قطع هشام بن عبد الملك يديه ورجليه بعد توليه الخلافة لأنه كان يعيب أفعال آبائه بني أمية فيقول فيهم: قاتلهم الله كم من حق أماتوه وكم من باطل أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه، ثم قطع لسانه.. (المائة الأوائل، الدكتور سهيل زكار، احمد غسان سبانو).

قال الإمام علي عليه السلام: إن الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى، ولم يرسلكم هملاً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، ولما سئل عن معنى (لا حول ولا قوة إلّا بالله) قال عليه السلام: إنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلّا ما ملكنا، فمتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا، ومتى أخذه منا، وضع تكليفه عنّا[1].

سئل الإمام علي الرضا عليه السلام ما معنى قول جدك الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين ؟؟ فقال عليه السلام: من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق والرزق إلى خلقه، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك.

وإن قول الإمام الصادق عليه السلام: ولكن أمر بين أمرين يعني أن أفعالنا من جهة هي أفعال حقيقية، ونحن أسبابها الطبيعية، وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى وداخلة في سلطانه، لأنه هو مفيض الوجود ومعطيه فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأن القدرة والاختيار فيما نفعل، ولم يفوض الينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر والحكم، وهو قادر على كل شيء ومحيط بكل شيء[2].

وفي الحقيقة: إن الإنسان مسير في بعض الأمور كتقدير الحياة والرزق والمرض والموت، فهو لا يحاسب على هذه الأشياء، وهو مخير في الأمور الأخرى التي يفعلها باختيار كالصلاة والصوم والتصديق وبرّ الوالدين وجميع أعمال الخير، ونقائضها باعتباره يعرف الأوامر والنواهي

---

(١) نهج البلاغة شرح ابن ابي الحديد.

(٢) تصنيف نهج البلاغة، شرح لبيب وجيه بيضون.

ويعرف طريق الخير وطريق الشر، وتلك الأعمال هي التي يحاسب عليه، ومن المحال أن يحاسب الله عبداً على عمل سلبه حق الاختيار فيه، وليس عمله تعالى في الأشياء ينفي الاختيار، نعم هو محيط بكل الأشياء والأفعال قبل أن توجد الأشياء وتحدث الأفعال، ولكن علمه بأفعالنا لا يستلزم أن تكون هذه الأفعال جبرية، بل تبقى اختيارية، فالإنسان يختار الطريق التي يريدها والله يعلم ما سيفعله باختياره، فعلمه سبحانه مستقل عن فعل الإنسان يلازمه ولا يلزمه، والله بكل شيء عليم.

روي أنه سأل بعض الصحابة الرسولﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت دواية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقيها، هل نرد من قدر الله شيئاً؟.؟

فقالﷺ: هي من قدر الله.

وبالنهاية ليس أنفع للعبد من امتثال الأوامر أوامر ربه، وإن شق عليه، فالعاقبة كلها خير -والعاقبة للمتقين- وليس شيء آخر أضر عليه من ارتكاب المنهي عنه، وإن هوته نفسه ومالت اليه، وأخيراً إذا كان نفع الإنسان يتوقف على امتثال الأمر، وضرره يأتي من ارتكاب المنهي عنه، فما هو هذا الإنسان؟ وما هو الأمر والنهي بالنسبة اليه؟؟.

هذا ما نعرضه باختصار.

١٧- الإنسان وكيف، ولماذا حمل الأمانة؟

هذا الإنسان هو الذي حمله الغرور والجهل على أن يطاول السماوات والأرض والجبال فيحمل عنها ما عجزت عنه بالرغم من ضخامتها وثقلها وامتدادها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هذه الأمانة قد تعددت الآراء في تفسيرها، وأخيراً آثروا أن تكون هي العقل الذي انفرد فيه الإنسان من بين جميع المخلوقات، وبصحبته (الأوامر والمناهي) والتكاليف الإلهية، وبهذا العقل استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في الأرض، وأن تناط به التكاليف، وهي أمانة في عنقه، وعليه أن يرعاها حق رعايتها، فإن أحسن الرعاية كان حسن الجزاء وإن قصر وأساء كان مستحقاً العقاب وعذاب الآخرة.

أجل بهذا العقل أصبح الإنسان كائناً آخر غير هذه الكائنات جميعاً - له إرادة - وفيه عزم وقوة، وله اختيار ولديه سلطان يقضي به في أمور الدنيا وشؤون الحياة فهو ليس جماداً لا حسّ فيه ولا حركة ولا حياة، وليس حيواناً تتحكم فيه غريزته تحكماً آلياً لا رأي له ولا إرادة.

هذا العقل هو الجانب الإلهي الذي أنعم الله به على الإنسان دون سائر مخلوقاته، وبه استحق التكريم من الله، فأمر الملائكة بالسجود له، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

فأي منزلة أسمى من هذه المنزلة التي تقوم فيها الملائكة الكرام بالسجود لهذا الإنسان؟

وما هو إلّا هيكل من حمأ مسنون؟

ولكن تعال معي أيها القارىء الكريم أيها المسلم المؤمن الذي يحب ويريد العلم والمعرفة واستجلاء الحقيقة، تعال معي ملياً، لنتعرف على هذا الإنسان وخلقته وتركيبه بخلاف غيره من الكائنات واستمع بإذن صاغية وقلب مقبل وبصيرة متروية لقول الله عن تركيبه لهذا الإنسان، قال

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤﴾.

هذا هو الكائن الإنسان في صورته الحيوانية، ولكنه يتجوز هذا الحد الذي هو والحيوان فيه سواء، فيدخل عليه عنصر جديد هو عنصر (العقل) وبه يتميز عن سائر المكونات، اسمع قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ... ۝١٤ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[1].

فهذا الخلق، هو الإنسان الذي سجدت له الملائكة، واستحق به اسم خليفة الله في الأرض ولم يخلق الإنسان هذا الخلق الفريد لا لحكمه، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾.

فللإنسان دور هام يجب أن يؤديه، وهو القيام بالتكليف والنواهي والأوامر على ضوء العقل، وهذه التكاليف هي امتحان ما دام يصحب هذا الإنسان العقل فإن زال زال معه كل تكليف، ورفع كل امتحان، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾[2]؟.

قال ابن عباس: يترك سدًى، أي لا يؤمر ولا ينهى، فالإنسان إنما خلق ليحمل أمانة الأمر والنهي، ولا يؤمر ولا ينهى إلا من أوتي عقلاً وإرادة، لأن حقيقة الأمر والنهي تتطلب عقلاً يزن ويقدر، وإرادة تمضي وتنفذ، وذلك لا يكون إلّا في كيان له ذاتية، وله تحكم في تقدير الأمور وتصريفها، وهذا لا يكون إلّا عن إرادة، ولا تكون إرادة إلّا عن عقل.

ولكن من تأمل جيداً في أوامر الله ونواهيه فقد يرى أن الله سبحانه يلقي أوامره على من يشاء من جميع مخلوقاته من إنسان وحيوان وجماد،

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

غير أنه سبحانه لا ينهى من بين هذه المخلوقات إلّا الإنسان وحده أما الكائنات الأخرى - عدا الإنسان- فإنها تؤمر ولا تنهى، ومصداق ذلك في كتاب الله، حيث يجد كثيراً من أوامر الله سبحانه صادرة إلى عالم الجماد من أرض وسماء ونار وجبال كقوله جل وعلا:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾(٣) ويقول: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾(٤)، فهذه الأوامر كان يمكن أن تجيء على صورة النهي -فمثلاً- يا سماء اقلعي، فقد يتحقق الأمر في صورة النهي هكذا: يا سماء لا ترسلي ماء أو يا سماء لا تمطري، وكذلك الأمر في يا جبال أوبي معه، يتحقق بصورة النهي، يا جبال لا تعصي له أمراً، ولا تخرجي عن طاعته، وكذلك الأمر في: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، يتحقق الأمر فيها على صورة النهي: يا نار لا تؤثري في ابراهيم، أو لا تؤذيه، ونحو ذلك(٥).

١٨- الفرق بين الأمر والنهي:

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: لا ريب أننا في القول: إنما نفرق بين واقع الأمر وواقع النهي من حيث الذات التي يتوجه اليها الأمر أو النهي، لا من حيث تساويهما فإن مدلولهما يكاد يكون واحداً، فإن الأمر

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٥) القضاء والقدر بين الفلسفة والدين، هذا تعليل سليم، ولكن أين البلاغة والفصاحة بعدئذٍ فقد تنقدها الجمل والألفاظ.

الصادر عن الله يمكن أن يتوجه إلى العاقل وغير العاقل على السواء أما النهي فلم يوجه إلّا للعاقل وحده، فلم هذا إذا كان مدلولهما واحداً؟

ورأينا أن التفرقة تقع بينهما من وجهين: الأول: أن الأمر الصادر من الله سبحانه يكون دائماً دعوة إلى الأعمال الطيبة، وأنه حين يصدر إلى غير الإنسان، فإنما هو تحريك للمأمورات إلى الغاية التي يريدها الله دون أن يكون لهذه المأمورات نزوع إلى غير هذه الغاية، لأن غايتها دائماً هي الخير الذي طبعت عليه.

أما النهي فلا يتوجه اليها، لأنه لا إرادة لها ولا نزوع، فلا تخرج على الوضع الذي أقامها الله عليه، ولو أرادت، وهذا مستحيل لأنها بلا إرادة كما وجدت القوة المنفذة، فلا يقال مثلاً في حياتنا نحن للشجرة لا تتحركي عن مكانك، ولا للكرسي، لا تأخذ مكاناً غير المكان الذي أنت فيه، وهكذا، لأنه ليس من طبيعة هذه الساكنات، أن تتحرك بلا محرك لها ولكن يجوز لك، مع قليل من التجوز، أن تمد يدك إلى الكرسي وتسحبه نحوك قائلاً: تعال هنا.

فإذا أمر الله سبحانه هذا الجماد الساكن ليغير من وضعه فإنما بأمره وقدرة الله هي التي تحوله من حال السكون إلى الوضع الذي يريده الله له، كما تمر يدك على الكرسي فتنقله من مكان إلى مكان، أما النهي فليس متوجهاً له، لأن الساكن سيظل ساكناً لا يتحرك إلّا بمحرك كما قلنا.

الثاني يقضي تنفيذه عملاً ايجابياً يحتاج إلى جهد، أما النهي فلا يقتضي تنفيذه عملاً ولا جهداً، فإذا كان الأمر متوجهاً إلى الجماد، فإن الجهد الذي يقتضيه التنفيذ يفيض عليه من علٍ، ويجيئه من الله، وإذا كان الأمر متوجهاً إلى الإنسان كان لا بد له من أن يبذل من ذاته الجهد المناسب لتنفيذ الأمر.

وأما النهي: لو قلنا: إنه متوجه إلى الإنسان وغير الإنسان، فامتثال النهي بالنسبة للإنسان وغيره سواء لا جهد فيه، ولا تغيير للوضع القائم عليه، وكل الكائنات من إنسان وغير إنسان، لو لزمت طبيعتها التي أوجدها الله عليها لما احتاجت إلى نهي.

والنهي إنما يكون إنذاراً لها لتظل على طبيعتها التي أوجدها الله عليها، فلا يتوجه هذا التحذير إلّا الى الكائن الذي يحاول الخروج عن الوضع الذي ارتضاه الله له، وذلك الكائن هو الإنسان.

وليس بين الكائنات من يحاول ويستطيع أن يحاول الخروج على سنن الكون ونظام الخير الذي أقامه الله عليه غير الإنسان، انه لا يستقيم على طريق الخير، ولا يرضى في كل حال أن يظل على هذا الطريق فتدعوه نوازعه إلى مجانبة طريق الخير، ولهذا كان هو الكائن الوحيد من بين المخلوقات الذي يتلقى من الله سبحانه نذر النهي والتحذير ليظل مستقيماً مع فطرته على طريق الخير، وذلك من رحمة الله ولطفه بعباده[١]، بعد هذا نستطيع أن نقول: إن الأمانة التي حملها هي هي هذه الأوامر والنواهي التي تلقاها عن ربه بعد أن انفرد عن المخلوقات جميعها (بالعقل).

وبعد معرفتنا مدلول كل من الأمر والنهي، نستطيع أن نعرف الحكمة من الأمر والنهي بالنسبة للإنسان، فهو مأمور، وقد لا يفعل ما أمر به على خلاف الكائنات، فإنها حين تؤمر، ولا تجد معها من القوى ما يخرج بها عن امتثال ما تؤمر به.

ونظر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾: أنه لا بد لهما أن تأتيا طوعاً أو

(١) القضاء والقدر، بقلم الأستاذ عبد الكريم الخطيب، نقلاً يكاد يكون طبق أصل.

كرهاً، أما الإنسان، فما أمر هذا الأمر الذي لا انفكاك منه إن طوعاً أو كرهاً. . . إنه يؤمر ويترك له التنفيذ على أي وجه يريد.

أما السماوات والأرض وغيرهما، فالأمر الذي يصدر إليهما أمر ذو حدّ واحد لا معدى عنه. .

استجابة مطلقة بلا تردد ولا اختيار، ولذلك كان جوابهما. . . أتينا طائعين.

والنهي يوجه للإنسان وحده، لأن من شأنه - كما قلنا- التحرك الارادي إلى كل جهة، وهذه الحرية في الحركة قد تخرج به إلى مجاوزة حدود الله التي أمر أن يلتزمها، فكان لا بد من أن ينبه إلى ما لا ينبغي أن يفعل من أمور يفارق بها طريق الحق والخير، وفي ظل هذا الفهم، نستطيع أيضاً أن نرى الوجود كله متجهاً وجهة واحدة وهي وجهة الخير، ما عدا الإنسان فإنه عالم وحده وسط هذا العالم، يتجه في كل ناحية يريدها واتجاه يروقه صاعداً وهابطاً، مستقيماً ومعوجاً، على خلاف الكائنات كلها فإنها ملزمة طريقاً واحداً لا تتجاوزه أبداً.

لنأخذ أذكى الحيوانات وليكن النملة مثلاً تجدها سائرة في طريق واحد، ملتزمة نظاماً واحداً لم تخرج عليه منذ كان لها وجود إلى اليوم، إنها لم تتحول من آكلة حب إلى آكلة لحم مثلاً لا في أفرادها ولا في جماعاتها، إن النملة الواحدة هي عالم النمل كله، من يوم أن ظهر في الوجود إلى اليوم والى ما بعد اليوم، فالنمل ليس فيه تمايز بين أفراده إلّا ما قضت فيه سنة الحياة من وجود الذكر والأنثى.

أما عالم الإنسان فهو عالم المتناقضات، كل إنسان عالم وحده، في افكاره وعواطفه ووجدانه وهيهات أن يتفق إنسان وإنسان اتفاقاً كاملاً في

كل رأي ومزح، وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

هذا الإنسان في جرمه الصغير وفي تكوينه الصغير العجيب، قد نظر إلى نفسه فوجد في كيانه شيئاً آخر يختلف عن جميع الأشياء.. وجد في داخله عقلاً يقدره على أن يطوي الموجودات تحت جناحه، ويضمها إلى قبضته، وجد قوى مدركة، وعواطف متدفقة، تجعل منه في كل لحظة شيئاً جديداً، فهو في كل لحظة إنسان جديد في وجوده.

من هذا شغل الإنسان بالبحث عن نفسه وعدها عالماً يقابل العالم الخارجي كله، وأخذت دراسة الإنسان وعالمه النفسي جانباً كبيراً من جهود الإنسان وتفكيره، ما الإنسان، ما عقله، ما روحه، ما نفسه، ما مكانه في الوجود، ما موقفه إزاء الموجودات، ما شأنه مع الأحداث؟ حرٌّ مطلق الحرية فيما يأتي أو يدع؟ أهناك قوة تصادم إرادته أو تعطل حريته؟؟؟.

هذه الأسئلة وكثير غيرها كانت دائماً شغل الإنسان ومحك عقول الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً دون أن ينتهي فيها خلاف وأكبر المواضيع التي شغلت الفكر هي مشكلة القضاء والقدر وحرية الإنسان وقيده واختياره، ودارت حولها المباحث الكثيرة منذ قديم الزمان وانتباه العقل البشري كما رأيت في بحثنا هذا - وأرجو أن يكون موضع إعجابك وتقديرك والله الهادي.

البحث الرابع
مذهب القائلين بالتناسخ قديماً وحديثاً

١- القول بالتناسخ:

القول بالتناسخ قول قديم، فليس هو جديداً على الأسماع والعقول، فكثير من الناس وأصحاب المذاهب والأديان القديمة على اختلاف عقائدها قالت بالتناسخ واعتقدته جاء في كتاب الملل والنحل[١] إن العقيدة بتناسخ الأرواح كانت مذهباً قديماً، وما من ملة من الملل إلّا وللتناسخ فيها قدم راسخ، ويعزى إلى كبار الفلاسفة الأقدمين مثل: سقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو..

وفي كتاب (نظرية تناسخ الأرواح)[٢] يقول المؤلف: ما من ملة من الملل إلّا وللتناسخ فيها قدم راسخ، ويعزى إلى كبار الفلاسفة.. الخ.

ثم يقول: وتسرب هذا المذهب حتى في أوساط اسلامية، وقد راج القول بالتناسخ في العصر الأخير كثيراً، وتداولته الصحف والمجلات وأصحاب الأقلام في الأقطار الإسلامية، وفي كتاب (ترجمة حياة المكزون السنجاري) يقول المؤلف: وبما أن الاعتقاد بالتناسخ وانتقال

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني.

(٢) نظرية تناسخ الأرواح، العلامة محمد هادي معرفة.

الروح من هيكل إلى هيكل آخر، أو عودتها بعد الموت قد عرفه الهنود والبوذيون والجينيون والمصريون والرومان، فقد عرفته (بالطبع) شعوب آسيا الوسطى إما مهاجراً إليهم شرقاً من مصر، أو مرتحلاً اليهم غرباً من الهند، وقد تسرب إلى المسلمين[١].

٢- الهنود والتناسخ:

يقول الهنود في عودة الأرواح إلى تجسدات كثيرة متكررة ولديهم الكارما، وهي بمثابة القرآن الكريم عند المسلمين، فالكارما تعني الجزاء على أعمال العبد بمقتضى العدل الإلهي، وتحاسب على الصغيرة والكبيرة، فلا تترك شيئاً صغيراً أو كبيراً إلّا أحصته، كما يقول القرآن الكريم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾..

ولكن الجزاء في الهندوسية يتم في الدنيا، في حين أنه في القرآن يتم في الآخرة، ولاحظ الهندوسيون الهنود أن الجزاء لا يقع أحياناً، ولذلك قالوا بتناسخ الأرواح، ويطلقون عليها تعابير مثل: تجوال الروح، وتكرار المولد.

وهذا كله يعني رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى جسم آخر في العالم الأرضي، باعتبارها عند خروجها يكون لها أهواء وميول وشهوات مرتبطة بالعالم المادي، فلها ديون وعليها ديون، ولا بد من الإيفاء والاستيفاء، ولا يمكن ذلك إلّا في حياة متعددة أخرى، وعندما تكتمل الميول وتزال الديون تنجو الروح من تكرار المولد[٢] وتمتزج بالبرهما وتعني الكائن الأسمى -الله-.

فالأرواح في معتقداتهم صدرت عن العلة الأولى متجولة متناسخة

---

(١) حياة المكزون السنجاري: للأستاذ الأديب حامد حسن.

(٢) المصدر السابق.

تنتقل من جسد إلى آخر، ومن إنسان إلى حيوان إلى نبات إلى الى. . . وهذا الانتقال نتيجة أعمال حدثت في مراحل سابقة وفقاً لقانون الجزاء (الكارما)[1].

كما عندهم أن روح كل كائن تعود في نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذي نشأت منه وهو (الله) حيث إنهم يعتقدون أن الروح لا تموت، وإن مات الجسد المادي، بل تخرج الروح وتعمل مدة من الزمن في آفاق الكون اللطيفة، ثم تعود بحكم ميولها وأعمالها السابقة كرة أخرى إلى هذه

---

(١) يقول كتاب فلسفة الهند إن التضحية هي تقديم رغباتك الذاتية قرباناً على مذبح نفسك العامة، وقالوا بفكرة تناسخ الأرواح المتجددة، أي انتقال روح الفرد من حياة إلى حياة أخرى، إلى أن تتطهر خلال نار الخبرة والتجربة ثم تندمج نهائياً في الروح العامة، ولا تعني عملية الاندماج هذه تفقد شخصيتك الفردية، وإنما الذي تفقده هو انفصالك الفردي أو المتمركز حول ذاتك عن الله، وهكذا إن أضعت نفسك وجدت الله كما في تعاليم المسيحية.
وقد وضع بوذا هذه الفلسفة ٥٦٣ - ٥٨٣ قبل الميلاد، موضع الاختبار العملي، وكان يقول: تعلم في أن تعرف نفسك لتعرف العالم، ويقول: إن سبب شقاء الإنسان خيبة وموت، تؤدي إلى سلسلة أخرى من الحياة والرغبة والخيبة وتتكرر مراراً ومراراً كثيرة من غير توقف أو راحة، فقد كان يعتقد أن الحياة الإنسانية تنحصر في لانهائيتها، فكل مخلوق تتجسد روحه ثانية في مخلوق آخر، ولم تكتب الراحة لأحد حتى في النوم الذي ليس إلّا انتقالاً من يوم إلى يوم، أو في الموت الذي هو انتقال من حياة إلى حياة أخرى.
ويقال: إن عطف غاندي ذلك العطف الإنساني الكبير ينبع من ايمانه بالتناسخ، وقد قال: إن كل روح فردية إنما هي على سفر تحج بها على مراحل من حياة كثيرة متتابعة، فاحياناً تتخذ صورة الإنسان، وأحياناً أخرى تتخذ صورة حيوان، وكل عمل تقوم به الروح في كل حالة من حالات التناسخ هو الذي يحدد صورة التناسخ التالي.
فالإنسان الذي يعلي من شأن العدالة ويحب الرحمة يولد ثانية في صورة إنسان أكثر نبلاً وسعادة، أما إذا احتفى بالشر، انحط فصار ابن عرس أو فأر وما شأبه، فليست الجنة والنار اذاً خارج أنفسنا ولكنهما في طويتنا، كما أن الثواب والعقاب على كل عمل ليس مجرد تجريدات في علم الأخلاق وإنما هما حقيقتان عمليتان، وقال: إذا ما عومل إنسان معاملة ظالمة في حياته الحاضرة، فما هذا إلّا نتيجة أعماله الظالمة في حياة سابقة، أي مكافأة كل فضيلة بما تستحق من ثواب ومجازاة كل رذيلة بما تستحق من عقاب، وهذا هو قانون الكرما، ولا تبلغ حياة الإنسان هذا الكمال إلّا إذا اكمل جميع فصول كتابه، وطهر نفسه من شهوات الأنانية، وأدمج نفسه المنفصلة في محيط الوجود الشامل، ألا وهو روح الله، وتلك هي علاقة انتهاء الميلاد المتعاقب في حياة فردية.

الحياة، وتتقمص جسداً جديداً وتبدأ بذلك دورة جديدة وقد توجد هذه الروح في إنسان أو غير انسان، وتشقى أو تسعد بنتيجة أعمالها السابقة ولكنها لا تذكر شيئاً من دوراتها الماضية، وفي القرن السادس عشر ظهر في الهند فيلسوف اسمه (مهاويرا) ومن تعاليمه: إن الإنسان يظل يولد ويموت حتى تخلص روحه وتظهر نفسه، وتنتهي رغباته وشهواته، وهناك بعدئذٍ يبقى روحاً خالداً في نعيم خالد، وتعاليمه تسمى (الجينية) وخلود الروح في تعاليمه يسمى (النجاة) ويعادلها في الهندوسية الانطلاق، وفي المسيحية (الخلاص) وفي الإسلام (الجنة)، وفي البوذية (الزفانا) والانطلاق في الهندوسية يكون بعد اكتمال الميول والشهوات والامتزاج (بالبرهما) وسواء كان الاكتمال في جيد واحد أو أجساد متعددة، وهناك بعدئذٍ لا يتطلب الإنسان مزيداً، ويتم انقطاعه عن علائق الحياة الدنيا[1].

٣- المسيحية والتناسخ:

مذهب التناسخ في الديانة المسيحية قال فيه كثير، واحتج القائلون فيه بالحادثة التي يتضمنها انجيل مرقص الإصحاح الخامس، وهي التي قام بها المسيح عندما أخرج الأرواح الشريرة من المجنون وأمرها أن تدخل في قطيع الخنازير، فاندفع إلى الجرف، جرف الماء ومات، ويقولون: إنها دلالة من الانجيل على انتقال الروح من الإنسان إلى الحيوان[2].

وهناك الفيلسوف الروحي المعروف (جبران خليل جبران) يقول: إن الحياة لا تنتهي بدور واحد، نحن نفتش عن الله، فمن ذا الذي يجد الله في عشرين سنة أو مئة سنة، أو ألف سنة؟ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾. هكذا قال

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

نبي العرب، وهكذا قال أنبياء الشرق، وكثيرون في الهند والصين واليابان ومئات الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة البشرية الفردية قروناً تلو قرون ـ الذين يعتقدون أن الحياة البشرية ليست إلّا تصفية حساب، غداً نترك خلفنا ديوناً لنا وديوناً علينا من خير ومن شر، ومن حب ومن بغض، ومن صداقة ومن عداوة، وسنعود لنستوفي ونوفي[١]، وقال في كتابه النبي قريباً ترونني لأن امرأة أخرى ستلدني، والفيلسوف المعاصر ميخائيل نعيمة يقول: كل يوم يابنون (أحد رفاق مرداد) هو يوم (دينونة) فلكل كائن حسابه، وهو يحاسب ذاته في كل لحظة من وجوده، والذي هو صافي في حسابه منذ الأزل حتى الآن، فلا يضيع منه شيء، ولا يبقى شيء بدون وزن[٢].

وقد ترى في رأي هذا الفيلسوف: إن الإنسان مستمر منذ الأزل استمراراً ذاتياً لا استمرار نوع وتناسل وما هو عليه الآن هو نتيجة تصفية حسابه القديم، المتصل بأول الدهر.

كذلك هناك الشاعر المهجري المعروف ايليا أبو ماضي يدين بهذا المذهب مذهب التناسخ فيقول:

لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا ولنا إياب بعده ونشود

---

(١) جبران خليل جبران فيلسوف لبناني ولد في بشري وهاجر إلى اميركا، يتميز بالنزعة الفلسفية الروحية التي تغلبت على المادية، ويمتاز اسلوبه بالرمزية، وهو فيلسوف وكاتب وشاعر، وله عدة مؤلفات، أشهرها (النبي، الأجنحة المتكسرة..) وقد توفي في نيويورك عام ١٩٣٣، ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه بشري لبنان.

(٢) ميخائيل نعيمة أديب وفيلسوف لبناني معاصر ينزع في أدبه وفلسفته النزعة الصوفية، وقد قال في التناسخ وعرضه كثيراً في كتبه، مثل قوله: إن لم يكفكم عمر واحد، ولن يكفيكم عمر واحد، فأمامكم أعمار بعدها أعمار، من رواية لقاء، وجاء كتابه (جبران خليل جبران): يموت الحبيبان ويولدان في أجسام جديدة وظروف جديدة، وقال: أما في التناسخ فقد وجدت مفتاح الحياة والموت، ومصباحاً ينير لي سراديب العلاقات بين الناس.

ويقول متردداً:

أحـــديـــث أم قـــديـــم أنـــا فـــي هـــذا الـــوجـــود[1]

وحرصاً على هذا الإيجاز نقتصر على ذكر هذا الشاعر مع الفيلسوفين جبران وميخائيل باعتبارهم يمثلون الرأي الفكري والعقائدي لأكثر علماء وفلاسفة وأدباء العالم المسيحي غربياً كان أو شرقياً علاوة على المعروف من أن المسيحية تعتنق مذهب التناسخ عقيدة راسخة.

٤- التناسخ والدروز:

وينقل الأستاذ ماجد خير بك في مؤلف لديه، للدكتور محمد كامل حسين في كتاب طائفة الدروز فيقول: في كتب الدروز الباطنية رسالة (بهاء الدين المعروف بالمقتني) وعنوانها: رسالة بهاء الدين، رسالة تأديب العاق من الأولاد، وهي في الحديث عن تناسخ الأرواح وكيف تتغير صور العاصين.

ويقول: مذهب التناسخ واضح كل الوضوح، فنجد مثلاً في رسالة الاسرار، ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار، أن الجسد لا يرجع بعد الموت، ولكن النفس تحل في جسد آخر، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد، ونفس المشرك إلى مشرك، ولا تتغير الأنفس ولكنها تغير قمصانها أي إشكالها الخارجية، اي الجسد، ويعلق الأستاذ ماجد على هذا القول بقوله: إن هذا معناه: أنه لا نهاية لهذا الكون، ولا يكون ثمة تصفية فلا ارتقاء ولا انحطاط ولا فناء، وهذا مما لا يقبله العقل.

---

(١) إيليا أبو ماضي: شاعر مهجري لبناني الأصل والمولد هاجر إلى أميركا وقد توفي في عام ١٩٥٤م.

٥- الإسلام والتناسخ:

الإسلام كغيره من الأديان السماوية يقول بعودة الروح، فالإسلام يسمي عودتها «المعاد» والبعث، والنشور، والقيامة، والحشر، والنشر.

ولكن هناك أقوال مختلفة متضاربة في عودتها، أترجع إلى هيكلها ثانية، أم تبعث مجردة منه روحانية بحتة.

فالقرآن ينص بعودتها إلى جسدها كما يبدو من ظاهر النص بدون تأويل، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(١)]؟ وقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[(٢)].

يقول ابن رشد: والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده، وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً- أعني للنفوس - ومنه من جعله للأجسام والنفوس معاً، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع، فالشرائع متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالاً من السعادة أو الشقاء، ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال وتفهيم وجودها للناس.

فمن العلماء من يقول: بالتمثيل الروحاني، ومنهم من يقول بالتمثيل الجسماني، ولكن هذه الفئة اعتقدت أن الجسمانية الموجودة هناك مخالفة لهذه الجسمانية هنا، لكون هذه بالية وتلك باقية[(٣)]. ويروى عن ابن عباس

---

(١) سورة العاديات، الآيتان: ٩، ١٠.

(٢) سورة يس، الآية: ٥١.

(٣) يوجد الكثير من علماء المسلمين من يقول: تعاد العظام بصورة عمل الشخص، فإن كان مؤمناً فبالصورة الإنسانية، وإن كان كافراً فبالصورة التي اقتضاها عمله من الصور الحيوانية أو الشيطانية، كما نطق بذلك لسان الوحي من الكتاب والسنة (صحيفة الأبرار).

أنه قال: ليس في الدنيا من الآخرة إلّا أسماء، ويقول ابن رشد: هذا أليق بالخواص.

وخلاصة رأيه: إن المعاد الجسماني وأحواله لا يمكن ادراكه بالبرهان، لأنه ليس على نسبة واحدة، وإنما بسطته الشريعة بالتمثيل بالمحسوسات لأنه أشد تحركاً لما هنالك من الروحاني عند العامة والمعاد الروحاني(١)، أشد قبولاً عند العلماء، وذلك لما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمقاييس العلمية.

ويقول علماء المسلمين من الشيعة الذين ينقلون معلوماتهم عن آل بيت الرسول ﷺ ومما جاء عنهم أن الروح تحشر بجسم يتكون على شكل عملها، أو أنه يتشكل من عملها، فإذا كان عملها حسناً يتشكل لها منه جسم حسن، وبالعكس إذا كان عملها قبيحاً فإنه يتشكل لها منه جسم قبيح، وهذا يشرحه تماماً ويفسره قول الرسول ﷺ يحشر الناس على صور تحسن عندها صورة القردة والخنازير(٢)، ويقول ابن حزم: افترق القائلون

---

(١) العقل يقر المعاد الروحاني ويستنكر المعاد الجسماني، لأن المادة قابلة لكل شيء ملائم لها، فاللحم والدم والعظم ونحو ذلك تتحول كلها تراباً، ويتحول التراب نباتاً ثم يأكله حيوان ما فيعود (منيا) ثم ينصب في رحم ما، فيخلق حيواناً ما، والحيوان يلد مثله، أما النفس فلا تستحيل كالأجسام، ولو صح ما يقول خصوم التناسخ وقام الموتى بأجسامهم منذ التكوين إلى يوم القيامة لضاق بهم الفضاء كما يقول الفيلسوف المعري:

لو صح ما قال أرسطاليس من قدم   وهب من مات لم يجمعهم الفلك

اذاً: فأين يكون المعاد الجسماني؟ فإن قيل بالقدرة، فيقال: إن البحث بحث جدلي كقولنا: هل يقرر ربنا أن يخلق مثله. وهل يمكنه أن يخرجك من ملكه إلى ملك غيره؟ وهذا تبطيل لقانون السببية وتعطيلها من باب الممتنع والمستحيل، وهو سبحانه لا يجوز أن يوصف بالقدرة على المستحيل، ومن عطل الأسباب فقد عطل العقل، ومبطل العقل مبطل للعلم، العلامة الشيخ أحمد حيدر على صفحات كتاب التنبيه (مخطوط).

(٢) يقول أصحاب مذهب التناسخ: إن التغلب في درجات التناسخ يعطي مدلولاً قوياً لما يريده قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.. الخ، كما يستدلون بالحديث الشريف المذكور أعلاه.

بالتناسخ إلى فرقتين: الأولى تقول: إن الأرواح بعد مفارقتها الأجساد تنتقل إلى أجسام أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجسام التي فارقتها.

وهذا قول أحمد بن حافظ وأحمد بن ناموس، وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الذي صرح بذلك في كتابه المعروف (بالعلم الإلهي) فقال: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصور الصحيحة إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلّا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه البتة[1].

ويقول الباقر المجلسي[2]: المراد بالقبر في الأخبار، ما يكون الروح فيه من عالم البرزخ وهذا ينم عن تجسد الروح وتجرده، وإن كان يمكن تصحيح بعض الأخبار بالقول في تجسم الروح أيضاً بدون الأجساد المثالية.

ولكن مع وورود الأخبار المثالية في الأخبار المعبرة، لا محيص عن القول فيها، وليس هذا من التناسخ الباطل في شيء، إذ التناسخ لم يقم دليل شرعي عقلي على امتناعه والعمدة في نفيه ضرورة الدين واجماع المسلمين، وهذا غير داخل فيما انعقد عليه الإجماع والضرورة على نفيه.

ومن المقرر أن الإنسان من أول استقرار النطفة في الرحم هو في الخلع واللبس والموت والبعث، وله في كل آن موت وحشر وخلع لصورة، ولبس لأخرى تبعاً لقانون الدثور والتجدد، ولن تلبس صورة إلّا بعد خلع ودثور أخرى.

فلم لا يجوز أن تنتقل الروح من بدن لآخر تتعاقب على الأبدان كما

---

(١) ابن حزم، الملل والأهواء والنحل ج١، ص ٩٠.

(٢) الباقر المجلسي صاحب كتاب بحار الأنوار الشهير.

تتعاقب عليها الأبدان ؟ حتى تتصفى وتتكرر كما عليه جمهور من الفلاسفة من مسلمين وغيرهم؟؟

وعلل (آل كاشف الغطاء) المعاد الجسماني تعليلاً فلسفياً، ربما كان هرباً من وعورة هذا المعاد الجسماني الذي يراه الكثير من العلماء والمفسرين من الإسلام.

قال: إن في كل جسم حي جسماً آخر أثيرياً سيالاً شفافاً أخف وألطف من الهواء، وهو برزخ بين الروح والجسم، ولعله في الجسم البرزخي الذي يسأل عنه صاحبه في القبر يعذب أو ينعم إلى يوم القيامة[1].

ويقول هذا العلامة: تحفظ قصيدة من الشعر أو سورة من القرآن فتتلوها دون أن تحرك لسانك أو يظهر صوتك، وكأن في داخلك شخصاً يقرأ عليك ؟؟ فمن هذا الذي أملاها عليك؟ وأين كانت مخزونة مجتمعة ثم جاءت متقطعة ؟.

فهذا يدل دلالة قاطعة على أن في الإنسان بشخصه الخاص جوهراً

---

(١) عند الماديين إن النفس الإنسانية تكونت مع الجسم من المادة وهي تتدرج نمواً مع نمو الجسم، ولكن المثاليين من الفلاسفة الإلهيين يقولون: هذا رأي فلسفي وإنه لا برهان عليه ولا له، إذ كانت النفس عند هؤلاء جميعاً قد هبطت من الملأ الأعلى ولبست البدن المادي وسترجع إلى عالمها الأول بعد التصفية، روى الأستاذ مصطفى الكيك في كتابه بين عالمين أن الإمام علياً عليه السلام قال ليونس بن ظبيان: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين يا يونس؟ قال يونس: يقولون إنها في حواصل طير أخضر في قناديل تحت العرش، فقال الامام: سبحان الله، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير أخضر يا يونس، قال يونس: المؤمن إذا قبضه الله حير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكل ويشرب، وإذا قدم عليه قادم عرفه بتلك الصورة التي كان عليها في الدنيا، ومعنى هذا أن الروح في حالة الموت تكون سارية في جسد آخر يماثلها وهو صورة كاملة للجسد الرضي الذي تخرج منه، كما أن الإنسان يعرف صاحبه في العالم الآخر لأنه يكون هناك على نفس صورته الأرضية، وهذا دليل على أن التمييز وهو قوة من قوى الإدراك يلازم الإنسان في حياته الثانية، ويقول ابن عربي: إن الموت بين النشأتين حالة برزخية تغمر الأرواح فيها أجساد برزخية خيالية أي شفافة، مثل ما غمرتها في النوم، وهي أجساد متولدة عن هذه الأجسام الترابية.

مفيضاً وآخر مستفيضاً وغلافاً يحمل هذين الجوهرين، فالمفيض هو النفس الجزئية، والمستفيض هو ذلك البدن الأثيري، والغلاف هو البدن العنصري.

ومن البحث الدقيق عرفنا: أن هذه الحقائق الثلاث شيء واحد (وحدة) في كثرة، وأنها نشأت نشأة واحدة، وأن النفس جسمانية الحدوث روحانية البقاء تتدرج في تكونها إلى أن تصير إنساناً كاملاً بل تترقى إلى أن تصير عقلاً مجرداً -ملكاً أو شيطاناً-.

فهذا البدن العنصري هو النفس، ولكن بمرتبتها السافلة، والنفس هي البدن، ولكن بمرتبته العالية، وكل ما فيه من القوى الظاهرة والباطنة آلات للنفس وأدوات تمدها وتستمدها وتتعاكس معها أخذاً ورداً وسلباً وإيجاباً، ويبرهن على رأيه فيقول:

ألا ترى حمرة الخجل، وصفرة الوجل، وضربان العروق، وخفقان القلب عند الخوف، والابتهاج عند الفرح، كل هذا شاهد على وحدة النفس مع البدن، وإن البدن المادي والبدن الأثيري المجرد عن المجرد، والروح المجردة عنهما، كأنهما شيء واحد، والامتدادي همزة الوصل بينهما، أي بين الروح المجردة عن المادة ذاتاً المتعلقة فيها تصرفاً، وبين الجسم العنصري، وكما أن الجسم العنصري أخلد إلى الأرض لأنه منها، كذلك، فالجسم الأثيري يرقى إلى الأجسام الفلكية الأثيرية لأنه منها ويعود إليها[١].

---

(١) في كتاب بين عالمين يقول المؤلف: إن الإنسان مؤلف من روح ونفس وبدن، فالروح روحانية، النفس أثيرية، البدن مادة بحت، فالنفس هي المسؤولة والمتصرفة وهي المحاسبة عن جميع تصرفاتها وأعمالها وهي المكلفة بالأوامر والنواهي وتركيبها من ذرات أثيرية لا من المادة، وفي هذا الكتاب إنها تكون بعد موتها بشكل الجسم الذي لبسته في حياتها الأرضية، وقد اتفق مع آل كاشف الغطاء معنى ولفظاً تقريباً.

وعلى كلٍّ يغنيك الوجدان عن البرهان في إثبات تلك الأبدان الأثيرية التي هي أنت وأنت هي، وبقاؤك بها لا بهذا البدن العنصري، فإذا صار البدن روحاً وغلب حكم الملك على الملكوت، يحترق صاحبه حدود المكان وسدود الزمان، بل ويحكم على المكان والزمان ولعل هذا كما يقول: يسهل على المتأمل خبر المعراج الجسماني، وإحضار عرش بلقيس ومبارحة الإمام علي عليه السلام إلى المدائن لتجهيز سلمان الفارسي والصلاة عليه[1]، وليعلم القارىء أننا نقلنا هذا الرأي بطوله - وإن لم يكن كله يتطلبه الموضوع- لما فيه من الاستنتاج الدقيق والعلم والفائدة.

وقد أثبت التقدم العلمي المعاصر: أن أجسامنا في هذا العالم اثنينية: فيزيقية تستطيع رؤيتها ولمسها، وأثيرية لا تستطيع أن تدركها أعضاؤنا الفيزيقية، وهذان الجسمان متداخلين، فالبدن من المادة والنفس من ذبذبات أثيرية.

ولا يبعد قول ابن عربي عن هذه المعاني حيث يقول: إن الموت بين النشأتين حالة برزخية تغمر الأرواح فيها أجساد برزخية خيالية -أي شفافة- مثل ما غمرتها في النوم، وهي أجساد متوالدة عن هذه الأجسام الترابية، قد يفهم من هذا أن الأرواح تقيم فيها اذاً فهي أجسام حية لا تموت، وفي كتاب (مذاهب ابتدعتها السياسة أن أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن الحسن بن علي كانوا يقولون: انهم يتعارفون في انتقالهم بكل جسد صاروا فيه على ما كانوا عليه مع نوح في السفينة، ومع النبي صلى الله عليه وآله ويزعمون أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأن أرواحهم فيها، ويتأولون في ذلك قول

(١) كثير من علماء الأديان ممن يقولون: بمقدرة الروح الصافية، وتجليها بهيئتها الأصلية أو بغيرها من الصور التي تريدها وتختارها، أما المعراج، وإحضار عرش بلقيس، ومبارحة الإمام من المدينة إلى المدائن فهذا لا يخلو من معجزة تدل على قدرة خارقة.

الإمام علي عليه السلام راوياً عن الرسول صلى الله عليه وآله الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف[1].

ويقول الكاتب والعلامة المعروف الأستاذ خالد محمد خالد، ما دام كل شيء يموت ويحيا ويغيب ويعود، فالإنسان ليس بمعزل عن هذه العملية الكبرى التي تحتضنها ديمومة ليس لها منتهى وأن له لبعثاً دعوة بجسده ونفسه أو بنفسه (في جسد جديد) ثم يقول: إن الموت ليس إلّا الليل يخترم طريق حياة الإنسان، وسيعود الموتى إلى الحياة، وتعود الحياة لهم فوراء كل ليل صباح.

٦- وقفة مع كتاب وقفة عند نظرية تناسخ الأرواح:

وبعد هذا المقدار الذي أخذناه من آراء علماء المسلمين وفلاسفتهم حول قضية المعاد والتناسخ: فلا يجوز أن نكتفي به دون أن نمرّ على أحد العلماء الكبار في كتاب ألفه خصيصاً حول نظرية التناسخ وجمع فيه كل شاردة وواردة تتعلق بهذه النظرية مع حجج القائلين فيها والمنكرين لها وسمى كتابه (وقفة عند نظرية تناسخ الأرواح)[2].

وقد جاء المؤلف بتعديلات كثيرة، فتارة تراه يحمل حملة شعواء على القائلين (بالتناسخ، وتارة يلين ويعتدل في النقل والتحليل، ولكنه أحياناً ينقل الأدلة التي تثبت هذه النظرية، ويعللها تعليلاً بعيداً عن مدلولها الصحيح وحجتها القوية).

وهو بهذا جعل القارىء لكتابه يظن أن المؤلف ليس من أعداء القائلين بهذه النظرية، أو على الأقل أو الأحرى، انه في دور الشك أو

---

(١) مذاهب ابتدعتها السياسة: كتاب لصاحبه عبد الواحد الأنصاري، وقولهم: مع نوح في السفينة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾، يعني كانوا في أصلاب أولئك الرجال الذين حملتهم السفينة..

(٢) كتاب وقفة عند نظرية الأرواح، للعلامة محمد هادي معرفة.

التردد، ولذلك أتى بقوة حجة الطرفين. المتناقضين، وما علينا إلّا أن نستمع ماذا يأتي، وماذا ينقل، وماذا يحتج، وماذا يكتب؟؟

يقول: إن مذهب التناسخ يتنافى مع الرسالة المحمدية(١).

ويقول: إن كثيراً من علماء الأديان مسلمين وغير مسلمين قالوا بالتناسخ، ونقل كثيراً مما قاله العلماء والفلاسفة الإلهيون واعتقدوه، ومما قال آخرون ورفضوه، وما قاله العلماء والأدباء المعاصرون المثقفون.

وقد قرأت كتابه هذا ورأيته مليئاً بالحجج والمعلومات المنقولة مما يدل على سعة اطلاعه وما لاقى من جهد في سبيل كتابه.

وقرأت على هامش الكتاب على صفحات كثيرة تعاليق مخطوطة بالقلم واليد لأحد الأساتذة المعاصرين المسمى (صقر عبد الله) يناقش بها المؤلف ويرد على بعض آرائه وتفسيره، وقد اختصر النقاش والتعليق وأورد للقارىء الآن البعض منه:

يقول مؤلف الكتاب: يرد في القرآن الكريم آيات يعترف بها البعض

---

(١) استغربت من السيد المؤلف كيف حصرتنا في هذا المذهب مع الرسالة المحمدية وحدها دون غيرها من الرسالات والدعوات السماوية الأخرى، مع أن رسالته محمدﷺ لا تتنافى، ولا تتناقض مع غيرها من الرسالات السماوية وهي متممة لها، فالذي جاء به موسى جاء به عيسى، والذي جاء به موسى وعيسى، جاء به محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، فكما أن الله واحد أحد كذلك فرسلهﷺ وإن تعددوا فهم كواحد، وشرائعهم ورسالاتهم مضمونها واحد من حيث إنها كلها من عند الله، ولا شك فيها ولا فيمن نزلت عليهم، ورسالة نبيناﷺ أكملت ما كان ناقصاً وبدون تناقض، ولا غيّ إلّا في متابعة السبل، ولا يجهل سيادة المؤلف: أن من أكبر حجج الإسلام على غيره من أصحاب الكتب اليهود والنصارى، فهو أنه لم يأت بشيء يختلف عما في كتبهم، اللهم إلّا الموضوع تحريفاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، - اي التوراة والانجيل - وغيرهما ﴿...وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾، ولعل المؤلف خص رسالة محمد بالذكر دون غيرها لظنه أن التناسخ فيها أقل وضوحاً من سواها من الكتب السماوية فتأمل.

من الأديان الحية فيحسبها القائلون بالتناسخ أدلة على مذهبهم وهي بعيدة عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، ومثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾..

ثم يشرح ويقول: هذا هو المسخ الذي هو نوع من التناسخ، وكذلك ما أثر عن كثير من الأولياء وحيث حوّلوا أناساً أشراراً إلى حيوانات حسيسة، وقد اعترف فيها المؤمنون، ولكن هذا الوارد في القرآن لو كان المراد فيه المسخ الحقيقي، وكذلك الوارد في الآثار، لا يدخل تحت التناسخ. وينقل عن كتاب بحار الأنوار مستشهداً فيقول: كحادثة الرجل الذي قال لأمير المؤمنين علي عليه السلام -و قد حكم عليه بحكم - والله ما حكمت بالحق، فقال له أمير المؤمنين: اخسأ يا كلب؟؟؟

فانقلب الرجل كلباً لوقته يمصع بذنبه وتطايرت عنه أثوابه.

ويقول: مثل هذا ليس تناسخاً، لأن التناسخ خلع النفس جسداً عنصرياً وتلبسها جسد آخر غير ما تركته سابقاً، أما المسخ الوارد في الشريعة فهو تبدل صورة البدن من شكل إلى شكل والجسد هو الجسد.

وهنا يأتي تعليق الاستاذ صقر عبد الله رداً على هذا التعليل والشرح فيقول: إن تأويل وشرح المؤلف، هذا اعتراف منه بشعور أو بغير شعور، بوجود التناسخ، كأن المسخ الذي يقول به بعض الناس لا يعترفون به أنه وارد في الشريعة مع أن أكبر حجج القائلين بالتناسخ ورود المسخ في الشريعة وثباته في القرآن الكريم.

ولعل المؤلف كان يقصد أن يأتي ببرهان يدحض به مذهب التناسخ فلم يتيسر له؟؟

ويجب أن يعلم المؤلف أن المعتقدين بالتناسخ هم من المؤمنين بالله

يرجعون بعقيدتهم إلى أصول دينية أقرتها الأديان السماوية، وهذا ما ثبت أن المسخ الذي يسميه المؤلف بالمسخ الوارد في الشريعة هو المسخ الذي يقول به الموقنون بالتناسخ.

والمستغرب من أين جاء المؤلف بتفسيره: إن المسخ في الشريعة هو تبدل صورة البدن من شكل إلى شكل، والجسد هو الجسد، وإنما المتغير هو شكله وهيكله ؟؟؟.

وأي حجة عقلية أو علمية تثبت تقييد المسخ الوارد في الشريعة كما يقول المؤلف لا غير ؟.؟.

هل ورد ذلك في كتاب سماوي، أو قال أحد من الرسل، أو الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم؟ أنا ضد الجمود والتقليد الأعمى، وأعتقد أن الإيمان قرين العقل والعلم، بل لا دين لمن لا عقل له ولا حياة بدون تطور نحو الأفضل، غير أن التفسير بالرأي يحتاج لتكفير القائلين به ولعل هذا من التعصب المذموم، والتقليد المضر الذي وقع ويقع فيه الكثير أثناء مناقشاتهم أفكاراً وآراءً ضد أفكارهم وآرائهم.

ولو فعل المؤلف ما أشرت اليه من البحث والدراسة لتبين له: أن المسخ قول ديني ورد عن الأديان السماوية قبل أن تقول به الفلسفة، بل إن جميع الفلاسفة الذين قالوا بالتناسخ قديماً وحديثاً كانوا مؤمنين بالله، وبراهينهم، وقد يكون بانتقال الروح بعد موت الجسد الذي كانت تلبسه إلى جسد آخر فإذا كان انتقالها إلى جسم حيوان كان المسخ، وإذا كان انتقالها إلى جسم إنسان كان النسخ.

فالنوع الأول هو المسخ المباشر الذي يحدث كعقوبة فورية مؤقتة أو مستمرة أو منقطعة، ويحدث هذا النوع كمعاجز للرسل والأئمة المعصومين

رداً على التحدي أو غير ذلك لإظهار إرادة الله والبرهان على قدرته وتصديق رسله فيما جاؤوا به.

أما النوع الثاني من المسخ فيحدث بصورة غير مباشرة بعد موت الإنسان وتلاشي جسده استحقاقاً وعدلاً من الله سبحانه، والمسخ نوع من أنواع العقوبة على كلا الحالين مباشراً كان أو غير مباشر، وفي غير المباشر تنتقل الروح بعد موت الجسد جسد الإنسان إلى جسد حيوان مخلوق لوقته[1]. وفي النسخ تنتقل إلى جسد إنسان مولود لوقته[2]، حسب أعمال الإنسان السابقة في دار الدنيا وحسب استحقاقه عدلاً تاماً وقانوناً حكيماً، لأن الإنسان الفاسد الكافر لا بد أن تعاقبه العدالة الإلهية بعد موته مباشرة، وقد جعلت وتركت الحياة الدنيا امتحاناً للإنسان لكي تكون الآخرة هي وقت الحساب ولا يقبل العقل أن يبقى كل من مات ويموت في الدنيا منذ أول البشر حتى الآن وحتى نهاية الدنيا -ليوم القيامة مؤجلين لم يحاسبوا فتبقى أرواحهم في مكان ما، حتى آخر أيام الشر في الدنيا -.

والبرهان على ذلك هو الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث المأثورة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[3]، فـ أل التعريف في كلمتي (القردة والخنازير) تدل على الاستغراق والشمول لا التخصيص.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ـ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا

---

(١) يقول البعض من أصحاب هذا المذهب: إن الروح التي استحقت المسخ تدخل النطفة وتربي الجنين، وتولد معه، وآخرون يقولون: تعذب حتى يولد الجسد فتلبسه.

(٢) ويقول بعضهم: إن الروح في النسخ هي التي تربي الجنين في بطن حاملته وتولد معه، إذا كان كدرة، أما إذا كانت مؤمنة، وعليها ديون لم توفها بعد، ولكن قرب صفاؤها، فهي لم تدخل الجنين مدة الحمل، وإنما تكون منعمة في مكان ما، والجنين الذي ستلبسه هذه الروح، تربية روح كافرة، وعند الولادة تذهب الروح الكافرة منه وتلبسه هذه الروح المؤمنة.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾، فلفظة (الإنشاء) تدل على الخلق الجديد بكل ما في الكلمة من معنى، وليس التغير الجزئي أو تحول الصورة مع بقاء الجسد نفسه هو المقصود كما لا يخفى على المتأمل اللبيب، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾، إلى غير هذا من آيات تدل دلالة صريحة مستفيضة بمعنى المسخ المحتم الذي ينتظر كل من يستحقه من جميع البشر وفي كل الأزمنة ومنذ أول الخليقة وما دامت الدنيا.

وفي كتاب الكافي الجزء السادس: أن الرسول ﷺ قال: إن الله تبارك وتعالى مسخ سبعمائة أمة عصوا الأوصياء بعد الرسل، فأخذ أربعمائة منهم براً، وثلاثمائة بحراً، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

وغير خفي: أن السبعة إذا أطلقت تدل على الكثرة اللامتناهية، وليس على التحدي.

وفي حديث (الجري) الذي يرويه الكثير من علماء الشيعة، والذي ملخّصه، أن علياً عليه السلام أثناء فيضان الفرات، أمر الماء أن يفيض فخاطبه (الجري) بلسان عربي سمعه من كان حوله، فكان في آخر قوله: (وان جماعة من الذين معك سوف يمسخون مثلنا...).

في هذا الحديث دليل واضح على استمرار المسخ، وأنه ليس لأناس كانوا قبلنا في العصور الماضية كما يقول المؤلف ويحتج به بعض منكري التناسخ[1]. انتهى.

---

(١) الى هنا انتهى التعليق الذي نقلناه على هامش كتاب (وقفة عند نظرية تناسخ الأرواح) للعلامة محمد هادي معرفة، ويظهر أن المعلق ملمّ إلماماً واسعاً حول هذه (النظرية) وما قيل فيها قديماً وحديثاً، شرعاً وتفسيراً.

٧ ـــ هل في القرآن ما يشير إلى التناسخ؟

كثيرة هي الآيات القرآنية التي يتمسك بها القائلون بنظرية التناسخ ويستدلون بها على صحة آرائهم ومذهبهم، ورد منها ما ورد سابقاً وسنورد بعضها لاحقاً فلنستمع:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1]، فالآية ـ كما يقولون ـ واضحة الدلالة على التناسخ حيث تنص بأن من لم يؤمن بالقرآن من الذين أوتوا التوراة يطمسها الله سبحانه وجوههم فيمحو ما فيها من العين والأنف والحاجب ويردها على أدبارهم، فتكون كالأقفاء لوحاً واحداً، أو يلعنهم، ويمسخهم قردة كما مسخ أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً، فالطمس هذا والمسخ يكونان قبل قيام الساعة كما هو واضح من سياق الآية والأمر فيها.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ... ﴿٢٨﴾ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

يشرحون الآية فيقولون: كنتم أمواتاً (أي نطفاً) فأحياكم في الأجسام -الهياكل البشرية، ثم يميتكم الموت الطبيعي المعروف، ثم يحييكم في التجسدات حسب أعمالكم، ثم اليه ترجعون أخيراً للحساب الأخير -يوم القيامة- إما خلوداً في الجنة واما خلوداً وعذاباً في النار- وفق نوع الصفاء الذي وصلتم اليه من الإيمان، أو الكفر.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

---

(١) سورة النساء ومثل شرحها أعلاه جاء شرحها في الجلالين.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٨، ٢٩..

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فيقولون: إذا كانت الموتة الأولى والاحياء الأول للبعث والحساب، فما معنى: يميتكم ثم يحييكم ثم يحشركم ثانية؟ والأولى بصيغة الماضي، والثانية بصيغة المستقبل؟

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[2]؟.

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[7].

والقرآن فيه الكثير من هذه الآيات التي تشير -كما يقولون- بوضوح إلى نظرية التناسخ الذي تتم به العدالة الإلهية في الثواب والعقاب، قال ابن عربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال: إن المسوخية في الحقيقة غير منكرة في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٧.

(٥) سورة التين، الآيتان: ٤ و٥.

(٦) سورة التكوير، الآية: ٥.

(٧) سورة ق، الآية: ٢٨.

الدنيا ولا في الآخرة، وقد وردت بالمسخ الآيات والنصوص والأحاديث الشريفة.

جاء في كتاب تصنيف نهج البلاغة لمؤلفه الأستاذ لبيب بيضون: قال: لما أظفر الله الإمام علياً عليه السلام بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي (فلاناً) كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ فقال الرجل: نعم؟؟ قال: فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان[1].

٨ ــ الفلسفة القديمة والتناسخ:

المأثور: أن هناك خمس درجات للتناسخ هي: النسخ، المسخ، الفسخ، الوسخ، الرسخ. ويشرحها القدماء فيقولون:

النسخ: هو انتقال النفس الناطقة أو نقلها من بدن إنسان إلى بدن إنسان آخر.

المسخ: انتقالها من بدن إنسان إلى بدن حيوان يناسبها في الأوصاف، كالأسد للشجاع، والأرنب للجبان، والثعلب للخبيث، وهكذا...

الفسخ: هو انتقالها أو نقلها من بدن إنسان إلى نبات أو جماد.

---

(١) يظهر أن الرجل كان أخوه غائباً عن المعركة، ولذلك سأله الامام عليه السلام عن هواه وميله، ولما عرف هواه قال: لقد شهدنا، ولكي لا يستغرب الرجل هذا القول من الامام عليه السلام جاءه بأغرب وأبعد وأعمق استغراباً، وهو أن محبيه ومواليه الذين لم يزالوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، والذين سيولدون قريباً أو بعيداً شاهدوا انتصاره، فلا تستغرب ايها الرجل بعدئذٍ ما قلت لك عن أخيك أنه شاهدنا، وهؤلاء يمكن يولدون أكثر من مرة في غير بلاد الإسلام، وفيه يولدون اخيراً ويعرض عليهم انتصار الامام، فكأنه عليه السلام رمز بالماضي للمستقبل، أو عنى مجيئهم ولو بعد حين طويل، فتأمل.

الوسخ: هو انتقالها إلى هوام ودبيب وقشاش وما أشبه.

الرسخ: هو انتقالها من إنسان إلى جماد ومعدن، وهذا ـ كما يقولون ـ يمشي وفق الاستحقاق والعدل إذ لا بد من الثواب على فعل الخير، والعقاب على فعل الشر، وعندهم أن الروح الكافرة لا بد أن تمر في هذه الدرجات كلها وفق استحقاقها، ويسمون هذه الدرجات (الخاءات) الخمس.

لنسمع رأي أعظم فيلسوف قديم ـ سقراط ـ فماذا يقول؟

نراه يقول: إن الروح نوعان: نوع لا يخضع لرغبات الجسد كأرواح الفلاسفة ومحبي الحكمة فهي تنتقل عند الموت، موت الجسد العالم الخفي، فإذا بلغته عاشت في نعيم خالد ورافقت الإلهية وتخلصت من أوزار الناس ونقائصهم البشرية.

والنوع الثاني: هو الذي أصابه الدنس وكان كدراً عند انتقاله ورافق الجسد أو كان خادماً له مغرماً به خاضعاً لشهواته، هارباً من المبدأ العقلي، فمثل هذا النوع من الأرواح يعتقد أن الحقيقة لا تكون إلّا في صورة جسدية، ومن هنا تنجذب الروح هبوطاً إلى العالم المرئي، لأنها تخشى ما هو خفي فتسجن في بدن آخر، وقد تلازمها نفس الطبائع التي كانت معها في حياتها الأولى.

أما الذين اندفعوا وراء الشرور والشره والفجور، ولم يتجنبوها فسينقلون إلى أجسام دنيا كالحمير وما إليها من صنوف الحيوان.

وأما الذين اختاروا جانب الظلم والاستبداد فينقلون ذئاباً وصقوراً وغيرها مما يشبه طبائعهم البشرية، وبعضم أسعد من بعض، فالذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التي تتسم بالاعتدال، وهي التي

تحصل بالعادة والانتباه دون الفلسفة والعقل فيرجى أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طباعهم كالنحل مثلاً - بل يعودون ثانية إلى صورة البشر-[١].

وجاء بعد سقراط فيلسوف عظيم آخر هو أفلاطون، فماذا تراه يقول؟

تعال معي أيها القارىء الكريم لنستمع اليه يقول: إن النفس وجدت في عالم العقل أو المعنى أو في عالم (المثل)، فهي تعرف الحقائق بالتذكر، ولا يحجبها عنها إلّا حجاب الجسد المركب وضلال الحس والشهوة، وهي خالدة لا تموت، لأنها جوهر بسيط لا يتحلل كما يتحلل الجسد المركب، ولكنها تلابس المادة في حياتها الجسدية، ثم تفارقها إلى عليين لتعيش بين الأرباب والملائكة، ومصيرها مقدور بمصير المادة التي تلابسها، فإن هبطت مع مادة الجسد صارت إلى جسم حيوان أو حشرة أو مخلوق صغير، وإن ترفعت عن مادة الجسد، صعدت إلى الرفيق الأعلى وعادت إلى عالم الخلد[٢].

وقريب من هذا الرأي في النفس رأي (البراهمة) الهنود في خلود النفس ووجودها، وتبديلها أجساماً كثيرة حتى تتنقى وتعود لعالمها الأول.

إلا أن (أفلاطون) يقول بصعود النفس إلى الكواكب، و(البراهمة) يقولون بصعودها أنها تمتزج (بالبراهما).

أما الفيلسوف (فيثاغورس) فقد قال: إن الإنسان مؤلف من طبيعتين: روحانية ومادية ونفسه قوة تتحرك من تلقاء نفسها خالدة لأنها من مصدر خالد، فإذا ما تخلصت من قيود جسد ما، انتقلت لآخر، وهكذا إلى أن تعود لجوهرها الأول.

---

(١) حياة المكزون السنجاري، نقل الأستاذ حامد حسن.

(٢) مجلة الهلال تحليل العقاد، وعالم المثل عند افلاطون هو العالم الذي هبطت منه النفس.

وقال: لا تضرب هذا الكلب، فإني تعرفت فيه على صوت صديقي الذي مات.

وقد نرى هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يجرون في حلبة واحدة بالنسبة للنفس وإن اختلفت الألفاظ، فالمؤدى واحد.

وبعد مرورنا على أقوال هؤلاء الثلاثة القدماء وبعد أن استقرأنا آراءهم باختصار، نستقرب الزمن فنمر على فلاسفة أخر، لنأخذ برأيهم في هذه النظرية **ونبدأ بالفيلسوف الفارابي**، فنراه يقول: بفيض النفس عن العقل الأول وهبوطها ووجودها مع وجود البدن.

ولكن الفارابي نراه يضطرب في مصير النفس، فمرة يرى: أن النفس الصالحة بعد مغادرة الجسد تحيا طليقة من المادة، وتتكون جماعات فتحيا في نظام أبدي تؤلف كياناً مستقلاً، وكلما غادرت نفس صالحة جسماً اتصلت في هذه الجماعة (بالملأ الأعلى).

أما الأنفس الشريرة: فمصيرها الشقاء، وتشكل جماعات من النفوس الشريرة وتشقى بالنظر إلى هيئاتها الرديئة التي تشكلها بعد انحلال الجسد، وكلما ازدادت الجماعة ازداد شقاؤها، وبعضها يهلك ويصير إلى العدم كأرواح الحيوان فتنحل إلى العناصر الأولى، وتختلط من جديد اختلاطاً يكون منه حيوان أو انسان[1].

ولم يبق (الفارابي) عند هذا الرأي، فله رأي آخر: هو أن النفس إذا ما فارقت الجسد ولما تتهذب بالفضائل، ولم تأت الأعمال الصالحة فإنها لا تستطيع مفارقة المادة، ولذلك تعود إلى جسد تحلّ فيه، ربما كان

---

(١) هذا الانحلال والاختلاط والوجود بعدهما، هل يكون عدماً بالقوة ووجوداً بالقوة لا ندري ما يريد؟.

بالغالب جسد حيوان تتمثل فيه الأخلاق الذميمة التي مارستها هذه النفس في طورها الإنساني.

وحيناً آخر يرى: أن النفس الشريرة تدخل جسم حيوان وتتعذب حتى تتصفى من أدرانها لتعود من جديد مستعدة لبلوغ مراتب الكمال(١). وواضح هنا التقاؤه مع بعض القائلين بدخول الروح الكافرة أثواب المسخ وان اختلف معهم في مصيرها أحياناً.

ويقول: إن سعادة النفس تكون بكثرة الإفاضة عليها من العقل الفعال. لتقترب منه، وفي هذا الاقتراب منتهى السعادة.

ونترك الفيلسوف الفارابي، **ونتصل بالشيخ (ابن سينا)** فإذا به يقول بالنفس الفردية وبقائها بعد فراق الجسد، على النحو الذي يقول به الفارابي أحياناً.

أما الجنة عند ابن سينا فهي في فلك العقل الفعال وما فوقه من البروج، وأمّا النار فهي ما دون ذلك حيث تختلط بالنفس بالأوشاب الأرضية، وتقصر عن الصفاء الذي تبلغه العقول بالترقي.

ويخطر لي: أن كثيراً من أصحاب مذهب التناسخ يرمزون إلى هذا الرأي، ما يبدو من أقوالهم و إلا فما معنى الفسخ والرسخ؟.

وقد لا نطيل الوقوف مع ابن سينا لأنه كما قلنا (آنفاً) ينحو نحو الفارابي في أكثر آرائه في النفس ووجودها ومصيرها، والاثنان معاً من

---

(١) وهذا رأي يختلط، فأكثر القائلين بالتناسخ يقولون: إن النفس إذا دخلت المسوخية لم تعد ترجع وتستعد لتحرز مرتبة الكمال، وأكثرهم يقول: تبقى في العذاب الخالد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، والمسوخية في تأويلهم نار مؤولة حتى قيام الساعة يصيرون في نار حامية.

مدرسة واحدة - وهي مدرسة التشيع، وان لنا معهما التقاء آخر في بحث العقل والنفس الآتي إن شاء الله-.

ويجدر بنا ونحن مع الفلاسفة الكبار في البحث عن النفس ومصيرها أن نمر على فيلسوف عربي كبير، ولا نهمله وان كان متشائماً، وقد أكثر القول في النفس ووجودها ومصيرها، وتردد وتشاءم، وكاد لا ينتهي برأي موحد معروف، ألا وهو فيلسوفنا العربي أبو العلاء المعري، فندخل عليه من لزومياته ونقتطف بعض آرائه التي تتماشى وموضوعنا من كل أطرافه، ثم نتركه لنلتقي معه مرة أخرى في البحث التالي: نحن نرى المعري يؤمن بالتناسخ إيمان المتردد الشاك، وهو كعادته فيه في غيره تقوم فلسفته على القول (بالمتناقضات) شأن كل فيلسوف، أو بالأحرى شأن كل فيلسوف متشائم، وربما كان يحلو له القول بالنقيضين ليبقى غير معروف الرأي، وذلك لغاية في نفس يعقوب، وليترك قارئه في حيرة من رأيه.

لنسمعه يقول وهو ينفي التناسخ:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا ... زجاج، ولكن لا يعاد له (سبك)

ويقول:

تحفظ بدينك يا ناسكاً ... يرى أنه رابح ما خسر
فلست كغيرك أطلقت من ... حياتك بل أنت عان أستر
وللسبك ردّ كسير الزجاج ... ولا يسبك الدر أن ينكسر

ونراه أحياناً يهجم على القائلين بالتناسخ ويسخر بآرائهم فيقول:

أعجبني أمّنا لسخر الليالي ... أصبحت أختنا سكينة فارة
فازجري هي السنانير عنها ... واتركيها وما حوته الفرارة

ومع هذا الانكار والتهجم والسخرية، وبالرغم من هذا كله، فهو القائل:

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجيل غير أنس
فإن فعل الفتى خيراً تعالى الى قنس الملائك خير قنس
وإن خفضته همة تهاوى الى جنس البهائم شر جنس

فقوله هذا صريح ويلتقي به مع القائلين بالتناسخ: كسقراط، وأفلاطون، والفارابي وابن سينا وفيثاغورث، والرازي وغيرهم، ولا ننسى أنه باطني التأويل، ومعروف أنه اسماعيلي العقيدة والرأي والمذهب، وهو القائل:

أيا شيعة اسماعيل انّ الصبر قد عيلا
كذاك الدهر والأيام يفعلن الأفاعيلا[1]

وكان في أيام داعي دعاة الاسماعيلية، واتصل به كما يحدثنا التاريخ، وكما قلنا يلتقي بنظريته التناسخية مع الكثير من القائلين بها، ولكنه - كما قلنا- نراه أحياناً يتنكر لها أو كأنه في حيرة مستمرة تراوده في أمر مصير النفس بعد فراقها الجسد فيقول:

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالأرواح أن تذهب

وهذا بالرغم من أن الكتب السماوية كلها تنص بعودة الروح، وتسمي عودتها (المعاد) والجميع يؤمنون به، فكيف ينفرد هذا الفيلسوف الالهي برأي منفرد لا يوافقه عليه الهي، لا ادري؟ وسنرى في بحث العقل والنفس آراء كثيرة حول مصير النفس وهي بينة التناقض الذي يجعلنا نقول: إن ذلك كله جرّه اليه تشاؤمه الذي عاشه منذ صغره، وحتى فارق الحياة رحمه الله.

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعري.

٩- الفلسفة الحديثة والتناسخ:

استمعنا إلى ما قالته الفلسفة القديمة حول نظرية التناسخ، وبقي أن نعلم رأي الفلسفة الحديثة في الموضوع نفسه.

فإذا سألنا الشاعر الفرنسي هيجو رأيه يجيبنا بقوله: إن النفس شائعة في جميع المخلوقات ممزوجة بالمادة بشكل يقل أو يكثر - من الحجر الخام- إلى الملاك والإله فمادة الإنسان وليس الإله إلّا نهاية هذه الدرج، وزيادة على ذلك، فإن كل شيء مدفوع بحركة محمومة نحو الإكثار من الطهارة، والاقلال من المادة.

وتعتقد هذه الفلسفة: أن الإنسان سيرتفع بنهاية التطهير والمطاف إلى الله، كما تعتقد أن الأموات الذين نراهم فارقوا الحياة ليسوا بميتين، بل يزول ناسوتهم ويعيشون حولنا، وهم يحتلون الأجسام الملائمة لحياتهم الأرضية -أجسام سفلة إن كانوا سفلة، وأجسام نبلاء إن كانوا نبلاء طاهرين، ويصعدون تدريجياً من كائن إلى كائن نحو الله كما يصعد من طابق إلى طابق[١].

ولا نترك هذا الشاعر الفيلسوف قبل أن نلتقي بفيلسوف آخر يوفر علينا سؤال غيره من الفلاسفة الآخرين ويريحنا من التساؤلات الكثيرة والتفاصيل، فهو:

يتساءل ويجيب تفضيلاً وتعليلاً، فقد طرح هذا الفيلسوف عدة أسئلة وناقشها، فقال:

ما العلة في أن بعض الأرواح تظهر فيها ميول متخالفة ومستقلة كل الاستقلال عن الأصول المتحصلة في التوجيه والتربية؟

(١) حياة المكزون السنجاري، نقل الأستاذ حامد حسن.

من أين يجيء ذلك الميل الغريب لدى بعض الأطفال إلى صناعة من الصنائع أو علم من العلوم، بينما يبقى غيرهم في حالة دنيا أو وسطى طول حياتهم ؟

من أين يأتي لبعض الناس أفكار وجدانية لا توجد عند سواهم ؟

من أين تحصل لبعض الأطفال تلك الميول السابقة لأوانها - إلى رذائل أو فضائل، وتلك العواطف الذاتية إلى كمالات أو نقائص يخالفون فيها البيئة التي نشأوا فيها ؟

لماذا تجد بعد تجريد التربية بعض الناس أكثر رقياً من البعض الآخر؟

لماذا يوجد على الأرض متوحشون ومدنيون ؟ فإذا أخذت طفلاً (وتانتونيا) من لدن فطامه وربيته في أرقى المدارس وأشهرها، فهل يمكن أن يوجد منه مثل (لابلاس) أو (نيوتن) ؟؟

وتساءل هذا الفيلسوف عن أية فلسفة في العالم تستطيع أن تحل هذه المسائل ؟

فقال: إما أن تكون الأرواح ولدت متساوية أو غير متساوية، فإن كانت ولدت متساوية فلماذا تظهر منها هذه الميول المتخالفة غاية التخالف؟؟

فإذا قيل: ذلك تابع لحالة التركيب الجسدي.

فنقول: إن هذا المذهب هو أقبح المذاهب، وابعدها عن الأدب، لأن الإنسان بالنسبة لهذا الزعم - يكون كآلة صماء، أو ألعوبة في يد المادة، ولا تبعة عليها من أعماله وهذا المذهب كشف العلم خطأه.

أما إذا كانت النفوس غير متساوية، فيكون (الله) قد فطرها على ذلك، ولكن، لماذا فطرها غير متساوية ؟

هل هذه المحاباة توافق ناموس العدل. وتتفق مع الحب العادل الذي يتصف به الله، إزاء جميع مخلوقاته ؟

ويقول أصحاب مذهب التناسخ: فالله سبحانه لكونه العدل بالذات لا يمكن أن يخلق أنفساً مفضلة على أخرى.

ان اختلاف الصفات في بني البشر: متأتٍ عن اختلاف ماضيهم، وعدد التجسدات التي قضوها قبل هذا التجسد الأخير، وليس التباين في الأحوال والمراكز الاجتماعية إلّا محناً متعددة تجوزها الروح ولترقيها الأدبي.

فكل منا يولد في مسير تجسداته قوياً أو ضعيفاً -غنياً أو فقيراً - سيداً أو عبداً - تارة ذا بنية ضعيفة ناقصة تقيد قول النفس وتعيق ظهورها قصاصاً عما فرط في ماضيها وطوراً ذا بنية صحيحة تساعد القوى العقلية على الظهور، وهذا باعتبار ماضي النفس وحاضرها، وأما باعتبار مستقبلها فيوجب أيضاً ضرورة التناسخ، و إلا فنسأل أخصامنا:

ما مركز الهمجي والمتمدن في الحياة، هل يتعادلان، أم يختلفان في السعادة ؟؟

هل لمن سعى حياته كلها في إصلاح نفسه: نصيب واحد مع من بقي متقهقراً لا بذنبه بل لعدم حصوله على التهذيب والتربية الحسنة ؟؟

والألوف المتوحشون الذين يموتون كل يوم قبل وصول التمدن اليهم، وما نصيبهم من الأبدية ؟؟ - فإذا أحصوا ضمن عدد المرذولين فما ذنبهم، وإن عدّوا بين المختارين فبأي استحقاق ؟ ؟

ما نصيب الأطفال الذين يموتون قبل تمييزهم الخير من الشر، هل يحكم عليهم بعذاب أبدي لم يستوجبوه، أم يدخلون نعيماً ابدياً لم يستأهلوه؟؟

ما مصير البله عديمي التمييز والقوة العقلية ؟؟

فهل من حل لهذه المشاكل إلّا بافتراض التناسخ ؟

والخلاصة: إن هناك مشاكل ومظاهر حياتية تدعو للاستغراب، وتخلق مشاكل فلسفية لا يمكن حلها إلّا بافتراض تناسخ الأرواح أو انكار عدل الله الشامل في خلقه، وانكار عدل الله هو الكفر بعينه؟؟

١٠- احتجاج خصوم التناسخ:

يحتج خصوم التناسخ بقانون الوراثة، وبأن التناسخ يقضي على المذهب الروحاني القائل: بمخاطبة الأرواح-أرواح الموتى، وبأن الإنسان المتقمص لا يذكر شيئاً من جيله السابق فكيف يترقى ؟ وبأن النفوس قديمة، والعالم يتزايد دائماً[١]، وبأن الأبدان محدثة، فالأنفس المتجسدة، هل كانت مخلوقة بالأمس قبل خلق أبدانها، أم حدثت عند حدوث الأبدان ؟؟

فإن كانت مخلوقة قبلها لزم التعطيل، وإن حدثت بحدوثها لم تكن أزلية، وقد يسأل البعض، لعل في العودة تكميلاً لنقائص فائقة ؟ والجواب: فرق بين الاكتمال بالعودة، والعودة للبدء، والأخير هو الانتكاس والتقهقر المستحيلان في الطبيعة ولكن هذه الاحتجاجات يردّ عليها القائلون بالتناسخ بأنها احتجاجات ضحلة وضعيفة وواهية ولا تستحق الرد عليها، وهل عاقل يقول:

---

(١) لا يكفي أن يتم ترقي الروح عقلياً بقضاء ضرورات الجسد والتي تسوقها إلى العمل الذي تتسع به قواها العقلية وتنمو، وكذلك لا يتم ترقيها الأدبي بالألفة الاجتماعية، وان كانت العلاقات الاجتماعية لها دور هام في كشف نوايا النفس وخباياها، وعن هذا الطريق تكثر الأخطاء، وتتأتى الذنوب، وإنما هنالك شيء أساسي هام هو (معرفة الخالق) والاقرار بوحدانيته ووجوده، وفيما جاءت به رسله الكرام، عن طريق الترقي العقلي، ثم الائتمار بأوامره الشرعية والخلقية عن طريق الترقي الأدبي، وهنا يتم ترقي الروح عقلياً وأدبياً مع ما ذكره مذهب التناسخ أعلاه.

إن قانون الوراثة، ومخاطبة أرواح الموتى يمنعان التناسخ، ولماذا يمنعان ؟

وهذه الحجة شبيهة بحجة القائلين بالجبر من أنّ القول بالأسباب والمسببات يمنع معجزات الرّسل، ومعلوم عند الجميع أن المعجزة يجب أن تكون خارقة لكل سبب من الأسباب لتسمى أو لتكون معجزة، وإلا فليست معجزة.

كذلك فقانون الوراثة، أو المذهب الروحاني، هل يجوز أن نقول بهما لنعطل أو نمنح حكمة الله وعدالته في خلقه، وقد نصّت بذلك الكتب الإلهية، ولا يقبل العقل والعدل دون ذلك ؟

كذلك فعدم ذكر التقمص، ما مرّ عليه في جيله السابق هو لطف من الله به وخير له في تجسده الجديد وحكمة من الله بين مخلوقاته.

معلوم: أن جميع الإلهيين يقولون بقدم النفس على البدن وقد ورد: أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأشباح، وخلق السماء قبل الأرض، والجنة قبل النار، و. و. . . الخ، وبرهان ذلك القول بهبوط الأرواح، فهل هبطت بأبدان مادية ؟ كلا ؟؟

وقولهم إن النفوس قديمة والعالم يتزايد فحجة سطحية، وقائلها لا يرى فكره وعلمه وعقله إلّا ما تراه عينه، ولو كان غير ذلك لعلم أن لله مخلوقات لا تعد ولا تحصى ولا يعلمها إلّا خالقها، وتلك المخلوقات لديها شرائع وقوانين، ويلزمهم ما يلزم عالمنا، كل وفق كتابه وتوجيهاته وتشريعات رسله وتعليماتهم ـ يروى في الحديث الشريف: إن وراء عالمكم هذا ستة وثلاثين ألف عالم ـ وحديث آخر: وراء آدمكم ثلاثون ألف آدم ـ وحديث آخر، إن وراء دنياكم هذه سبعين ألف دنيا، لو وضعت دنياكم هذه في إحداها كادت لا تبين ـ أو (كشعرة في جلد ثور).

ومن هنا نعلم: أن هذه العوالم كثيرة لديها صعود بالترقي وهبوط بالتدني حسب الأعمال، ولديهم وعليهم مثل ما لدينا وعلينا كل حسب رتبته ودرجته في عالم التكوين والخلق، وعليه فيكون: (تزايد العالم هو لأن الصعود قليل، والهبوط كثير، فالترقي مرتبط بالعمل الصالح والتزام الأوامر والنواهي الإلهية وما جعل الله الحسنة تمحو عشر سيئات إلّا رأفة بعباده، والدنيا كلها مظاهر خلابة وغرور، ولذلك كان الصعود قليلاً والهبوط كثيراً، وسكان العوالم والدّنى اللذين غير عالمنا ودنيانا، مستواهم غير مستوانا، فإذا هبطوا، يكون هبوطهم إلى مستوى أدنى من مستوى دنياهم ومستوى سكانها، ولتكن دنيانا ومستوانا.

وقولهم: إذا كانت النفوس مخلوقة قبل الأبدان لزم التعطيل، وان كانت بعدها أو بحدوثها لم تكن أزلية، فقد نجيب: بأن النفوس قديمة بالنسبة للأبدان، فالأرواح قبل الأشباح كما ذكر ذلك نصاً وعقلاً، ولا تعطيل لما أراد الله وقضى بحكمته وعلمه، وهذه الحجة وغيرها تنهزم أمام العقل والعلم والبصيرة وأمام الواقع والعدل، وإذا عادت النفس للاكتمال عن طريق التقمص وتعدد التجسدات للتصفية فلا انتكاس ولا تقهقر، فعليها أن تعمل في سبيل ترقيها، وإلا فهي خالدة في العذاب وعن طريق الاستحقاق والعدالة.

وقال أحد الفلاسفة: هبطت الأرواح لتكمن في المحسوس كما كملت في المعقول، ومنحت ما تستطيع به معرفة الخير والشر والضر، وهنا اقتضت الحكمة الإلهية امتحانها في دنياها هذه، ولكن كيف تصفو في جيل واحد، وربما كان قصيراً على البعض حتى اليوم الواحد بعد الولادة، ولم يبق غير التناسخ الذي تعيشه النفس حياة عديدة، فإذا انتهت اخيراً كل صفات الفضيلة وتحلت بها فقد استحقت الصفاء والخلود والصعود إلى العالم الأعلى -عالمها الأول.

وإذا قارفت الرذيلة خصائصها انتهت أخيراً إلى الخلود بالعذاب الدائم عن طريق المسخ والرسخ والفسخ والوسخ حتى قيام الساعة.

١١- مذهب التناسخ الحديث:

إتماماً للبحث والفائدة: فقد أعرض للقارىء الكريم بعض ما يقول به ويحتج القائلون بالتناسخ الحديث: يقولون: إن الروح البشرية تخضع لشريعة التناسخ فيتكرر حلولها بجسد مادي مراراً عديدة حتى بلوغ درجة النقاء، وتجسد الروح هو كالبوتقة يتنقّى فيها من الأوزار، وهذه التجسدات ضرورية لترقي الروح عقلياً وأدبياً فيتم ترقيها العقلي باضطرارها إلى قضاء ضرورات الجسد المقيدة فيه، وهذه الضرورات تسوق الروح إلى العمل، وبالعمل تتسع قواها العقلية وتنمو، وأما ترقيها الأدبي فيتم باحتياج الناس بعضهم إلى بعض، لأن الألفة الاجتماعية هي محك الصفات الحسنة والرديئة معاً، فكل الصفات خيرة كانت أو شريرة مدارها وغايتها علاقة الإنسان ببني جنسه. معلوم أن تجسداً واحداً لا يكفي الروح أن تمتلك كل خير، وتتجرد عن كل شر، وقالوا: هل يمكن للمتوحش في غابات استوائية أن يبلغ في حياة واحدة درجة الإنسان المتمدن العائش في المناطق المعتدلة؟ فهذا مستحيل كما يستحيل أن يبقى أبدياً على حال الهمجية والجهل محروماً من لذة العلم ونعيم الكمال، إذ يكون هذا منافياً لعدل الله ولطفه بعباده.

فالإنسان، اذاً: ينال من التجسدات قدر ما يعوزه لبلوغه الغاية القصوى، وهذا منوط بمقدار سعيه في مدارج الكمال الروحي والفضيلة المعنوية خلال تجسداته المتكررة، فلا يزال يزداد ارتقاءً حتى يستغني عن

التجسيد فيحيا بالحياة الروحية وحدها، ويتم ارتقاؤه فيها بأنواع وسائط أخرى إلى أن يبلغ ذروة الكمال ويحظى بالله[1].

وأما كيفية هذا الجسد فهو أنه: لما يحين زمن تجسد الروح ينبعث من جسمه (رابط سيال) ياليده بالزراعة الناشئة وقت الحبل، ويكون مدفوعاً اليها بقوة لا تقاوم، ويزداد ارتباطه بالزراعة استحكاماً على قدر نشوئها واشتداد العنصر الحيوي المستقر فيها.

وعندما يكمل صوغ الجسد يكون اتحاد الجسم الروحاني به قديم ذرّة فذرّة، وعندئذٍ يبرز الجنين إلى ميدان الحياة.

وقالوا: قد نتج هذا البحث المدقّق: أن الروح: حال ارتباطها بالزّرعة البشرية يعتبرها نوع من الاضطراب، ويتزايد فيها على قدر استحكام عرى الروابط إلى أن يزول منه الشعور بتاتاً في الأيام الأخيرة.

وبعد ميلاده تأخذ قواه العقلية تعود اليه شيئاً فشيئاً وتنمو على قدر نمو الأعضاء.

وقالوا: إن الروح يفقد عند تجسده ذكر ماضيه بالكلية، وتبقى فيه فقط القوى والصفات التي اكتسبها سابقاً، وتكون كامنة فيه لحين تكامل نموه الجسدي.

والباعث لهذا النسيان: تمكن العنصر الحيوي من الجسم الروحاني، وتناقص حركته الاهتزازية بسبب اتحاده مع الجسد المادي، وفي هذا النسيان الموقت حالة تجسده، منه ولطف من الله تعالى لأن تذكر سابق

---

(١) هذا التفصيل بنظرهم لا يتعدى الحقيقة، وهنا يقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾، وتكون آنئذٍ من ذوات الوجوه الناضرة إلى ربها ناظرة.

وجودنا المستوعب من الآثام يكون عذاباً لا يطاق مع صعوبة الحياة الجسدية الجديدة.

ففي كل تجسد تكون الروح مع قدمها انساناً جديداً مزوداً بما اكتسبته سابقاً من الصفات العقلية والأدبية ليتمكن بها من حسن القيام بمهماته الجديدة، و بعد نفاد القوة الحيوية وانقضاء الأجل، يعود إلى الحياة الروحية، وتتجلى له تقمصاته الماضية فيرى ما اكتسب أو خسر، ويبقى الروح بين كل تجسد وآخر زمناً متفاوت المادة ينعم فيه أو يشقى وفقاً لما عمل من خير وشر في تجسده المنقضي، ويمكنه أيضاً: أن يترقى في الحالة الروحية باكتسابه معارف يتعذر عليه اكتسابها في الحالة الجسدية المادية.

والحالة الروحية هي كحياة الروح الحقيقية، ففيها يجتني ما اكتسب من ثمار التقدم في جهاده الجسدي، ويتأهب لتجسد آخر، أي كفاح جديد يكفر فيه عن ماضي زلاته، ويختار لنفسه المحن الزمنية التي تساعده على بلوغ المرام، ولا يتناول اختيار المحن إلّا الأرواح الممتلكة درجة كاملة كافية من الترقي(١).

وأما الأرواح الحيوانية وأرواح المتوحشين الذين هم في منتهى الهمجية فتتولى أمرها الأرواح العلوية وتختار لها من التجسدات ما يناسبها - يناسب حالها وتقدمها.

---

(١) ان بعض القائلين بالتناسخ لا يقنعون بوجود مدة تجسد وآخر، وإذا كانت فهي لا تتجاوز مدة الحمل، ويريدون بمدة الحمل أن الروح المؤمنة لا تدخل ظلمات الرحم الثلاث المذكورة بقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، بل عند هؤلاء: أن الجنين تربيه في هذه الظلمات روح كافرة حتى ساعة يولد الجنين فتخرج منه الروح الكافرة وتدخل اليه الروح المؤمنة، أما الأقوال باختيار الروح المترقية المحن الزمنية ليقرب بلوغها الصفاء من هذه الدار الدنيا فهو رأي الكثير من أصحاب مذهب التناسخ، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهذا سر التصوف والتزهد وميلان اصحابه إلى التقشف وبغض الدنيا ومجاهدة الرغبات واللذائذ.

وهكذا الأرواح الشريرة فقد يحكم عليها بالرغم منها بتجسد أليم يتكفر به عن ذنوبها.

وقالوا: على قدر ترقي الروح أدبياً تخف عنها وطأة المادة وقد تسيء غالباً التصرف باختيارها المعوق عن العمل فيطول عدد تجسداتها المادية ويصبح هذا من باب القصاص لها(١).

لهذا ليس لتقمصات الروح في أجساد مادية غليظة عدد محدود - بل ذلك مقصور على إرادتها وجدها في العمل، وكلما اكتسبت الروح درجة الترقي البالغ اليها العالم المستقرة فيه، تنتقل إلى عالم أرقى منه إلى أن تستغني أخيراً عن التجسد لتحيا حياة روحية كاملة(٢). ويتلخص مذهب التناسخ الحديث كما يلي:

إن تقمصات الروح بأجساد متتالية تكون لضرورة استكمالها العقلي والأدبي، ولذلك فهي ليست محدودة العدد ولا تنتهي إلى أمد سوى مبلغ الجهد الذي تبذله الروح خلال هذه التجسدات في كسب الفضيلة والآداب والأخلاق، فإذا استوفت حاجتها فهي لا تعود إلى تقمص جديد، بل تلتحق بمبدأ الكمال الأول.

---

(١) من المعلوم: أن المرض والسقام والفقر والجوع والعطش والمصائب على أنواعها تمحيص للعبد على ذنوبه وحط لسيئاته وهي من باب القصاص عن أعمال سابقة، وهذا عندهم من موجبات التناسخ تقريراً للعدل الالهي، ولكن اطالة عهد التجسدات في التقمص على معنى القصاص فقط، فشيء جميل وجيد، وهذا الوجه الوجيه الذي يقبله العقل النيّر النزيه بالرغم من أن هناك من يقول بتحديد عدد التجسدات الذي لا يزيد عن الثمانين مرة حسب الزعم المذكور.

(٢) هذا القول هو الذي ضلّ عنه الكثير من الفلاسفة الذين أنكروا التناسخ محتجين بتزايد الأرواح ومتناسين أو ناسين أن الرسل والدعاة جميعاً والكتب السماوية نبهوا عن كثرة العوالم والدّنى والأوادم غير آدمنا، فإذا صفا روح من عالمنا ارتفع إلى عالم أرقى، وإذا روح من ذلك العالم، انحط عملاً هبط إلى عالمنا، فليتنبه المطالع الرصين إلى هذه النكتة، وقد مرّ معنا سابقاً هذا المعنى فليرجع اليه ففيه فائدة لمن يريد.

إن تجسداً واحداً لا يفي بغرض الاستكمال الروحي، أما لو قدر لروح ما، مقدرة كافية في تحصيل مكاسب الفضيلة ضمن تجسد واحد فإنها لا تعود إلى تجسد ثانٍ[1].

إذاً: ليس التناسخ شريعة عامة لجميع الأرواح، وإنما يخصّ أرواحاً ناقصة الصفات هابطة الكمال، والتي لم تكسب فضيلتها البالغة في تجسد سابق.

ليست التجسدات متعاقبة الاتصال حيث لا ضرورة تقضي بذلك، وذلك لاستقلال الروح بوجودها الجوهري القائم بالذات، فقد تقضي الروح فترة طويلة أو قضية بين تجسد وآخر ولا يقع في هذه الفترة عاطلاً باطلاً، لن هناك مكاسب روحية تجتنيها خلال فترة الاختزال.

إن كل تجسد ثانٍ للروح يفقد التذكر في مكاسبه الماضية، وذلك لتمكن الجسد العنصر من الجسد الروحاني نعم ؟؟ تبقى الصفات والميول السابقة كافية تتجلى شيئاً فشيئاً آثارها من غير أن تلتفت الروح أنها مكاسب ماضية.

إن كل تقمص وآخر ابتلاء ومحنة حيث التجسد عذاب روحي أليم، لكن الروح تقتني خلال محنة التجسد ترقيها في ذاتها وكمالها.

---

(١) تتفق هذه النظرية الفلسفية الحكيمة مع القائلين: إن الروح قد يمكن صفاؤها لأول جيل من وجودها متجسدة في ثوبها البشري إذا سلكت طريق الفضيلة بكل مستلزماتها وتجانبت طرق الرذيلة بكل خصائصها، ويمكن بقاؤها عدة أجيال إذا خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، أما إذا اتبعت الرذيلة وجانبت الفضيلة وعصت على الشرع والأوامر الإلهية فقد تمسخ وتنتقل في درجات الخاءات الخمسة إلى أن تنتهي منها حسب الاستحقاق، وبعدئذٍ يمكن عودتها ثانية إلى الصورة التي فيها دعوة مستأنفة، ويمكن خلودها في العذاب -ما دامت السماوات والأرض- كما جاء في النص وبعد الحشر الأخير، وتجديد دورة جديدة ودنيا جديدة يوم تبدل الأرض غير الأرض، ولا تنسى أن البعض لا يقنعون بفترة الاختزال، ويقولون: ليس بين تجسيد وآخر أكثر من مدة (الحمل).

نعم: قد يكون التقمص عقاباً للروح المتوغلة في الشر فتبقى في قوالب شقية مخلدة في العذاب الدائم.

هذه خلاصة مذهب التناسخ الحديث ـ وأكثرها ـ إن لم يكن كلها ـ يتقبله العقل ويريح الضمير والوجدان.

والتناسخ بفلسفته القديمة والحديثة وبحجته ودلالته النصوص والعقلية، مريح للضمير عندما يراه يقرر العدالة الإلهية، ويريحه من التردد والحيرة والشك من الغيبيات والمساتير، وقد يلتقي المذهبان القديم والحديث بأن التناسخ لا بد منه لأن به تتضح العدالة، وإن اختلف المذهبان في بعض نقاط التفاصيل، فالطريق واحدة والنتيجة هي النتيجة.

وينتهي الموضوع بالسؤال العقلي المطروح وهو: ما مصير من يولد صباحاً ويموت مساءً أو بعد يوم أو اسبوع أو شهر أو سنة أو بعد ساعة من ولادته؟

أمصيره إلى الجنة التي وعد فيها المتقون، أم النار التي هي مثوى الكافرين؟

مع العلم أن هاتين الجنة والنار لا يتم الوصول اليهما إلّا بالعمل والجزاء والمثوبة، وهذا المولود لم يأت خيراً ولا شراً، فمثل هذا السؤال ـ يفرض ـ ولا شك الحيرة، أو الاعتقاد التام بالتناسخ ايماناً بعدالة الخالق سبحانه وهو القائل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾، وعليه: فتكون عودة الروح إلى التجسد الأرضي نعمة كبرى لها، وقد هبطت من عالمها الأول -كما قيل- لتكمل في المحسوس والمعقول، وتعرف العلة من المعلول، وقد لا تتمكن من الكمال في دورة واحدة من بقائها التجسدي، وإنها لا تستطيع أن تتخلى عن نقائصها وتتنقى منها وتصبح كاملة أو تبلغ

رتبة الكمال في جيل واحد، وقد لا تعيش -كما رأيت آنفاً- إلّا ساعة. فتأمل.

لذلك قضت العناية الخالقة، والرحمة الإلهية الواسعة اللطف بها، وأن تستأنف تقمصها في أجيال متعددة، ولا تزال تستأنفها حتى تخلص وتصفو وتصير إما إلى جنة وإما إلى نار، إما من أهل اليمين، وإما من أهل الشمال.

فإذا عملت للفضيلة وسلكت سبيلها واستدركت مساوئها ونقائصها وثابت إلى رشدها وخيرها وائتمرت بالأوامر الإلهية، وانتهت عن النواهي خلصت وصفت ورجعت إلى عالمها الأول راضية مرضية مخيرة فيما تشتهي وتريد، كما قال بعضهم في أهل الجنة:

محكمون لهم تخيير أنفسهم ... ما يشتهون من الجنات في خلد

إن آثروا حالة الدنيا تكون لهم ... أو عصمة عصوا من سائر النكد

وصارت من أهل اليمين الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾... الخ[1].

وان هي مارست الرذيلة وتابعتها، ونسيت خالقها وأوامره ونواهيه، ولم تستدرك أمورها وأخطاءها ونقائصها، وتعمل على اصلاحها وتهذيبها، خلصت وصفت وصارت من أصل مسخاً ورسخاً وفسخاً ووسخاً، وانتهت إلى العذاب الدائم بحكم قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن

---

(١) سورة الواقعة، السدر: شجر، منضود: لا شرك فيه، الطلح: شجر الجوز، منضود: بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فرش: مرفوعة على السرر، أنشأناهن من غير ولادة، عرباً: أترابأ، جمع عروب المتحببة لزوجها والأتراب مستويات في السن.

﴿يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، و ذلك في الحشر وبعده.

وكانت من أهل الشمال الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[١].

ثم يقول أصحاب هذا المذهب: ولم يكن إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتجلي الحق جل جلاله[٢]، وتجسد الأرواح في أجيال متعددة إلّا عدلاً من الخالق، ولطفاً بعباده، وكيلا يكون من حجة لمخلوق على الخالق، وذلك كله تحت سر قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٣]، وأخيراً نسأل الله التوفيق والهداية إلى ما فيه الخير والصلاح والرضا والنجاح.

فائدة:

نسب الجنيد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج كان أبوه يبيع القوارير وأصله من نهاوند ابن موسى الشافعي ابن ابراهيم الرضا ابن علي المرتضى ابن موسى الكاظم... وفيات الأعيان.

---

(١) سورة المواقد، سموم: ريح حارة تنفذ من مسام الجلد، حميم: ماء شديد الحرارة، يحموم: دخان شديد السواد، مترفين: لا يتعبون في الطاعة، الحنث: الذنب.

(٢) يظهر أن الذين يقولون التناسخ أكثرهم يقول بالتجلي، كما أن اكثر القائلين بالتجلي يقولون بالتناسخ.

(٣) عند الصوفيين: إن السالك الذي قطع مراتب السلوك وتحقق بحقيقة الجمع يعود إلى بشريته من الانتهاء إلى الابتداء، لإتمام (الدائرة) فيكون (علماً) لأهل الشريعة والطريقة ولخاصة الخاصة، ويصبح خليفة الله في الأرض، ومن هنا يكون الانطلاق، وهذا هو شرحهم (لدائرتهم) غير أن بعضهم يقول: إن الصلاة الحقيقية التي هي أعظم المواهب الإلهية لا تدرك في المكاسب، وهي معراج المؤمن فمن أتى بها كما ينبغي فقد تمت دائرته، وعاد إلى ما منه بدأ، أي إلى نورانيته التي بدأ منها.

أخذ الجنيد الطريقة عن خاله (السري السقطي) وهذا عن معروف الكرخي، وهذا عن داود الطائي، وهذا عن حبيب العجمي، وهذا عن الحسن البصري، وهذا عن زيد بن ثابت وعن الإمام علي عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن جبريل، عن الله سبحانه وتعالى نقلت هذه الترجمة عن كتاب الدر الفريد باحياء طريقة السيد الجنيد تأليف محمد بن سعيد الكردي المطبوع ١٣٦٨ هـ، ١٩٤٨ م.

ويقول: نشأ الجنيد في العراق وتوفي عام ٢٩٨ هـ وقبره في بغداد، وينقل عن ابن خلكان أن الجنيد تفقه على يد أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وصحب خاله (السري السقطي) والحارث المحاسبي ويقول: الطريقة القادرية والرفاعية والشاذلية والدسوقية فكلها عن الجنيد.

ثم يقول: أخذوا عن محمد عبد السلام بن حشيشي الحسني، أي الحسن المثنى بن الحسن بن علي، ويقول: أحمد البدوي وابراهيم الدسوقي شيخهم عبد السلام وينتسبان إلى الامام عليه السلام فالبدوي بالامام الرضا عليه السلام وأبو الحسن الشاذلي يتصل نسباً بالحسن الثاني والشاذلة قرية في افريقيا.

البحث الخامس
موجز يشتمل على معرفة العقل والنفس

وبعد: أيها القارىء الكريم أخذ الله بيدنا جميعاً إلى الطريق القويم، ولا عدل بنا عن النهج السليم، وسدد خطانا على الصراط المستقيم.

لقد انتهينا من بحوثنا الأربعة السابقة التي قررناها في مدخل الكتاب ونوهنا على بعضها في المقدمة، وقد اطلعت عليها، فأرجو أن تكون نالت لديك قبولاً حسناً، كما أرجو أن تكون مضامينها وصلت بفكرك وفهمك وضميرك إلى قناعة تامة مرضية والى استقرار سليم، وها نحن نكتب البحث الخامس راجين أن لا يقل عن البحوث السابقة فائدة ولا جودة أو توفيقاً، وقد مرّ معنا في بحث معرفة (الصانع الأول): أن العقل قبل التجربة، وبه يعرف الخطأ والصواب في نتائج التجربة، ولولا المعرفة قبل التجربة، لما نجحت التجربة، بل كانت النتيجة كالصدفة، والصدفة لا يبنى عليها.

كذلك مرّ معنا في البحث أن الحياة لا تنشأ إلّا من الحياة، وأن لكل معلول علة، وعليه كما قرر الفلاسفة والعلماء الإلهيون، فإن النفس الجزئية مفاضة عن العقل (تكويناً) لذلك فنحن نمر على أقوالهم للاستعانة

بآرائهم المشبعة بحثاً وتدقيقاً ومناقشة وتمحيصاً لأنها تعطينا الدليل الصحيح، والبرهان الساطع في معرفة العقل والنفس اللذين أخذ الإنسان يبحث عنهما ليعرفهما منذ أعطاه نعمة العلم والمعرفة، والبحث، ثم نوجز البحث عنهما في هذه الخلاصة الآتية:

ونبدأ بذكر العقل لأن له المرتبة الأولى على النفس في التكوين والقدم والإبداع وعلى ضوء اشراقاته يصل المرء إلى الغاية التي يبحث عنها.

وتمهيداً للبحث: يجب أن نعرف ما تشتمل عليه كلمة (العقل) لغوياً لعل بذلك فائدة تمنح الموضوع صيغة وبياناً يوضحان لنا شيئاً مما نجهله من قيمة هذا المسمى المعنوي الذي بدونه لا قيمة للإنسان على غيره من المخلوقات ولا قيمة للحياة الإنسانية، ولا علم ولا تطور.

١- العقل في اللغة (في المنجد):

العقل: مصدر من عقل يعقل عقلاً، الأمر فهمه، وهو نور روحاني به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس، ويقال: عقل الغلام عقلاً: أدرك، وعقل فلان بعد الصبا: عرف الخطأ الذي كان عليه وعقل الرجل الشيء، أي فهمه وتدبره، فهو عاقل، وجمعه عقلاء وعاقلون، كما يقال: عقل الرجل البصير أي ربطه بالعقال وهو الحبل.

والعاقل: هو المدرك الفاهم الحكيم، والعقول: المدرك للأمور.

والعقيلة: من القوم سيدهم، وعقيلة البحر (درته) والمعقل: الملجأ.

وفي المثل: يقولون: ما له حول ولا معقول، أي ما له عقل، ويقال علم معقولاً وعدم معقولاً لمن يكثر من الكلام الفارغ بدون أن ينظمه العقل.

ويوجد علم يسمى: علم المعقولات، وهو علم يبحث فيه عما اختص العقل بإدراكه من المدركات، وللعقل مرادفات تعطي معناه ويفسر بها مثل لفظة النهي ومفردها نهية، وهي العقل وسمي بها لأنه ينهى عن القبيح، وعن كل ما ينافي العقل، ويقال: فلان ما له ناهية أي ما له عقل ينهاه عن القبيح.

كذلك فلفظة اللب من مرادفات العقل، ومعناه: العقل الخالص من الشوائب أو ما زكا من العقل، فكل لب عقل، ولا يعكس، والجمع ألباب، ومنه اللبيب أي العاقل، إلى كثير من مرادفاته ومعانيه، وكلها تدل لغة عليه وعلى جلالته، ولا يسعنا الآن ذكرها في هذا الموجز، وحسبنا ما ذكرناه توضيحاً لهذه اللفظة الروحانية التي بمعنويتها يتميز كل شيء، وبها يعقل المرء هواه ويعصم من الخطأ والزلل.

٢- العقل بدء التكوين:

ابتداء التكوين في العقل، جاء في الحديث القدسي: أول ما خلق الله العقل، قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب اليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب،وبك أثيب.

فإذا أمعنا البصر والبصيرة، وجدنا: أن الله سبحانه: جعل للعقل المرتبة الأولى من السمو في التكوين والقدسية المتوالية، وعلى ضوئه تتوقف معرفة جميع الأمور والنتائج خيرها وشرها، نفعها وضررها، وعن طريقة الحساب والعقاب، والعطاء والمنح، قال تعالى مشيراً إلى الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾؟ فالله تعالى: زوّد الإنسان بحواس، ثم هداه وعرّفه طريق الخير وطريق الشر لكيلا يكون على الله حجة، فكلمة هديناه تعطينا مدلولاً واضحاً على

أن الله سبحانه منح الإنسان العقل ليميز به بين الخير والشر، وتتوافق هذه الكلمة عدالة ومعنى مع نهاية الحديث (بك أثيب، وبك أعاقب) كما تتناسب وتتوافق مغزى مع الحديث التالي: إنما يحاسب الله الناس على مقدار عقولهم.

٣- العقل عند الفلاسفة والحكماء:

قال بعض الفلاسفة: إن هذا العقل الذي خلقه الله أول مخلوقاته: يسمى (العقل الأول) لأنه أول صادر عن الله ابداعاً أو فيضاً أو اختراعاً، وبغير واسطة، ومن حيث إنّ الأشياء تجد منه قوة التعقل سمي (العقل الفعال) ومن حيث إنه فاض منه على جميع الموجودات المستعدة للقبول فأدركت به حقائق الأشياء سمي (العقل الكلي) وهذه الأسماء للعقل لا بدَّ أنها من حيث من المفعولات أو مراتب الأفعال من قبل المخلوقين.

والعقول جميعها مستمدة من هذا العقل الكلي، ولعظمته خلق الله عالماً روحانياً مجرداً أطلق عليه اسم (عالم العقل) أو عالم المعقول، فكذلك قال العلماء والفلاسفة والحكماء: العقل في الإنسان جوهر مجرد عن المادة ومقره (الدماغ) وبه تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية، وفسروه أنه عبارة عن (ملكة) التفهم والتدبير الذي يعقل عن الله أمره ونهيه.

وينصر هذا القول: ما ورد في المأثور، ما عبد الله إلّا ذو عقل.

وبعضهم قال: أول ابداع أبدعه الأزل هو العقل الأول، وهو الحقيقة المحمدية.

ويسمى عند الحكماء بالنفس الرحماني كما يسمى بالشرع: رحمة الله التي وسعت كل شيء، كما يسمى عندهم أيضاً (بالقلم) ويقال: إنه القلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وما تسميته (بالعقل الكلي) إلّا لأن جميع العقول الجزئية المفرقة بالمخلوقات مفاضة عنه، وتستمد منه، وتسميته

(بالقلم -كما قالوا) لأنه ينقش المعلومات في قوالب ألواح النفوس على الدوام.

ويسمونه (مفتاح الغيب) لأنه به معرفة الحق جل وعلا، وعالم الغيب، وبه تدرك المعلومات المنزلة، وبه عرف الفرق بين العرض والجوهر وبه تعرف المتناقضات، ويستدل الباحثون على تجاربهم، وسئل الرسولﷺ عن العقل، فقال له السائل: قد سبق قولك يا رسول الله، إن العقل لا يتجزأ ونراه متجزئاً في كل أحد، فأجابه الرسولﷺ بقوله:

القسمة مركزة والتفرقة مطالعة، فهو في الواسع المتسع واسع، وفي الضيق المتضايق ضيق، فكأنهﷺ شبهه بنور الشمس واشراقه على المكونات، وتفرقته في كل منفذ، وتقسيمه في كل باب ونافذة وفتحة، وهو بحالة غير منقسم ولا متجزىء.

وهكذا العقل في الناس، ولكنه لا يتساوى مع الجميع، فكل واحد له منه حسب طاقته واستعداده الجسمي والصحي والفسيولوجي والفطري.

وقد يعبر عن العقل أيضاً أنه فيض الله الأقدس، ووجه الله الذي لا يفنى، ونور الله المشرق على هياكل المكونات.

وكان الفارابي يسمي العقل الفعال (بالروح الأمين) ويسمي العقول (بالملائكة) ويسمي الأفلاك التي فيها العقول: (بالملأ الأعلى) ويقول: إن صفات الله الأزلية هي (المثل الأولى) وقد قيل: إن فلسفة الفارابي اسلامية بحتة تنبع من أصل اسلامي، ولذلك لم ير فيها المسلمون حرجاً ولا موضع ريبة، وعند الفارابي إن العالم مخلوق والله هو السبب الأول، وهذا السبب علة وجود كل موجود، وهو سبب لا يتكرر (واحد أحد) بسيط لا يتغير، فلا يمكن أن يكون العالم هو السبب الأول لأنه متكرر ومتغير ولا بد له من سبب يتقدم عليه.

ومن هنا تنقسم الموجودات كما يرى إلى قسمين: قسم (واجب الوجود) يستلزم العقل وجوده لا محالة وهو الله سبحانه ويوصف بكل صفات الكمال.

والقسم الثاني مفتقر إلى سبب، ووجوده ممكن، ولكنه ينتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بسبب واجب، فهو مخلوق على هذا الاعتبار.

ومن هنا يعلم المطلع: أن مذهب الفارابي يكاد يجمع بين مذهب أرسطو عن الحركة، ومذهب أفلوطين عن الصدور، ومذهب افلاطون عن المثل الأبدية، ومذهب الرواقيين عن النفس العاقلة وانبثاقها في الأجسام، ومذهب المكزون السنجاري بالفيض.

فمنذ الأزل وجدت الأشياء في علم الله، وهذا هو علة وجودها، والله جل وعلا يعقل، فالعقل الأول صادر عنه فائض عن وجوده وهذا العقل هو محرك الفلك الأكبر.

وتأتي بعده عقول الأفلاك المتوالية إلى العقل العاشر الذي يربط الصلة بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية، وهذا عند أكثر الفلاسفة الإلهيين، وقد تقدم لنا شرح مستفيض عنه سابقاً.

فالوجود عند الفارابي ثلاث مراتب: أولاها: الوجود الإلهي، وثانيها: وجود هذه العقول المتدرجة[1]، وثالثها: وجود العقل الفعال،

---

(١) يريد بالعقول المتدرجة: ما تبتدىء بالعقل الأول الواجب بغيره، بوجوب علته وتنتهي بالعقل الفعال، العقل العاشر كما عند الكثير غير الفارابي، ومنهم من يسمي العقل الأول: بالعقل الفعال، ويفسر هذه التسمية كما رأينا آنفاً، كما أن كثيراً من الفلاسفة يقولون بصدور النفس الكلية عن العقل الأول، وعند بعضهم هي العقل الثاني كما مرّ، وسترى المزيد في هذا البحث عند ذكر النفس وربما كان أقرب إلى اليقين.

ويلاحظ المطلع على هذا القول: إنه من هنا تعددت الكثرة عن الواحد الذي لا يتعدد، وجاءت الصلة بين المعاني المجردة والمحسوسات ولديه أن النفس صادرة عن العقل الفعال، فهي في المرتبة الرابعة، ثم تأتي الصورة وهي أدنى من النفس، وأشرف من المادة، فهي بالمرتبة الخامسة، وتتلوها جميعاً: المادة في العالم الأسفل، فهي أخس الموجودات، ولولا قبولها للصورة لكانت معدومة بالفعل.

فالنفوس الجزئية من فيض العقل الفعال، وهي جواهر تتلبس بالأجسام، ومن هذه الجواهر النفسية ما يتلبس بالأجسام السماوية.

وتحسب، حسب قوله، من الملائكة، ومنها ما يتلبس بجسم الإنسان، وما يتلبس بجسم الحيوان[1]، ثم بأجسام النبات، ودونها المعادن والاستقصاءات ثم العناصر الأربعة، وهي: النار والهواء والماء والتراب، وهي مبادىء الأجسام المركبة وعناصرها، والتي تتولد منها صنوف المواليد والتراكيب[2].

ويرى الفارابي مع أرسطو أن النفس استكمال أوّل لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، وإنما تكون ذا حياة بالفعل من فيض العقل عليه، فالنفس تمام الجسد، والعقل تمام النفس، وعلى حسب اتصال العقل بالحياة الجسدية يترقى من العقل الهيولاني إلى العقل بالملكة، إلى العقل المستفاد إلى العقل بالفعل، وهو الذي يتلقى المعارف المجردة من العقل الفعال.

والعقل الهيولاني عند الفارابي: هو عقل الغريزة والاحساس، ويكاد الإنسان والحيوان يتساويان فيه، والعقل بالملكة: هو عقل المعلومات التي تحصل بالتجارب الحسية والمعارف المتلبسة بالماديات، والعقل

---

(١) هذا يعني فيه التناسخ.

(٢) يرجع الفارابي بهذه الآراء إلى فلسفة التكوين.

بالفعل هو عقل الكليات المجردة، وهو نفخة من العقل الفعال، وفيض مسلسل من الوجود الأول، أو من الله.

ويترقى الإنسان إلى هذا العقل بالاستعداد له، والمثابرة على الارتقاء في درجات المعرفة -من الطبيعيات إلى الرياضيات- إلى الأهليات، وقد يصل العقل إلى هذه المرتبة بالوحي والإلهام، كما يصل الأولياء، فالنبوة والحكمة طريقان إلى الله، هذه بالتعليم، وتلك بالإلهام.

والنفوس لا تتحرك سدى في هذه العوالم السفلية، لأن الشوق يحفزها إلى طلب الكمال واللطف من جانب الكائنات العليا -يجذبها اليها فترتفع بدافع منها ويجاذب من العقول العليا[١]. ويقول الفارابي: إنما كان العقل الإنساني ميالاً إلى جمع الصور لأنه يحب الارتقاء إلى مصدر الصور وهو العقل الفعال ولأن العقل الفعال يحب أن يعيد الصور المغرقة في الأجسام إلى مصدرها منه وينبوعها فيه، ومتى رجع العقل بالفعل إلى العقل الفعال، فذلك هو النعيم المقيم[٢].

وقد رأينا ابن سينا وكثيراً من الفلاسفة يرون رأي الفارابي في ترتيب (العقل الفعال) عاشراً بالنسبة لتسلسل العقول المفارقة في التكوين، وينسبون إلى هذا العقل خلق أو فيض العالم الأرضي.

ولكن إخوان الصفا وبعض الفلاسفة الإلهيين الآخرين يقولون:

إنه أول الموجودات، فالله سبحانه هو المبدع الأول، والوجود الأول، واجب الوجود بذاته ولذاته، وعنه فاض العقل الفعال، العقل

---

(١) مجلة الهلال، تحليل العقاد.

(٢) العقل عند ابن رشد: هو إدراك الموجودات المجردة من المادة، وهو إما عقل محض أو فعال أو منفعل، فالعقل المحض هو الذي أفاد الموجودات الترتيب والنظام، وهو الموجودات كلها، أي هو الله، وهو موجود روحاني ليس بجسم وهو واهب العقل الإنساني، وارتباط العقل الإنساني بالعقل الفعال هو أقصى درجات الكمال.

الأول، وهو الوجود الثاني واجب الوجود بغيره، ممكن بذاته، وهو جوهر بسيط، أبسط من النفس وأرهف منها، وهو نور محض في غاية التمام والكمال، وفيه جميع صور الموجودات، الأشياء كما تكون في فكر العالم صور المعلومات.

وفاض عن العقل فيض آخر دونه في الرتبة يسمى (العقل المنفعل) وهو النفس الكلية وهي جوهرة بسيطة روحانية قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال وفاض من النفس أيضاً فيض آخر دونها في الرتبة يسمى (الهيولى) الأولى، وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلة من النفس الصور والأشكال بالزمان.

وأول صورة قبلتها الهيولى: (الطول، والعرض، والعمق). فكان بذلك جسماً مطلقاً وهو الهيولى الثانية، ووقف الفيض عند الجسم باعتبار الفيض نوراً والجسم مادة.

وأخيراً: سواء استجلينا هذه الرتبة، رتبة العقل معنوية إلهية أو حسية مادية فإن لها تأثيرها الكبير في حياتنا اليومية وعلاقاتنا الاجتماعية ومعاملاتنا الخلقية وتطويرنا ومعلوماتنا الإلهية، بما لها في ذلك كله من منافع روحية أخروية فردية ومادية ونبوية، ومصالح أدبية وائتلافية فهي المميز الوحيد بين الخير والشر والنفع والضر، والإيمان والكفر، والحسن والقبح، والخطأ والصواب، ولولاها لكانت الكائنات في ظلام كثيف من الجهل.

ولما كان الإنسان هو البرزخ بين النور والظلمة والجنة والنار، فقد جعل الله سبحانه له مدداً عقلياً نورياً يستنير بنوره، ويهتدي بهديه، ويسير على ضوئه ويستقيم برشده ويحرك الكائنات ويطورها به، ومن دلّه عقله على العلم والعمل ونهاه عن الجهل والكسل فقد أوتي الحكمة، ومن

أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذّكر إلّا أولو الألباب، الذين نعتهم الله سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

كل هذه الأقوال عن العقل الذي منح الله عبده الإنسان قبساً من تلك الشعلة وجعله يتميز به عن سائر مخلوقاته، هو الأمانة التي صار بها الإنسان خليفة الله في أرضه، وبه ايضاً صار الرتبة الوسطى بين رتبتي: النور والظلمة، فإنه يواجه بعقله عالم الملائكة وبطبيعته وحسه عالم الظلمة. وقد مثل الحكماء العقل بالميزان، بل وسموه (ميزاناً) يوزن به الحق والباطل، والعلم والجهل، والخير والشر، وقالوا: كل شيء يجب أن يوزن بميزان العقل، فيدققه ويتفحصه، فإذا قنع بسويته وصحته وحسنه كان حسناً وصحيحاً وسوياً، و إلا فلا يؤخذ به، حتى قالوا: كل رواية جاءت عن طريق النقل، ولم يوافق على صحتها العقل، فهي مردودة لصاحبها ولا يعمل بها أبداً، وعلى هذا قول فيلسوفنا ابي العلاء المعري:

ولا تقبلن ما يخبرونك ضلة ... إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

ويروى عن المعصوم أنه قال: استفت عقلك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك، قالها ثلاثاً للتأكيد، وقال الفيلسوف الصوفي الحسن بن مكزون السنجاري:

كن مع العقل الحق كيف كان عياناً ... وبه عز من باطل التقليد

والتقليد هو التسليم بالأمر دون بحث وتدقيق وتحكيم العقل فيه، وأراد بقوله: كن مع الحق: أي كن مع الحق الذي دلك عليه العقل، وما أحسن وأبدع قوله ايضاً عن العقل.

العقل في جوهره واحد، وعنه يبدو النفع والضر مثل شعاع الشمس في بدرها مبرد ومنها في الثّرى الحرّ؟؟

وفي المثل المشهور: من حرم العقل فلم يعط شيئاً، ومن رزق العقل فلم يحرم شيئاً، وكل هذا دلالة على ما للعقل من منزلة رفيعة، ولمّا كان للعقل هذه الرتبة العليا، فمن الواجب على العبد أن يحكم عقله ويستفتيه فيما يعمل ويفعل ويرى ويستمع ويأخذ ويعطي وينطق وينهى، ويقرأ ويروي، لينتصر دائماً على هواه ونوازعه وميوله وغرائزه، وعواطفه، فيأمن حيل الشيطان، وما أكثر حيله، وأمتع مغرياته؟ قال أبو العلاء:

نهاني عقلي عن أمور كثيرة ... وطبعي إليها بالغريزة جاذب

ولم تكن أخطاؤنا تتوالى، لولا أن تركنا غرائزنا ونوازعنا تسيطر على عقولنا وتفكيرنا، فلو تعرضنا دائماً لإشراقات العقل ونفحاته القدسية، واستفتيناه واستهديناه لأنار لنا الطريق السليم، طريق الخير والحب والسعادة والصلاح، وسلكناها بأمن وأمان، وحرز حريز من كل شيطان.

وما جعل الله للإنسان هذا العقل وزوده بهذا النور القدسي إلّا ليستخدمه في أموره كلها وليسير على ضوئه لدينه ودنياه، وليكون أكثر اعتماداً على بصيرته منه على بصره، فالباصرة حسية تسير مع الغرائز والميول، والمادة، بينما البصيرة معنوية، تسير مع الروح والمعقولات فتأنف المادة وتأبى التدني.

٤- أقوال الفلاسفة والحكماء الإلهيين في النفس:

أفاض العلماء والفلاسفة والحكماء الإلهيون في تعليلاتهم حول معرفة النفس، وقالوا: إن البحث عنها من حيث وجودها ومصيرها وأعمالها لا يقل صعوبة عن البحث في كيان العقل، ومنهم من قال: إن البحث عن النفس له علاقة في العقل من حيث التكوين والايجاد والخلق، وهو المباحث العويصة التي تناقضت فيها الآراء الفلسفية، إلّا أنها رجعت أخيراً إلى النصوص المأثورة لتستعين بمدلولاتها ثم تبنتها كقاعدة تهتدي

بها وإليها إذا ضلت الطريق وقد نمرّ في هذه الخلاصة على خلاصة من بحوثهم بغية الوصول إلى معرفتها معرفة نطمئن اليها.

قال الرسولﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وجاء هذا الحديث بشكل آخر (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) والشكلان مقصودهما واحد،

وقد يتساءل المطلع على هذا الحديث، ما مغزاه، وما تأويله؟

كيف يعرف الإنسان نفسه لتكون معرفتها ضوءاً أو دليلاً على معرفة ربّه؟ وهل تتوقف معرفة الإنسان ربه على معرفته نفسه؟ أم هل يمكن لمن عرف نفسه أن يعرف ربه؟[1].

أسئلة كثيرة تحوم على ذهن المطلع وخاطره، والحديث الشريف -ولاشك- يحتاج إلى تعليل وكشف وايضاح، والى تفكير سليم وفهم وتمحيص، واطلاع على معلومات ومنقولات واسعة ومقارنة وعقل نير صاف.

ولهذا فنحن الآن نستضيف آراء الفلاسفة والعلماء من ماديين

---

(١) قال الإمام عليعليه السلام: خلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت الجواهر، وان اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد يشارك بها السبع الشداد، ويرى أفلاطون: أن الرياضة التي تمارسها النفس من أجل الوصول إلى الكمال أي الكمال الذي تسد به النقص الذي أصابها أثناء هبوطها، هذه الرياضة، هي في نفس الوقت مرتقى يؤدي إلى الحق والى الخير، لأن إسكانه الحقيقة من خصائص النفس الطاهرة، ومن رأي افلاطون في النفس: إنها قديمة كما أنها لا تنعدم لأن الله عز وجل علة وجودها، والمعلول لا ينعدم إلّا بانعدام علته، والله تعالى لا ينعدم فهي اذاً لا تنعدم، أما ارسطو، فإنه يرى النفس ليست بحجم وإنها لم تتصل بالبدن اتصال انطباع فيه ولا حلول، بل اتصال تدبير وتصرف، وإنها حدثت مع حدوث البدن لا قبله، وإنها باقية بعد مفارقة البدن، فهي -في رأيه- على هذا الأساس -أبدية-، وليست أزلية بعكس ما يراه افلاطون، من أنها ازلية ابدية، وعنده أن النفس صورة الجسم الحي وأنها مجموع وظائفه الحيوية من حس وحركة ونمو وتفكير، ومعنى انطباع النفس في الجسم هو أن تصبح صورة له، أمّا الحلول فهو تداخل الكائنين مع احتفاظ كل بخواصه والمقصود أنها اتصلت بالبدن بقصد الارشاد والتوجيه، لأنها عنده هي مجموعة القوى الوظيفية للجسم.

وإلهيين، قدماء ومحدثين ونطلع على منقولاتهم وتعليلاتهم ومعقولاتهم العلمية والفلسفية التي بحثت موضوع النفس بحثاً دقيقاً مستفيضاً صدقه العقل وآزره النقل الصحيح.

وبعدئذٍ: علنا نستطيع - عن هذه الطريق- الوصول إلى مفهوم يعطينا ضوءاً لمعرفتها ثم نستشف به ما وراء ذلك الحديث الشريف من معنى.

ومن هنا نبدأ، قال ابن سينا: إن النفس ذات واحدة، ولكنها منقسمة على نحو ما، ويظهر ذلك بتعدد وظائفها في الجسد، وتظهر بثلاث قوى (النباتية، الحيوانية، الناطقة).

فالنباتية تظهر غازية ومنمية ومولدة والحيوانية، محركة وحركتها قسمان: باعثة وفاعلة ومدركة وادراكها قسمان: من الداخل ومن الخارج.

والناطقة هي عالمة وعاملة، فالعاملة تحرك البدن نحو الأعمال التي فيها خير الإنسان، والعالمة: تدرك الكليات وتنظر إلى الأعلى.

فالنفس عند ابن سينا، كما عند أرسطو قوى تتفاوت من النفس النباتية التي تقوم بالتغذية والنمو والتوالد، إلى النفس الحيوانية التي تقوم بهذه وبالإرادة معها إلى النفس الإنسانية، وهي النفس الناطقة، ولها مشاعر ظاهرة كالبصر والسمع والذوق والشم واللمس، وهذه الحواس هي التي تنقل إلى النفس صور الأشياء الخارجية.

والإنسان والحيوان يدركان الجزئيات بالحواس، ولكن الإنسان وحده هو الذي يدرك الكليات بالنفس الناطقة بغير حاجة إلى الجسد والأعضاء.

فالنفس الإنسانية لها قوتان: عاملة تدبر البدن، وعاقلة، ولها مراتب وأولها كونها مستعدة لقبول الصور العقلية، وهذه المرتبة مسماة بالعقل

(الهيولاني)، وثانيها: أن تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية، وهي العقل (بالملكة).

ولهذا فنحن الآن نستضيف آراء الفلاسفة والعلماء من ماديين وإلهيين، قدماء ومحدثين، ونطلع على منقولاتهم وتعليلاتهم ومعقولاتهم العلمية والفلسفية التي بحثت موضوع النفس بحثاً دقيقاً مستفيضاً صدقه العقل وآزره النقل الصحيح.

وبعدئذٍ: علنا نستطيع - عن هذا الطريق- الوصول إلى مفهوم يعطينا ضوءاً لمعرفتها ثم نستشف به ما وراء ذلك الحديث الشريف من معنى.

ومن هنا نبدأ - قال ابن سينا: إن النفس ذات واحدة، ولكنها منقسمة على نحو ما، ويظهر ذلك بتعدد وظائفها في الجسد، وتظهر بثلاث قوى (النباتية، الحيوانية، الناطقة).

فالنباتية تظهر غازية ومنمية ومولدة، والحيوانية: محركة وحركتها قسمان باعثة وفاعلة ومدركة وإدراكها قسمان: من الداخل ومن الخارج.

والناطقة: هي عالمة وعاملة، فالعاملة تحرك البدن نحو الأعمال التي فيها خير الإنسان، والعالمة: تدرك الكليات وتنظر إلى الأعلى...

فالنفس عند ابن سينا، كما عند أرسطو قوى تتفاوت من النفس النباتية التي تقوم بالتغذية والنمو والتوالد، إلى النفس الحيوانية التي تقوم بهذه وبالارادة معها إلى النفس الإنسانية، وهي النفس الناطقة، ولها مشاعر ظاهرة كالبصر والسمع والذوق والشم واللمس، وهذه الحواس هي التي تنقل إلى النفس صور الأشياء الخارجية.

والإنسان والحيوان يدركان الجزئيات بالحواس، ولكن الإنسان وحده هو الذي يدرك الكليات بالنفس الناطقة بغير حاجة إلى الجسد والأعضاء.

فالنفس الإنسانية لها قوتان: عاملة تدبر البدن وعاقلة، ولها مراتب، وأولها كونها مستعدة لقبول الصور العقلية، وهذه المرتبة مسماة بالعقل الهيولاني، وثانيها: إن تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية، وهي العقل (بالملكة).

وثالثها: أن يحصل الانتقال من تلك المبادىء إلى المطالب الفكرية البرهانية إلاّ أن تلك الصور لا تكون حاضرة بالفعل، بل تكون بحيث إذا شاء الإنسان أن يستحضرها فعل ذلك، وهذه هي مرتبة العقل بالفعل.

ورابعها: أن تكون الصورة العقلية حاضرة بالفعل ينظر اليها صاحبها، وهي المسماة بالعقل المستفاد.

والعقل بالفعل يتجه إلى العقل متى شاء، أما الاتصال التام بالعقل الفعال، وهو عقل النفس (القدسية) التي ترتقي إلى منزلة العارفين والصديقين[1].

والنفس عند ابن سينا ليست متحيزة ولا حالة في المتحيز، لأنها لا تنقسم بانقسام الجسم، ولا تتوقف عليه، فالمشار بقولي (أنا) باق في أحوال الجسد كلها سواء في نموها أو ذبولها[2]، وقد يكون الإنسان مدركاً للمشار اليه بقولي (انا) حالماً يكون غافلاً عن جميع أعضائه، فابن سينا في إثبات وجود النفس على هذه الصورة سابق للفيلسوف الفرنسي (ديكارت) الذي يبطل الشك في الوجود بقوله: أنا أفكر، اذاً أنا موجود، ويعتبر هذه الحقيقة أولى الحقائق الغنية عن الاثبات.

وهو سابق له بالقول: بأن الإيجاد فيض دائم من قدرة الله، فلا تدوم

---

(١) يتفق ابن سينا والفارابي بالكثير من فلسفة العقل والنفس، وهكذا ترى الفيلسوفين يقولان: بالعقل المستفاد وبالعقل الهيولاني، وبالعقل بالفعل الذي يتلقى معارفه من العقل الفعال.
(٢) الضمير في نموها وذبولها راجع إلى احوال الجسد، فتأمل.

للموجود صفة الوجود بمجرد إيجاده بل يكسبها على التجدد وعلى الدّوام، ويرى أن نفس الإنسان تصدر عن العقل الفعال، وتدخل في الجنين عندما يتهيأ الجسد لقبولها، وإنها تعود اليه بعد مبارحة الجسد متى بلغت مرتبة النفس القدسية من طريق الدراسة والرياضة.

ولا تزال النفوس تخلق من العقل الفعال وتعود اليه[١] بغير انتهاء، لأن عدم التناهي غير ممتنع عنه في المجردات التي لا تتحيز، وليست بذات وضع في المكان.

ويقول في رسالة (المعاد): إن مجيئنا إلى هذا العالم لم يكن باختيارنا وإرادتنا، ولكن جئنا، وبالقهر نمكث، وبالقهر نخرج، وإنما جئنا للتمحيص والتطهير[٢] ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

وعنده: أن طهارة النفس تكون بالأعمال الشرعية، وبالعلوم الإلهية كما أن طهارة الجسد من النجاسة، إنما تكون بالماء والتراب.

فالنفس فيض عن العقل الفعال حسب الاستعدادات التي تحصل من الامتزاجات بين العناصر والأجسام فكلّما ما حصل استعداد فاضت عليه نفسه هابطة من أعلى من عالمها الأول، ويرمز لها بالحماقة فيقول:

---

(١) عله يعني (بلفظة) تخلق من العقل الفعال وتعود اليه، فيض النفس عن هذه الرتبة وهو ممن يقول بالفيض - كما رأيت - وسبق قولنا: إن بعض العلماء والفلاسفة يقولون: بأن الجنين قد تربيه مدة الحمل نفس كافرة، وبعد الولادة تلبسه الروح المؤمنة، والقائلون بهذا القول أصحاب مذهب التناسخ.

(٢) اكثر الفلاسفة المتصوفين يقولون بهبوط النفس. كما يقول ابن سينا ومن هؤلاء الفيلسوف احمد ابن جابر الغساني في مسائله المخطوطة، تمشياً مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾... الخ ولا تنس أن ابن سينا لم يكن يقول بقدم النفس على البدن، ولا يمكن أن توجد قبل وجوده، فكلما حصل استعداد فاضت عليه نفس هابطة من أعلى، ويقصد بذلك أن النفس لا تستقل عن العقل الفعال قبل وجود البدن لها، فتأمل.

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

والجميل البديع قوله:

هذب النفس بالعلوم لترقى وترى الكل فهو للكل بيت

إنما النفس كالزجاجة والعقل سراج وحكمة الله زيت، فإذا أشرقت فإنك حي وإذا أظلمت فإنك ميت، فقد جعل النفس كالزجاجة القابلة لنفوذ النور عنها، يخترقها النور فتعكسه حولها، وجعل العقل الذي ينيرها فتشرق به كالسراج والسراج لا يشتعل بدون مادة الزيت، فجعل حكمة الله هي في خلقها كالزيت لهذا السراج الذي استعاره ورمز به عن العقل، فالزيت هو المنبع ومنه المدد لإشراق العقل الذي مثله بالسراج على الزجاجة التي هي بمثابة النفس -الروح المضيئة بتعقلها وصلاحها وبما استمدته وأفاضته.

وهذا كله على سبيل الطريقة الصوفية والإشارة والتورية والاستعارة، ومن الاستعارات الصوفية وإشاراتهم الرائعة قول الفيلسوف الصوفي حسن ابن مكزون السنجاري في ديوانه:

النفس في العقل إذ تصفو لرؤيته له مثال جليل فاعقل المثلا

كالعين تنظر في المرآة صورتها وما استحالا حالا ولا انتقلا[1]

فقد استعار هذا الشاعر الفيلسوف: العين للنفس، والمرآة للعقل، فالعين ترى صورتها في المرآة، والنفس إذا صفت ترى صورتها في العقل المشرق عليها من جهة، والمشرقة هي من جهة وكل واحد منهما غير الآخر، كما أنّ العين غير المرآة، ولا تنس أن النفس عندهم مفاضة عن العقل.

---

(١) ديوان الشاعر الصوفي الكبير الحسن بن مكزون السنجاري، مخطوط، وقد قدم كثيراً من شعره للأستاذ حمد حسن في ترجمة (حياته) أي المكزون.

أما الفارابي -وكما رأينا سابقاً- فقد يرفض انتقال النفس من جسم إلى جسم، فهي تفيض من العقل الفعال، وقت ما يتم حدوث الاستعداد في الجسم ويفهم من قوله: أنها غير سابقة على وجود الجسم، فلا يجوز وجود النفس في البدن، فرأي الفارابي كرأي ابن سينا في وجود النفس وفيضها عن العقل الفعال وهبوطها ووجودها مع وجود البدن، مع العلم أن الكثير من الفلاسفة يخالفونهما في هذا الرأي ويقولون: بوجود النفس وقدمها قبل البدن[1]، وقد مرّ معنا في نظرية التناسخ: أن الفارابي مضطرب في مصير النفس فليراجع هناك، غير أن ابن سينا يخلص إلى القول بدخول النفس الجسد مكرهة، كما أنها مكرهة على فراقه ولا حرية لها بذلك، ولم تخلق العوائق التي تصدّها عن التّرقي في معارج الكمال ولا شك بالتفاوت في مقادير النفوس.

ولم ينته ابن سينا في رأيه على الثواب والعقاب إلى نتيجة واضحة غير التسليم، فهو يؤمن بالعدل في نظام الوجود، وبالخير المحض من واجب الوجود، فلا يقع في هذه الدنيا ظلم ظاهر إلّا وكان له وجه باطن يبرره وفيه يتم العدل[2].

ومن يلمّ بكلام ابن سينا كله، ربما يبدو له أن هذا الفيلسوف بقي متردداً حول وجود الخير والشر، ولذلك لم يبق لديه غير التسليم لأنه يؤمن بالعدل الإلهي، وكان يعتقد أن التصرف بالأجرام الفلكية بالتّغيير عن مجاريها مستحيل، ولكنه كان يعتقد أن عقولها تؤثر فيما دونها من العقول، إلى العقل الفعال الذي يسيطر على العالم وما تحت فلك القمر من الموجودات.

---

(١) القول بأن النفوس ليست بأقدم من الأبدان: قول منبوذ عند كثير من العلماء والفلاسفة ولا يجوز الأخذ به ما دام المأثور يقول الأرواح قبل الأشباح والنفوس قبل الأبدان.. الخ معصوم.

(٢) قال الرسولﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل، وقال الشاعر: قلوب المؤمنين لها عيون... الخ.

واعتقاده في العالم الأرضي: أنه عالم الفساد، وعالم الامكان، وأنه هو العالم الذي يجوز فيه التغيير والانحراف، وأنّ المرجع في ذلك إلى العقل الذي يسبغ الصور على الهيولى، ويعطيها بذلك الوجود فتخرج من القوة إلى الفعل وتعلو صعداً، وتهبط سفلاً على حسب ما يعتريها من غلبة العقل أو غلبة المادة أو الهيولى.

وكما مرّ معنا: إن العقل المستفاد في الإنسان على صلة تامة بالعقل الفعّال، فهو يملك من القدرة على إصباغ الصور وخلعها، وتحويل الموجودات من صورة إلى صورة، مثل ما يملكه العقل الفعّال، ويرى ابن سينا: أن النفوس تؤثر في أجسادنا وهي غير متميزة فيها، ولا تنقسم بانقسامها.

فعنده: أن عقل الإنسان إذا ترقى في مراتب الكمال والصفاء بلغ مرتبة العقل المستفاد وهو على اتصال دائم مع العقل الفعال، ومن هنا فلا جرم إذا كان يعلم الأمور قبل وقوعها ويكون له سلطان على إيجادها وإخراجها من القوة إلى الفعل.

يقول الدكتور العقاد: ليس اعتقاد ابن سينا هذا غريباً أو من قبيل التصديق الذي لا يليق بالمفكرين وإنما هو قضية منطقية تنتهي إلى هذه النتيجة عن طريق الفلسفة لا عن طريق التصديق.

فقد يتصل الإنسان بالعقل الفعال من طريقين في رأي ابن سينا لا من طريق واحد يتصل به عن طريق التأمل الصادق والفكر الصحيح، ويتصل به من طريق النسك والرياضة الروحية، والطريق الأول طريق الفلاسفة والحكماء، والطريق الثانية هي طريق النّساك والصالحين.

وكان يقال: إن ابن سينا كان يكثر من الدعاء والتوسل في صلواته وغيرها، وإذا كان ابن سينا يقول بالنفس الفردية وبقائها بعد فراقها الجسد

على نحو ما كان يقول الفارابي فهما على خلاف أتباع (أرسطو) الذين لا يعرفون للنفس الإنسانية وجوداً مستقلاً بعد الحياة ولا بعثاً بعد الموت إلاّ للنفس الإنسانية التي لها استعداد للخطاب.

أما النفوس التي ملكتها القوة الغضبية والقوة الشهوانية، فحكمها حكم الحيوان، ومن عدم فيضه فلا بعث له بعد الموت، فإذا مات فكينونته قد ماتت وسعادته انتهت، وثوابه في العالم الأول حصول آماله وأمانيه ولا ثواب له في العالم الأعلى[١].

أما أفلاطون: فرأيه في النفس: أنها وجدت في عالم العقل أو المعنى، أو في عالم (الصحائح والمثل) فهي تعرف الحقائق بالتذكر ولا يحجبها عنها إلّا حجاب الجسد المركب، وضلال الحس والشهوة، وهي خالدة لا تموت لأنها جوهر بسيط لا يتحلل كما يتحلل الجسد المركب، ولكنها تلابس المادة في حياتها الجسدية ثم تفارقها إلى عليين لتعيش بين الأرباب والملائكة والأرواح.

ومصيرها مقدور بمصير المادة التي تلابسها، وسبق أن سجلنا نظرية افلاطون في بحث نظرية التناسخ، ولكن يظهر من كلامه عن النفس أنها طراز ثالث من الموجودات بين طراز الموجودات المعقولة، والموجودات المحسوسة، لأنها تشترك مع كليهما في حياتها الجسدية، فتعقل الأمور، ثم تعمل مع الجسم في أداء الوظائف الحيوية كالخوالج والأحاسيس الرفيعة والشهوات الجثمانية، ويجعل لهذه الوظائف المختلفة أماكن مختلفة من بنية الإنسان.

---

(١) يختلف أتباع ارسطو هؤلاء مع جميع القائلين بالبعث والحشر للحساب، مع أن هذا الرأي يعطي مدلولاً عقلياً قوياً على أن يكون جزاء هذه النفوس التي ملكتها القوة الغضبية والقوة الشهوانية ثوابها على أعمالها في الدنيا، فثوابها حصولها على رغباتها وأمانيها وشهواتها، وعقابها وجزاؤها بلبسها خاءات التناسخ (عند آخرين) فتعتبر ميتة بفقدها السعادة والفيض، ويعتبر تناسخها عقاباً لها وخلوداً وعذاباً بهذه الأجسام والقوالب.

فالنفس العاقلة في الدماغ، والنفس الحاسة، والنفس المشتهية في الأحشاء، ولا يفهم من هذا: أن النفوس نفوس ثلاث أو أنها منقسمة إلى عناصر ثلاثة، وإنما يستخلص منه: أنّ النفس لا تعمل في عالم المعقولات كما تعمل في عالم المحسوسات، لأنها تلتقي في بعضها بقيود لا تلتقي بها في بعضها الآخر، فهو اختلاف في القدرة على التجرد بغير عائق، أو بعائق كبير أو صغير.

وكان التفسير الأفلاطوني يقول: إن العلاقة بين الروح والجسد كعلاقة قائد عربة يسوقها، فالقائد هو الروح والعربة بمثابة الجسم، وذكر سابقاً.

ولكن ديكارت جاء بنظرية الموازنة بين الروح والجسد، وأنّ كل حادث يقع في أحدهما يصاحبه حادث يقع في الآخر، وهذا مرده إلى العناية الإلهية.

وجاء بعد هؤلاء من قال: إن في الطبيعة حركة جوهرية وهي الجسر بين المادة والروح، فالحركة تتكامل في وجودها، وتستمر في تكاملها حتى تتجرد عن ماديتها ضمن شروط معينة، وتصبح أخيراً كائناً روحياً، وهذا لا يعني أن الروح نتاج للمادة وأثر من آثارها، بل هي نتاج للحركة الجوهرية التي تقوم بها المادة، لأن كل حركة خروج للشيء من القوة إلى الفعل تدريجياً[1]، وهذا القول يعني: أن النفس لم تكن مستقلة، أو أنها

(١) قالوا: الحركة الجوهرية لا تنبع من نفس المادة، فالحركة الجوهرية سببها خارج نطاق المادة المتحركة، والروح التي هي الجانب غير المادي من الإنسان نتيجة لهذه الحركة، والحركة نفسها هي الجسر بين المادية والروحية، وهذه فلسفة جديدة، بل هي رأي جديد، قلما يؤمن به الإلهيون الآخرون، إلّا إذا كان تأويلها بأن الكائنات كلها مادية ومعنوية، تقوم بالله وهناك يصبح هذا مقبولاً على معنى قيام الكائنات بالخيط القيومي، السر الساري - الحركة الجوهرية، فتبصر.

هبطت من أعلى كما عرّفتها الافلاطونية وفلاسفة الروح الصوفيون قديماً أو حديثاً.

وأكثر الفلاسفة وصفوا النفس بأنها لا خارجة عن الجسد ولا داخلة ولا متصلة ولا منفصلة لأنها لو كانت خارجة عن الجسد لم يكن فرق بين الموت والحياة، ولو كانت داخلة بطلت الجوارح الظاهرة، ولو كانت متصلة لنقص منها جزء إذا نقص من الجسم عضو، ولو كانت منفصلة لم يكن زيدٌ أحق بها من عمر، لذلك يضربها بعضهم مثلاً لوجود الباري تعالى في الكون إثباتاً للتجلي مع التنزيه عن الحصر، ويقول الفيلسوف ابن مكزون السنجاري حجته الدامغة:

لو كانت النفس بالآلات مدركة ... لم تلق في نومها نعمى ولا بؤسا
ولا رأت مقتضى الرؤيا بيقظتها ... من بعد ما كان بالإمكان محسوسا

ومعناه: لو كانت الروح متعلقة (أو فاعلة) بالآلات اقتضى أن لا ترى في النوم راحة ولا عناء لإبطال الآلات حينئذٍ، ووجه آخر، يعني لو كانت النفس مدركة بالآلات لم تلق هناء، ولا عناء في النوم ولا رأت مقتضى الرؤيا محسوساً بالوجدان من بعد ما كان في عالم الإمكان، فكثير من الرؤيا يأتي تعبيرها مطابقاً لها فيكون للنفس إمداد من عالم الغيب لا من الآلات.

وهذا الوجه يقتضي أن تكون مدركة بصيغة الفاعل لا بصيغة المفعول، والبيت تكملة لسابقة.

يقول العلامة الشيخ سليمان الأحمد بعد شرح هذين البيتين، وهذا غاية ما وصل اليه الباحثون من الفلاسفة الروحيين في إثبات وجود النفس إلى وقتنا هذا لم يزيدوا على ما أتى به هذا الفيلسوف في مباحثاتهم مع الماديين[1].

---

(١) ديوان المكزون السنجاري مخطوط، شرح العلامة الشيخ سليمان الأحمد.

ولا ننسى، ونحن مع الفلاسفة في معرفة النفس، فيلسوفاً بحث موضوع النفس بإمعان وهو الفيلسوف الإلهي أفلوطين[1]، لنستمع له فنراه يقول: النفس في المرتبة الثالثة وهي تتجه إلى العقل فتنسجم معه في مقام التجريد والتنزيه، وتتجه إلى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه، ولهذا فهي تضفي على الاجسام الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهي في عالم القدرة الكاملة وعالم الصور المجردة[2]. فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزهما النفس في عالم المحسوسات، أو هي كأطياف الحالم وهو يستعيد الرؤيا، ما كان يبصره بالعيان، وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات، فهي باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صافية، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية.

وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو، بل هي جوهر متصل عنه سابق له (كالمثل) الأفلاطونية فلا تقبل الفناء ولا يحصرها المكان والزمان. وهي تصدر عن النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية عن العقل الأول مستجيبة لطبيعة الإصدار في ذلك، وقد انتهى افلوطين بمعرفة النفس وفلسفتها بالدائرة التي دار عليها أفلاطون، فلنترك هذه الناحية من الفلسفة فقد أشبعت النفس درساً وعناية وتدقيقاً ونتجه ناحية لم نمر عليها إلّا من بعض الزوايا لنلمّ بها إلمام المستوضح والمسترشد ما لديها من قضايا النفس التي شغلت أفكار العلماء والفلاسفة منذ عرف الإنسان أن يبحث ويستنتج.

ألا وهي ناحية النص والأثر عن الكتاب والسنة والمعصوم ورأي بعض الفلاسفة الآخرين.

---

(١) يتفق أفلوطين مع أفلاطون في أكثر قضايا النفس.

(٢) يريد قبل هبوطها من عالمها الأول، إلى العالم المحسوس.

قال أحد العلماء: على ضوء التجربة والوجدان يصل الإنسان المتأمل إلى نتيجة حاسمة واضحة وهي: إن للإنسان جانبين: أحدهما مادي يتمثل في تركيبه العضوي، وآخر لا مادي، ومن البرهان العقلي والوجداني على ذلك: نرى أنه فرض على شخص أن يخطب في حفل عام أخذ العرق يتصبب منه، وإذا خيّل لشخص: أنه يرى شبحاً في الظلام اعترته قشعريرة، وهذا -ولاشك - أثر العقل والروح في الجسم(١).

ولهذا المعنى كان الفيلسوف (فيثاغورث) يقول: الجزء العامل في الإنسان هو الروح.

والروح المزمل في الإنسان بجسمه الأثيري، نفس، ونصيب النفس من الحياة: اعتقالها في الجسد، وترقيها التدريجي، وعودتها إلى النور(٢).

وقد أطلق على الروح اسم النفس لأنها أنفس ما في الإنسان وسميت

---

(١) مقدمة كتاب التنبيه للعلامة الشيخ أحمد حيدر.

(٢) رأي فلاسفة الإسلام في النفس يختلف عن غيرهم من الفلاسفة احياناً، يقول ابن رشد إن الكلام في أمر النفس غامض جداً، وإنما اختص الله به العلماء الراسخين في العلم لذلك قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، وابن رشد اعتبر النفس والروح كائناً واحداً، ولكن الخلط بين النفس والروح شائع لعدم تصور هذين الكائنين ومعرفة علاقة كل منهما بالآخر، مع أن القرآن الكريم فصل بينهما فصلاً حاسماً، فقد وردت آيات كثيرة في ذلك كقوله تعالى في سورة الذاريات ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، وفي سورة الروم ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ فحث الناس على البحث في أمر النفس ودراستها وتفسيرها مما يدل على أنها كائن يمكن الوصول إلى كنهه وحقيقته، أما الروح فقد منع القرآن البحث عنها وفيها ووقف الاجتهاد في تفسيرها، حيث يقول جل شأنه في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.. الخ.

ويقول المفسرون: إن الروح بمعنى الحياة هي من خصائص الله سبحانه وهو القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فقد استأثر سبحانه بعلمها، فهي اذاً أمر إلهي مستغلق على الناس فهمه، ولا سبيل للإنسان اذاً إلى إدراك كنهها وماهيتها، فليس يجوز بعد ذلك أن يخلط الباحث بين النفس والروح أو يعتبرهما كائناً واحداً. عن كتاب بين عالمين، للأستاذ مصطفى الكيك.

النفس من حيث صدور أفعالها أسماء أخرى وصفت ونعتت بها، فقد سميت (المسولة) و(الأمارة) و(اللوامة) و(المطمئنة)، وهي حقيقة واحدة، فالذي يصدر منها هو من أفعال قواها المزاجية واستعدادها، فإذا عصت واتبعت هواها وانغمست في الملذات والمشتهيات سميت (الأمارة) قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

وإذا خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وجاهدت هواها، وغالبت وغلبت سميت (اللوامة) قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾... الخ.

وان زينت للإنسان عمل الشر وجعلته لا يأتمر بوحي العقل سميت (المسولة) قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾... الخ.

أمّا إذا أذعنت لله واطمأنت بذكره، واستشرقت بوجود العقل فقد سميت (المطمئنة) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.. الخ.

وهذه الآية الأخيرة تعبر عن مصير النفس المؤمنة تعبيراً واضحاً لا يترك مجالاً للشك في مصيرها، فإذا كانت خيرة ترجع إلى النعيم الأبدي في عالمها الأول الذي هبطت منه، ويدل على هبوطها في هذه الآية لفظة (ارجعي) وهو دليل واضح ينصر القائلين بهبوط الأرواح.

وأما إذا كانت النفس شريرة وظلت على غفلتها وجهالتها وعنادها فتسلك في سلسلة التكرار كما جاء في القرآن الكريم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا وقد رأينا اختلاف العلماء والفلاسفة الإلهيين والمتشككين والماديين قديماً وحديثاً في موضوع وجود النفس وحقيقتها وبدايتها ونهايتها ومآلها متعدد الجوانب.

فمنهم من قال بقدمها، ومنهم من قال بحدوثها، ومنهم من قال حدثت مع حدوث البدن، ومنهم من قال: حدثت قبل حدوث البدن، ومنهم من قال: حدثت بعد حدوثه ومنهم من قال إنها معنوية التجريد هبطت من الأعلى للاختبار والتمحيص وعمارة البدن في الدنيا، وستعود بالتصفية إلى ما منه جاءت، ولكن بشرط أن تعمل للفضيلة ولا تقارف الرذيلة.

ومنهم من قال هبطت من الأعلى لتكمل بالمحسوس والمعقول ولتعرف العلة من المعلول وسترجع من حيث جاءت.

وذلك بعد التنقية.

ومنهم من قال هبطت للاختيار والامتحان، وبعملها يكون رقيها ودنوّها، ومنهم من قال: إذا هلك الجسم ترفع الروح إلى أعلى وتبقى في عالم البرزخ حتى يوم القيامة فتحاسب على أعمالها ومن هنالك تكون إما إلى جنة، وإما إلى نار حسب أعمالها عند تجسدها في دار الدنيا.

ومنهم من قال: أعطيت الاختيار والحرية فلها إحسانها وعليها إساءتها، ومنهم من قال لا حرية لها بل هي مجبرة على جميع أعمالها ونهايتها كما يريد الخالق.

ومنهم من قال نشأت وتنشأ مع المادة أو من المادة وستبقى معها ولا حساب ولا عقاب، ومنهم من قال: هبطت مكرهة، ومنهم. . . الخ فقد تعددت الأقوال ونجمل ما فصلوه فنقول: ها هو فيلسوفنا أبو العلاء يمر بفلسفته على الكثير من هذه الآراء والأقوال تعال معي لنسمع بعضها على لسانه قال:

ولـم نـحـلـل بـدنـيـانـا اخـتـيـاراً ... ولـكـن جـاء ذاك عـلـى اضـطـرار

وقال:

الـروح أرضـيـة فـي رأي طـائـفـة ... وعـنـد قـومٍ تُـرَقَّـى فـي الـسـمـاوات

وقال:

وجـسـمـي شـمـعـة والـنـفـس نـارٌ ... إذا حـان الـردى خـمـدت بـأُفِّ

وقال:

الروح تنأى فلا يدري بموضعها ... وفي التراب لعمري يرقد الجسد

وقال:

الـروح شيء لـطيف لـيس يـدركـه ... عقل ويسكن في جسم الفتى حرجا
قـالـت مـحـاضِـرُ يـبـقـى عـنـد جـثـتـه ... وقـال نـاس إذا حـان الـردى عـوجـا

وقال:

وروح الـفـتـى أشـبـهـت طـائـراً ... أطـيـر فـمـا عـاد لـمّـا نـفـر(١)

وقال:

أرواحـنـا مـعـنـا ولـيـس لـنـا بـهـا ... عـلـم فكيف إذا حـوتـهـا الأقـبـر(٢)

---

(١) اللزوميات، للمعري.

(٢) جاء في كتاب: الصوفية في نظر الإسلام للأستاذ سميح الزين ما يأتي: وأما ما يتعلق بالنفس الإنسانية، فالنفس هي غير الروح، وهما شيئان متغايران، لأن النفس هي التي بها العقل والتمييز، وأما الروح فهي التي بها التنفس والتحرك، ولذا نجد الآيات القرآنية عندما تتحدث عن النفس والروح تميز بوضوح بين خصائص لك منهما.

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾، وقال سبحانه: ﴿۞وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾.. .﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ الخ، وهكذا وفي هذا الموضوع الفارق بين الروح والنفس يقول ابن عباس: يوجد في بني آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها التنفس والتحرك، فإذا نام الإنسان قبض الله سبحانه نفسه ولم يقبض روحه وإذا مات قبض الله سبحانه نفسه وروحه، وهذا ما نقل عن

الى الكثير من هذه المغالطات والمتناقضات التي أتى بها من آراء وأقوال الفلاسفة الذين سبقوه.

ولكننا لا نأخذ إلّا فيما جاءت به الرسل ودلت عليه كتبها السماوية المقدسة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ثم آمن به العقل والفلسفة الإلهية والعلماء ذوو العقول الرصينة والقلوب النقية، على ضوء البصائر النيرة، ولم يتناقض مع رأي المعصوم من آل بيت الرسول عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وهنا، وبعدئذٍ: لا بدّ لنا من الرجوع إلى الحديث الشريف الذي بدأنا به الموضوع ومعناه وتأويله في مفهوم علماء الدين والفقه من أهل التوحيد بما نقلوه ودعوه وثبتوه من ثقاة وفلاسفة دعاة هداة وقال به أهل العصمة وهو ما نلخصه كما يأتي:

قالوا: إن الإنسان مكون على مثال جميع المكونات من العرش إلى الفرش، وتركيبه من نور ومادة، فالعقل والنفس نور، والجسم الطبيعي هو

الإمام جعفر الصادقعليه السلام عن أبيه الباقرعليه السلام عندما قال: ما من إنسان ينام إلّا وتعرج نفسه إلى سماء الله، وتبقى روحه في بدنه ويصير بينهما شعاع كشعاع الشمس، فإذا أذن الله بقبض الروح اجابت النفس، وإذا أذن الله ببقاء الروح رجعت النفس. ثم يقول المؤلف المذكور: وهذا القول من ابن عباس والامام الباقرعليه السلام.

جاء تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قلت: لعلّ هذه النفس هي النفس الأثيرية التي مرّ الكلام عليها، وهي -كما يقولون- الكائن الحي المدرك، وهي جوهر الإنسان وذاته الحقيقية، وهي المسؤولة عن كافة تصرفاته بحكم شمولها على قوى الإدراك الاختياري الواعي.

أما الهيكل الذي يغلفها وهو البدن، فإنما تقيم فيه لكي تستطيع الاتصال بالمستوى الفيزيقي لتؤدي الرسالة التي من أجلها منحت أسمى وأعظم ما في الكون من القوى وهو العقل، ويقرر القرآن مسؤوليتها بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

لذلك فقد وصل العلم الحديث إلى القول بأن الإنسان ثنائي الجسد، فهو يعيش حياته في العالمين بجسدين متداخلين أحدهما ترابي يحيا به على الأرض، والثاني برزخي سماوي يحيا به في العالم الآخر وهو صورة طبق الأصل عن البدن وهو النفس البرزخية التي تحاسب.

المادة، فالعقل من فيوضات العقل الكلي الذي هو أول المخلوقات إبداعاً[1].

أما النفس فهي من فيوضات النفس الكلية -المفاضة عن العقل الكلي- الذي لم يزل يفيض عليها من إشراقه وفيضه، ولهذا أشار الإمام علي عليه السلام مخاطباً الإنسان:

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو يخاطب الإنسان المستخلف بأن فيه العقل والنفس الجوهرين اللذين هما من أصل واحد - العالم العلوي، وعليه قول الفيلسوف المكزون السنجاري بقوله:

وخارج العالم في داخلي ... وقدرة القادر في معجز[2]

وقال هؤلاء العلماء: إن الله سبحانه أبدع الملائكة من عالم النور عقلاً بلا شهوة، وخلق الحيوان من عالم الظلمة شهوة بلا عقل، فلم يكن عالم الملائكة يصلحون للحرث والنسل وعمارة هذه الدار، ولم يكن عالم الحيوان يصلحون لمعرفة الله سبحانه.

لذلك خلق الله تعالى الإنسان - عالم المزاج- بين العالمين - عالم الملائكة وعالم الظلمة، وفيه من مجموع العالمين، فهو يعرف الله بنوره - عقله - الذي يشابه الملائكة، كما أنه يصلح للحرث والنسل، بما فيه من عالم الظلمة -المادة.

إذاً فهو صالح لعمارة الدارين.

ومن هنا يتوضح لنا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من عرف نفسه فقد عرف ربه،

---

(١) عند أكثر الفلاسفة الإلهيين: ترتيب التكوين يبتدىء بالعقل الأول ويسمى (العقل الكلي) كما رأيت، وعنه صدرت النفس الكلية التي عنها صدرت النفوس الجزئية الفردية المتفرقة في العالم، والنفس الكلية عند بعضهم هي العقل الفعال.

(٢) ديوان المكزون.

ذلك بمعرفته نفسه وأصلها وكيانها ووجودها ومصيرها مستدلاً بنور العقل الذي أرق عليها، فعرف قدرة الله في الإبداع والخلق، وكيف تسلسل التكوين، بالإفاضة، ولكل معلول علة، ولكل مسبب سبب، وعرف أيضاً: أن فيه من عالم النور الذي به يعرف الله فيتعبده، وفيه من عالم الظلمة الذي يجب أن يخشاه فلا يقع في حبائله وأباطيله، فهو يتجه بنوريته إلى الله ويدبر عن ماديته وبشريته، والى هنا، فحسبنا: أن نعلم مما مر معنا: أن أكثر الفلاسفة والعلماء الربانيين أوضحوا باطمئنان وتدقيق معتقدين هبوط النفس من أعلى، وقد سكنت هذه الأبدان ولبستها للاختيار والتمحيص وعمارة هذه الدار بأمر وحكمة تامة من بارئها[1].

وحسبنا أيضاً أننا علمنا: أن الإنسان مزيج من النور، وفيه من الظلمة، فالروح نور والعقل نور، والجسم مادي بحت، فالروح لا داخلة في الجسم تركيباً ولا خارجة كلياً، فلو كانت داخلة تركيباً كلياً، كانت إذا نقص من الجسم عضو نقصت الروح، ولو كانت خارجة خروجاً كلياً لم يكن فرق بين الموت والحياة.

ولكنها بامتزاجها واختلافها مع هذا الجسم المادي صار الجسم

---

(١) يقول الفيلسوف الرباني أحمد بن جابر الغساني: إن هذه النفوس غضب عليها بارئها بردّها عليه في الأظلة والأشباح يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.. الخ، الآية. فأهبطها إلى دار الذل والهوان، وخلق من معصيتها حجاباً حجبها به وهو هذه الأبدان لتكمل في المحسوس والمعقول وتتضح لها العلة من المعلول، ولا ترجع إلى محلها النوراني من غير استكمالها بالعالم الإلهي والدين الرّباني، والطب الروحاني، والعلم الحديث -كما رأيت- يقول: إن الإنسان في حالة الوفاة بالنوم ينطلق من جسده الأرضي في رحلته الليلية ويكون مرتبطاً بهذا الجسد بشعاع روحاني حسب قول الإمام علي عليه السلام وهذا الشعاع يحفظ عليه حياته وفي هذه الحالة يكون غير قادر على القيام بأية حركة إرادية لأن قوى الإدراك وهي مصدر الإرادة تكون حينئذٍ كامنة في الجسد البرزخي، فإذا انتهت حياة الإنسان على الأرض، أرسلت ملائكة الموت لقطع هذا الارتباط فينفصل الإنسان عن جسد الأرض وتنقطع الحياة عن هذا الجسد، الذي مآله التراب، ويستندون إلى الآية القائلة: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

صالحاً للحياة، كما صار برزخاً بين عالمي النور والظلمة، وعليه فيكون السعيد السعيد من عرف نفسه ليعرف ربه، ويكون الشقي الشقي، من وعظ بغيره ولم يتعظ ثم جهل نفسه.

وما وعظ الله أحداً بنفسه قبل أن يعظه بغيره، والمواعظ كثيرة، ويأمره وينهاه، ويعلمه طريقي الخير والشر، طريق رشده وخيره، قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾.

وكم في القرآن الكريم من قصص وأخبار ومن ذكر الأمم السالفة التي جاء بها القرآن للوعظ والانذار، وناهيك بالحديث المأثور، وأخبار الحكماء والصالحين.

والإنسان واقع بين عالمي الجنة والشياطين من جهة، وعالم الملائكة من جهة ثانية، ولديه استعداد للتصرف في كلتا الجهتين عن طريق امتزاجه، وهو مختار لا مجبر، قال الرسول ﷺ: إن لكل إنسان شيطاناً يغويه وملكاً يزجره، فالملك يزجر والشيطان يغوي، والأسباب الداعية لغلبة الشيطان كثيرة كاختلاف الاستعدادات واختلاف الأغذية ومجالسة الأشرار، واختلاط الأبرار بالفجار.

وقد يتصرف الشيطان في أغلب الناس بشعور وبلا شعور منهم به مع وجود العقل والزاجر والعقل هو مناط الحكمة والتروي، وما أكثر متاع الحياة وغرورها وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور.

والإنسان فيها أكثر تعرضاً للأخطاء منه إلى الصواب، وما جعل الله سبحانه الحسنة تمحو عشر سيئات إلّا رأفة بالعبد وشفقة عليه، لأن الدنيا ومطامعها وزينتها وفتنتها وبهارجها داعية إلى اقتراف الذنوب واجتراح السيئات وهذا كله يأتي من الغرور الذي يسهله الشيطان للنفس فيجعلها تتناسى ماضيها وحاضرها وغدها ومصيرها وعلتها ومعلولها وحسابها.

وهنا يجب أن نعلم بأن الخالق سبحانه: ترك للشيطان قوة واستطاعة لأجل اختبار العبد وامتحانه[1] كما أنه سبحانه: يعطي العبد إما امتحاناً وإما استدراجاً، فالمؤمن يعطيه امتحاناً ويسلبه امتحاناً وابتلاءً وقصاصاً.

أما الكافر: فيعطيه ويسلبه استدراجاً وتنكيلاً، قال سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

وقال جل وعلا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾[3].

والمغرور يعتقد بنفسه الخير - يأتيه بذلك الجهل الذي هو نقيض العلم وعدم تعرض النفس لنفحات العقل التي تشرق عليها.

والجاهل إذا علم أنه جاهل فهو مريض وجدير به وقتئذٍ أن يستدرك ويطلب المعالجة فيحصل له البرء بالتوجيه والعلم، ويسمون هذا الجهل بالجهل البسيط.

أما الجاهل الذي يعتقد بنفسه العلم وهو في منأى عنه، ويرى بأنه طاهر وذكي، وهو بعيد عن الطهارة والذكاء (فجهله مركب) وهو الأحمق المغرور، ومن يكن من هذا الصنف[4]، وأعطي دنيا واسعة يتملكه الغرور فيقوده إلى الظن أن له كرامة عند الله - مع العلم- أن الله سبحانه: إذا أحبّ عبداً محبة الإكرام يزوي عنه الدنيا كما أنه عزّ وجلّ يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب امتحاناً واستدراجاً - كما قلنا سابقاً- ولكن لا يعطي

---

(١) في القرآن الكريم يقول ابليس وهو الشيطان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (سورة الأعراف).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٤

(٤) قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الزمر).

الآخر إلّا لمن يحب ويعمل لها -والفرق - كما ترى شاسع وبعيد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾[1].

فعلينا أن نتعرض لنفحات العقل وإشراقاته القدسية، وعلينا بالتأمل والتفكير والسير على ضوء هذه الإشراقات بالحكمة والوعي والتروي، كما علينا أن نبتعد عن التقليد الأعمى لنرى الحقائق أمام أبصارنا وبصائرنا، ونزيل عنها كل غشاء باطل لا يقبله العقل ولا يرضى به الوجدان والعلم واليقين حرصاً على أنفسنا، ووقاية لها من الهاوية والدنيا فانية، وما وراءها باق سرمداً.

هذا: ونكون قد وصلنا إلى معرفة الحديث الشريف معرفة يقينية، وطبقناه فعلاً وقولاً، ومعرفة، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[2]. وقانا الله وأعاذنا جميعاً من الغرور والجهل، ونهج بنا أوضح السبل وصلى على سيدنا محمد وآله الطاهرين إنه سميع مجيب.

ولعل القارىء الكريم الذي يطلع على هذا البحث وما قبله من البحوث السابقة من هذا الكتاب يستشف أحياناً أنني أعطيت بعض الأخبار أو الآراء ثقة أكبر من البعض الآخر فيظن أن ذلك أتى ميلاً أو تقليداً كما هو معروف عند كثير من المؤلفين، أو الذين يكتبون في مثل هذه المواضيع، ولكنني أقول للقارىء الكريم، وبكل صراحة صادقة، إني ما قلدت ولا أقلّد إلا على ضوء وحي من العقل وتمحيص في الفكر وتدقيق وتأمل، وليكن واثقاً.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

وله بعدئذٍ أن يأخذ فيما يراه بعد المقارنة والتأمل والتحقيق، وبدون أية مراعاة الرأي لا ينطبق مع العقل السليم والبصيرة النيرة والوجدان والضمير.

وقد لا أنكر أن التقاليد الدينية لها سيطرة كبرى على الذهن والشعور والميول إذا لم يحكم عقله، وقد طاردت التقاليد وتطارد-لحد الآن- كل محاولة اصلاحية سليمة، وجاء الإسلام لمحاربة التقاليد، وحورب بها فكان يحتج أصحابها على الرسول، وهو يدعوهم إلى الله والى الإصلاح فيقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

وعليه فليعلم القارىء الكريم: أنني لا أؤمن إلّا فيما جاء به القرآن الكريم وسنة الرسولﷺ المتواترة صحة عن ثقاة صادقين وجاء بصحته عن المعصوم من آل بيت النبوة الكرام الذين أوصى الرسول بالتمسك بهم وبقولهم، إذ قالﷺ:

إني تارك فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي آل بيتي، فلن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

وبعد معرفة صدق الحديث وتواتره وبرهانه وعرضه على الكتاب وعلى العقل وتدقيقه يجب الإيمان به إيماناً لا يشوبه التشكك أو التردد، كذلك من جاءت أقوالهم مطابقة للنص والمأثور المذكور، وجب الأخذ برأيهم وأقوالهم، وقد قيل:

الاتباع خير من الابتداع.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

وأخيراً أظنني ابتعدت في جميع ما كتبته عن التقليد، فلا لُبس ولا إيهام، بل فتحت الباب على مصراعيه،ليكون ما بالداخل واضحاً ومكشوفاً يستطيع الداخل أن يرى كلّ ما هنالك من متع وآثار وحطام، فيختار ما فيه النفع والحاجة والذخر، ويستبقي ما يراه ثقلاً لا نفع فيه، ولا خير، وقد يستطيع آنئذٍ التمييز بين ما يجدر له الحفظ وبين ما يكون أمري بالعفاء، يتناول ما يلزم، ويترك ما يهزم والله الهادي.

في ٦/ ٣/ ١٩٨١م.

المراجع والمصادر

* القرآن الكريم.
* نهج البلاغة للإمام علي شرح ابن أبي الحديد
* المراجعات، عبد الحسين شرف الدين الموسوي.
* صحيفة الأبرار، محمد تقي الدين الشيرازي.
* العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي.
* نور الأبصار، الشبلنجي الشافعي.
* فلسفتنا، الدكتور محمد باقر الصدر.
* ما بعد القمر، العلامة الشيخ أحمد حيدر.
* انسانيات محمد، خالد محمد خالد.
* مع الضمير الإنساني، خالد محمد خالد.
* كتاب الهبطة، العلامة الشيخ أحمد حيدر.
* بحار الأنوار، المجلسي.
* الملل والنحل، الشهرستاني.
* ضحى الإسلام، الدكتور أحمد أمين.
* العقل والدين، الدكتور حب الله.
* مواطنون لا رعايا، خالد محمد خالد.
* تجديد الفكر الديني، الدكتور محمد اقبال.
* المنقذ من الضلال، الغزالي، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود.
* تهافت الفلاسفة، أبو حامد الغزالي، الدكتور سليمان مرحبا.
* اليمين واليسار، الدكتور احمد عباس صالح.

* مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح.
* مذاهب ابتدعتها السياسة في الإسلام، الأستاذ عبد الواحد الأنصاري.
* المبادىء العامة في الفقه الجعفري، الاستاذ هاشم معروف.
* وقفة عند نظرية تناسخ الأرواح، العلامة محمد هادي معرفة.
* العلم الإلهي، محمد زكريا الرازي.
* جامع بيان العلم، ابن عبد البر.
* مجلة الهلال، الدكتور العقاد.
* آخر أيام سقراط، الدكتور احمد الشيباني.
* آينشتاين، النظرية النسبية، الدكتور عبد الرحمن مرحبا.
* نظام الكون مترجم، الفيلسوف الفرنسي لابلاس.
* منبعا الأخلاق والدين، الدكتور هنري برغسون.
* المكزون السنجاري، الاستاذ حامد حسن
* العلويات السبع، العلامة المتكلم عبد الحميد بن أبي العلاء المعري.
* اللزوميات، المعري.
* المدينة الفاضلة، الفارابي.
* أفلاطون والفارابي وأرسطو وافلوطين، الدكتور العقاد
* إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني.
* من هنا نبدأ، خالد محمد خالد.
* التصوف في الإسلام، سميح عاطف الزين.
* أضواء على السنة النبوية، الشيخ محمد عبده المصري.
* القضاء والقدر بين الفلسفة والدين، عبد الكريم الخطيب.
* الفلسفة والإخلاص عند ابن الخطيب.
* حياة الفكر في العالم الجديد، الفيلسوف الأمريكي تومس بين.
* أهداف الفلسفة الإسلامية، الكندي.

* تهافت الفلاسفة، ابن رشد.
* القرآن نظرة عصرية جديدة، محمد عمارة.
* المعتزلة والقرآن.
* التفسير، القيم وأهداف الفلسفة الإسلامية، ابن القيم.
* علي بن أبي طالب، نظرة عصرية جديدة، حسنين كروم.
* بين عالمين، عالم المادة وعالم الروح نظرة عصرية جديدة.
* المعتزلة والقرآن، محمد عمارة.
* مائة أوائل، الدكتور سهيل زكار، والمحامي غسان سبانو.
* قضاء الإمام علي، العلامة الشيخ محمد تقي التستري.
* كتاب الردود على الخوارج، المطران نعمة الله الماروني.
* تصنيف نهج البلاغة، الاستاذ لبيب وجيه بيضون.
* شيخ المضيرة أبو هريرة، الاستاذ محمود أبو رية.
* علي في القرآن، العلامة السيد صادق الشيرازي.
* في معجزات سيد المرسلين، النبهاني.
* موسوعة علمية، الدكتور أحمد زكي.
* مجلة الكفاح ٢٣ كانون الأول ٩٧٩، الحكيم الهندي رامانا مهارشي.

مراجع مخطوطة:

* تقويم الأسماء، جمال الدين بن معمار الصوفي.
* الأصيفر، أبو عبد الله محمد بن شعبة الحراني.
* التنبيه، أبو حمزة الشيرازي.
* اسئلة فلسفية، أحمد بن جابر الغساني.
* تزكية النفس، المكزون السنجاري.
* ديوان المكزون، الحسن بن مكزون السنجاري.
* الحقائق، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة الحراني.
* ديوان الشيخ، العلامة الرباني الحسين بن حمدان الخصيبي.

فهرس المحتويات

حلب

الشيخ أمين الحواط

فلسفة الغلوّ عند العلويين

هذا المؤلف الذي تصارع مع الكثيرين حتى وصل به الحال إلى الهرم فقرّر أن يصرّح بما اعتقده ورآه، وأن يدلّ على ما شغل باله وخاطره فتيقنه وآمن به ودافع عنه.

ولعلّ القارىء - غير العلوي الغالي - لا تروق له فكرة الغلوّ إطلاقاً، سيّما أنّ الغلوّ بالأئمة عليهم السلام لم يحظ بالتأييد حتى من الأئمة الذين نبذوا هذه الفكرة، فطرح الكاتب فكرة الغلو من منظورٍ فلسفي بحت، وله الحق بأبداء رأيه، وللآخرين الخيار بتقبله أو برفضه.

ولذا فمن الأفضل علينا أن نستمع إلى تبرير الشيخ أمين لمعتقده، وهو يدافعُ عنه بمنطق المهاجم الذي يدّعي التجرد عن كل شيء إلّا عن - الحقيقة - ليصل إلى مطلوبه، وقديماً قيل "كلٌ يغني على ليلاه".

أما القول بنجاح هذا الشيخ أو فشله في إثبات معتقده العلوي أو دفاعه عنه فهو أمرٌ يتعلق بالقارىء ويخصّه وحده، ولنْ أعكّر على القارىء هذه المتعة، ولكني اعتبرت أن قراءة الكتاب مرة واحدة لم تكفني عندما اطلعت عليه للمرة الأولى فأعدت قراءته حتى استطعت أن أصلَ إلى مرماه فوجدتهُ قد تجرد فعلاً حتى عن معتقده ليناقشه من بعيدٍ، والقلوب أقفال فمن فتح الله قلبه هيهات لأحدٍ إقفاله.

Designed by

ISBN 978-6-1442672-3-3

9 786144 267233

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستوريز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١٢
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com